الوَفيّة
أليجيانت
ALLEGIANT

دايفرجنت

الجزء الثالث من ثلاثية «الجامحة»

فيرونيكا روث

VERONICA ROTH

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الإهداء

إلى جو، الذي يرشدني ويدعمني.

كلّ سؤال له إجابة ينبغي الإجابة عليه أو على الأقل مناقشته.
ينبغي تحدّي العمليات الفكرية غير المنطقية عندما تطرح نفسها.
أمّا الإجابات الخاطئة فينبغي تصحيحها.
وأمّا الإجابات الصحيحة فينبغي تأكيدها.

- من بيان جماعة المعرفة

الفصل الأوّل

تريس

رحت أذرع زنزانتنا في مقرّ جماعة المعرفة ذهاباً وإياباً، بينما تردّد في ذهني صدى كلماتها: سيكون اسمي إديث برايور، ويسرّني نسيان الكثير.

سألتني كريستينا، التي رفعت ساقها المصابة على وسادة: "إذاً، لم يسبق لك رؤيتها أبداً؟ ولا حتّى في الصور؟" كانت قد أصيبت بالرصاص خلال محاولتنا اليائسة لكشف الفيديو الذي سجّلته إديث برايور لمدينتنا. لم نكن نملك أيّ فكرة في ذلك الوقت عن محتواه، ولم نعلم أنّه سيهدم الأسس التي نقف عليها، ويلغي جماعاتنا، وهوياتنا. "ليست جدّتك، أو عمّتك، أو شيء من هذا القبيل؟"

استدرت عندما بلغت الحائط. "قلت لك لا. برايور هي شهرة أبي، لذلك لا بدّ أن تكون من طرفه. لكنّ إديث هو اسم من الأسماء المألوفة في جماعة نكران الذات، وأقارب أبي كانوا بلا شكّ من جماعة المعرفة، لذلك..."

قالت كارا، التي أسندت رأسها إلى الحائط: "لا بدّ أنّها أكبر سنّاً إذاً". من هذه الزاوية، كانت تشبه أخيها تماماً، صديقي ويل، الذي أطلقتُ عليه النار. استقامت بعد ذلك، فاختفى شبحه. "ربّما عاشت قبل عدّة أجيال، أي أنّها من الأسلاف".

"الأسلاف". بدت الكلمة قديمة بالنسبة إليّ، مثل سطح متهاوٍ من القرميد. لمست جدار الزنزانة وأنا أستدير، وكان بارداً وأبيض اللون.

إنّها من أسلافي، وهذا هو الإرث الذي تركته لي: التحرّر من الجماعات، ومعرفة أنّ هويتي كجامحة هي أكثر أهمّية ممّا كنت أظنّ.

فوجودي هو دليل على أنّنا نحتاج إلى ترك هذه المدينة، وتقديم المساعدة لمن هم موجودون خارجها.

قالت كارا، وهي تمرّر يدها على وجهها: "أريد أن أعرف، بل أحتاج أن أعرف كم مضى علينا هنا. هلاّ كففتِ عن الحركة لدقيقة واحدة؟"

توقّفتُ في وسط الزنزانة، ونظرت إليها باستغراب.

تمتمَت: "أنا آسفة".

قالت كريستينا: "لا بأس. نحن هنا منذ وقت طويل جدّاً".

مضت أيّام منذ أن سيطرت إيفلين على الفوضى التي عمّت في ردهة مقرّ المعرفة ببضعة أوامر قصيرة، وأمرت باقتياد السجناء إلى زنزانات في الطابق الثالث. ثمّ أتت امرأة من المنبوذين للعناية بالجرحى وتوزيع مسكّنات الألم، كما تناولنا الطعام واغتسلنا عدّة مرّات. غير أنّ أحداً لم يخبرنا ماذا يجري في الخارج، على الرغم من إلحاحنا بالسؤال.

قلت وأنا أجلس على طرف سريري: "ظننت أنّ توبياس سيأتي، أين هو يا ترى؟"

قالت كارا: "ربّما ما زال غاضباً لأنّك كذبت عليه وتعاونت مع أبيه من وراء ظهره".

رمقتُها شزراً.

قالت كريستينا: "فور ليس سخيفاً إلى هذا الحدّ". لا أدري إن قالت ذلك لتأنيب كارا أم لطمأنتي. "لا بدّ أنّ شيئاً ما يشغله، فقد طلب منك أن تثقي به".

في خضمّ الفوضى، عندما كان الناس يصرخون والمنبوذون يحاولون دفعنا نحو السلّم، تمسّكتُ بطرف قميصه لكي لا أفقده. فأمسك بيديّ، ودفعني عنه قائلاً لي: ثقي بي، واذهبي معهم.

قلت: "أنا أحاول"، وكان هذا صحيحاً. فأنا أحاول الوثوق به، لكنّ كلّ جزء منّي، وكلّ خلية، وكلّ عصب، تتوق إلى التحرّر، ليس من هذه الزنزانة فحسب، بل من سجن المدينة بأكمله.

أريد أن أعرف ماذا يوجد خارج السياج.

الفصل الثاني

توبياس

لا يمكنني عبور هذه الأروقة من دون أن أتذكّر الأيّام التي أمضيتها سجيناً هنا، وتجوّلت حافياً، يصاحب الألمُ المبرح كلّ حركة من حركاتي. تقترن هذه الذكرى بذكرى انتظار بياتريس برايور الذاهبة إلى حتفها، وقبضتيّ اللتين تضربان الباب، وساقيها المتدلّيتين فوق ذراعيّ بيتر عندما أخبرني أنّها مخدّرة وحسب.

كم أبغض هذا المكان.

لم يعد نظيفاً بالقدر الذي كان عليه وهو مأهول من جماعة المعرفة. فقد خرّبته الحرب، وانتشرت الثقوب التي خلّفها الرصاص في الجدران، وملأ حطام الزجاج الأرض. مشيت إلى زنزانتها فوق آثار الأقدام القذرة، تحت ضوء المصابيح. سُمح لي بالدخول من دون اعتراض لأنّني أحمل شارةَ المنبوذين - وهي عبارة عن دائرة خالية - على شريط أسود حول ذراعي، وملامحَ إيفلين في وجهي. كان اسم توبياس إيتون محرجاً في الماضي، إلاّ أنّه أصبح اليوم اسماً نافذاً.

جلست تريس على الأرض، إلى جانب كريستينا، ومقابل كارا. ينبغي لحبيبتي تريس أن تبدو شاحبة وصغيرة، وقد كانت كذلك فعلاً، لكنّ الغرفة كانت تضجّ بها.

نظرت إليّ بيعينها المستديرتين، ثمّ نهضت، وأحاطت خصري بذراعيها، وأسندت وجهها إلى صدري.

ضغطتُ على كتفها بإحدى يديّ، ومرّرت الأخرى على شعرها الذي ما زال يفاجئني عندما ينتهي فوق عنقها وليس تحته. أعجبتني

تسريحتها الجديدة، لأنّها تليق بمحاربة وليس بفتاة، وأعرف أنّ هذا ما كانت تحتاج إليه.

قالت بصوت منخفض وصافٍ: "كيف دخلت؟"

أجبتها: "أنا توبياس إيتون"، فضحكَت.

"صحيح، فأنا أنسى دائماً". ابتعدت عنّي قليلاً لتنظر إليّ. ارتعشت نظراتها، كما لو كانت كومة من أوراق الشجر على وشك أن تبعثرها الرياح. "ماذا يجري؟ ما الذي أخّرك كلّ هذا الوقت؟"

بدت يائسة، ومتوسّلة. صحيح أنّ هذا المكان يحتوي على ذكريات فظيعة بالنسبة إليّ، إلاّ أنّه أكثر رعباً بالنسبة إليها: رحلتها إلى غرفة الإعدام، وخيانة شقيقها، ومصل الخوف. لذلك، عليّ إخراجها من هنا.

نظرت إلينا كارا باهتمام، فشعرتُ بعدم الارتياح، كما لو أنّ جلدي لم يعد يتّسع لي. أنا أكره نظرات الناس.

قلت: "لقد قامت إيفلين بإقفال المدينة، ولم يعد بإمكان أحد أن يخطو خطوة من دون إذنها. ألقت منذ بضعة أيّام خطاباً دعت فيه إلى التضامن ضدّ الناس الذين يضطهدوننا في الخارج".

تساءلت كريستينا: "يضطهدوننا؟" أخرجت قارورة من جيبها، وأفرغت محتوياتها في فمها. لا شكّ أنّها مسكّنات لألم ساقها.

دسستُ يديّ في جيوب سروالي وقلت: "تعتقد إيفلين، لا بل كثير من الناس في الواقع، أنّه لا يجدر بنا مغادرة المدينة لمساعدة عصبة من الناس الذين وضعونا هنا لاستخدامنا لاحقاً. يريدون أن يحاولوا حلّ مشاكل المدينة عوضاً عن مغادرتها لحلّ مشاكل أشخاص آخرين. هذا كلامهم، بالطبع. أظنّ في الواقع أنّ هذا الرأي مناسب جدّاً لوالدتي، لأنّنا بذلك نبقى تحت سيطرتها. لكن ما إن نرحل، حتّى تفقد زمام السيطرة".

نظرت تريس إلى الأعلى بسأم. "عظيم. ستختار بكلّ تأكيد الطريق الأكثر أنانية".

قالت كريستينا، التي ما زالت تمسك بالقارورة: "لديها وجهة نظر. أنا لا أقول إنّني لا أريد مغادرة المدينة لرؤية ما يجري هناك، لكن لدينا ما فيه الكفاية من الهموم هنا، فكيف لنا أن نساعد أشخاصاً لم يسبق أن التقينا بهم؟"

فكّرَت تريس بكلامها وهي تعضّ على خدّها، ثمّ أقرّت قائلة: "لا أدري".

كانت ساعة يدي تشير إلى الثالثة. إن أطلت البقاء هنا، سأثير شكوك إيفلين. فقد أخبرتها أنّني ذاهب للانفصال عن تريس، وأنّ ذلك لن يستغرق وقتاً، لكنّني لست واثقاً أنّها صدّقتني.

قلت لهنّ: "أصغين إليّ، لقد أتيت إلى هنا لتحذيركنّ، فهم على وشك البدء بمحاكمة كلّ السجناء. سيعطونكنّ مصل الحقيقة، وإن نجح الأمر، ستتمّ إدانتكنّ بالخيانة. وأعتقد أنّنا نودّ جميعنا تجنّب ذلك".

سألت تريس عابسة: "سيحكمون علينا بالخيانة؟ وهل يُعتبر كشف الحقيقة لمدينتنا خيانة؟"

أجبتها: "لقد كان تحدّياً لقادتنا. فإيفلين وأتباعها لا يريدون ترك المدينة، ولن يشكرونكم على عرض ذلك الشريط".

"هم لا يختلفون عن جانين بتاتاً!" لوّحت بقبضتها كأنّها تريد أن تلكم شيئاً. "إنّهم مستعدّون لفعل أيّ شيء من أجل إخفاء الحقيقة، ولماذا؟ ليكونوا ملوكاً على عالمهم الصغير. كم هذا سخيف".

لم أشأ قول ذلك، لكنّ جزءاً منّي يتّفق مع والدتي في الرأي. فأنا لا أريد أن أدين للناس الموجودين خارج هذه المدينة بأيّ شيء، سواء كنت

جامحاً أم لا. ولست واثقاً أنّني أريد أن أقدّم نفسي لهم كأداة لحلّ مشاكل البشرية، مهما يكن هذا العمل نبيلاً.

مع ذلك، أنا أرغب في الرحيل، مثل حيوان يائس يريد الفرار من فخّ علق فيه، مثل حيوان جامح ومسعور، مستعدّ لتمزيق سجنه.

قلت بحذر: "مهما يكن، إن أعطى مصل الحقيقة مفعوله عليك، ستتمّ إدانتك".

تساءلت كارا باستغراب: "إن أعطى مفعوله؟"

قالت لها تريس، مشيرة إلى رأسها: "أنا جامحة، هل تذكرين؟"

قالت كارا وهي تعيد خصلة شعر إلى عقدة فوق عنقها: "هذا مذهل، لكنّه غير مألوف. فبحسب خبرتي، يعجز معظم الجامحين عن مقاومة مصل الحقيقة. لذلك، أتعجّب كيف تقدرين على ذلك".

أجابتها تريس بنبرة لاذعة: "هذا حالك وحال كلّ عضو من أعضاء المعرفة الذين حقنوني بإبرة يوماً".

قلت: "هلاّ عدنا إلى صلب الموضوع؟ أودّ أن أتجنّب إخراجكنّ من السجن". شعرت فجأة بحاجة يائسة إلى المواساة، فمددت يدي إلى يد تريس، التي مدّت لي أصابعها. لم نكن أنا وهي من الأشخاص الذين يتلامسون بلا مبالاة، بل كلّ اتصال بيننا يبدو هامّاً، ويمنحنا الطاقة والراحة.

قالت بلطف هذه المرّة: "حسناً، حسناً. بماذا تفكّر؟"

"سأطلب من إيفلين أن تأخذ شهادتك أوّلاً. كلّ ما عليك فعله هو اختراع كذبة تُبرئ كريستينا وكارا، وقولها تحت مصل الحقيقة".

"وأيّ كذبة ستفعل ذلك؟"

أجبتها: "هذا الأمر سأتركه لك، فأنت أبرع منّي في الكذب".

عرفتُ وأنا أقول هذه الكلمات أنّها ستضرب على وتر حسّاس لدينا نحن الاثنين. فقد كذبَت عليّ مرّات عديدة. وعدَتني أنّها لن تسلّم نفسها إلى جماعة المعرفة عندما طلبت جانين التضحية بأحد الجامحين، غير أنّها فعلت. قالت لي إنّها ستبقى في البيت خلال الهجوم على المعرفة، ثمّ وجدتها في مقرّهم، تتعاون مع أبي. صحيح أنّني أفهم الأسباب التي دفعتها إلى ذلك، لكنّ هذا لا يعني أنّ علاقتنا لم تتصدّع بسبب ذلك.

نظرَت إلى الأسفل قائلة: "حسناً، سأفكّر بشيء ما".

وضعت يدي على ذراعها. "سأتحدّث مع إيفلين بشأن محاكمتك، وسأحاول أن أقرّب الموعد".

"شكراً لك".

أحسست بحاجة ملحّة، أصبحت مألوفة الآن، لأخرج من جسدي وأتحدّث مباشرة إلى عقلها. وأدركتُ أنّها الحاجة نفسها التي تجعلني أرغب في احتضانها كلّما رأيتها، لأنّ أقلّ مسافة تفصل بيننا تشعرني بالإحباط. تشابكت أصابعنا بقوّة، وكانت يدها رطبة، ويدي خشنة في الأماكن التي أمسكتُ فيها بمقتبض القطارات المتحرّكة. بدت الآن شاحبة وصغيرة، لكنّني رأيت في عينيها آفاقاً مفتوحة، لم يسبق لي أن رأيتها، بل حلمت بها وحسب.

قالت كريستينا: "إن كنتما ستتعانقان، أخبراني من فضلكما لكي أنظر بعيداً".

قالت تريس: "سنفعل"، وهذا ما حدث. فكّرت بشيء لقوله، لكنّه كان حميماً جدّاً، فالتزمتُ الصمت. لكن بعد قليل، لم أعد أكترث.

قلت وأنا أخرج من الزنزانة: "أتمنّى لو كنّا بمفردنا".

ابتسمت مجيبة: "هذا ما أتمنّاه دائماً".

بينما كنت أغلق الباب، رأيت كريستينا تتظاهر بالاشمئزاز، وكارا تضحك، ويديّ تريس متدلّيتين إلى جانبيها.

الفصل الثالث

تريس

"جميعكم أغبياء". وضعتُ يديّ في حضني مثل طفل نائم. كان جسدي ثقيلاً بفعل مصل الحقيقة، والعرق يتجمّع فوق أجفاني. "يجدر بكم أن تشكروني، لا أن تستجوبوني".

"نشكرك لأنّك خالفتِ تعليمات قادتك؟ نشكرك على محاولة منع واحدة من قادة جماعتك من قتل جانين ماثيوس؟ ما فعلته هو خيانة". لفظت إيفلين جونسون كلماتها مثل حية تنفث السمّ. كنّا في قاعة الاجتماعات في مقرّ المعرفة، التي تتمّ فيها المحاكمات. أنا سجينة هنا منذ أسبوع على الأقلّ.

رأيت توبياس شبه مختفٍ في الظلّ خلف أمّه. كان يتجنّب النظر إليّ منذ أن جلستُ على مقعدي، وقطعوا الأشرطة البلاستيكية التي تقيّد معصميّ معاً. التقت نظراتنا للحظة واحدة، وعرفت أنّ وقت الكذب قد حان.

كان الأمر أسهل الآن بعد أن أدركت أنّني قادرة عليه، تماماً كما لو كنت أزيح وزن مصل الحقيقة جانباً في عقلي.

قلت: "أنا لست خائنة، بل صدّقت في ذلك الوقت أنّ ماركوس يعمل بناءً على أوامر من الشجعان والمنبوذين. وبما أنّني لم أستطع المشاركة في المعركة كجندية، سررتُ بفرصة فعل شيء آخر".

"لماذا لم تستطيعي المشاركة كجندية؟" توهّج الضوء اللاصف خلف شعر إيفلين. لم أستطع رؤية وجهها، ولا التركيز على أيّ شيء لأكثر من ثانية واحدة قبل أن يهدّد مصل الحقيقة بالتغلّب على عقلي مجدّداً.

"لأنّني". عضضت على شفتي، كأنّني أحاول منع الكلمات من الانسكاب من فمي. لا أدري متى أصبحت بارعة في التمثيل، لكن أظنّ أنّه لا يختلف عن الكذب، الذي برعتُ فيه دائماً. "لأنّني لم أعد أستطيع حمل مسدّس، فهمتِ؟ ليس بعدما أطلقتُ النار... عليه، على صديقي ويل. منذ ذلك اليوم، لم أعد قادرة على حمل مسدّس من دون أن أصاب بالذعر".

ضاقت عينا إيفلين أكثر. حتّى أحنّ أجزائها لا يمكن أن تتعاطف معي على ما أظنّ.

"إذاً، أخبرك ماركوس أنّه يعمل بناءً على أوامري، وعلى الرغم من معرفتك بعلاقته المتوتّرة مع الشجعان والمنبوذين، صدّقته؟"

"أجل".

ضحكَت قائلة: "أفهم الآن لماذا لم تختاري جماعة المعرفة".

توتّرت عضلات وجهي. ووددت لو أستطيع صفعها، شأني شأن كثير من الأشخاص في هذه الغرفة بالتأكيد، مع أنّهم لا يجرؤون على الإقرار بذلك. فقد احتجزتنا إيفلين في المدينة، تحت حراسة المنبوذين المسلّحين الذين يتجوّلون في الشوارع. كانت تدرك أنّ من يملك السلاح يملك السلطة. وبعد موت جانين ماثيوس، لم يعد لديها منافس.

كان العالَم الذي نعرفه ينتقل من يد طاغية إلى يد طاغية آخر.

سألتني: "لماذ لم تخبري أحداً بذلك؟"

"لم أرغب في الاعتراف بضعفي، ولم أرغب أن يعرف فور أنّني أتعاون مع أبيه. فأنا واثقة أن هذا لن يعجبه". شعرت بكلمات جديدة ترتفع إلى حلقي، يحفزها مصل الحقيقة. "لقد كشفتُ لك حقيقة مدينتنا وسبب وجودنا فيها. فإن كنت لا تريدين شكري على ذلك، افعلي شيئاً

على الأقلّ عوضاً عن الجلوس هنا فوق هذه الفوضى التي تسببتِ بها، كما لو كانت عرشاً!"

التوت ابتسامة إيفلين الساخرة كمن تذوّق طعماً كريهاً. مالت إلى الأمام نحوي، فرأيت للمرّة الأولى مدى تقدّمها في السنّ. رأيت الخطوط التي تحيط بعينيها وفمها، وشحوب وجهها الناتج عن سنوات من سوء التغذية. مع ذلك، كانت جذّابة مثل ابنها. وسنوات المجاعة لم تسلبها ذلك.

قالت بصوت أكثر انخفاضاً، بالكاد سمعته: "إنّني أفعل شيئاً حيال ذلك، فأنا أصنع عالماً جديداً. لقد كنتُ من نكران الذات، وعرفت الحقيقة قبلك بكثير، بياتريس برايور. لا أدري كيف تنجين بفعلتك، لكنّني أعدك، لن يكون لك مكان في عالمي الجديد، لا سيّما مع ابني".

ابتسمتُ قليلاً. لم يكن يجدر بي ذلك، لكنّ التحكّم بالحركات والتعابير هو أصعب من التحكّم بالكلمات، مع هذا الوزن الذي يسري في عروقي. إنّها تظنّ أنّ توبياس ينتمي إليها الآن، لكنّها لا تعلم الحقيقة، وهي أنّه لا ينتمي سوى إلى نفسه.

استقامت إيفلين، وكتفت ذراعيها.

"لقد كشف مصل الحقيقة أنّك قد تكونين مغفّلة، لكنّك لست خائنة. انتهى الاستجواب، ويمكنك الخروج".

سألتها بكسل: "وماذا عن صديقتيّ، كريستينا وكارا. فهما لم تفعلا شيئاً خاطئاً هما أيضاً".

قالت إيفلين: "سنحقّق معهما قريباً".

وقفتُ، مع أنّني ما زلت أشعر بالضعف والدوار بسبب المصل. كانت الغرفة تغصّ بالناس، لذلك لم أتمكّن من إيجاد الباب لبضع ثوانٍ،

إلى أن أمسك أحدهم بذراعي، وكان شابّاً ذا بشرة سمراء دافئة وابتسامة عريضة؛ يوريا. قادني إلى الباب، وبدأ الجميع يتحدّثون.

* * *

رافقني يوريا عبر الممرّ إلى المصاعد. فُتح باب المصعد عندما لمس الزرّ، فتبعته من دون توازن. عندما أُغلق الباب، سألته: "هل تظنّ أنّ الجزء المتعلّق بالفوضى والعرش كان مبالغاً فيه؟"

"كلاّ، فهي تتوقّع أن تكوني عدائية. كانت ستشكّ لو كنتِ غير ذلك".

أحسست كأنّ جسدي بأكمله ينبض بالطاقة، استباقاً لما ينتظرني. لقد أصبحت حرّة، وسنجد طريقة للخروج من المدينة. لا مزيد من الانتظار وأنا أذرع أرض الزنزانة ذهاباً وإياباً، وأطلب أجوبة لن أحصل عليها من الحرّاس.

لقد أخبرني الحرّاس في الواقع بضعة أمور عن النظام الجديد هذا الصباح. إذ سيُطلب من أعضاء الجماعات السابقة الانتقال للسكن على مقربة من مقرّ المعرفة والاختلاط، شرط ألاّ يقطن في كلّ مسكن أكثر من أربعة أشخاص من جماعة معيّنة. علينا أن نخلط ملابسنا أيضاً. لذلك أعطوني قميصاً أصفر من قمصان الوئام وسروالاً أسود من سراويل النزاهة، تطبيقاً لذلك المرسوم تحديداً.

"حسناً، من هنا..." قادني يوريا إلى خارج المصعد. كان هذا الطابق من مقرّ المعرفة زجاجياً بأكمله، حتّى الجدران. انعكست أشعة الشمس من خلاله، وتلوّنت الأرض بألوان قوس قزح. حجبتُ الضوء عن عينيّ بيدي وتبعت يوريا إلى غرفة طويلة وضيّقة، توزّعت فيها الأسرّة من كلّ جانب. وبالقرب من كلّ سرير، كان ثمّة خزانة زجاجية للملابس والكتب، فضلاً عن طاولة صغيرة.

قال يوريا: "كانت هذه الغرفة عنبر نوم لأعضاء المعرفة. وقد حجزت أساساً سريرين لكريستينا وكارا".

جلسَت على سرير بجانب الباب ثلاث فتيات يرتدين قمصاناً حمراء، أظنّ أنهنّ ينتمين إلى الوئام، وفي الجانب الأيسر من الغرفة، تمدّدت امرأة أكبر سنّاً على أحد الأسرّة، وتدلّت نظارتها من إحدى أذنيها، ما يعني أنّها تنتمي إلى المعرفة على الأغلب. أعرف أنّه عليّ أن أحاول التوقّف عن تصنيف الناس في جماعات عندما أراهم، لكنّها عادة قديمة يصعب الإقلاع عنها. مكتبة الرمحي أحمد

تهاوى يوريا على أحد الأسرّة في زاوية في آخر الغرفة، فجلست بجانبه، وأحسست بالسعادة لأنّني حرّة ومرتاحة أخيراً.

قال يوريا: "يقول زيك إنّ الأمر يستغرق أحياناً بعض الوقت ليُصدر المنبوذون أحكام البراءة، لذلك أظنّ أنّهما ستخرجان لاحقاً".

شعرت للحظة بالارتياح لأنّ من أحبّهم سيخرجون من السجن الليلة. غير أنّني تذكّرت أنّ كاليب ما زال هناك، لأنّه كان من أتباع جانين ماثيوس المعروفين، ولن يبرّئه المنبوذون أبداً. لا أدري في الواقع إلى أيّ مدى سيذهبون من أجل محو بصمة جانين ماثيوس عن هذه المدينة.

لا يهمّني. لكنّني أعرف أنّني أكذب، فهو يبقى أخي.

قلت: "هذا جيّد، شكراً لك، يوريا".

هزّ رأسه، ثمّ أسنده إلى الجدار.

سألته: "كيف حالك؟ أعني... لين..."

كان يوريا ولين ومارلين أصدقاء منذ أن عرفتهم، والآن رحلتا هما الاثنتان. أحسست أنّني أفهمه ربّما، ففي النهاية، خسرت صديقين أنا أيضاً؛ آل بسبب ضغوط التدريبات، وويل بسبب هجوم المحاكاة وأفعالي

المتسرّعة. لكنّني لن أدّعي أنّ عذابنا واحد. فيوريا كان يعرف صديقتيه أكثر ممّا عرفت صديقَيّ.

هزّ رأسه قائلاً: "لا أريد التحدّث عن ذلك، أو التفكير فيه. كلّ ما أريده هو المضيّ قُدماً".

"حسناً، أفهمك. لكن... أخبرني إن احتجت..."

ابتسم لي وهو ينهض: "حسناً. أنت بخير هنا، أليس كذلك؟ قلت لأمّي إنّني سأزورها الليلة، لذلك عليّ الذهاب قريباً. آه، كدت أنسى. قال فور إنّه يريد رؤيتك لاحقاً".

استقمتُ وسألته: "حقّاً؟ أين؟ ومتى؟"

"بعد العاشرة بقليل، في حديقة الميلينيوم، في المرج". ثمّ ابتسم ساخراً وأضاف: "لا تتحمّسي كثيراً، فقد ينفجر رأسك".

الفصل الرابع

توبياس

أمّي معتادة على الجلوس على أطراف الأشياء، سواء كانت مقاعد، أو أرائك، أو طاولات، كأنّها تعتقد أنّها ستُضطر إلى الهرب فجأة. هذه المرّة، كانت جالسة على طرف مكتب جانين القديم في مقرّ النزاهة، بحيث لامست أصابع قدمها الأرض، بينمت توهّجت أضواء المدينة الباهتة خلفها. كانت امرأة قوية.

"أعتقد أنّه علينا التحدّث عن ولائك". قالت ذلك، لكنّها لم تكن توجّه إليّ اتّهاماً، بل بدت متعبة وحسب. أحسست للحظة أنّها منهكة إلى حدّ أنّني أستطيع الرؤية من خلالها. غير أنّها استقامت، وزال هذا الانطباع.

قالت: "في النهاية، أنت من ساعد تريس وقام بنشر ذلك الفيديو. صحيح أنّ أحداً لا يعرف ذلك، لكنّني أعرف".

ملت إلى الأمام، وأسندت مرفقيّ على ركبتيّ. "اسمعيني. أنا لم أكن أعرف ماذا يوجد في ذلك الملفّ، بل وثقت بحُكم تريس أكثر ممّا وثقت بحكمي. هذا كلّ ما في الأمر".

ظننت أنّ إخبار إيفلين بانفصالي عن تريس سيسهّل عليّ الفوز بثقتها، وكنت محقّاً في ذلك. فقد أصبحت أكثر دفئاً وانفتاحاً منذ أن أخبرتها بتلك الكذبة.

قالت: "والآن بعدما شاهدتَ التسجيل، ما رأيك؟ هل تظنّ أنّه علينا مغادرة المدينة؟"

أعرف ماذا تريدني أن أقول - إنّني لا أرى سبباً للذهاب إلى العالم الخارجي - لكنّني لست بارعاً في الكذب، لذلك اخترت جزءاً من الحقيقة.

"أنا أخشى ذلك. لست واثقاً أنّه من الحكمة مغادرة هذه المدينة ونحن نعرف المخاطر التي قد تواجهنا هناك".

نظرت إليّ للحظة وهي تعضّ باطن خدّها. لقد تعلّمت هذه العادة منها، فقد كنت أعضّ خدّي وأنا أنتظر عودة أبي إلى المنزل، غير واثق أيّ وجه من وجوهه سيطالعني، أهو وجه نكران الذات الموثوق والمحترم، أم ذاك الذي يبرحني ضرباً.

مرّرت لساني على الندب التي أحدثتها تلك العضّات في فمي، وابتلعتُ تلك الذكريات المؤلمة.

انزلقَت عن المكتب، وذهبت إلى النافذة. "إنّني أستلم منذ مدّة تقارير مقلقة عن تنظيم ثوري موجود بيننا". نظرَت إلى الأعلى، رافعة أحد حاجبيها. "فالناس يؤلّفون مجموعات دائماً، هذا أمر واقع في حياتنا، لكنّني لم أتوقّع أن يحدث بهذه السرعة".

"ما نوع هذا التنظيم؟"

أجابت: "إنّه تنظيم يسعى إلى مغادرة المدينة. فقد وزّعوا منشوراً هذا الصباح، وسمّوا أنفسهم فيه الأوفياء". عندما رأت نظراتي المربكة، أضافت: "ذلك لأنّهم متحالفون مع الهدف الأصلي لمدينتنا. هل فهمت؟"

"تقصدين بالهدف الأصلي ما قالته إديث برايور في الشريط؟ إنّه علينا إرسال أشخاص إلى الخارج عندما يصبح في المدينة عدد كبير من الجامحين؟"

"أجل، هذا بالإضافة إلى العيش مع جماعات. إذ يزعم الأوفياء أنّه مقدّر لنا العيش في جماعات لأنّنا بدأنا كذلك". هزّت رأسها مضيفة: "بعض الناس يخشون التغيير دائماً، ولا يمكننا التساهل معهم".

مع تفكيك نظام الجماعات، أحسست إلى حدّ ما أنّني مثل رجل تحرّر بعد سجن طويل. لم أعد مضطراً إلى تقييم كلّ فكرة أو كلّ خيار أقوم به لأرى ما إذا كان يناسب أيديولوجية الجماعة الضيّقة. لم أكن أريد في الواقع عودة نظام الجماعات.

غير أنّ إيفلين لم تحرّرنا كما تظنّ، بل جعلتنا جميعاً منبوذين. كانت تخشى من خيارنا، إن حصلنا على حرّيتنا الفعلية. بالتالي، ومهما يكن رأيي بالجماعات، أنا مرتاح لأنّ شخصاً ما في مكان ما يتحدّاها.

لم يبد على وجهي أيّ تعبير، لكنّ نبضي تسارع. عليّ أن أكون حذراً، وألاّ أخسر عطف إيفلين. فمن السهل أن أكذب على الجميع، لكنّ الكذب عليها صعب، لا سيّما وأنّها الشخص الوحيد الذي يعرف كلّ أسرار بيتنا في جماعة نكران الذات، والعنف الذي شهدت عليه جدرانه.

سألتها: "ماذا ستفعلين بهم؟"

"سأفرض سيطرتي عليهم، ماذا غير ذلك؟"

توتّرتُ عند سماع كلمة "سيطرة"، وأصبحتُ بصلابة الكرسي الذي أجلس عليه. ففي هذه المدينة، كانت "السيطرة" تعني الإبر، والمصل، وفقدان القدرة على التحكّم بالنفس. إنّها تعني المحاكاة، كتلك التي كادت تدفعني إلى قتل تريس، أو تلك التي حوّلت الشجعان إلى جيش ظالم.

سألتها ببطء: "بالمحاكاة؟"

عبست مجيبة: "بالطبع لا! فأنا لست جانين ماثيوس!"

أراحني غضبها، فقلت: "لا تنسي أنّني أعرفك بالكاد، إيفلين".

أُجفلَت عندما تذكّرَت ذلك. "دعني أخبرك إذاً أنّني لن ألجأ أبداً إلى المحاكاة لتحقيق مآربي، بل أفضّل الموت على ذلك".

من المحتمل في الواقع أن يكون الموت هو السلاح الذي ستستخدمه، فقتل الناس يُسكتهم بالتأكيد، ويقمع ثورتهم في مهدها. بالتالي، كائناً من يكون الأوفياء، يجب تحذيرهم، وبسرعة.

قلت: "يمكنني اكتشاف هوياتهم".

"أنا واثقة من ذلك، وإلاّ فلماذا أخبرك عنهم؟"

ثمّة أسباب عديدة تدفعها إلى إخباري عنهم؛ إمّا لاختباري، أو لمعرفة ما إذا كنت واحداً منهم، أو لتزويدي بمعلومات مزيّفة. فأنا أعرف أمّي، إنّها من الأشخاص الذين يعتقدون أنّ الغاية تبرّر الوسيلة، تماماً مثل أبي، وتماماً مثلي أنا، في بعض الأحيان.

"سأعثر عليهم إذاً".

عندما نهضتُ، مرّرت أصابعها على ذراعي بخفّة، مثل أوراق الشجر، وقالت: "شكراً لك".

أجبرت نفسي على النظر إليها. كانت عيناها قريبتان من بعضهما فوق أنفها المعقوف عند طرفه، مثل أنفي. وكانت بشرتها متوسّطة السمرة، وأدكن من بشرتي. تراءت لي صورتها للحظة وهي بملابس نكران الذات الرمادية، وشعرها الكثيف مشدود إلى الخلف بعدد من الدبابيس، جالسة إلى طاولة العشاء أمامي. رأيتها أيضاً وهي راكعة أمامي، تسوّي أزرار قميصي قبل أن أذهب إلى المدرسة، وتقف عند النافذة، تراقب الشارع بمنازله المتشابهة ترقّباً لوصول سيّارة أبي، ويداها متشابكتان، لا بل مشدوتان، وعُقد أصابعها بيضاء من شدّة التوتّر. في ذلك الحين، جمعنا الخوف، أمّا اليوم فقد تبدّد هذا الإحساس، بحيث رغب جزء منّي أن يعرف كيف تكون الحياة معها إن جمعتنا القوّة.

اعتصرني الألم، وأحسست أنّني أخون المرأة التي اعتادت أن تكون حليفي الوحيد. فاستدرت راحلاً قبل أن أبوح لها بكلّ شيء وأعتذر.

غادرتُ مقرّ المعرفة وسط حشد من الناس، وارتبكت عيناي وهما تبحثان بشكل آلي عن ألوان الجماعات التي لم يعد لها وجود. كنت أرتدي قميصاً رمادياً، وسروال جينز أزرق، وحذاءً أسود. صحيح أنّها ملابس جديدة، لكنّني أحمل تحتها أوشام الشجاعة. فمن المستحيل أن أمحو خياراتي، لا سيّما هذه.

الفصل الخامس

تريس

ضبطتُ منبّه ساعتي على الساعة العاشرة، واستغرقت في النوم فوراً، من دون حتّى أن أتّخذ وضعية مريحة. بعد بضع ساعات، لم توقظني رنّة المنبّه، بل صوت غاضب ومنزعج في الغرفة. فأطفأت المنبّه، ومرّرت أصابعي في شعري، قبل أن أنهض وأهبط سلّم الطوارئ بسرعة. فالباب الموجود في الأسفل سيتيح لي الخروج إلى الزقاق، من دون أن يعيقني أحد على الأرجح.

ما إن أصبحت في الخارج، حتّى أيقظني الهواء البارد. فشددت أكمامي إلى الأسفل لأغطّي أصابعي وأقيها من البرد. لقد أوشك الصيف أن ينتهي أخيراً. كان ثمّة بضعة أشخاص يتجوّلون حول مدخل مقرّ المعرفة، لكنّ أحداً منهم لم يرني وأنا أتسلّل عبر جادة ميشيغان. للقامة القصيرة حسناتها أحياناً.

وجدت توبياس واقفاً في وسط الحديقة، يرتدي ألواناً متعدّدة؛ قميص رمادي، وجينز أزرق، وسترة سوداء ذات قبّعة. كانت ألوان ملابسه تمثّل كلّ الجماعات التي أهّلني إليها اختبار الجدارة. رأيت عند قدميه حقيبة ظهر.

سألته عندما اقتربت منه: "كيف كنتُ؟"

أجاب: "جيّدة جدّاً. ما زالت إيفلين تكرهك، لكن تمّ إطلاق سراح كريستينا وكارا من دون استجواب".

ابتسمت مجيبة: "هذا جيّد".

أمسك بطرف قميصي، وجذبني نحوه، ثمّ عانقني بخفّة.

قال وهو يبتعد: "هيّا بنا، لديّ خطّة لهذا المساء".

"حقّاً؟"

"نعم، فقد أدركت أنّنا لم نخرج أبداً في موعد حقيقي".

"الفوضى والدمار يقلّلان في الواقع من فرص المواعدة".

"أودّ أن أجرّب ظاهرة المواعدة هذه". مشى إلى الخلف، نحو التمثال المعدني الموجود في الطرف الآخر من الحديقة وتبعته. "فأنا لم أخرج قبلك سوى في مواعيد جماعية، وكانت كارثية عادة. إذ كانت تنتهي دائماً بذهاب زيك مع الفتاة التي ينوي الخروج معها، وبقائي صامتاً ومربكاً مع فتاة سبق أن تسبّبت لها بإزعاج في وقت سابق".

قلت مبتسمة: "أنت لست لطيفاً جدّاً".

"أنتِ من يقول ذلك؟"

"أنا أستطيع أن أكون لطيفة، إن حاولتُ".

"حسناً". طرق بإصبعه على ذقنه قائلاً: "قولي شيئاً لطيفاً إذاً".

"أنت وسيم جدّاً".

ابتسم، ولمعت أسنانه في الظلام. "أحبّ هذا الشيء اللطيف".

وصلنا إلى آخر الحديقة. بدا التمثال المعدني من هنا أكبر حجماً وأكثر غرابة ممّا بدا عليه عن بعد. إنّها حقّاً مسرح، تمتدّ فوقه أقواس من الألواح المعدنية التي تلتفّ في اتّجاهات مختلفة، مثل علبة ألمنيوم منفجرة. مشينا حول أحد الألواح عند الطرف الأيمن نحو الجهة الخلفية للمسرح، التي ترتفع عن الأرض. هناك، رأيت عوارض معدنية تدعم الألواح من الخلف. ثبّت توبياس حقيبته على كتفيه، وأمسك إحدى العوارض، وبدأ يصعد.

قلت له: "يبدو لي هذا مألوفاً". فمن أوّل الأشياء التي قمنا بها معاً كانت تسلّق عجلة فيريس. لكن في ذلك الوقت، كنت أنا من حثّنا على الصعود إلى نقطة أعلى، وليس هو.

رفعت أكمامي ولحقت به. كان كتفي لا يزال يؤلمني بسبب الرصاصة، لكنّه أوشك على التعافي. مع ذلك، حملت معظم وزني بذراعي اليسرى وحاولت أن أدفع نفسي بقدميّ عند الإمكان. نظرت إلى الأسفل، إلى شبكة العوارض تحتي، وإلى الأرض، وضحكت.

صعد توبياس إلى موقع التقت فيه عارضتان معدنيتان مشكّلتان الحرف V، بحيث تركتا مجالاً كافياً ليجلس عليه شخصان. انزلق إلى الخلف، وحشر نفسه بين عارضتين، ثمّ مدّ يده لمساعدتي عندما اقتربت. لم أكن أحتاج حقّاً إلى المساعدة، لكنّني لم أمانع.

أخرج بطّانية من حقيبته، وغطّانا بها، ثمّ أخرج كوبين بلاستيكيين.

سألني وهو يحدّق إلى داخل الحقيبة: "تريدين ذهناً صافياً أم مشوّشاً؟"

أملت رأسي مجيبة: "فليكن صافياً. أظنّ أنّه علينا التحدّث في بضعة أمور، أليس كذلك؟"

قال: "أجل".

أخرج زجاجة صغيرة تحتوي على سائل غازي صافٍ، وبينما كان يفتحها، قال: "لقد سرقتها من مطبخ المعرفة، تبدو لذيذة".

صبّ قليلاً منها في كلّ كوب، وأخذت رشفة. أيّاً تكن ماهيّة الشراب، فقد وجدته حلواً كالقطر، ومنكّهاً بالليمون. انكمش وجهي في البداية، لكنّ الرشفة الثانية كانت أفضل.

قال: "علينا التحدّث في بضعة أمور".

"صحيح".

نظر توبياس إلى كوبه عابساً. "حسناً... أنا أفهم لماذا عملتِ مع ماركوس، ولماذا لم ترغبي في إخباري. لكن..."

"لكنّك غاضب لأنّني كذبت عليك، عدّة مرّات".

هزّ رأسه إلى الأسفل من دون أن ينظر إليّ. "الأمر لا يتعلّق بماركوس، بل هو قبل ذلك. لا أعرف إن كنتِ تفهمين ما معنى أن أستيقظ وأجد نفسي بمفردي، لأكتشف أنّك ذهبتِ" - إلى حتفك، أظنّ أنّ هذا ما أراد قوله، لكنّه لم يستطع حتّى لفظ الكلمة - "إلى مقرّ المعرفة".

"كلاّ، لا يمكنني على الأرجح". تناولت رشفة أخرى، وتلذّذت بالشراب الحلو قبل أن أبتلعه. "اسمع، لقد... لقد اعتدتُ على التفكير بالتضحية بحياتي، لكنّني لم أفهم معنى ذلك إلى أن أوشكت على خسارتها فعلاً".

نظرت إليه، وبادلني النظر أخيراً.

قلت: "بتّ أعرف الآن، بتّ أعرف أنّني أريد أن أعيش. أعرف أنّني أريد أن أكون صادقة معك. لكن... لكن لا يمكنني فعل ذلك، ولن أفعله، إن لم تثق بي أو إن تحدّثت معي بتلك الطريقة المتعالية، مثلما تفعل أحياناً-"

قال: "متعالية؟ كنت تقومين بأمور سخيفة، وخطيرة-"

"صحيح، وهل تعتقد حقّاً أنّ التحدّث معي كما لو كنت طفلة لا تفقه شيئاً قد ساعدني؟"

سألني: "وماذا كان يُفترض بي أن أفعل؟ فقد كنتِ ترفضين استيعاب شيء!"

"ربّما لم أكن بحاجة إلى الاستيعاب!" توتّرت، ولم أعد قادرة على التظاهر بالاسترخاء. "كنت أشعر أنّ الذنب يتآكلني، ولم أكن أحتاج منك سوى إلى الصبر والمواساة، وليس الصراخ في وجهي. لا بل كنت تخفي عنّي مخطّطاتك، كما لو أنّني عاجزة عن-"

"لم أشأ أن أزيد من همومك".

عبست متسائلة: "هل تظنّ أنّني قوية أم لا؟ أنت تعتقد أنّني أستطيع تحمّل توبيخك، لكنّني عاجزة عن تحمّل أيّ شيء آخر. ما معنى هذا؟"

هزّ رأسه مجيباً: "بالطبع أنا أعتقد أنّك قوية. لكن... لكنّني لست معتاداً على إخبار الناس بما أريد فعله، بل أتولّى الأمور بنفسي".

قلت له: "يمكنك الاعتماد عليّ، والوثوق بي. دعني أحكم بنفسي ما إذا كانت الأمور تتجاوز طاقتي أم لا".

قال وهو يهزّ رأسه موافقاً: "حسناً، لكن لا مزيد من الكذب، أبداً".

"اتفقنا".

شعرت أنّني متصلّبة ومضغوطة، كما لو أنّ جسدي حُشر في شيء صغير عليه. لكنّني لم أرغب أن ينتهي حديثنا على هذا النحو، فأمسكت بيده.

"أنا آسفة فعلاً لأنّني كذبت عليك".

"في الواقع، لم أقصد أن أبدو كأنّني لا أحترمك".

جلسنا كذلك لبعض الوقت، متشابكي الأيدي. ثمّ استلقيت على الصفيحة المعدنية. امتدّت السماء فوقي سوداء خالية من النجوم، واختفى القمر خلف السحب. مع تبدّدها، ظهرت نجمة أمامنا، لكنّها

بدت وحيدة. عندما نظرت إلى الخلف، رأيت خطّاً من المباني على طول جادة ميشيغان، مثل صفّ من الحرس الذين يراقبوننا.

بقيت صامتة إلى أن فارقني ذلك الإحساس، وحلّ مكانه الارتياح. عادة، لا يزول غضبي بسهولة، لكنّ الأسابيع الماضية كانت غريبة على كلينا، وقد سرّني التخلّص من الأحاسيس التي كنت أتمسّك بها، أي غضبي وخوفي من أن يكرهني، وإحساسي بالذنب بسبب عملي مع أبيه من دون علمه.

قال وهو يفرغ كوبه ويضعه جانباً: "هذا الشراب غريب".

قلت وأنا أحدّق إلى ما بقي من شرابي: "صحيح". شربته جرعة واحدة، وتشنّج وجهي عندما أحرق حنجرتي. "لا أدري لماذا تفتخر به جماعة المعرفة إلى هذا الحدّ، الكيك الذي تصنعه جماعة الشجاعة أفضل منه بكثير".

"أتساءل ماذا ستكون تحلية نكران الذات، لو وُجدت".

"الخبز المعفّن".

ضحك قائلاً: "الشوفان".

"الحليب".

قال: "في بعض الأحيان، أعتقد أنّني أصدّق كلّ ما علّمونا إيّاه. لكنّ هذا غير صحيح، لأنّني جالس هنا أمسك بيدك من دون أن نتزوّج أوّلاً".

سألته مشيرة إلى أيدينا: "ما الذي توصي به جماعة الشجاعة عن... هذا؟"

ابتسم مجيباً: "ما توصي به جماعة الشجاعة هو: افعلوا ما يحلو لكم، لكن استخدموا وقاية. هذا ما توصي به".

رفعت حاجبيّ، واحمرّ وجهي فجأة.

قال: "أعتقد أنّني أفضّل أن أجد حلاًّ وسطٍ لنفسي بين ما أريده وما أعتقده حكيماً".

"يبدو هذا جيّداً". صمتُّ قليلاً ثمّ أضفت: "لكن ما الذي تريده؟" أظنّ أنّني أعرف الجواب، لكنّني أردت سماعه منه...

الفصل السادس
توبياس

ثمّة شيء يُدبَّر.

شعرتُ بذلك وأنا أقف في صفّ الانتظار في الكافتيريا حاملاً صينيتي، ورأيته في الرؤوس المتقاربة لمجموعة من المنبوذين المنحنين فوق أطباق الشوفان. أيّاً يكن ما يُحضّر له، فهو سيحدث قريباً.

عندما تركتُ أمس مكتب إيفلين، تلكّأت في الرواق لأسترق السمع إلى اجتماعها التالي. وقبل أن تُغلق الباب، سمعتها تقول شيئاً عن تظاهرة. غير أنّ السؤال الذي ظلّ يلحّ عليّ هو لماذا لم تخبرني.

لا بدّ أنّها لا تثق بي. وهذا يعني أنّ ادّعائي أنّني ذراعها الأيمن لم يكن ناجحاً بقدر ما ظننت.

جلستُ لتناول الإفطار نفسه الذي يتناوله الجميع، وكان عبارة عن طبق من الشوفان مع رشّة من السكّر الأسمر، وفنجان من القهوة. راقبت مجموعة المنبوذين وأنا أتناوله من دون أن أستطعم به. كانت بينهم فتاة لا تتجاوز الرابعة عشرة ربّما، تنظر باستمرار إلى الساعة.

كنت في منتصف طعامي عندما سمعت الصراخ. في تلك اللحظة، قفزَت الفتاة المنبوذة العصبية من مقعدها كما لو أنّ تياراً كهربائياً مسّها، واندفع الجميع نحو الباب. لحقتُ بهم، وشققت طريقي بين الحشد عبر ردهة مقرّ المعرفة، التي ما زالت صورة جانين ماثيوس الممزّقة ملقاة على أرضها.

كانت مجموعة من المنبوذين قد احتشدت في الخارج، في وسط جادة ميشيغان. حجبت سحب شاحبة أشعّة الشمس، فأصبح ضوء النهار باهتاً وضبابياً. سمعت أحدهم يهتف: "الموت للجماعات!" وراح

الباقون يردّدون الجملة، وحوّلوها إلى أغنية، إلى أن ضجّت بها أذناي، الموت للجماعات، الموت للجماعات. رأيت قبضاتهم وهي تلوح في الهواء، مثل شجعان يضجّون بالحماسة، لكن من دون بهجتهم. فقد كانت وجوههم تحتدم غضباً.

شققت طريقي إلى وسط المجموعة، إلى أن رأيت ما احتشدوا حوله: كانت أوعية الجماعات الضخمة التي تُستخدم في احتفال اختيار الجماعة قد قُلبت، وانسكبت محتوياتها على الطريق، من فحم، وزجاج، وحصى، وتراب، وماء، كلّها اختلطت معاً.

تذكّرت كيف جرحت كفّي لأترك دمائي تسيل على الفحم، في أوّل تحدٍّ لأبي. تذكّرت كيف نبعت القوّة بداخلي، وغمرني الارتياح. الحرّية. تلك الأوعية منحتني الحرّية.

وقف إدوارد بين القدور، رافعاً مطرقة فوق رأسه، وقد طحن كِسَر الزجاج تحت أقدامه. ثمّ خفضها على أحد الأوعية المقلوبة، مسبّباً التواءً في القدر المعدني، وتصاعد غبار الفحم في الهواء.

عليّ أن أمنع نفسي من الذهاب إليه. لكن لا يمكنه تدميره، لا يمكنه تدمير هذا الوعاء، رمز حفل الاختيار، ورمز انتصاري. لا يجب لهذه الأشياء أن تُدمَّر.

كان الحشد يتضاعف، ولم يعد يقتصر على المنبوذين الذين يضعون شارات سوداء عليها دوائر بيضاء خالية، بل انضمّ إليهم أعضاء سابقين للجماعات الأخرى، أذرعهم خالية. فجأة، خرج من بين الناس رجل من المعرفة - عرفت انتماءه السابق من شعره المسرّح بعناية - بينما كان إدوارد يرفع المطرقة لتوجيه ضربة أخرى. فلفّ أصابعه الناعمة الملوّثة

بالحبر حول القبضة، فوق يديّ إدوارد تماماً، وراحا يتنازعان المطرقة، بأسنان مشدودة.

رأيت رأساً أشقر خلف الحشد؛ كانت تريس التي ترتدي قميصاً أزرق من دون أكمام، بحيث ظهرت أطراف الأوشام على كتفيها. حاولَت أن تندفع نحو إدوارد والرجل، لكنّ كريستينا أوقفتها بيديها الاثنتين.

احمرّ وجه الرجل المنتمي إلى المعرفة من شدّة الانفعال. غير أنّ إدوارد كان أطول منه وأقوى. في الواقع، لم تكن لديه أيّ فرصة للفوز، لا بل كانت محاولته غباءً محض. انتزع إدوارد المطرقة من يديّ الرجل، ولوّح بها مجدّداً. غير أنّ توازنه اختلّ من شدّة الغضب، فهوت المطرقة على كتف الرجل بكلّ زخمها.

للحظة، لم أسمع سوى صرخات ابن المعرفة، وبدا كما لو أنّ الجميع حبسوا أنفاسهم.

فجأة، عمّت فوضى جنونية، واندفع الجميع نحو الأوعية، ونحو إدوارد، والرجل الجريح. تصادموا ببعضهم، ومن ثمّ بي، وتلاطمتني الأكتاف، والأكواع، والرؤوس.

لم أعرف أين أهرب، إلى ابن المعرفة، أم إلى إدوارد، أم تريس؟ لم أستطع التفكير أو التنفّس. حملني الحشد نحو إدوارد، فأمسكت بذراعه.

صحت قائلاً: "أفلتها!" فرمقني بعينه السليمة، وشدّ على أسنانه محاولاً تحرير نفسه.

عندئذٍ، وجّهت إلى جنبه ضربة بركبتي. فترنّح إلى الخلف، وأفلت المطرقة. حملتها وتوجّهت نحو تريس.

كانت في مكان ما أمامي، تكافح للوصول إلى الرجل المصاب. لكن وسط الزحام، ارتطم كوع امرأة بخدّها، فتعثّرت إلى الخلف، بينما دفعت كريستينا المرأة بعيداً عنها.

فجأة، لعلع صوت الرصاص. طلقة، تبعتها طلقتان.

تفرّق الحشد، وفرّ الجميع من خطر الرصاص، فيما رحت أبحث عن جرحى، إلاّ أنّ سيل الأجساد كان كثيفاً، بحيث صعب عليّ رؤية شيء.

انحنت تريس وكريستينا بجانب الرجل الذي تحطّمت كتفه. كان وجهه أحمر كالدم وملابسه متّسخة بآثار الأقدام. أمّا شعره الذي كان مسرّحاً على طريقة أهل المعرفة، فقد أصبح مشعّثاً ومغبرّاً. كان ممدّداً على الأرض بلا حراك.

على بعد خطوات منه، استلقى إدوارد في بركة من دمائه. فقد استقرّت الرصاصة في أحشائه. رأيت أشخاصاً آخرين على الأرض، إمّا أصيبوا بالرصاص أو سقطوا بسبب شدّة الزحام، لكنّني لا أعرفهم. أظنّ أنّ الرصاصات كانت تستهدف إدوارد وحسب، وأنّ الآخرين سقطوا ضحية الرصاص الطائش.

بحثتُ حولي كالمجنون لكنّني لم أرَ مطلق النار. أيّاً يكن، يبدو أنّه ذاب في الحشد.

تركت المطرقة بجانب الوعاء المتضرّر، وركعت بالقرب من إدوارد، على أحجار نكران الذات التي ضغطت على ركبتيّ. راحت عينه السليمة تتحرّك إلى الأمام والخلف تحت جفنه، ما يعني أنّه لا يزال حياً.

قلت لمن حولي: "علينا أن ننقله إلى المستشفى". غير أنّ الجميع رحلوا تقريباً.

نظرتُ إلى الخلف، إلى تريس وابن المعرفة الذي لم يتحرّك. "هل هو...؟"

وضعَت أصابعها على عنقه، تتحسّس نبضه، ثمّ حملقت عينيها مذهولة. أخيراً هزّت رأسها. كلاّ، ليس حياً، ولم أعتقد أنّه سيعيش.

أغمضت عينيّ. كانت أوعية الجماعات مطبوعة على أجفاني، وهي مقلوبة، ومحتوياتها مكوّمة في الشارع. لقد دُمّرت رموز حياتنا القديمة، ومات رجل، وأصيب آخرون، من أجل ماذا؟

لا شيء. من أجل رؤية إيفلين الضيّقة والفارغة: مدينة انتُزعت فيها الجماعات من الناس ضدّ إرادتهم.

أرادت أن يكون لدينا أكثر من خمس جماعات، وها نحن قد خسرناها جميعاً.

أصبحت واثقاً الآن أنّني لا أستطيع أن أكون حليفها، ولم أكن يوماً.

قالت تريس: "علينا الذهاب". عرفتُ أنّها لم تكن تعني مغادرة جادة ميشيغان أو أخذ إدوارد إلى المستشفى، بل كانت تتحدّث عن المدينة.

كرّرتُ قائلاً: "علينا الذهاب".

* * *

كان المستشفى المؤقّت في مقرّ المعرفة عابقاً برائحة المواد الكيميائية. فأغمضتُ عينيّ وأنا أنتظر إيفلين.

كنت غاضباً جدّاً ولم أشأ الجلوس هنا، بل كلّ ما أريده هو حزم أمتعتي والرحيل. لا بدّ أنّها خطّطت لهذه التظاهرة، وإلاّ لما عرفَت بها في اليوم السابق، ولا بدّ أنّها كانت تعلم أنّ الأمور ستخرج عن السيطرة بسبب الجوّ المشحون. غير أنّها نفّذت خطّتها على الرغم من ذلك،

وأثبتت أنّ مسألة الجماعات كانت أكثر أهمّية بالنسبة إليها من الأمن أو خسارة الأرواح. لا أدري لماذا يفاجئني ذلك.

سمعت باب المصعد يُفتح، وتناهى إليّ صوتها وهي تنادي: "توبياس!"

اندفعت نحوي وأمسكت بيديّ الملوّثتين بالدماء. حملقت عينيها خائفة، وسألتني: "هل أنت مصاب؟"

إنّها قلقة عليّ. أتتني تلك الفكرة مثل وخزة صغيرة؛ لا شكّ أنّها تحبّني لكي تقلق عليّ. لا شكّ أنّها ما زالت قادرة على الحبّ.

"هذه دماء إدوارد، فقد ساعدت على نقله إلى هنا".

سألتني: "كيف حاله؟"

هززت رأسي. "لقد فارق الحياة".

لم أعرف كيف أخبرها بشكل آخر.

تراجعَت إلى الخلف، وأفلتت يديّ، ثمّ جلسَت على أحد المقاعد في قاعة الانتظار. كانت أمّي قد أخذت إدوارد تحت جناحها منذ انشقاقه عن جماعة الشجاعة. لا شكّ أنّها علّمته كيف يكون محارباً مرّة أخرى، بعدما خسر عينه، وجماعته، ومستقبله. لم أدرك أبداً أنّهما كانا متقاربين إلى هذا الحدّ، لكنّني أرى ذلك الآن، في الدموع التي ملأت عينيها، وفي ارتجاف أصابعها. إنّها أقوى عاطفة تُظهرها أمامي منذ أن كنت طفلاً، ومنذ أن كان أبي يدفعها بعنف على جدران غرفة المعيشة.

طردتُ تلك الذكرى كأنّني أقحمها في درج صغير جدّاً عليها.

قلت لها: "أنا آسف". لا أدري ما إذا كنت أعني ذلك حقّاً أم أقوله لكي تعتقد أنّني إلى جانبها. أضفت بعد ذلك: "لماذا لم تخبريني بأمر التظاهرة؟"

هزّت رأسها مجيبة: "لم أكن أعرف".

كانت تكذب، أعرف ذلك، غير أنّني قرّرت أن أدعها تفعل. إن كنت أرغب في الفوز بثقتها، عليّ أن أتجنّب الصراع معها. وربّما لم أشأ أن أجعل موت إدوارد يقف حائلاً بيننا. ففي بعض الأحيان، يصعب عليّ أن أعرف متى ينتهي عندها التخطيط ويبدأ التعاطف.

قلت وأنا أحكّ أذني: "آه، يمكنك الذهاب لرؤيته، إن أردتِ".

أجابت بصوت بدا بعيداً: "كلاّ، أنا أعرف ما تبدو عليه الجثث". بدا لي أنّها تبتعد أكثر.

"يجدر بي الذهاب ربّما".

"بل ابقَ". لمست الكرسي الخالي بيننا مضيفة: "من فضلك".

جلستُ بجانبها، ومع أنّني أقنعت نفسي أنّني عميل سرّي يطيع قائده المزعوم، إلاّ أنّني شعرت أنّني ابن يواسي أمّه الحزينة.

جلسنا بحيث تلامست كتفانا، وتزامنت أنفاسنا، لكنّنا لم نقل شيئاً.

الفصل السابع

تريس

أخذت كريستينا تقلّب حجراً أسود بيدها ونحن نمشي. استغرقتُ بضع ثوانٍ لأدرك أنّه قطعة فحم في الواقع، من وعاء حفل الاختيار الخاصّ بجماعة الشجاعة.

قالت: "لا أقصد أن أزيد الجوّ توتّراً، لكن ثمّة فكرة لا تفارقني. فمن بين المبتدئين العشرة الذين أتوا من جماعات أخرى، لم يبق على قيد الحياة سوى ستّة".

كان أمامنا مبنى هانكوك، وخلفه طريق لايك شور درايف، ذاك الرصيف الذي حلّقتُ فوقه مرّة كالعصفور. مشينا على الرصيف المتشقّق جنباً إلى جنب، بملابسنا التي جفّت عليها دماء إدوارد.

لم تخطر لي هذه الفكرة من قبل، وهي أنّ إدوارد، الذي كان من أبرع المبتدئين المنتقلين من جماعات أخرى، ذاك الشابّ الذي مسحتُ دماءه عن أرض العنبر، فارق الحياة الآن. لقد أصبح في عداد الأموات.

قلت: "ومن بين المبتدئين اللطفاء، لم يبق سوى أنت، وأنا، و... ميرا على الأرجح".

لم أرَ ميرا منذ أن غادرَت مجمّع الشجاعة مع إدوارد، تماماً بعد الحادثة التي خسر فيها عينه. أعلم أنّهما انفصلا بعد مدّة قصيرة، لكنّني لم أعرف أبداً ما حلّ بها. لا أظنّ أنّنا تحدّثنا أكثر من بضع كلمات على كلّ حال.

كان أحد أبواب مبنى هانكوك مفتوحاً أساساً، يتدلّى من مفاصله. قال يوريا إنّه سيأتي إلى هنا باكراً لتشغيل المولّد الكهربائي. وقد أضاء زرُّ المصعد فعلاً عندما لمسته.

قلت ونحن ندخل إلى المصعد: "هل سبق أن أتيتِ إلى هنا؟"

قالت كريستينا: "كلاّ، أعني أنّني لم أدخله من قبل. إذ لم يسبق لي أن انزلقت على السلك، أتذكرين؟"

استندتُ إلى الجدار قائلة: "صحيح. يجدر بك المحاولة قبل أن نرحل".

"نعم". كانت تضع أحمر شفاه، ذكّرني كيف تبدو شفاه الأطفال بعد أكل السكاكر. "أفكّر في بعض الأحيان في المكان الذي أتت منه إيفلين. لقد حدثت أمور فظيعة، وأشعر أحياناً أنّه يجدر بنا البقاء ومحاولة... تنظيف هذه الفوضى قبل أن نورّط أنفسنا في متاعب أخرى". ابتسمَت قليلاً: "لكن بالطبع، لن أفعل ذلك". أضافت بعد صمت قصير: "لست واثقة لماذا. ربّما كان الفضول هو السبب".

"هل تحدّثتِ في هذه المسألة مع أهلك؟"

أنسى في بعض الأحيان أنّ كريستينا ليست مثلي، حرّة من الروابط الأسرية. بل لديها أمّ، وأخت صغرى، وكلاهما كانتا تنتميان إلى النزاهة.

قالت: "عليهما العناية بشقيقتي. فهما لا يعرفان ما إذا كان ذلك المكان آمناً، ولا يريدان تعريضها للخطر".

"لكن هل هما موافقان على ذهابك؟"

"لقد وافقا على انضمامي إلى جماعة أخرى، وسيوافقان على هذا الأمر أيضاً". نظرَت إلى حذائها مضيفة: "كلّ ما يريدانه هو أن أحيا حياة صادقة، هل تفهمين؟ ولا يمكنني ذلك هنا، أعرف أنّني لن أستطيع ذلك".

فُتح باب المصعد، ولفحتنا الرياح فوراً. كانت لا تزال دافئة، تتخلّلها لسعات من برد الشتاء. سمعت أصواتاً آتية من السطح، فصعدت السلّم. كان يهتزّ مع كلّ خطوة، لكنّ كريستينا ثبّتته إلى أن وصلت إلى أعلاه.

وجدتُ يوريا وزيك هناك، يرميان الحصى عن السطح ويصغيان إلى صوت ارتطامها بالنوافذ. حاول يوريا أن يلكم مرفق زيك قبل أن يرمي حصاته، من باب المزاح، لكنّ زيك كان أسرع منه.

هتفا معاً عندما وقع نظرهما علي أنا وكريستينا: "مرحباً".

سألتهما كريستينا مبتسمة: "مهلاً، هل أنتما أقرباء؟" ضحكا، لكنّ يوريا بدا شارداً إلى حدّ ما، كما لو أنّه غير مرتبط تماماً بهذا الزمان أو هذا المكان. أظنّ أنّ خسارة المرء لشخص يحبّه، مثلما خسر هو مارلين، له هذا التأثير، مع أنّ تأثيره عليّ لم يكن كذلك".

لم تكن معدّات الانزلاق على السلك موجودة، ولم نأت لهذا السبب. لا أدري لماذا أتى الآخرون، لكنّني أردت أن أصعد إلى مكان عالٍ، وأنظر إلى أبعد نقطة ممكنة. غير أنّ الأرض الممتدّة غرباً كانت سوداء، كأنّها متّشحة بغطاء داكن. ظننت للحظة أنّني أرى وميضاً في الأفق، إلاّ أنّه سرعان ما اختفى، فأدركت أنّه خدعة بصرية.

جلس الباقون بصمت هم أيضاً، فتساءلت ما إذا كنّا نفكّر في الأمر نفسه.

سأل يوريا أخيراً: "ماذا تعتقدون أنّه يوجد هناك؟"

رفع زيك كتفيه، لكنّ كريستينا حاولت أن تخمّن. "ماذا لو كان الشيء نفسه؟ مجرّد... مدينة مدمّرة، ومزيد من الجماعات، ومزيد من كلّ شيء؟"

قال يوريا وهو يهزّ رأسه: "غير ممكن، لا بدّ أنّه ثمّة شيء مختلف".

قال زيك: "أو ربّما لا شيء، ربّما مات الأشخاص الذين وضعونا هنا، وأصبح كلّ شيء مهجوراً".

سرت رعشة في جسدي. لم أفكّر بذلك من قبل، لكنّه محقّ، فنحن لا ندري ماذا حدث هناك منذ أن وضعونا في هذه المدينة، ولا عدد الأجيال التي عاشت وماتت منذ ذلك الحين. ربّما كنّا آخر من بقي على قيد الحياة".

قلت بجدّية أكثر ممّا أردت: "لا يهمّ. مهما يكن ما يوجد هناك، علينا أن نرى بأمّ أعيننا. عندئذٍ فقط نستطيع أن نتعامل معه".

وقفنا هناك مطوّلاً. تبعت بنظري أطراف المباني إلى أن تحوّلت كلّ النوافذ المضاءة إلى خطّ واحد. بعد ذلك سأل يوريا كريستينا عن المشاكل التي حدثت، فانتهت لحظة الصمت والسكون تلك كما لو أنّ الرياح حملتها على جناحها.

* * *

في اليوم التالي، وقفت إيفلين بين حطام لوحة جانين ماثيوس في ردهة مقرّ المعرفة لإعلان مجموعة جديدة من القوانين. فاجتمع أعضاء الجماعات القديمة والمنبوذون في المكان وامتدّ الحشد إلى الشارع، لسماع ما ستقوله زعيمتنا الجديدة. كما اصطفّ جنود من المنبوذين على طول الجدران، وهم على أهبة الاستعداد لاستخدام أسلحتهم. هكذا كانوا يبقوننا تحت السيطرة.

قالت: "لقد أثبتَت أحداث يوم أمس أنّنا لم نعد قادرين على الوثوق ببعضنا البعض". بدت شاحبة ومنهكة. "لذلك، سنعتمد بعض التدابير في حياة كلّ منّا إلى أن يستقرّ الوضع. سنبدأ بتطبيق حظر للتجوّل: يُمنع على أيّ شخص أن يغادر المنزل المخصّص له بعد الساعة التاسعة مساءً، ولا يُسمح بالتجوّل قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. ويتولّى الحرّاس مراقبةَ الشوارع في كافة الأوقات حفاظاً على أمننا".

صدرت عنّي ضحكة ساخرة حاولتُ تمويهها بقحّة. فوكزتني كريستينا، ووضعت إصبعها على شفتيها. لا أدري ما الذي تخشاه، إذ لا يمكن لإيفلين أن تسمعني من هذه المسافة.

وقفت توري، زعيمة الشجعان السابقة التي أبعدتها إيفلين، على بعد خطوات منّي، كاتفة ذراعيها. كان فمها مشدوداً والتوتّر بادياً عليها.

"حان الوقت أيضاً للاستعداد لحياتنا الجديدة خارج نظام الجماعات. بدءاً من هذا اليوم، سيقوم الجميع بتعلّم الوظائف التي عمل فيها المنبوذون دوماً. من الآن فصاعداً، سنقوم جميعنا بهذه الأعمال بالتناوب، بالإضافة إلى المهام الأخرى التي قامت الجماعات الأخرى بتأديتها بشكل تقليدي". ابتسمت إيفلين من دون أن تبتسم حقّاً. لا أدري كيف تفعل ذلك. "سنُسهم جميعنا بالتساوي في بناء مدينتنا الجديدة، كما ينبغي أن تكون. لقد قسّمتنا الجماعات، لكنّنا سنتوحّد الآن. الآن، وإلى الأبد".

هتف المنبوذون من حولي بفرح، غير أنّني شعرت بعدم الارتياح. فأنا لا أختلف معها تماماً، لكنّ أعضاء الجماعات الذين انتفضوا ضدّ إدوارد يوم أمس لن يلزموا الصمت بعدما سمعوا ما قالته. في الواقع، لم تكن سلطة إيفلين على هذه المدينة قوية بقدر ما تريد.

* * *

لم أرغب في مصارعة الحشود بعد إعلان إيفلين، لذلك تسلّلتُ عبر الأروقة إلى أن وصلت إلى أحد السلالم الخلفية، ذاك الذي صعدناه ونحن ذاهبين إلى مختبر جانين منذ مدّة غير طويلة. كان السلّم يغصّ بالجثث في ذلك اليوم. أمّا الآن، فهو نظيف وبارد، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث هنا.

عندما مررت بالطابق الرابع، سمعت صرخة، وبعض الأصوات المكتومة. ففتحت الباب لأجد مجموعة من الناس المتحلّقين حول شابّ ملقى على الأرض.

كانوا شباباً، أصغر منّي سنّاً، وكلّهم يضعون شارة المنبوذين.

لم يكن الرجل الملقى على الأرض مجرّد شابّ، بل أحد أبناء النزاهة، وكان يرتدي الأبيض والأسود من رأسه إلى أخمص قدميه.

اندفعتُ نحوهم، وعندما رأيت فتاة طويلة من المنبوذين تُرجع قدمها إلى الخلف لركله مجدّداً، صرختُ: "مهلاً!"

لكنّ صرختي لم تجدِ نفعاً، فقد أصابت الركلة الصبيّ في جنبه، وراح يتلوّى ألماً.

صرختُ مجدّداً: "كفى!"، وهذه المرّة التفتت الفتاة إليّ. كانت أطول منّي بكثير، غير أنّني لم أخف منها، بل كنت غاضبة وحسب.

قلت: "ابتعدوا، ابتعدوا عنه".

قالت وهي تنظر إلى الوشم الظاهر على عنقي: "لقد انتهك نظام اللباس. أنا لا أخالف حقوقي، ولا أتلقّى الأوامر من محبّي الجماعات".

قال شابّ من المنبوذين، يقف إلى جانبها: "بيكس، هذه هي الفتاة التي نشرت فيديو برايور".

بدا الإعجاب على الباقين، أمّا الفتاة فاكتفت بالقول: "ماذا إذاً؟"

قلت: "إذاً، كان عليّ إيذاء كثير من الناس لاجتياز تلقين الشجاعة، ولن أتردّد في إيذائك إن اضطررت لذلك".

خلعتُ سترتي الزرقاء ورميتها على ابن النزاهة، الذي نظر إليّ من مكانه على الأرض، والدم يسيل من حاجبه. دفع نفسه للوقوف، واضعاً يده على جنبه، ثمّ شدّ السترة حول كتفيه مثل بطّانية.

قلت: "ها قد التزم مجدّداً بقانون اللباس".

راحت الفتاة تزن الوضع بعقلها، وتقيّم ما إذا كانت تريد أن تدخل معي في قتال أم لا. كنت أسمع تقريباً ما تفكّر فيه: أنّني قصيرة، وأشكّل هدفاً سهلاً، لكنّني شُجاعة ولا يسهل التغلّب عليّ. ربّما كانت تعرف أنّني قتلت أشخاصاً، أو ربّما لم ترغب أن تُقحم نفسها في متاعب. غير أنّها بدأت تفقد أعصابها، وهو أمر عرفتُه من حركة فمها غير المتّزنة.

قالت: "انتبهي لنفسك".

أجبتها: "لست بحاجة إلى ذلك. والآن، اغربي عن وجهي".

بقيتُ في مكاني إلى أن ابتعدوا، ثمّ تابعتُ طريقي. ناداني ابن النزاهة قائلاً: "مهلاً! نسيتِ سترتك!"

"احتفظ بها!"

انعطفت عند إحدى الزوايا التي ظننت أنّها ستقودني إلى سلّم آخر، غير أنّها أفضت بي إلى رواق خالٍ آخر، تماماً كذاك الذي كنت فيه. ظننت فجأة أنّني أسمع وقع خطوات خلفي، فاستدرت بسرعة، على استعداد للانقضاض على الفتاة المنبوذة، لكنّني لم أجد أحداً.

لا بدّ أنّني أصبحت كثيرة التشكّك.

فتحتُ أحد الأبواب الموجودة في الممرّ الرئيس، على أمل إيجاد نافذة تساعدني على العثور على الاتجاه الصحيح، لكنّني لم أجد سوى مختبراً مخرّباً، وأوعية، وأنابيب اختبار منتشرة على الطاولات. تناثرت الأوراق الممزّقة على الأرض، فانحنيت للمّ إحداها عندما أُطفئت الأضواء فجأة.

اندفعتُ نحو الباب، غير أنّ يداً أمسكت بذراعي وسحبتني جانباً. وضع أحدهم كيساً على رأسي، بينما دفعني شخص آخر على الجدار.

انقضضت عليهم، وأنا أتصارع مع القماش الذي يغطّي وجهي، وكلّ ما فكّرت فيه في تلك اللحظة هو، ليس مجدّداً ليس مجدّداً ليس مجدّداً. حرّرت إحدى ذراعيّ، ووجّهت لكمة أصابت أحدهم في كتفه أو ذقنه، لم أعرف.

اعترض صوت: "مهلاً! هذا مؤلم!"

قال صوت آخر: "نحن آسفون على إخافتك، تريس. لكنّ إخفاء هويتنا أمر أساسي في هذه العمليّة. نحن لا نريد إيذاءك".

قلت لهم بصوت خشن: "دعوني إذاً!" فانخفضت كلّ الأيادي التي كانت تضغطني على الجدار.

سألتهم: "من أنتم؟"

أجاب صوت: "نحن الأوفياء، ونحن كثر، غير أنّنا لسنا أحداً..."

لم أستطع منع نفسي من الضحك. ربّما بسبب الصدمة، أو الخوف، فقد بدأ نبضي يتباطأ فوراً، ويداي ترتجفان ارتياحاً.

تابع الصوت: "سمعنا أنك لستِ مخلصة لإيفلين جونسون وأتباعها المنبوذين".

"هذا سخيف".

"ليس سخيفاً بقدر ائتمان شخص على هويتك مع أنّه لا يجدر بك ذلك".

حاولت أن أرى من خلال القماش الموضوع على رأسي، لكنّه كان كثيفاً وداكناً جدّاً. حاولت الاسترخاء على الجدار، لكنّ ذلك كان صعباً لعدم قدرتي على الرؤية وتحديد اتجاهي. فسحقت أحد الأوعية تحت حذائي.

قلت: "كلاّ، لست مخلصة لها. ما أهمّية ذلك؟"

قال الصوت: "هذا يعني أنّك ترغبين في الرحيل". أحسست بحماسة تولد في داخلي. "نريد أن نطلب منك خدمة، تريس برايور. سنعقد اجتماعاً غداً في منتصف الليل، ونريد منك إحضار أصدقائك الشجعان".

قلت: "حسناً. لكن ما دمت سأراكم غداً، لماذا تحجبون عنّي هويتكم اليوم؟"

يبدو أنّ سؤالي فاجأ الشخص الذي أخاطبه.

"يحتوي اليوم الواحد على كثير من المخاطر. سنراك غداً في منتصف الليل، في المكان الذي اعترفتِ فيه".

فجأة، فُتح الباب، ونفخ الهواء الكيس على وجهي، بينما سمعتُ خطوات أشخاص يركضون في الممرّ. عندما تمكّنت من نزع الكيس عن رأسي، وجدت الممرّ خالياً. نظرت إليه، وكان عبارة عن غطاء وسادة كُتبت عليه عبارة: "الجماعة قبل الدم".

أيّاً كان أولئك الأشخاص، من الواضح أنّ لديهم ميولاً درامية.

في المكان الذي اعترفتِ فيه.

ثمّة مكان واحد ينطبق عليه هذا الوصف: مقرّ النزاهة، الذي استسلمت فيه لمصل الحقيقة.

* * *

عندما عدت أخيراً إلى العنبر في ذلك المساء، وجدت ملاحظة من توبياس مدسوسة تحت كوب الماء الموضوع على الطاولة قرب سريري.

ستتمّ محاكمة أخيك غداً صباحاً، وذلك في جلسة خاصّة. لا يمكنني الذهاب، لكي لا أثير الشكوك، لكنّني سأبلغك بالحكم في أقرب وقت ممكن. بعد ذلك سنضع خطّة.

مهما حدث، سينتهي كلّ هذا قريباً.

الفصل الثامن

تريس

الساعة التاسعة. ربّما كانوا يقرّرون مصير كاليب الآن، بينما أنا أربط حذائي، وأرتّب سريري للمرّة الرابعة هذا اليوم. مرّرت يديّ في شعري. لا يعقد المنبوذون جلسات محاكمة خاصّة إلاّ عندما يشعرون أنّ الحكم بديهي، وقد كان كاليب ذراع جانين الأيمن قبل أن تُقتل.

في الواقع، لا ينبغي أن أقلق حيال مصيره، لأنّه معروف. فكلّ شركاء جانين المقرّبين منها تمّ إعدامهم.

تساءلتُ لماذا أكترث لأمره. فقد خانني، ولم يحاول إيقاف عمليّة إعدامي.

أنا لا أكترث، هذا لا يعنيني، أنا لا أعلم.

قالت كريستينا وهي تطرق بعقد أصابعها على إطار الباب: "مرحباً، تريس". أطلّ يوريا من خلفها. ما زال يبتسم طوال الوقت، لكنّ ابتساماته أصبحت تبدو كأنّها سائلة، وعلى وشك أن تنسكب من وجهه.

سألتني: "هل وصلتك أيّ أخبار؟"

تحقّقت من الغرفة مجدّداً، مع أنّني أعرف أنّها خالية. كان الجميع قد ذهبوا لتناول الإفطار، بحسب الجدول المحدّد لنا. وقد طلبت من يوريا وكريستينا عدم الذهاب إلى الكافتيريا لكي أخبرهم أمراً. كانت معدتي تقرقر أساساً.

أجبتها: "أجل".

جلسا على السرير المقابل، وأخبرتهما كيف تمّت محاصرتي في أحد مختبرات المعرفة في الليلة الفائتة، وكلّ ما جرى بدءاً من غطاء الوسادة، وصولاً إلى الأوفياء والاجتماع المقرّر عقده.

قال يوريا: "أنا متفاجئ لأنّك اكتفيت بلكم أحدهم وحسب".

قلت له بنبرة دفاعية: "في الواقع، كانوا أكثر عدداً". لم يكن من أصول الشجاعة أن أثق بهم فوراً، لكنّنا في أوقات غريبة. كما أنّني لم أعد واثقة من مدى انتمائي إلى الشجاعة، على أيّ حال، بعد انتهاء عهد الجماعات.

شعرت بألم غريب في وسط صدري بسبب تلك الفكرة. فمن الصعب التخلّي عن بعض الأشياء.

قالت كريستينا: "إذاً ما الذي يريدونه برأيك؟ مغادرة المدينة وحسب؟"

"هذا ما يبدو، لكنّني لا أعرف".

"وكيف نعرف أنّهم ليسوا من أتباع إيفلين، يحاولون الإيقاع بنا؟"

أجبت: "لا أدري أيضاً. لكن سيكون من الصعب الخروج من المدينة من دون مساعدة، وأنا لن أمكث هنا، أتعلّم قيادة الباصات، وأخلد إلى النوم عندما يُطلب منّي ذلك".

نظرت كريستينا إلى يوريا بقلق.

قلت: "اسمعا، لستما مضطرّين للمجيء، لكنّني بحاجة إلى الذهاب إلى هناك. أحتاج إلى معرفة من تكون إديث برايور، ومن ينتظرنا خارج السياج، هذا إن كان ثمّة أحد فعلاً. لا أدري لماذا، لكنّني أحتاج إلى المعرفة".

أخذتُ نفساً عميقاً. لست واثقة من أين أتى هذا الإحساس اليائس، لكن بعدما أقررت به الآن، أصبح من المستحيل عليّ أن أتجاهله، وشعرت كما لو أنّه شيء حيّ استيقظ بداخلي بعد نوم طويل، وأخذ يتلوّى في معدتي وحلقي. أحتاج إلى الرحيل، أحتاج إلى الحقيقة.

هذه المرّة، اختفت الابتسامة الضعيفة التي كانت تتراقص على شفتيّ يوريا، وقال: "وأنا أيضاً".

قالت كريستينا: "حسناً". ما زالت عيناها الداكنتان مضطربتين، لكنّها هزّت كتفيها مضيفة: "سنذهب إذاً إلى الاجتماع".

قلت: "هذا جيّد. هل يمكن لأحدكما أن يخبر توبياس؟ يفترض بي البقاء بعيدة عنه، لأنّنا منفصلان. لنلتق في الزقاق عند الساعة الحادية عشرة والنصف".

قال يوريا: "أنا سأخبره، أظنّ أنّني في مجموعته اليوم. سنتعلّم عن المصانع، وأشعر بحماس كبير". ضحك ساخراً، ثمّ أضاف: "هل يمكنني إخبار زيك أيضاً؟ أم أنّه ليس موثوقاً بما فيه الكفاية؟"

"افعل، لكن أكّد عليه ألاّ ينشر الخبر".

نظرت مجدّداً إلى ساعتي التي كانت تشير إلى التاسعة والربع. لا بدّ أنّ مصير كاليب قد تقرّر الآن، فقد حان الوقت ليذهب الجميع لتعلّم وظائف المنبوذين. أحسست أنّ أقلّ سبب قد يثير أعصابي، وكانت ركبتي تهتزّ من تلقاء نفسها.

وضعت كريستينا يدها على كتفي، لكنّها لم تسألني شيئاً، فأحسست بالامتنان. فأنا لا أدري ماذا أقول.

* * *

سلكنا أنا وكريستينا طريقاً معقّداً عبر مقرّ المعرفة للوصول إلى السلّم الخلفي، وتجنّبنا دوريات المنبوذين. خفضت كمّ قميصي ليغطّي معصمي. كنت قد رسمت خارطة على ذراعي قبل المغادرة. فأنا أعرف كيف أذهب إلى مقرّ النزاهة من هنا، لكنّني لا أعرف الشوارع الجانبية التي تخفينا عن أعين المنبوذين.

انتظرَنا يوريا خارج الباب. كان يرتدي الأسود، غير أنّني لمحت لون نكران الذات الرمادي فوق قبّة سترته. كنت أستغرب رؤية أصدقائي الشجعان في ألوان نكران الذات، كأنّني عشت معهم طوال حياتي. في بعض الأحيان، هذا ما أشعر به على أيّ حال.

قال يوريا: "أخبرت فور وزيك، لكنّهما سيلاقياننا هناك. هيّا بنا".

ركضنا في مجموعة عبر الزقاق المؤدّي إلى شارع مونرو، وقاومت رغبتي في الالتفات كلّما علا وقع خطواتنا. على أيّ حال، كانت السرعة أهمّ من الهدوء في هذه اللحظة. انعطفنا إلى شارع مونرو، ثمّ التفتّ إلى الخلف للتحقّق من عدم وجود حرس خلفنا. رأيت أشكالاً داكنة تتحرّك على مقربة من جادة ميشيغان، لكنّها اختفت خلف صفّ من الأبنية من دون أن تتوقّف.

سألتُ كريستينا هامسة، عندما أصبحنا في شارع ستايت، على مسافة بعيدة من مقرّ المعرفة، بحيث أصبح بمقدورنا الكلام: "أين كارا؟"

أجابت: "لا أدري، لا أظنّ أنّها تلقّت دعوة. وهذا غريب، فأنا أعرف أنّها تريد-"

قال يوريا: "هس! المنعطف التالي؟"

استخدمتُ ضوء الساعة لأرى الكلمات المكتوبة على ذراعي. "شارع راندولف!"

أخذت حركتنا إيقاعاً معيّناً، فكانت أحذيتنا تضرب أرض الرصيف، وأنفاسنا تتلاحق في وتيرة واحدة. مع أنّ عضلاتي آلمتني، إلاّ أنّني استمتعت بالركض.

أحسست بألم في ساقيّ عندما وصلنا إلى الجسر، غير أنّني رأيت أخيراً مبنى عديمي الرحمة على الضفة الأخرى من النهر. كان مهجوراً ومعتماً،

فابتسمت على الرغم من ألمي. أبطأت من سرعتي وأنا أعبر الجسر، بينما أحاط يوريا كتفيّ بذراعه.

قال: "والآن، علينا أن نصعد مليون درجة".

"ربّما شغّلوا المصاعد".

هزّ رأسه قائلاً: "مستحيل. أنا متأكّد أنّ إيفلين تراقب استهلاك الكهرباء في المدينة، فهذه أفضل طريقة لكشف أمر الاجتماعات السرّية".

تنهدت متعبة. ربّما كنت أحبّ الجري، لكنّني أكره صعود السلالم.

* * *

وصلنا إلى أعلى السلالم قبل الموعد المحدّد بخمس دقائق، وكنّا نلهث من شدّة التعب. سبقني الآخرون بينما وقفت لالتقاط أنفاسي قرب المصعد. كان يوريا على حقّ، ذلك أنّني لم أر مصباحاً واحداً مضاءً، باستثناء إشارات المخارج. على وهجها الأزرق، رأيت توبياس يخرج من غرفة الاستجواب أمامي.

منذ موعدنا الأخير، لم أتحدّث معه سوى عبر رسائل سرّية. قاومت رغبتي في الاندفاع إليه وتمرير أصابعي على انحناءة شفتيه، ووغمّازة خدّه حين يبتسم، وخطّ حاجبه وفكّه. لكن لم يبق سوى دقيقتين حتّى منتصف الليل. لا وقت لدينا.

أحاطني بذراعيه، واحتضنني بقوّة لبضع ثوانٍ. داعبت أنفاسه أذني، فأغمضت عينيّ، وتركت نفسي أسترخي أخيراً. اختلطت رائحته برائحة الهواء والصابون، لتذكّرني بتوبياس وبالأمان.

قال: "هل ندخل؟ أيّاً كانوا، فهم على عجلة من أمرهم على الأرجح".

"حسناً". كانت ساقاي ترتجفان من فرط الإجهاد، ولم أتخيّل إمكانية هبوط السلالم مجدّداً والعودة جرياً إلى مقرّ المعرفة لاحقاً. "هل عرفت ماذا حلّ بكاليب؟"

أجفل قليلاً. "ربّما يجب أن نتحدّث عن ذلك لاحقاً".

لقد حصلت على جوابي.

سألته بصوت خافت: "سيعدمونه، أليس كذلك؟"

هزّ رأسه، وأمسك بيدي. لم أعرف بماذا أشعر. حاولت في الواقع ألاّ أشعر بشيء.

دخلنا معاً إلى القاعة التي تمّ استجوابنا فيها أنا وتوبياس مرّة تحت تأثير مصل الحقيقة. في المكان الذي اعترفتِ فيه.

وُضعت على الأرض دائرة من الشموع المضاءة فوق إحدى كفّتي ميزان النزاهة المرسومة على الأرض. وجدت في الغرفة خليطاً من الوجوه المألوفة وغير المألوفة. وقفت سوزان مع روبرت يتحدّثان، بينما وقف بيتر بمفرده جانباً، كاتفاً ذراعيه. رأيت يوريا وزيك مع توري وبضع شجعان آخرين. أمّا كريستينا، فكانت مع أمّها وأختها. وفي إحدى زوايا القاعة، رأيت اثنين من المعرفة يقفان بتوتّر. لم تستطع الملابس الجديدة محو الانقسامات التي تفصل بيننا، فهي مغروسة فينا.

أشارت إليّ كريستينا. قالت مشيرة إلى امرأة خطّ الشيب شعرها الأسود المجعّد: "أعرّفك على أمّي، ستيفاني، وهذه شقيقتي، روز. أمّي، روز، أعرّفكما على صديقتي تريس، ومدرّبي فور".

قالت ستيفاني: "نحن نعرفهما، فقد حضرنا استجوابهما قبل بضعة أسابيع، كريستينا".

"أعرف ذلك، كنت أحاول أن أكون مهذّبة وحسب-"

"التهذيب ليس سوى خداع-"

قاطعتها كريستينا بسأم: "نعم، نعم، أعرف".

لاحظتُ أنّ أمّها وشقيقتها نظرتا إلى بعضهما بشيء من الحذر أو الغضب أو كليهما. فجأة التفتت أختها إليّ وقالت: "إذاً، أنت قتلت صديق كريستينا".

ولّدت كلماتها إحساساً بارداً في داخلي، مثل سكّين من الجليد يقسمني إلى نصفين. أردت أن أجيبها، دفاعاً عن نفسي، لكنّني لم أستطع.

وبّختها كريستينا عابسة: "روز!" أحسست أنّ توبياس الواقف بجانبي يتوتّر، ويستعدّ للشجار، كالعادة.

قالت روز: "فكّرت وحسب أنّ إخراج كلّ شيء سيريح الجميع".

قالت كريستينا: "وتتساءلين لماذا تركت جماعتكم؟ الصدق لا يعني قول ما يحلو لك، بل يعني أنّ ما تختارين قوله حقيقي".

"عدم قول الحقيقة هو كذب أيضاً".

"تريدين الحقيقة؟ أنا منزعجة ولا أريد أن أكون هنا الآن. أراكما لاحقاً". ثمّ أخذت بذراعي، وابتعدت بنا أنا وتوبياس عن أسرتها، وهي تهزّ رأسها طوال الوقت. "أنا آسفة، فهما ليستا من الناس المتسامحين".

قلت لها: "لا بأس". لكنّني لم أشعر كذلك.

ظننت أنّه عندما تسامحني كريستينا، ستُغلَق مسألة موت ويل. لكن عندما تقتل شخصاً تحبّه، لا تُغلق المسألة أبداً. كلّ ما في الأمر أنّه يصبح من الأسهل عليك أن تتناسى ما اقترفته يداك.

عند الساعة الثانية عشرة تماماً، فُتح باب القاعة، ودخلت منه امرأتان نحيلتان. كانت الأولى هي جوانا ريس، المتحدّثة السابقة باسم جماعة الوئام، والتي عرفتها من ندبة وجهها واللون الأصفر البادي من

تحت سترتها السوداء. أمّا المرأة الثانية، فلم أستطع رؤية وجهها، لكنّها كانت ترتدي ملابس زرقاء.

أحسست بشيء من الرعب، إذ بدت تقريباً مثل... جانين.

كلاّ، فقد رأيتها وهي تموت. جانين ميتة.

اقتربت المرأة أكثر. كانت جامدة وشقراء، مثل جانين. تدلّت نظّارة من جيبها، وجدلت شعرها في ضفيرة. كانت تنتمي إلى المعرفة من رأسها إلى أخمص قدميها، لكنّها ليست جانين ماثيوس، بل كارا.

هل كارا وجوانا هما زعيمتا الأوفياء؟

قالت كارا: "مرحباً". وتوقّفت كلّ الأحاديث. ابتسمت، لكنّ تعبيرها ذاك بدا مصطنعاً، كما لو أنّها تلتزم وحسب بالتقاليد الاجتماعية. "لا يفترض بنا أن نكون هنا، لذلك، لن أدع هذا الاجتماع يطول كثيراً. كان بعضكم - لا سيّما زيك وتوري - يساعدوننا منذ بضعة أيّام".

حدّقتُ إلى زيك بدهشة. زيك يساعد كارا؟ أظنّ أنّني نسيت أنّه عمل مرّة جاسوساً للشجعان. في ذلك الوقت على الأرجح أثبت ولاءه لكارا، فقد ربطت بينهما صداقة قبل أن تغادر مقرّ المعرفة منذ مدّة قصيرة.

نظر إليّ، وابتسم مرقّصاً حاجبيه.

تابعت جوانا الحديث: "إنّ سبب وجود بعضكم هنا هو أنّنا بحاجة إلى مساعدتكم. وسبب وجود الجميع هنا هو أنّكم لا تثقون بإيفلين جونسون ولا تأتمنونها على مهمّة تحديد مصير هذه المدينة".

جمعت كارا كفّيها أمامها وقالت: "نحن نعتقد بضرورة الاسترشاد بمؤسّسي هذه المدينة، الذين أوضحوا لنا مهمّتنا بطريقتين: تأليف الجماعات، ومهمّة الجامحين التي أوضحتها إديث برايور، وتتمثّل في

إرسال أشخاص إلى خارج السياج لمساعدة من هم هناك عندما يصبح عدد الجامحين كبيراً. ونعتقد أنّه حتّى لو لم يكن الجامحون قد أصبحوا بالعدد المطلوب، فإنّ الأوضاع السيّئة التي آلت إليها مدينتنا تشكّل سبباً كافياً لإرسال أشخاص إلى خارج السياج على أيّ حال.

"بحسب مؤسّسي مدينتنا، لدينا هدفان: الإطاحة بإيفلين والمنبوذين لكي نعيد إقامة نظام الجماعات، وإرسال عدد منّا إلى خارج المدينة لمعرفة ما يجري هناك. ستتولّى جوانا المهمّة الأولى، وسأتولّى أنا الثانية، وهذا ما سنركّز عليه اليوم". أعادت خصلة من الشعر إلى ضفيرتها، وتابعت قائلة: "لن يتمكّن كثير منّا من الذهاب، لأنّ مجموعة بهذا العدد ستلفت الأنظار، ولن تسمح لنا إيفلين بالمغادرة من دون قتال. لذلك أرى أنّه من الأفضل اختيار أشخاص أعرف أنّهم يتمتّعون بالخبرة لمواجهة المخاطر".

نظرتُ إلى توبياس. نحن بالتأكيد نتمتّع بالخبرة لمواجهة المخاطر.

قالت كارا: "كريستينا، تريس، توبياس، توري، زيك، وبيتر هم من اخترتهم. لقد أثبتّم جميعكم مهارتكم لي، بطريقة أو بأخرى، ولهذا السبب أريد أن أطلب منكم مرافقتي إلى خارج المدينة. بالطبع، لستم ملزمون بالموافقة".

سألتها من دون تفكير: "بيتر؟" لم أستطع أن أتخيّل في الواقع ما الذي فعله بيتر لكي "يثبت مهاراته" لكارا.

قالت كارا بصوت لطيف: "لقد منع جماعة المعرفة من قتلك. من برأيك زوّده بتقنية موتك المزيّف؟"

رفعتُ حاجبيّ استغراباً. في الواقع، لم أفكّر بذلك من قبل. فقد حدث الكثير بعد فشل إعدامي، بحيث لم أجد الوقت للتفكّر بتفاصيل

عمليّة إنقاذي. لكن بالطبع، كانت كارا المنشقّة الوحيدة المعروفة عن جماعة المعرفة في ذلك الوقت، والشخص الوحيد الذي يمكن لبيتر أن يعرفه ويلجأ إليه لطلب المساعدة. من غيرها كان سيساعده؟ ومن غيرها كان سيعرف كيف؟

لم أعترض أكثر. صحيح أنّني لا أرغب في مغادرة هذه المدينة مع بيتر، لكنّني يائسة جدّاً للرحيل ولا أرغب في إثارة ضجّة أكبر حول الموضوع.

قالت فتاة تقف جانباً، وقد بدا عليها التشكّك: "معظم أفراد المجموعة من الشجعان". كان حاجباها المقطّبان كثيفين، وبشرتها شاحبة. عندما التفتَت، رأيت حبراً أسود خلف أذنها تماماً. لا شكّ أنّها انتقلت إلى المعرفة من جماعة الشجاعة.

قالت كارا: "هذا صحيح، لكن ما نحتاج إليه الآن هو أشخاص يتمتّعون بمهارات الخروج من المدينة سرّاً، وأظنّ أنّ تدريب الشجعان يؤهّلهم جيّداً إلى هذه المهمّة".

قال زيك: "أنا آسف، لكنّني لا أستطيع الذهاب. لا يمكنني ترك شونا هنا، لا سيّما وأنّ أختها..."

قال يوريا، وهو يرفع يده: "أنا أذهب. أنا من الشجعان، وماهر في الرماية. كما أنّني أتمتّع بالجاذبية".

ضحكتُ، لكنّ كارا لم يبد عليها التسلية، بل اكتفت بهزّ رأسها. "شكراً لك".

قالت الفتاة المنتقلة إلى المعرفة من جماعة الشجاعة: "كارا، عليكم الخروج من المدينة بسرعة، وهذا يعني أنّكم بحاجة إلى من يقوم بتشغيل القطار".

قالت كارا: "أنت محقّة. هل يعرف أحدكم كيفيّة قيادة قطار؟"

قالت الفتاة: "آه، أنا أعرف. ألم تفهمي ما عنيته؟"

بدأت أجزاء الخطّة تلتئم ببعضها. اقترحت جوانا أن نستخدم شاحنات الوئام المركونة عند آخر سكك الحديد خارج المدينة، وتطوّعت بإعطائنا إيّاها. وعرض روبرت مساعدتها. أمّا ستيفاني وروز فتطوّعتا لمراقبة تحرّكات إيفلين في الساعات التي تسبق هربنا، وإبلاغ مجمّع الوئام بأيّ سلوك غير اعتيادي بواسطة اللاسلكي. وتطوّع الشجعان الذين أتوا مع توري بإيجاد أسلحة لنا. كانت فتاة المعرفة تلفت انتباهنا إلى أيّ نقطة ضعف تراها، وكذلك فعلت كارا، إلى أن أصبح لكلّ منّا دوره، كما لو أنّنا شيّدنا للتوّ بُنياناً مرصوصاً.

بقيت مسألة واحدة، طرحتها كارا.

"متى يجدر بنا الذهاب؟"

فتطوّعتُ للإجابة:

"ليلة غد".

الفصل التاسع
توبياس

تسلّل هواء الليل إلى رئتيّ، فشعرت كما لو أنّه أحد آخر أنفاسي. غداً سأرحل عن هذا المكان بحثاً عن آخر.

توجّه كلّ من يوريا، وزيك، وكريستينا إلى مقرّ المعرفة، بينما أمسكتُ بيد تريس لتأخيرها عنهم.

قلت لها: "انتظري، دعينا نذهب إلى مكان ما".

"مكان ما؟ لكن..."

"قليلاً فقط". قدتها إلى زاوية المبنى. في الليل، يمكنني أن أرى تقريباً شكل الماء عندما كان يملأ القنال الخالي، الذي أصبح داكناً الآن، يتراقص عليه ضوء القمر. "أنت معي، ألا تذكرين؟ لن يقوموا باعتقالك".

التوت زاوية فمها بشبه ابتسامة.

عند المنعطف، استندَت إلى الجدار، ووقفتُ أمامها، فيما امتدّ النهر خلفي. كانت ترتدي ملابس سوداء جعلت لون عينيها يتنافر ويبدو ساطعاً وملفتاً.

ضغطَت يديها على وجهها، وكوّرت أصابعها في شعرها: "لا أدري ماذا أفعل، أعني بشأن كاليب".

"ألا تعرفين؟"

أبعدت إحدى يديها للنظر إليّ.

"تريس". وضعتُ يديّ على الجدار من جانبي وجهها، وانحنيت نحوها. "أنت لا تريدينه أن يموت، أعلم ذلك".

أغمضت عينيها قائلة: "المشكلة هي... أنّني... غاضبة جدّاً. أحاول عدم التفكير فيه لأنّني عندما أفعل أشعر أنّني أريد أن..."

"أعرف. ربّاه، أعرف ذلك". فقد حلمت طوال حياتي بقتل ماركوس. وفي إحدى المرّات، فكّرت كيف سأقتله؛ بسكّين، لكي أشعر بالدفء وهو يغادر جسده، ولكي أكون قريباً بما فيه الكفاية وأرى الضوء يفارق عينيه. وقد أخافني ذلك القرار بقدر ما أخافني عنفه.

"لكن أبي وأمّي كانا سيرغبان في أن أنقذه". فتحت عينيها ونظرت إلى السماء. "كانا سيقولان إنّه من الأنانية أن ندع شخصاً ما يموت لمجرّد أنّه أخطأ في حقّنا. اغفري، اغفري، اغفري".

"لا يهمّ ما يريدانه، تريس".

ابتعدت عن الجدار قائلة: "بلى، يهمّ! ما يريدانه مهمّ دائماً، لأنّه ينتمي إليهما أكثر ممّا ينتمي إليّ. وأريدهما أن يفخران بي. هذا كلّ ما أريد".

ثبّتت نظر عينيها الشاحبتين عليّ بإصرار. لم أملك يوماً أبوين صالحين يشكّلان مثالاً لي، أبوين أكون على مستوى توقّعاتهما، مثلها. يمكنني أن أرى ذلك فيها، في الشجاعة والجمال اللذين دُمغا فيها مثل بصمة اليد.

لمست خدّها، ومرّرت أصابعي في شعرها. "سأساعده على الهرب".

"ماذا؟"

"سأخرجه من زنزانته، غداً، قبل رحيلنا". هززت رأسي مؤكّداً على ذلك. "سأفعل".

"حقّاً؟ هل أنت واثق؟"

"بالطبع أنا واثق".

قالت عابسة: "أنا... أشكرك. أنت... رائع".

"لا تقولي ذلك، فأنت لم تكتشفي بعد ما هي دوافعي الخفية".

ابتسمتُ مضيفاً: "في الواقع، لم أحضرك إلى هنا للتحدّث عن كاليب".

"حقّاً؟"

...تسلّل هواء الليل إلى رئتيّ، فشعرت كما لو أنّه أحد أوّل أنفاسي.

الفصل العاشر
توبياس

بدت الأبنية المدمّرة في قطاع الشجاعة أشبه بأبواب إلى عوالم أخرى. رأيت أمامي المبنى الزجاجي يناطح السحاب.

كان النبض الذي أشعر به في أناملي يشير إلى الثواني التي تنقضي. ما زال الهواء دافئاً في رئتيّ، مع أنّ الصيف أشرف على نهايته. كنت معتاداً على كثرة الجري والقتال لتمرين عضلاتي. وقد أنقذتني قدماي كثيراً، بحيث أصبحتُ عاجزاً عن فصل الجري والقتال عن وظيفتهما الأساسية، أي كونهما وسيلة للفرار من الخطر، والبقاء على قيد الحياة.

عندما وصلت إلى المبنى، رحت أمشي أمام المدخل لالتقاط أنفاسي. عكست ألواح الزجاج من فوقي الضوء في كلّ الاتجاهات. في مكان ما في الأعلى، يوجد الكرسي الذي جلست عليه وأنا أشغّل محاكاة الهجوم، وأثر من دماء والد تريس على الجدار. في مكان ما هناك، خرق صوت تريس المحاكاة التي كانت تسيّرني، وأحسست بيدها على صدري، تعيدني إلى الواقع.

فتحتُ الباب المؤدّي إلى غرفة مشاهد الخوف، وفتحت العلبة الصغيرة التي كانت في جيبي الخلفي والمحتوية على الإبر. هذه هي العلبة التي استخدمتُها دائماً، والتي اصطفّت فيها الإبر. إنّها دليل إمّا على جانب مَرضي بداخلي، أو على جانب شجاع.

ثبتُّ الإبرة فوق حلقي، وأغمضت عينيّ وأنا أضغط عليها. سقطت العلبة السوداء على الأرض، وعندما فتحت عينيّ مجدّداً، كانت قد اختفت.

وجدت نفسي واقفاً على سطح مبنى هانكوك، قرب السلك الذي يراقص عليه الشجعان الموت. كانت السحب سوداء محمّلة بالمطر، والرياح ملأت فمي عندما فتحته لأتنفّس. إلى يميني، لوّحت الريح بالسلك، وراح يضرب النوافذ ويحطّمها في الأسفل.

ركّزت نظري على طرف السطح، وسط ثقب. كنت أسمع زفيري على الرغم من عويل الرياح. أجبرت نفسي على الاقتراب من الحافة. في تلك اللحظة، بدأ المطر يتساقط على رأسي وكتفيّ، ويجرّني نحو الأرض. ملتُ إلى الأمام قليلاً، وبدأت بالسقوط. أغلقت فمي على صرخاتي التي كتمها وخنقها خوفي.

عندما هبطت على الأرض، سرعان ما بدأت الجدران تُطبق عليّ، بحيث ارتطم الخشب بظهري، ومن ثمّ برأسي، وأخيراً بساقيّ. رهاب الأماكن المغلقة. ضممت ذراعيّ على صدري، وأغمضت عينيّ، محاولاً عدم الشعور بالذعر.

فكّرت بإريك في مشهد الخوف الخاصّ به، وهو يحوّل ذعره إلى خضوع بالتنفّس العميق والمنطق. وتريس التي تستحضر أسلحة من الهواء لتهاجم أسوأ كوابيسها. لكنّني لستُ إريك، ولست تريس. من أنا؟ إلام أحتاج للتغلّب على مخاوفي؟

أعرف الإجابة، بالطبع أعرفها: أحتاج إلى حرمانها من السلطة للسيطرة عليّ. أحتاج أن أعرف أنّني أقوى منها.

رحت أتنفّس، ثمّ وضعت كفّيّ على الجدران إلى يميني ويساري. بدأ الصندوق يتشقّق، ثمّ تحطّم، وانهارت الألواح على الأرض الإسمنتية. فوقفت في الظلام.

علّمنا مدرّبي عمّار أنّ مشاهد الخوف تتبدّل دائماً بحسب مزاجنا، وتتغيّر بحسب همسات كوابيسنا. غير أنّ مشاهد الخوف التي أمرّ بها كانت دائماً متشابهة، حتّى بضعة أسابيع خلت. كان ذلك عندما أثبتّ لنفسي أنّني قادر على التغلّب على أبي، وعندما اكتشفت شخصاً يرعبني فقدانه.

لا أعرف ما الذي ينتظرني الآن.

انتظرت طويلاً من دون أن يتغيّر شيء. بقيت الغرفة مظلمة، والأرض باردة وصلبة، وقلبي ينبض أسرع من عادته. نظرت إلى ساعتي، واكتشفت أنّها في اليد الخاطئة. فأنا أضعها في يدي اليسرى، وليس اليمنى. وساعتي ليست رمادية، بل سوداء.

بعد ذلك رأيت شعراً خشناً على أصابعي لم يكن موجوداً من قبل. كما زال الجلد الميت عن عقدي. نظرت إلى الأسفل، لأرى أنّني أرتدي سروالاً رمادياً وقميصاً رمادياً. كنت أكثر بدانة عند البطن، وأنحف عند الكتفين.

نظرت إلى مرآة ظهرت أمامي، غير أنّ الوجه الذي كان يحدّق إليّ هو وجه ماركوس.

غمزني، فأحسست أنّ العضلات المحيطة بعيني تتقلّص، مع أنّني لم آمرها بذلك. من دون سابق إنذار، ارتفعت يده، بل يدي، بل يدانا إلى الزجاج، وأطبقت على عنق صورتي المنعكسة على المرآة. ثمّ اختفت المرآة وأصبحت يدي، أو يده، أو يدانا مطبقتين حول عنقنا، وبدأت بقع سوداء تظهر على أطراف حقلنا البصري. انخفضنا على الأرض، واشتدّت القبضة كأنّها من حديد.

عجزت عن إيجاد طريقة للتحرّر من هذا المشهد.

بدأت أصرخ تلقائياً، فشعرت بارتجاج الأوتار الصوتية تحت يديّ. تخيّلت تلك اليدين مثل يديّ الحقيقتين، كبيرتين، بأصابع نحيلة وعقد مكسوّة بالجلد القاسي بسبب ساعات أمضيتها في لكم كيس الملاكمة. تخيّلت انعكاسي على أنّه مياه تجري على بشرة ماركوس، واستبدلت كلّ جزء منه بجزء منّي. أعدت رسم نفسي على صورتي الحقيقية.

فجأة، وجدت نفسي راكعاً على الإسمنت، ألهث لالتقاط أنفاسي.

كانت يداي ترتجفان وأنا أمرّر أصابعي على عنقي، وكتفيّ، وذراعيّ، فقط لأتأكّد أنّني عدت أنا نفسي.

كنت قد أخبرت تريس، ونحن على متن القطار في طريقنا للقاء إيفلين منذ بضعة أسابيع، أنّ ماركوس ما زال يظهر في مشهد الخوف، لكنّه تغيّر. أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أفكّر فيه. فقد شغل تفكيري كلّ ليلة قبل أن أنام، وكلّما استيقظت في الصباح. ما زلت أخشاه، أعرف ذلك، لكن بطريقة مختلفة. فأنا لم أعد طفلاً يخاف من التهديد الذي يشكّله أبي الغاضب لسلامتي، بل أصبحت رجلاً يخشى تهديده لشخصيتي، ومستقبلي، وهويتي.

لكن حتّى هذا الخوف، لا يقارَن بذاك الذي سيليه، أعرف ذلك. ومع أنّني أتوقّعه، غير أنّني وددت لو أستطيع فتح شريان من شراييني، وإخراج المصل من جسدي عوضاً عن مواجهته مجدّداً.

ظهرت بقعة من الضوء على الإسمنت أمامي. امتدّت يد إلى الضوء، وكانت أصابعها معقوفة كالمخالب، ثمّ تبعتها يد أخرى، ورأس ذو شعر أشقر قذر. قحّت المرأة، وجرّت نفسها إلى دائرة الضوء، إنشاً تلو الآخر. حاولتُ الاقتراب منها لمساعدتها، لكنّني لم أستطع الحراك من مكاني.

التفتت المرأة نحو الضوء، لأكتشف أنّها تريس. سال الدم على شفتيها وانحدر على ذقنها. نظرت إليّ بعينيها الحمراوين، وقالت بصوت خافت: "النجدة".

قحّت مجدّداً، وسال الدم على الأرض. فاندفعتُ نحوها، وأنا مدرك أنّني إن لم أصل إليها سريعاً، ستنطفئ عيناها. قبضَت أيادٍ على ذراعيّ وكتفيّ وصدري، مشكّلة قفصاً بشرياً، لكنّني قاومتُ للوصول إليها. أنشبتُ أظافري في الأيادي التي تشدّني إلى الخلف، لكنّني لم أخدش سوى نفسي.

صرختُ منادياً باسمها، فقحّت مجدّداً، وسال من فمها هذه المرّة مزيد من الدم. صاحت طالبة المساعدة، وصرختُ باسمها، ولم أسمع شيئاً، أو أشعر بشيء، غير نبض قلبي والخوف الذي يستبدّ بي.

أخيراً، سقطَت على الأرض بلا حراك، وغابت عيناها. لقد فات الأوان.

تبدّد الظلام، وعادت الأضواء لتنير الغرفة. رأيت الكتابات التي تملأ جدران غرفة مشهد الخوف، والمرايا التي تفصل الغرفة عن غرفة المراقبة، والكاميرات الموزّعة في الزوايا لتسجيل كلّ جلسة. كان كلّ شيء في مكانه. تصبّب العرق من عنقي وظهري، فمسحت وجهي بطرف قميصي، واقتربت من الباب المقابل، تاركاً صندوقي الأسود مع الحقنة والإبرة خلفي.

لم أعد أحتاج أن أعيش مخاوفي مجدّداً بعد اليوم. كلّ ما عليّ فعله الآن هو أن أبذل قصارى جهدي للتغلّب عليها.

* * *

علّمتني التجربة أنّ الثقة بالنفس وحدها قد تقود الإنسان إلى أماكن محظورة، مثل الزنزانات الموجودة في الطابق الثالث من مقرّ المعرفة.

لكنّ هذا الأمر لم ينجح هنا على ما يبدو. فقد استوقفني أحد المنبوذين بطرف بندقيته قبل أن أبلغ الباب، فانتابني التوتّر.

"إلى أين؟"

وضعتُ يدي على بندقيته ودفعتها بعيداً عن ذراعي. "لا تصوّب هذا الشيء عليّ. أنا هنا بناءً على أوامر إيفلين، وقد أتيت لرؤية سجين".

"لم أتلقّ أيّ أوامر للسماح بدخول أحد بعد الأوقات المخصّصة للزيارة اليوم".

خفضتُ صوتي لكي يشعر أنّني أبوح له بسرّ. "هذا لأنّها لم تدرجها في السجلّ".

نادى صوت من الطابق العلوي: "تشاك!" كانت تيريز، التي أشارت بيدها وهي تنزل مضيفة: "دعه يمرّ، لا بأس".

أومأت برأسي لتيريز شاكراً، وتابعتُ السير. تمّت إزالة الحطام من الأروقة، لكنّ المصابيح المكسورة لم تُستبدل، لذلك مررت بمسافات معتمة بدت أشبه بالكدمات في طريقي إلى الزنزانة المقصودة.

عندما وصلت إلى الممرّ الشمالي، لم أتوجّه مباشرة إلى الزنزانة، بل إلى المرأة الواقفة في آخر الممرّ. كانت متوسّطة السنّ، عيناها متهدّلتين عند الأطراف، وفمها مزموم. بدت مرهقة من كلّ شيء، بما في ذلك أنا.

بادرتها قائلاً: "مرحباً، أنا توبياس إيتون. أتيت لأخذ سجين بناءً على أوامر إيفلين جونسون".

لم يتغيّر تعبيرها عندما سمعت اسمي، وبدا لي لبضع ثوانٍ أنّني سأضطرّ إلى إفقادها الوعي بضربة منّي لكي أحصل على ما أريد. أخرجت قطعة مجعّدة من الورق من جيبها وفردتها في كفّها الأيسر. كانت تحتوي على قائمة أسماء السجناء وأرقام غرفهم.

سألتني: "ما اسمه؟"

"كاليب برايور. 308أ".

"أنت ابن إيفلين، صحيح؟"

"أي نعم. أعني... أجل". لم يبد عليها أنّها من الناس الذين يحبّون جواباً عفوياً مثل "أي نعم".

قادتني إلى باب معدني أبيض، يحمل الرقم 308أ. أتساءل بماذا كانت تُستعمل هذه الغرفة عندما لم تكن مدينتنا تحتاج إلى هذا العدد من الزنزانات. طبعت رمزاً، ففُتح الباب.

سألتني قائلة: "هل يفترض بي أن أدّعي عدم رؤية ما تفعله؟"

لا بدّ أنّها تظنّ أنّني أتيت لقتله، فقرّرت أن أتركها على ظنّها.

قلت: "أجل".

"أسدني خدمة وأوصِ إيفلين بي. فأنا لا أريد أن أناوب كثيراً في الليل. اسمي هو دريا".

"لك ما طلبتِ".

جعّدت الورقة في يدها، ودسّتها في جيبها مجدّداً وهي تبتعد. أبقيت يدي على قبضة الباب إلى أن عادت إلى مكانها، والتفتت جانباً بحيث لم تعد مواجهة لي. يبدو أنّها فعلت ذلك عدّة مرّات من قبل. أتساءل كم من الأشخاص اختفوا من هذه السجون بناءً على أوامر إيفلين.

دخلتُ لأجد كاليب برايور جالساً إلى طاولة معدنية، منحنياً فوق كتاب، وقد سرّح شعره جانباً.

سألني: "ماذا تريد؟"

"أكره أن أزفّ إليك هذا النبأ-" كنت قد قرّرت قبل بضع ساعات ماذا سأفعل، وأردت أن ألقّن كاليب درساً. غير أنّ هذا الدرس سيتضمّن بضع أكاذيب. "أتعلم، في الواقع، أنا لا أكره ذلك. لقد تمّ تقديم موعد إعدامك بضعة أسابيع، وحُدّد هذه الليلة".

هذا الكلام لفت انتباهه بالطبع. إذ استدار في كرسيه، وحدّق إليّ، بعينين مذهولتين ومذعورتين، مثل فريسة تواجه حيواناً مفترساً.

"أهذه مزحة؟"

"لستُ بارعاً حقّاً في المزاح".

هزّ رأسه قائلاً: "كلاّ، كلاّ، لديّ عدّة أسابيع، ليس الليلة، لا-"

"إن أقفلت فمك، سأمنحك ساعة لتتقبّل الخبر. أمّا إن واصلتَ الكلام، فسأضربك وأطلق عليك النار في الزقاق في الخارج قبل أن تستعيد وعيك. قرّر الآن".

إنّ رؤية شخص من المعرفة وهو يعالج معلومات معيّنة هو أشبه بالنظر إلى ساعة من الداخل، ورؤية محرّكاتها وهي تدور، وتتحرّك، وتعمل مع بعضها لإنتاج وظيفة معيّنة، وهي في حالة كاليب، استيعاب فكرة الموت الوشيك.

تحوّلت عينا كاليب إلى الباب المفتوح خلفي، فأمسك الكرسي، وقلبه، وضربني به. أصابني بضربة قوية، أبطأت حركتي بما فيه الكفاية لأدعه يمرّ من أمامي.

لحقتُ به إلى الممرّ، وأنا أشعر بالألم في ذراعيّ بسبب ضربة الكرسي. كنت أسرع منه، فضربته على ظهره بحيث سقط منبطحاً على الأرض من دون أن يتمكّن من تجنّب ذلك. ثبّتُّ ظهره بركبتي، ثمّ شددت يديه إلى الخلف وقيّدتهما برباط بلاستيكي. صدر عنه أنين ألم، وعندما أجبرته على الوقوف، كان الدم يسيل من أنفه.

التقت نظراتي بنظرات دريا للحظة واحدة، قبل أن تلتفت جانباً.

قمت باقتياده عبر الممرّ، لكن ليس من الطريق الذي أتيت منه، بل باتّجاه مخرج الطوارئ. هبطنا عدداً من السلالم، وتردّدت أصداء خطواتنا، عالية، ومتنافرة، وجوفاء. عندما وصلتُ إلى الأسفل، طرقت على الباب المؤدّي إلى الخارج.

فتح زيك الباب، وطغت على وجهه ابتسامة سخيفة.

"هل واجهتَ مشاكل مع الحرّاس؟"

"كلاّ".

"عرفتُ أنّ تجاوز دريا سيكون سهلاً، فهي لا تأبه بأيّ شيء".

"يبدو أنّها سبق وغضّت النظر من قبل".

"لا يفاجئني ذلك. هل هذا هو برايور؟"

"بلحمه ودمه".

"ولماذا ينزف؟"

"لأنّه أحمق".

أعطاني زيك سترة سوداء طُرّز رمز المنبوذين على قبّتها. "لم أكن أعرف أنّ الغباء يسبّب نزفاً تلقائياً من الأنف".

وضعتُ السترة على كتفي كاليب وأغلقت أحد الأزرار فوق صدره، فتجنّب النظر إليّ.

أجبته: "أظنّ أنّها ظاهرة جديدة. هل الزقاق خالٍ؟"

قال زيك وهو يعطيني مسدّسه، موجّهاً القبضة نحوي: "لقد تأكّدتُ من ذلك. كن حذراً، فهو محشوّ. ما رأيك الآن أن تلكمني لأكون أكثر إقناعاً عندما أخبر المنبوذين أنّك سرقته منّي".

"تريدني أن ألكمك؟"

"آه، كأنّك لم ترغب يوماً في ذلك. هيّا، فور".

أنا أحبّ فعلاً أن أضرب الناس. أحبّ هذا الفيض من القوّة والطاقة، والإحساس أنّني لا أُقهر لأنّني أستطيع إيذاء الناس. لكنّني أكره هذا الجزء منّي، لأنّه الجزء الأكثر تضرّراً.

استعدّ زيك، وشددت قبضتي.

قال: "لتكن ضربة سريعة، أيّها الصعلوك".

قرّرت استهداف الفكّ، الذي يكون قوياً ولا يسهل إيذاؤه، لكن مع ذلك ستظهر عليه كدمة جيّدة. وجّهتُ ضربة إلى المكان المقصود، فصدر عن زيك أنين ألم، ووضع يديه على وجهه. أمّا أنا فشعرتُ بألم في ذراعي، ورحت أهزّ يدي.

بصق زيك على حائط المبنى وهو يقول: "ممتاز، أظنّ أنّ هذا سيَفي بالغرض".

"أظنّ ذلك".

"لن أراك مجدّداً على الأرجح، أليس كذلك؟ أعني، أعرف أنّ الباقين قد يعودون إلى هنا، لكن أنت..." تردّد قليلاً، ثمّ تابع بعد لحظة: "يبدو لي أنّك ستكون مسروراً في ترك الماضي خلفك".

طأطأت رأسي مجيباً: "أنت على حقّ. هل أنت واثق أنّك لا تريد المجيء؟"

"لا أستطيع. ليس بمقدور شونا التنقّل على كرسيها في ذلك المكان، ولا يمكنني تركها، كما تعلم". لمس فكّه يتحسّس بشرته. "لا تدع يوري يكثر من الشراب، اتفقنا؟"

"اتفقنا".

"أنا جادّ". انخفض صوته كما يفعل دائماً عندما يتكلّم بجدّية. "عدني أن تعتني به".

لطالما لاحظت، منذ أن التقيت بزيك ويوريا، أنّهما مقرّبان من بعضهما أكثر من معظم الأشقّاء. فقد خسرا أباهما في الصغر، وأظنّ أنّ زيك أخذ دور الأب والأخ بعد ذلك. لا أعرف ما هو شعور زيك وهو يرى أخاه يرحل الآن، لا سيّما وأنّ وفاة مارلين أحزنته بقدر ما أحزنت يوريا.

أجبته: "أعدك".

أعرف أنّه عليّ الرحيل، لكنّني أردت أن أطيل هذه اللحظة قليلاً لأشعر بمعناها. فقد كان زيك من أوّل الأصدقاء الذين تعرّفت عليهم في جماعة الشجاعة، بعدما اجتزت فترة التدريب بنجاح. بعد ذلك، عمل معي في غرفة المراقبة، يراقب الكاميرات ويبتكر برامج سخيفة تلفظ الكلمات على الشاشة، أو يلعب حزازير بالأرقام. لم يسألني يوماً عن اسمي الحقيقي، أو لماذا انتهى مبتدئ حلّ في المرتبة الأولى في قسم الأمن والتعليم عوضاً عن القيادة. ولم يطلب منّي شيئاً.

قال: "تعال لأحتضنك".

أبقيتُ يداً حازمة على ذراع كاليب، ولففت ذراعي الأخرى حول زيك، الذي فعل الشيء نفسه.

عندما ابتعدنا عن بعضنا، دفعت كاليب في الزقاق، ولم أستطع أن أقاوم الالتفات إلى زيك قائلاً: "سأشتاق إليك".

"وأنا أيضاً يا عزيزي!"

ابتسم، وبدت أسنانه البيضاء في ظلال المغيب. كانت آخر ما رأيته منه قبل أن أنعطف وأبدأ بالجري للحاق بالقطار.

قال كاليب وهو يلهث: "يبدو أنّك ذاهب إلى مكان ما، أنت والآخرون".

"نعم".

"هل أختي ذاهبة أيضاً؟"

أيقظ سؤاله بداخلي غضباً حيوانياً لن تكفيه الكلمات الجارحة أو الإهانات. لن يرضيه في الواقع سوى ضربة تسحق أذنه تحت كفّي. أُجفل وحنى كتفيه استعداداً لضربة ثانية.

تساءلتُ إن كنت أبدو كذلك عندما كان أبي يضربني.

قلت له: "ليست أختك، لقد خنتها، وعذّبتها، وحرمتها من آخر فرد بقي لها من أسرتها. ولماذا؟ لأنّك أردتَ الحفاظ على أسرار جانين، والبقاء في المدينة، بأمن وسلام؟ أنت جبان".

"أنا لست جباناً! لقد عرفتُ أنّه إن-"

"لماذا لا تبقي فمك مقفلاً مثلما اتّفقنا؟"

"حسناً. إلى أين تأخذني أساساً؟ ألا يمكنك قتلي هنا؟"

توقّفت عندما رأيت شكلاً يتحرّك على الرصيف خلفنا، ثمّ يختفي من حقلي البصري. التفتّ، وشهرت مسدّسي، لكنّ الشكل اختفى في أحد الأزقّة.

تابعت السير، وأنا أقتاد كاليب معي، وأصغي إلى أيّ خطوات خلفي. دسنا على الزجاج المحطّم بأحذيتنا. وراقبت المباني المعتمة وإشارات الشوارع، المتدلّية من مفصلاتها، مثل أوراق الخريف التي

توشك أن تتساقط. وصلت أخيراً إلى محطّة القطار الذي سنستقلّه، ودفعت كاليب لصعود الدرجات المعدنية المؤدّية إلى المنصّة.

رأيت القطار آتياً من بعيد، يقوم برحلته الأخيرة عبر المدينة. في الماضي، كانت القطارات أشبه بقوّة الطبيعة بالنسبة إليّ، شيء يواصل طريقه بغضّ النظر عمّا فعلناه داخل المدينة، شيء حيّ، وقويّ، ينبض بالحركة. أمّا الآن، فقد التقيت بالرجال والنساء الذين يشغّلونه، وزال شيء من هذا الغموض، لكنّ معنى القطار بالنسبة إليّ لن يتغيّر أبداً. فأوّل أعمالي كشجاع كان القفز على متنه، وفي كلّ يوم تلا ذلك، كان القطار مصدر حرّيتي، يمنحني القدرة على التنقّل في هذا العالم، بعدما شعرت أنّني سجين في قطاع نكران الذات، في المنزل الذي كان حبسي.

عندما اقترب القطار، قطعتُ الرباط المحيط بيديّ كاليب بسكّين جيب، وأبقيت قبضتي على ذراعه.

قلت له: "أنت تعرف كيف تقفز، أليس كذلك؟ اصعد إلى المقطورة الأخيرة".

فكّ أزرار السترة، وتركها تسقط على الأرض قائلاً: "أجل".

انطلقنا نركض من أحد أطراف المنصّة على طول الألواح البالية، محاولين الاقتراب من الباب المفتوح. لم يمدّ يده ليمسك بقبضة الباب، فدفعته نحوها. تعثّر، ثمّ أمسك بها، ورفع نفسه إلى داخل المقطورة الأخيرة. بدأت المسافة تضيق، والمنصّة تشرف على النهاية، غير أنّني تمكّنت من إمساك قبضة الباب ودفع نفسي إلى الداخل في اللحظة الأخيرة.

وقفت تريس داخل المقطورة، وعلى وجهها ابتسامة صغيرة. كانت سترتها السوداء مغلقة حتّى العنق، بحيث أحاط السواد بوجهها.
احتضنتني قائلة: "لطالما أحببت رؤيتك وأنت تفعل ذلك".
ابتسمتُ.
سأل كاليب من خلفي: "أهذا ما خطّطتما له؟ أن تكون موجودة عندما تقتلني؟ هذا-"
سألتني تريس من دون أن تنظر إلى أخيها: "تقتله؟"
أجبتها بصوت عالٍ لكي يسمعني: "أجل، تركته يعتقد أنّني سأقوم بإعدامه، مثلما فعل بك في مقرّ المعرفة".
بدت الصدمة على وجهه الذي أضاءه القمر. "أنا... ألم يكن هذا صحيحاً؟" لاحظت أنّه لم يدخل أزرار قميصه في العروات المناسبة.
أجبته: "كلاّ، بل أنقذتُ حياتك للتوّ".
همّ بقول شيء، لكنّني قاطعته. "ربّما لن ترغب في شكري بعد. فنحن سنأخذك معنا إلى خارج السياج".
خارج السياج هو المكان الذي بذل في الماضي الغالي والرخيص لكي يتجنّبه، بحيث انقلب ضدّ شقيقته. يبدو ذلك على كلّ حال عقاباً أقسى من الموت. فالموت سريع، وأكيد. أمّا المكان الذي نحن قاصدوه، فلا شيء مؤكّد فيه.
بدا خائفاً، لكن ليس بقدر ما توقّعت. أحسست أنّني فهمت في تلك اللحظة كيف يرتّب أولوياته: حياته أوّلاً، وراحته في عالم من صنعه ثانياً، وبعد ذلك، يأتي الأشخاص الذين يفترض أنّه يحبّهم. إنّه شخص خسيس لا يفهم مدى دناءته. وحتّى لو أمطرته بالإهانات، فلن يغيّر ذلك شيئاً. لذلك، وعوضاً عن الإحساس بالغضب، شعرت بالثقل والعجز.

لم أعد أريد أن أفكّر فيه. أمسكت بيد تريس وأخذتها جانباً، إلى الطرف الآخر من المقصورة، لكي نشاهد المدينة وهي تتوارى عن أنظارنا. وقفنا جنباً إلى جنب عند الباب المفتوح، وأمسك كلّ منّا بإحدى قبضتي الباب. رسمت المباني أشكالاً داكنة ومسنّنة في الأفق.

قلت: "كنّا ملاحقَين".

أجابت: "سنلتزم جانب الحذر".

"أين الآخرون؟"

"في المقطورات الأولى، فقد أردت أن نكون بمفردنا، أو بالأحرى بمفردنا قدر الإمكان".

ابتسمت لي. كنّا نمضي لحظاتنا الأخيرة في المدينة، وبالطبع، يجب أن نمضيها بمفردنا.

قالت: "سأشتاق حقّاً إلى هذا المكان".

"حقّاً؟ بالنسبة إليّ، أنا سعيد بالرحيل عنه".

وكزتني قائلة: "ألن تفتقد إلى أيّ شيء؟ ألا تملك فيه ذكريات جميلة؟"

ابتسمت مجيباً: "حسناً، بعض الذكريات".

"ألستُ موجودة في أيّ منها؟ يبدو هذا أنانياً، أنت تعرف ما أعنيه".

أجبتها وأنا أهزّ كتفيّ: "بالتأكيد. أعني، لقد حصلت على حياة جديدة في جماعة الشجاعة، وعلى اسم جديد. هناك، أصبحت أُعرف باسم فور، بفضل مدرّبي. هو من أطلق عليّ هذا اللقب".

أمالت رأسها متسائلة: "حقّاً؟ ولماذا لم ألتق به؟"

"لأنّه مات، كان جامحاً". هززت كتفيّ مجدّداً، لكنّني لم أشعر فعلاً بعدم الاكتراث. كان عمّار أوّل من لاحظ أنّني جامح، وساعدني على إخفاء الأمر. لكنّه لم يستطع إخفاء جموحه، وهذا ما أودى بحياته.

لمسَت ذراعي بخفّة، لكنّها لم تقل شيئاً. أمّا أنا، فوقفت بانزعاج.

قلت: "أترين؟ لديّ كثير من الذكريات السيّئة هنا. أنا جاهز للرحيل".

شعرت بالفراغ، لكن ليس بسبب الحزن، بل بسبب الارتياح، بعدما تلاشى توتّري. فإيفلين موجودة في تلك المدينة، وكذلك ماركوس، وكلّ الأحزان، والكوابيس، والذكريات التعيسة، هذا فضلاً عن الجماعات التي جعلتني حبيس جانب واحد من شخصيتي. شددت على يد تريس بقوّة.

قلت مشيراً إلى مجموعة أبنية في البعيد: "انظري، ذاك هو قطاع نكران الذات".

ابتسمَت، لكنّ عينيها كانتا دامعتَين، كما لو أنّ جزءاً نائماً منها يناضل للخروج، وينسكب من عينيها. هسهس القطار على سكّته، وسالت دمعة على خدّ تريس، بينما اختفت المدينة في الظلام.

الفصل الحادي عشر

تريس

أبطأ القطار من سرعته عندما اقتربنا من السياج، في إشارة من السائق للترجل. جلسنا أنا وتوبياس عند باب المقطورة وهي تتقدّم بتكاسل على السكّة. أحاطني بذراعه، ولامس شعري بأنفه، واشتمّه. نظرت إليه، وإلى أعلى صدره الظاهر من تحت قبّة قميصه، وانحناء شفته، وشعرت بحرارة في داخلي.

همس لي بصوت خافت: "ما الذي تفكّرين فيه؟"

أجفلني سؤاله. فأنا أنظر إليه طوال الوقت، لكن ليس بهذه الطريقة. أحسست كما لو أنّه قبض عليّ بالجرم المشهود. "لا شيء! لماذا؟"

"بلا سبب". شدّني نحوه أكثر، فأسندت رأسي إلى كتفه، وأخذت أنفاساً عميقة من الهواء البارد. كان لا يزال عابقاً برائحة الصيف، ورائحة العشب الذي لوّحته حرارة الشمس.

قلت: "يبدو أنّنا نقترب من السياج".

عرفت ذلك لأنّ المباني بدأت تختفي، لتحلّ مكانها حقول خالية، لا يتخلّلها سوى وهج الحشرات المضيئة. خلفي، جلس كاليب بجانب الباب الآخر، محتضناً ركبتيه. التقت نظراتنا في اللحظة الخاطئة، فأردت أن أصرخ لأُسمع الأجزاء المظلمة بداخله، لكي يسمعني أخيراً، ويفهم أخيراً ما فعله بي. عوضاً عن ذلك، بادلته النظر إلى أن عجز عن الاحتمال، وأشاح بنظره عنّي.

وقفت، وتشبّثت بقبضة الباب، وكذلك فعل توبياس وكاليب. في البداية، حاول كاليب البقاء خلفنا، لكنّ توبياس دفعه إلى الأمام، إلى طرف المقطورة.

قال له: "أنت أوّلاً، انتظر إشارتي! الآن!"

دفعه قليلاً، فقط بما فيه الكفاية لقذفه عن أرض المقطورة، وسرعان ما اختفى في الظلام. تبعه توبياس، تاركاً إيايّ بمفردي في المقطورة.

من الغباء أن يفتقد الإنسان إلى أشياء في الوقت الذي يشتاق فيه إلى كثير من الناس. مع ذلك، بدأت أشتاق إلى هذا القطار منذ الآن، وإلى كلّ القطارات التي تنقّلت على متنها في أرجاء المدينة، مدينتي، بعدما أصبحت شُجاعة بما فيه الكفاية لركوبها. مرّرت أصابعي على جدران المقطورة، للمرّة الأخيرة، ثمّ قفزتُ. كان القطار يتحرّك ببطء كبير، بحيث هبطت بزخم مبالغ فيه، لكثرة اعتيادي على الركض عند نزولي، فسقطت أرضاً. خدش العشب اليابس كفّيّ، ونهضت وأنا أبحث في الظلام عن توبياس وكاليب.

قبل أن أجدهما، تناهى إليّ صوت كريستينا: "تريس!"

اقتربَت منّي هي ويوريا. كان يحمل مصباحاً، وبدا أكثر تنبّهاً ممّا كان عليه بعد الظهيرة، وهي إشارة جيّدة. رأيت خلفهما مزيداً من الأضواء، وسمعتُ مزيداً من الأصوات.

سألني يوريا: "هل خرج أخوك حيّاً؟"

"أجل". أخيراً رأيت توبياس. كان آتياً نحونا وهو يمسك بذراع كاليب.

كان توبياس يقول: "لا أفهم لماذا يعجز ابن معرفة مثلك على استيعاب ذلك. لن تتمكّن أبداً من الفرار منّي".

قال يوريا: "فور على حقّ، فهو سريع جدّاً. ليس بقدري، لكنّه حتماً أسرع من فأر مثلك".

ضحكت كريستينا: "ماذا؟"

"فأر. مثل فأر الكتب. فأبناء المعرفة يحبّون الكتب... هل فهمتِ؟ مثل لقب المتزمّتين".

"لغة الشجعان غريبة. صعلوك، فأر... هل لديكم صفة لأبناء النزاهة؟"

ابتسم يوريا مجيباً: "بالطبع، مغفّلون".

دفعت كريستينا يوريا بقوّة، فسقط منه المصباح. ضحك توبياس، وقادنا نحو بقيّة المجموعة، التي كانت تقف على بعد بضعة أقدام. لوّحت توري بمصباحها في الهواء للفت انتباه الجميع، ثمّ قالت: "حسناً، تنتظرنا جوانا مع الشاحنات على مسيرة عشر دقائق من هنا، فلننطلق. لكن إن سمعتُ كلمة واحدة من أحدكم، سأقضي عليه. فنحن لم نخرج بعد".

مشينا في مجموعة واحدة متماسكة. تقدّمتنا توري، وذكّرتني من الخلف، في الظلام، بإيفلين، بأطرافها الرشيقة والنحيلة، وكتفيها المرفوعتين، وثقتها المخيفة بنفسها. في ضوء المصابيح، استطعت رؤية وشم الصقر على مؤخّر عنقها، وكان أوّل ما تحدّثنا عنه عندما أجرت لي اختبار الجدارة. قالت لي في ذلك اليوم إنّه يرمز إلى خوف تغلّبت عليه، وهو خوفها من الظلام. أتساءل ما إذا كان هذا الخوف ما زال يزحف أحياناً إلى قلبها، مع أنّها بذلت جهدها لمواجهته. أتساءل ما إذا كانت المخاوف تزول حقّاً، أم أنّها تفقد وحسب سلطتها علينا.

كانت تسبقنا تدريجيّاً، وتهرول أكثر ممّا تمشي. إنّها متلهّفة للرحيل، ومفارقة هذا المكان الذي قُتل فيه شقيقها، وارتقت فيه إلى منصب سلطة لتطيح بها امرأة منبوذة يفترض أنّها فارقت الحياة منذ زمن.

كانت قد تقدّمتنا بمسافة كبيرة، إلى حدّ أنّه عندما أُطلق الرصاص، لم أر سوى مصباحها وهو يسقط، وليس جسدها.

"تفرّقوا!" صاح توبياس، ورفع صوته فوق أصواتنا والفوضى التي عمّت بيننا. "اهربوا!"

بحثتُ عن يده في الظلام، لكنّني لم أجدها. أمسكت المسدّس الذي أعطاني إيّاه يوريا قبل أن نرحل، وشهَرته، متجاهلة إحساس الاختناق الذي فاجأني. لا يمكنني أن أهرب في الظلام، أريد ضوءاً. أسرعت باتّجاه جثّة توري، ومصباحها الذي سقط على الأرض.

سمعت الطلقات، والصيحات، ووقع الخطى الهاربة من دون أن أسمعها. سمعت نبض قلبي من دون أن أسمعه. انحنيت بجانب الضوء الذي سقط منها، والتقطتُ المصباح، بنيّة أخذه والهرب، لكنّ ضوءه سقط على وجهها. كانت تتصبّب عرقاً، وعيناها تتحرّكان تحت جفنيها كما لو أنّها تبحث عن شيء، لكنّها متعبة جدّاً لإيجاده.

كانت إحدى الرصاصات قد أصابت بطنها، والأخرى صدرها. لا أمل لها بالنجاة. ربّما اختلفتُ معها عندما تشاجرنا في مختبر جانين، لكنّها تبقى توري، المرأة التي حفظت سرّ جموحي. تقلّص حلقي وأنا أتذكّر كيف تبعتها إلى غرفة اختبار الجدارة، ونظري معلّق بوشم الصقر على عنقها.

نظرت إليّ بتركيز. عبسَت، لكنّها لم تتكلّم.

حرّرتُ المصباح، وأمسكتُ بيدها لأشدّ على أصابعها المتعرّقة.

سمعتُ في تلك اللحظة شخصاً يقترب، فوجّهت المصباح والمسدّس في الاتجاه نفسه. سقط الضوء على امرأة تحمل شارة المنبوذين على ذراعها، مسدّسها مصوّب على رأسي. أطلقتُ الرصاص، وأنا أشدّ على أسناني بقوّة.

أصابت الرصاصة المرأة في معدتها، فصرخَت، وأطلقَت رصاصة عشوائية في الهواء.

نظرتُ إلى توري مجدّداً، فوجدت عينيها مغمضتين، وجسدها ساكناً. عندئذٍ، وجّهت الضوء إلى الأرض، وأسرعت مبتعدة عنها، وعن المرأة التي قتلتها للتوّ. أحسست بألم في ساقيّ وفي رئتيّ. لم أكن أعرف إلى أين أذهب، أو ما إذا كنتُ أركض إلى الخطر أم بعيداً عنه، غير أنّني واصلتُ الفرار إلى أبعد ما يمكن.

أخيراً، رأيت ضوءاً في البعيد. ظننت في البداية أنّه مصباح يد آخر، لكن عندما اقتربت أكثر، أدركت أنّه أكبر حجماً وأكثر ثباتاً. كان مصباح شاحنة. سمعتُ صوت محرّك، فانحنيت بين النباتات الطويلة للاختباء، وأطفأت مصباحي، مبقية يدي جاهزة على المسدّس. أبطأت الشاحنة من سرعتها، وسمعت صوتاً.

"توري؟"

كأنّه صوت كريستينا. كانت الشاحنة حمراء وصدئة، ما يعني أنّها تنتمي إلى الوئام. فاستقمت، ووجّهت ضوء المصباح إليّ لكي تراني.
توقّفت الشاحنة على بعد بضعة أقدام أمامي، وترجلت كريستينا من مقعد الراكب، ثمّ احتضنتني. أعدت المشهد في ذهني لأتأكّد أنّه حقيقي. جسد توري وهو يسقط، والمرأة المنبوذة وهي تضع يديها على بطنها. غير أنّ ذلك لم ينجح. لم أشعر أنّه حقيقي.

قالت كريستينا: "الحمد لله. اصعدي، سنذهب للبحث عن توري".

قلت بنبرة عادية: "توري ماتت". عندما لفظتُ تلك الكلمة، أصبح موتها واقعاً. مسحتُ الدموع عن وجهي، وجاهدتُ للسيطرة على أنفاسي. "أنا.. أنا أطلقتُ النار على المرأة التي قتلتها".

قالت جوانا بصوت مذعور وهي تميل نحوي من مقعد السائق: "ماذا؟ ماذا قلتِ؟"

أجبتها: "توري ماتت. رأيت ذلك بأمّ عيني".

اختبأ تعبير جوانا خلف شعرها، وتوتّرت أنفاسها. "حسناً، دعونا نجد الباقين إذاً".

صعدتُ إلى الشاحنة، وهدر المحرّك، بينما داست جوانا على الوقود، وراحت الشاحنة تهتزّ فوق العشب في طريقنا للبحث عن الآخرين.

سألتهما: "هل رأيتما أحداً منهم؟"

هزّت جوانا رأسها مجيبة: "عدد قليل. كارا، ويوريا، لا أحد غيرهما".

أمسكتُ بقبضة الباب وشددت عليها. لو أنّني حاولت إيجاد توبياس... عوضاً عن التوقّف من أجل توري...

ماذا إن لم يستطع توبياس النجاة؟

قالت جوانا: "أنا واثقة أنّهم جميعاً بخير. فصديقك ذاك يجيد العناية بنفسه".

هززت رأسي من دون قناعة. صحيح أنّ توبياس قادر على حماية نفسه، لكن عند وقوع هجوم، يُعتبر البقاء على قيد الحياة حادثاً. فالأمر لا يحتاج إلى مهارة لكي تقف في مكان لا يجدك فيه الرصاص، أو لإطلاق النار في الظلام وإصابة رجل من دون أن تراه. في حالة كهذه، يتوقّف الأمر على العناية الإلهية.

إنّه بخير، إنّه بخير.
توبياس بخير.

ارتجفت يداي، وشدّت كريستينا على ركبتي. أسرعت بنا جوانا إلى المكان المتّفق عليه للقاء، حيث رأت يوريا وكارا. رأيت مؤشّر السرعة وهو يرتفع، ثمّ يستقرّ على الرقم خمسة وسبعين. كان اهتزاز الشاحنة فوق الأرض غير المستوية يدفعنا يميناً ويساراً.

أشارت كريستينا قائلة: "هناك!" رأينا عدداً من المصابيح أمامنا، بعضها صغير، مثل مصابيح اليد، وبعضها كبير ومستدير مثل مصابيح الشاحنة.

توقّفنا على مقربة منها، ورأيته. كان توبياس جالساً على الصندوق الأمامي لشاحنة أخرى، وذراعه مكسوّة بالدماء. وقفت كارا أمامه ومعها علبة إسعافات أوّلية. أمّا كاليب وبيتر، فجلسا على العشب على بعد عدّة أقدام. فتحتُ الباب وترجّلت من الشاحنة قبل أن توقفها جوانا تماماً، ثمّ أسرعتُ نحوه. وقف توبياس، متجاهلاً أوامر كارا بالبقاء ثابتاً، واحتضنني بذراعه السليمة بقوّة. كان ظهره يتصبّب عرقاً.

تبدّد التوتّر الذي كان يتملّكني دفعة واحدة، فأحسست للحظة أنّني ولدت من جديد.

إنّه بخير. لقد خرجنا من المدينة، وهو بخير.

الفصل الثاني عشر
توبياس

أخذ الألم ينبض في ذراعي كأنّه قلب ثانٍ بسبب جرح الرصاصة.

احتكّت يد تريس بيدي وهي ترفعها للإشارة إلى شيء إلى يميننا: سلسلة من الأبنية العريضة والمنخفضة، تضيئها مصابيح الطوارئ الزرقاء.

سألَت تريس: "ما هذه الأبنية؟"

أجابتها جوانا: "إنّها بيوت زجاجية أخرى، لا تحتاج إلى عدد كبير من الأيدي العاملة، غير أنّنا نقوم هناك بزراعة وتربية أشياء بكمّيات كبيرة، كالحيوانات، والمواد الخام للأقمشة، والقمح، وما إلى ذلك".

لمعت الألواح الزجاجية تحت ضوء النجوم، مخفية الكنوز التي تخيّلتها في الداخل، كالنباتات الصغيرة التي تتدلّى ثمار التوت من أغصانها، وصفوف نباتات البطاطس المدفونة تحت الأرض.

قلت: "أنتم تخفونها عن الزوّار، فنحن لم نرها أبداً".

قالت جوانا: "لجماعة الوئام عدد من الأسرار"، وبدت فخورة بذلك.

كان الطريق أمامنا طويلاً ومستقيماً، تتخلّله الحُفر والمطبّات. توزّعت على طولها الأشجار، وأعمدة النور المحطّمة، وخطوط الكهرباء القديمة. ومن وقت لآخر، كنّا نمرّ بمربّع معزول كان جزءاً من الرصيف، أمّا الآن، فشقّت الأعشاب طريقها عبر الإسمنت، أو تراكم عليه الحطب المعفّن، أو حطام أحد المساكن.

كلّما فكّرتُ بهذا المنظر الذي قيل عنه لكلّ حرّاس الشجاعة إنّه عادي، تتكوّن في ذهني صورة أوضح لمدينة قديمة تنهض من حولي، بأبنية أكثر انخفاضاً من تلك التي تركناها خلفنا، لكنّها لا تقلّ عنها عدداً. مدينة قديمة تحوّلت إلى أرض خالية، لتقوم جماعة الوئام بزراعتها.

بتعبير آخر، مدينة قديمة تمّت تسويتها بالأرض، وتحويلها إلى رماد. حتّى الطرقات اختفت، وتُرك التراب ليطمر أطلالها.

وضعتُ يدي على النافذة، فتخلّل الهواء أصابعي مثل خصل من الشعر. في طفولتي، كانت والدتي تتظاهر أنّها تصنع أشياء من الهواء، وتعطيني إيّاها لاستعمالها، كالمطارق والمسامير، أو السيوف، أو أحذية التزلّج. كنّا نلعب هذه اللعبة في المساء، في الحديقة الأمامية، قبل عودة ماركوس إلى البيت. فقد كانت هذه الألعاب تلهينا عن خوفنا.

جلس كاليب، وكريستينا، ويوريا في صندوق الشاحنة خلفنا. وجلست كريستينا ويوريا متجاورَين بحيث تلامس كتفاهما، لكنهما كانا ينظران باتّجاهين مختلفين، كأنّهما غريبان. لحقت بنا شاحنة أخرى، يقودها روبرت، وعلى متنها كارا وبيتر. كان يُفترض أن تكون توري معهما، وتلك الفكرة تركت فراغاً بداخلي. كانت هي من أجرى لي اختبار الجدارة، وهي من جعلني أفكّر للمرّة الأولى أنّني أستطيع مغادرة جماعة نكران الذات، لا بل يجب عليّ ذلك. أحسست أنّني أدين لها بشيء، لكنّها ماتت قبل أن أردّ لها الجميل.

قالت جوانا: "ها قد وصلنا إلى الحدود الخارجية لدوريّات الشجاعة".

لم يكن ثمّة سياج أو جدار يضع حدوداً بين مجمّع الوئام والعالم الخارجي، لكنّني أذكر أنّني كنت أراقب حرّاس الشجاعة من غرفة المراقبة، للتأكّد من عدم تجاوزهم الحدود التي كانت مرسومة بسلسلة من الإشارات تحمل الحرفين Xs. كانت الدوريات منظّمة بحيث ينفذ الوقود من الشاحنات إن ابتعدت كثيراً، وهو نظام دقيق من الضوابط

والتوازنات التي تحافظ على سلامتنا وسلامتهم، وعلى السرّ الذي تحتفظ به جماعة نكران الذات، كما أصبحتُ أعرف الآن.

قالت تريس: "هل تجاوزوا الحدود يوماً؟"

أجابت جوانا: "بضع مرّات، وكنّا مسؤولين عن التعامل مع هذا الوضع عند حدوثه".

رمقَتها تريس ورفعَت كتفيها.

قالت جوانا: "لكلّ جماعة مصل خاصّ بها. فمصل جماعة الشجاعة يُنتج خيالاً يحاكي الواقع، ومصل النزاهة يُجبر المرء على قول الحقيقة، ومصل الوئام يمنح السلام، في حين أنّ مصل المعرفة يسبّب الموت-" ارتعشت تريس في تلك اللحظة، لكنّ جوانا تابعت كأنّ شيئاً لم يكن. "أمّا مصل نكران الذات فيمسح الذاكرة".

"يمسح الذاكرة؟"

قلت: "كما فعلوا بذاكرة أماندا ريتر. أتتذكرين ما قالته؟ يسرّني نسيان الكثير".

قالت جوانا: "أجل، تماماً. وجماعة الوئام مكلّفة بإعطاء مصل نكران الذات لكلّ شخص يتجاوز الحدود، بمقدار كافٍ لجعله ينسى تلك التجربة. أنا واثقة أنّ بعضهم أفلت منّا، لكنّهم ليسوا كثراً".

خيّم علينا الصمت بعد ذلك، ورحت أراجع تلك المعلومات في ذهني مراراً وتكراراً. من الخطأ سلب الناس ذكرياتهم. أفهم أنّه كان لا بدّ من الحفاظ على أمن مدينتنا لأطول مدّة ممكنة، إلاّ أنّني أشعر بذلك في أعماقي. فحرمان المرء من ذكرياته يغيّر هوّيته.

كان الخوف يتعاظم في داخلي أيضاً، لأنّنا كلّما توغّلنا خارج حدود حرس الشجاعة، اقتربنا من رؤية ما يوجد خارج العالم الوحيد الذي

عرفته يوماً. كنت أشعر بالرعب، والإثارة، والإرباك، وبمائة إحساس آخر كلّها في وقت واحد.

رأيت شيئاً أمامنا، في ضوء الفجر، وأمسكت بيد تريس.

قلت: "انظري".

الفصل الثالث عشر

تريس

كان العالم الواقع خارج عالمنا مليئاً بالطرقات، والأبنية الداكنة، وخطوط الطاقة المتهاوية.

بدا حتّى الآن خالياً من الحياة، لا تتخلّله أيّ حركة أو صوت، عدا صوت الرياح ووقع خطواتي.

كان المنظر أشبه بجملة غير تامّة، طرفها معلّق في الهواء، غير مكتمل، والطرف الآخر عبارة عن مسألة مختلفة تماماً. من طرفنا، لم نر سوى أرضاً جرداء، وأعشاباً، وطرقات. أمّا من الطرف الآخر، فارتفع حائطان من الإسمنت يفصل بينهما عدد من سكك القطار. أمامنا، امتدّ جسر إسمنتي فوق الجدران، وأحاطت بالسكك أبنية مصنوعة من الخشب، والطوب، والزجاج بنوافذها الداكنة، والأشجار الملتفّة حولها، التي تشابكت أغصانها ببعضها.

ارتفعت لافتة إلى اليمين كُتب عليها 90.

سأل يوريا: "ماذا سنفعل الآن؟"

أجبته بصوت خافت لم يسمعه سواي: "سنتبع السكك".

* * *

ترجّلنا من الشاحنتين عند الخطّ الفاصل بين عالمنا وعالمهم، أيّاً كان قاطنوه. ودّعنا روبرت وجوانا، وعادا بالشاحنتين إلى المدينة. راقبتهما وهما يرحلان، وفكّرت أنّني لا أتخيّل العودة بعدما قطعتُ هذه المسافة، لكن أظنّ أنّ لديهما ما يفعلانه في المدينة. فجوانا ما زالت تعمل على تنظيم تمرّد الأوفياء.

انطلقنا نحن البقية، أي أنا، وتوبياس، وكاليب، وبيتر، وكريستينا، ويوريا، وكارا، مع مقتنياتنا الضئيلة، على طول السكك الحديدية.

لم تكن هذه السكك كتلك التي نعرفها في المدينة، بل كانت لامعة ومصقولة. وعوضاً عن الألواح التي تمتدّ على خطّ عمودي على طريقها، كان ثمّة صفائح معدنية. رأيت أمامنا أحد القطارات التي تسير عليها، مهجوراً بجانب الحائط. كان سطحه وواجهته الأمامية مصفّحَين بالمعدن، كالمرآة، بينما توزّعت في جانبه نوافذ مطلّية. عندما اقتربنا، رأيت صفوفاً من المقاعد المنجّدة بالقماش البنّي. لا شكّ أنّ الناس لا يقفزون من قطارات كهذه.

مشى توبياس خلفي على إحدى السكك، ومدّ ذراعيه إلى الجانبين للحفاظ على توازنه. أمّا الآخرون فانتشروا على السكك، بيتر وكاليب بمحاذة حائط، وكارا بمحاذاة الآخر. لم نتحدّث كثيراً، باستثناء الإشارة إلى شيء جديد، كلافتة، أو مبنى، أو سمة من سمات هذا العالم، عندما كان مأهولاً.

لفتت انتباهي الجدران الإسمنتية التي كانت مغطّاة بصور غريبة لأناس ذوي بشرة ملساء جدّاً، بحيث بدوا مختلفين عن الناس العاديين، أو عبوات ملوّنة تحتوي على سائل لغسيل الشعر، أو بلسم، أو فيتامينات، أو مواد غير مألوفة، فضلاً عن كلمات لم أفهمها، مثل "كوكا كولا" و"مشروب الطاقة". كانت الألوان، والأشكال، والكلمات، والصور صارخة، وغزيرة، وملفتة جدّاً.

وضع توبياس يده على كتفي قائلاً: "تريس". فتوقّفت.

أمال رأسه جانباً وقال: "هل سمعتِ؟"

سمعتُ خطوات وأصوات أصدقائنا المنخفضة. وسمعتُ أنفاسي وأنفاسه. لكن تناهى إليّ أيضاً صوت هدير منخفض، وغير ثابت، يشبه صوت محرّك.

هتفتُ: "توقّفوا!"

فوجئت بالجميع يتوقّفون، حتّى بيتر، ثمّ اجتمعنا معاً في وسط سكك الحديد. سحب بيتر مسدّسه وشهره، فحذوت حذوه، وحملت سلاحي بيديّ الاثنتين لتثبيته، وأنا أتذكّر السهولة التي كنت أرفعه فيها. لم يعد ذلك سهلاً عليّ اليوم.

ظهر شيء عند المنعطف أمامنا. كانت شاحنة سوداء، لكنّها أكبر حجماً من أيّ شاحنة رأيتها من قبل، يتّسع صندوقها المغطّى لأكثر من عشرة أشخاص.

ارتجفتُ عندما رأيتها.

تمايلت الشاحنة فوق السكك وتوقّفت على بعد عشرين قدماً منّا. استطعت رؤية الرجل الذي يقودها. كان أسمر البشرة، عقَدَ شعره الطويل إلى الخلف.

قال توبياس: "ربّاه"، واشتدّت يداه حول مسدّسه.

ترجّلت امرأة من المقعد الأمامي. بدت بعمر جوانا تقريباً، زيّن النمش بشرتها بكثافة، وأحاط بوجهها شعر داكن مائل إلى الأسود. قفزَت على الأرض، ورفعَت يديها إلى الأعلى، في إشارة إلى أنّها غير مسلّحة.

قالت وهي تبتسم بعصبية: "مرحباً. أنا أدعى زوي، وهذا عمّار".

أومأت برأسها جانباً مشيرة إلى السائق، الذي ترجّل هو الآخر.

قال توبياس: "عمّار ميت".

قال عمّار: "كلاّ، أنا لم أمت. مرحباً، فور".

طغى الخوف على ملامح توبياس، ولا ألومه على ذلك. فالمرء لا يرى كلّ يوم شخصاً يحبّه وقد عاد من الموت.

عادت إلى ذهني وجوه كلّ الأشخاص الذين خسرتهم. لين، ومارلين، وويل، وآل.

أبي، وأمّي.

ماذا لو كانوا كلّهم أحياء، مثل عمّار. ماذا لو كانت الستارة التي تفصلنا عن بعضنا ليست الموت، بل سياج ومساحة من الأرض؟

تركت هذا الأمل يداعب مخيّلتي، مهما يكن جنونياً.

قالت زوي وهي تنظر إلى عمّار: "نحن نعمل في المنظّمة نفسها التي أسّست مدينتكم، وهي نفسها التي أتت منها إديث برايور. و..."

مدّت يدها إلى جيبها، وأخرجت صورة مجعّدة بعض الشيء. حملتها أمامنا، ثمّ التقى نظرها بنظري بين هذا الحشد من الناس والأسلحة.

قالت: "ما رأيك بإلقاء نظرة على هذه الصورة، تريس؟ سأتقدّم وأتركها على الأرض، ثمّ أتراجع. اتّفقنا؟"

كانت تعرف اسمي، فتقلّص حلقي خوفاً. من أين لها أن تعرف اسمي؟ وليس اسمي فقط، بل لقبي، الاسم الذي اخترته عندما انضممت إلى الشجاعة.

قلت: "حسناً". لكنّ صوتي خرج خشناً، ومفهوماً بالكاد.

تقدّمت زوي، ووضعت الصورة على سكك الحديد، ثمّ تراجعت إلى مكانها الأصلي. ابتعدتُ عن أمان أصحابي، ثمّ انحنيت بجانب الصورة وأنا أراقب زوي طوال الوقت. بعد ذلك تراجعتُ حاملة الصورة بيدي.

ظهر فيها صفّ من الأشخاص الواقفين أمام سياج، وقد أحاطت أذرعهم بأكتاف بعضهم البعض. رأيت طفلة تشبه زوي، بالنمش الذي

يكسو وجهها، وعدداً من الناس الذين لا أعرفهم. كنت على وشك أن أسألها لماذا تريني هذه الصورة، عندما عرفتُ الشابّة ذات الشعر الأشقر الداكن، المعقود إلى الخلف، بابتسامتها العريضة.

إنّها أمّي. ماذا تفعل أمّي بجانب أولئك الناس؟

اعتصر قلبي إحساسٌ تراوح بين الحزن، والألم، والشوق.

قالت زوي: "يمكننا أن نشرح الكثير، لكن هذا ليس المكان المناسب. نودّ اصطحابكم إلى مقرّنا، إنّه على مسافة قصيرة من هنا".

أبقى توبياس مسدّسه مرفوعاً في وجه الرجل والمرأة، ثمّ أمسك معصمي بيده الأخرى، وقرّب الصورة من وجهه. سألني: "أهذه أمّك؟"

قال كاليب: "هذه أمّي؟" أبعد توبياس ونظر إلى الصورة من فوق كتفي.

أجبتهما: "أجل".

سألني توبياس بصوت منخفض: "هل تظنّين أنّنا نستطيع الوثوق بهما".

لا يبدو على زوي أنّها كاذبة، لا بمظهرها ولا بكلامها. وما دامت تعرف من أكون، وما دامت قد عرفت كيف تعثر علينا هنا، فهذا يعني على الأرجح أنّها تملك القدرة على الوصول إلى المدينة بشكل من الأشكال، وهذا يدلّ ربّما على أنّها تقول الحقيقة بشأن كونها مع المجموعة التي أتت منها إديث برايور. وهنالك عمّار أيضاً، الذي كان يراقب كلّ حركات وسكنات توبياس.

قلت له: "أتينا إلى هنا سعياً إلى إيجاد هؤلاء الناس. لذلك علينا أن نثق بأحدهم، أليس كذلك؟ وإلاّ فإنّنا سنهيم على وجوهنا في أرض مقفرة، ونحن نتضوّر جوعاً ربّما".

أفلت توبياس يدي وخفض مسدّسه. فقمت بالمثل، وحذا الباقون حذونا ببطء، بحيث كانت كريستينا آخر من خفض سلاحه.

قالت كريستينا: "أيّاً يكن المكان الذي نذهب إليه، نريد أن تكون لدينا ملء الحرّية للمغادرة في أيّ وقت".

وضعت زوي يدها على صدرها، فوق قلبها تماماً. "أعدكم بذلك".

أتمنّى أن تكون وعودها جديرة بالثقة فعلاً، لصالحنا جميعاً.

الفصل الرابع عشر

توبياس

وقفتُ على طرف صندوق الشاحنة، متشبّثاً بالهيكل الذي يدعم الغطاء. تمنّيت لو كان هذا الواقع الجديد عبارة عن محاكاة أستطيع التحكّم بها إن فهمتُها. لكنّه ليس كذلك، ولم أستطع فهمه.

عمّار على قيد الحياة.

"تكيَّف!" كان هذا من أوامره المفضّلة خلال فترة تدريبي. وغالباً ما كان يصيح به بحيث صرت أحلم به. فيوقظني مثل جرس المنبّه، ويطلب منّي أكثر ممّا أستطيع تقديمه. تكيَّف. تكيَّف على نحو أسرع، وأفضل، تكيَّف مع الأشياء التي لا يضطرّ إنسان للتكيّف معها.

تماماً كما نفعل الآن: أترك عالماً كاملاً لاكتشاف عالم آخر.

أو ما حدث للتوّ: أكتشف أنّ صديقي الميت ما زال على قيد الحياة، يقود الشاحنة التي أركبها.

جلست تريس خلفي، على المقاعد المحيطة بأطراف الصندوق، حاملة الصورة المغضّنة بيدها. حامت أصابعها فوق وجه أمّها، ولامسته بالكاد. جلست كريستينا إلى يمينها، وكاليب إلى يسارها. لا بدّ أنّها سمحت له بالجلوس بقربها لينظر إلى الصورة، ذلك أنّ جسدها بأكمله نفر منه ومال نحو كريستينا.

سألتَها كريستينا: "أهذه أمّكما؟"

هزّ كلّ من تريس وكاليب رأسه.

أضافت: "تبدو هنا شابّة جدّاً، وجميلة أيضاً".

"إنّها كذلك، أقصد كانت كذلك".

توقّعت أن أجد صوت تريس حزيناً، ومفعماً بالألم على ذكرى أمّها الجميلة. لكن عوضاً عن ذلك، كان صوتها عصبياً، وشفتاها مزمومتين ترقّباً. أتمنّى ألاّ تغذّي آمالاً كاذبة.

قال كاليب وهو يمدّ يده إليها: "دعيني أراها".

أعطته الصورة بصمت، من دون أن تنظر إليه.

التفتّ إلى المكان الذي نبتعد عنه، أي نهاية سكك الحديد. امتدّت في البعيد مساحات من الحقول. وخلفها، بدا مبنى المحور مرئياً بالكاد في الضباب الذي يغطّي أفق المدينة. رؤيتها من بعيد ولّدت عندي إحساساً غريباً، كما لو أنّني ما زلت قادراً على لمسها إن مددت يدي، مع أنّني ابتعدت كثيراً.

اقترب بيتر منّي، وأمسك بالقماش ليثبّت نفسه. ابتعدت سكك القطار الآن، ولم أعد قادراً على رؤية الحقول. اختفت الجدران من الجانبين تدريجيّاً وأصبحت الأرض مسطّحة أكثر. فرأيت أبنية في كلّ مكان، بعضها صغير، مثل منازل نكران الذات، وبعضها عريض، كأنّها مبانٍ قُلبت على جنبها.

نمت الأشجار الضخمة متجاوزة الأسوار الإسمنتية التي يفترض أن تحتويها، وامتدّت جذورها على الأرصفة. وقف على حافة أحد الأسطح صفّ من الطيور السوداء، كتلك الموشومة على أعلى صدر تريس. عندما مرّت الشاحنة، نعقت وطارت في الهواء.

هذا عالَم برّي.

فجأة، أحسست أنّني لم أعد أحتمل، فتراجعتُ وجلست على أحد المقاعد. وضعتُ رأسي بين يديّ، وأغلقت عينيّ لكي لا أتلقّى أيّ

معلومات جديدة. أحسست بذراع تريس القوية على ظهري، تشدّني نحوها. كانت يداي مخدّرتين.

قالت كارا الجالسة من الجهة الأخرى: "حاوِل التركيز على شيء موجود هنا، في هذه اللحظة. مثلاً، كيف تسير الشاحنة. سيساعدك ذلك".

حاولتُ. فكّرتُ بمدى صلابة المقعد تحتي وباهتزاز الشاحنة المستمرّ، مع أنّها تسير على أرض مسطّحة، وبارتجاجها الذي يصل إلى عظامي. ركّزتُ على حركتها الدقيقة يميناً ويساراً، وإلى الأمام والخلف، وأحسستُ بتمايلها كلّما مرّت فوق السكك. ركّزتُ إلى أن أصبح كلّ ما حولنا معتماً، ولم أشعر بمرور الوقت أو بذعر الاكتشاف، بل بحركتنا فوق الأرض وحسب.

قالت تريس بصوت بدا ضعيفاً: "عليك أن تنظر حولك الآن، على ما أظنّ".

وقفت كريستينا ويوريا بجانبي، يحدّقان إلى شيء ما من خلال حائط القماش. نظرتُ من خلف كتفيهما لرؤية المكان الذي نتّجه إليه. فرأيتُ سياجاً عالياً وعريضاً جدّاً، يمتدّ أمام أرض بدت خالية مقارنة بالمباني الكثيفة التي رأيتها قبل أن أجلس. كان السياج عبارة عن قضبان سوداء عمودية ذات أطراف مسنّنة ومحنية إلى الخارج كأنّ الهدف منها هو إيذاء من يحاول تسلّقها.

وعلى مسافة عدّة أقدام خلفه، امتدّ سياج آخر من الشبك، كذاك الذي يحيط بالمدينة، مع أسلاك شائكة في أعلاه. سمعت أزيزاً عالياً صادراً عن السياج الثاني، ما يعني أنّه مكهرب. تجوّل حراس بين

السورَين، حاملين أسلحة شبيهة ببنادق الطلاء، لكنّها كانت في الواقع أقوى وأكثر خطورة.

فوق السور الأوّل، عُلّقت لافتة كُتب عليها مكتب الشؤون الوراثية.

سمعت عمّار يتكلّم مع أحد الحرّاس المسلّحين، لكنّني لم أعرف ماذا يقول. فُتحت بوّابة في السور الأوّل لاستقبالنا، تبعتها بوّابة في السور الثاني. أمّا ما رأيته خلف السياجين، فيمكن تلخيصه بكلمة واحدة... النظام.

رأيت على مدّ النظر أبنية منخفضة تفصل بينها أعشاب وشجيرات مشذّبة. أمّا الطرقات التي تربطها ببعضها، فكانت ممهّدة ومحدّدة بعلامات واضحة، مع أسهم تشير إلى مختلف الوجهات: البيوت الزجاجية، إلى الأمام؛ مركز الأمن، إلى اليسار؛ مساكن الموظّفين، إلى اليمين؛ المجمّع الرئيس، إلى الأمام مباشرة.

وقفتُ، وأطللت من الشاحنة لرؤية المجمّع، بحيث تدلّى نصف جسدي فوق الطريق. لم يكن مكتب الشؤون الوراثية شاهقاً، لكنّه ضخم مع ذلك، وأعرض من حقلي البصري، عبارة عن بناء هائل من الزجاج، والفولاذ، والإسمنت. أطلّ من خلف المجمّع عدد من الأبراج الطويلة ذات نتوءات في الأعلى. لا أدري ما السبب، لكن عندما رأيتها تذكّرت غرفة المراقبة، وتساءلت ما إذا كانت تلك غايتها.

باستثناء الحرّاس الموجودين بين السياجين، لم أجد سوى بضعة أشخاص في الداخل. من كانوا هناك، توقّفوا لمشاهدتنا، لكنّ الشاحنة مرّت بسرعة ولم أرَ تعابيرهم.

توقّفت الشاحنة أمام باب مزدوج، وكان بيتر أوّل من قفز منها. تبعناه، وترجّلنا على الرصيف، ثمّ وقفنا جنباً إلى جنب بحيث استطعت

سماع أنفاسهم السريعة. في المدينة، قسّمتنا الجماعات، والسنّ، والتاريخ، لكن هنا، زالت كلّ تلك الانقسامات، ولم نعد نملك أحداً سوانا.

تمتمت تريس مع اقتراب زوي وعمّار: "ها قد وصلنا".

فكرّرت في نفسي، ها قد وصلنا.

* * *

قالت زوي: "أهلاً بكم في المجمّع. كان هذا المبنى في الماضي مطار أوهار، أحد أهمّ المطارات في البلاد. أمّا الآن، فأصبح مقرّ مكتب الشؤون الوراثية، ونسمّيه هنا المكتب وحسب. إنّه إحدى الوكالات الحكومية في الولايات المتّحدة".

طغت الدهشة على ملامحي. كنت أعرف كلّ الكلمات التي قالتها، باستثناء "مطار" و"الولايات المتّحدة". لكنّ مجمل كلامها بدا بلا معنى. لم أكن الوحيد الذي شعر بالإرباك، إذ رفع بيتر حاجبيه كمن يطرح سؤالاً.

قالت: "أنا آسفة. أنسى دائماً أنّكم لا تعرفون سوى القليل".

قال بيتر: "أظنّ أنّ جهلنا هو ذنبكم أنتم وليس ذنبنا".

ابتسمت زوي بلطف. "بتعبير آخر، أنا أنسى دائماً أنّ المعلومات التي زوّدناكم بها قليلة جدّاً. المطار هو مركز للسفر الجوي، و-"

تساءلت كريستينا غير مصدّقة: "السفر الجوي؟"

قال عمّار: "من الابتكارات التكنولوجية التي لم يكن من الضروري لنا معرفتها عندما كنّا داخل المدينة هي السفر جوّاً. إنّه وسيلة آمنة، وسريعة، ومذهلة".

قالت تريس: "رائع".

بدت عليها الحماسة. لكن عندما تخيّلت أنّني أحلّق في الهواء، عالياً فوق المجمّع، أحسست أنّني على وشك الإصابة بالغثيان.

قالت زوي: "على أيّ حال، عندما بدأت الاختبارات، تمّ تحويل المطار إلى هذا المجمّع لكي نتمكّن من مراقبة التجارب عن بعد. سأصطحبكم إلى غرفة المراقبة لمقابلة ديفيد، رئيس المكتب. سترون كثيراً من الأشياء التي لن تفهموها، لكن يُستحسن إعطاؤكم بعض الإيضاحات الأوّلية قبل أن تبدأوا بطرح أسئلة عنها. لذلك، دوّنوا الأسئلة التي تخطر في بالكم، ولا تتردّدوا في طرحها عليّ أو على عمّار لاحقاً".

توجّهَت نحو المدخل، ففُتح الباب من قبل حارسين مسلّحين ابتسما لتحيّتها أثناء مرورها. كان التناقض بين تحيّتهما الودودة والأسلحة المعلّقة على كتفيهما مضحكاً تقريباً. دفعتني البنادق الضخمة إلى التساؤل عن إحساس المرء وهو يستخدمها، لا سيّما وأنّه يمكن الشعور بقوّتها القاتلة بمجرّد لمس الزناد.

لفح هواء بارد وجهي ما إن دخلتُ إلى المجمّع. ارتفعت النوافذ المقوّسة فوق رأسي، وتسلّل منها ضوء باهت، لكنّها شكّلت العنصر الأكثر جاذبية في المكان. ذلك أنّ الأرض كانت باهتة بفعل الغبار ومرور الزمن، والجدران رمادية وخالية. أمامنا، امتدّ بحر من الناس والآلات، مع لافتة كُتب عليها نقطة التفتيش. لم أفهم سبب حاجتهم إلى كلّ هذه التدابير الأمنية ما داموا محميين بسياج مزدوج، أحدهما مكهرب، وبأعداد من الحرّاس، غير أنّ هذا العالم ليس عالمي لكي أفهم.

كلاّ، ليس عالمي على الإطلاق.

لمست تريس كتفي، وأشارت إلى الممرّ الطويل قائلة: "انظر".

رأيت عند طرف الغرفة، خارج نقطة التفتيش، كتلة حجرية ضخمة مع جهاز زجاجي معلّق فوقها. كانت مثالاً واضحاً عن الأشياء التي سنراها هنا من دون أن نفهمها. ما لا أفهمه أيضاً هو حماسة تريس الزائدة، التي كانت تلتهم بعينيها كلّ ما حولنا كأنّه كافٍ بحدّ ذاته بالنسبة إليها. أشعر في بعض الأحيان أنّنا متشابهان، لكن في أحيان أخرى، كهذه اللحظة، أشعر بالفرق بين شخصيتي وشخصيتها كما لو أنّني ارتطمت للتوّ بجدار.

قالت كريستينا شيئاً لتريس، فابتسمتا. كان كلّ ما أسمعه مكتوماً ومشوّهاً.

سألتني كارا: "هل أنت بخير؟"

أجبتها بشكل آلي: "أجل".

قالت: "من المنطقي جدّاً أن تشعر بالذعر في هذه اللحظة. لذلك، لا ضرورة للإصرار على ذكوريتك التي لا تتزعزع".

"ماذا؟"

ابتسمَت، فأدركتُ أنّها تمزح.

ابتعد كلّ الموجودين عند نقطة التفتيش جانباً، وشكّلوا أمامنا نفقاً بشرياً. وقفت زوي أمامنا معلنة: "لا يُسمح بإدخال الأسلحة إلى هذه المنشأة. لكن إن تركتم أسلحتكم في نقطة التفتيش، يمكنكم استعادتها لاحقاً عند خروجكم، إن شئتم. بعد تسليم الأسلحة، سنمرّ عبر آلات المسح ونتابع طريقنا".

قالت كارا: "هذه المرأة مزعجة".

سألتُها: "ماذا؟ لماذا؟"

قالت وهي تسحب سلاحها: "لأنّها لا تستطيع أن تفصل نفسها عن معلوماتها، بل تواصل قول أشياء تعتبرها بديهية، مع أنّها ليست كذلك بالنسبة إلينا".

قلت من دون قناعة: "أنت على حقّ، هذا مزعج فعلاً".

وضعت زوي مسدّسها في مستوعب رمادي ثمّ مرّت عبر آلة المسح، التي كانت عبارة عن صندوق بحجم إنسان. أخرجتُ مسدّسي، المحشوّ بالرصاص، ووضعته في المستوعب الذي حمله الحارس، والذي وُضعت فيه كلّ الأسلحة.

شاهدت زوي وهي تمرّ عبر آلة المسح، ومن بعدها عمّار، وبيتر، وكاليب، وكارا، وكريستينا. عندما وقفتُ عند طرفها، أمام الجدارين الذي سيمرّ جسدي بينهما، أحسست بالذعر يتسلّل إليّ مجدّداً، وبخدر في يديّ وضيق في صدري. ذكّرتني الآلة بالصندوق الخشبي الذي كان يحتجزني في مشهد الخوف، ويعصر عظامي.

لا يمكن أن أشعر بالذعر هنا، لن أفعل.

أجبرت قدميّ على دخول الآلة، ووقفت في الوسط حيث وقف الباقون. فسمعتُ شيئاً يتحرّك في الجدارين عن جانبيّ، ثمّ صدرت صفرة عالية. ارتجفتُ، ولم أرَ سوى يد الحارس التي تشير إليّ لأتقدّم.

أصبح الخروج ممكناً الآن.

خرجتُ من الآلة متعثّراً، وفُتح الفضاء من حولي. رمقتني كارا، لكنّها لم تقل شيئاً.

عندما أمسكت تريس بيدي بعد خروجنا من الآلة، بالكاد شعرتُ بذلك. تذكّرت كيف دخلت مشهد خوفي معها، واحتُجزنا معاً في

الصندوق الخشبي، وكيف وضعتُ يدي فوق قلبها وأحسست بنبضه. كان ذلك كافياً ليعيدني إلى الواقع مجدّداً.

ما إن خرج يوريا، حتّى أشارت إلينا زوي لنتقدّم من جديد.

خلف نقطة التفتيش، لم تكن المنشأة رديئة بقدر ما بدت عند دخولنا. صحيح أنّ الأرض ما زالت مسكوّة بالبلاط، لكنّها مصقولة تماماً، فيما توزّعت النوافذ في كلّ مكان. رأيت في أحد الأروقة الطويلة صفوفاً من طاولات المختبر وأجهزة الكمبيوتر، فذكّرتني بمقرّ المعرفة. غير أنّ المكان كان أكثر إضاءة هنا، ولا يبدو أنّه يحتوي على شيء مخبّأ.

قادتنا زوي عبر ممرّ أقلّ إضاءة إلى اليمين. في أثناء مرورنا، وقف أناس يتفرّجون علينا، فأحسست بنظراتهم مثل أشعّة الشمس، بعثت الدفء من حلقي إلى خدّيّ.

مشينا طويلاً، وتوغّلنا في أعماق المجمّع، قبل أن تتوقّف زوي وتستدير لتواجهنا.

امتدّت خلفها دائرة كبيرة من الشاشات البيضاء، التي بدت أشبه بالفراشات المحيطة بالضوء. جلس أشخاص داخل الدائرة إلى مكاتب منخفضة، يطبعون باحتداد أمام مزيد من الشاشات الموجّهة إلى الخارج. إنّها غرفة مراقبة، لكنّها مفتوحة، ولا أدري ما الذي يراقبونه لأنّ كلّ الشاشات مطفأة. أحاطت بالشاشات الموجّهة نحو الداخل مجموعات من الكراسي، والمقاعد، والطاولات، كما لو أنّ الناس يجتمعون هنا ليتفرّجوا في وقت فراغهم.

على بعد خطوات أمام غرفة المراقبة، وقف رجل أكبر سنّاً يرتدي زيّاً كحلي اللون، مثل الباقين، وعلى وجهه ابتسامة. عندما رآنا نقترب، فتح ذراعيه كما لو أنه يرحّب بنا. أفترض أنّه ديفيد.

قال الرجل: "هذا ما انتظرناه منذ البداية".

الفصل الخامس عشر

تريس

أخرجت الصورة من جيبي. كان الرجل الواقف أمامي، أي ديفيد، موجوداً فيها، بجانب أمّي. غير أنّ وجهه كان أكثر شباباً، وجسده أكثر رشاقة.

غطّيتُ وجه أمّي بأنملتي. كان الأمل الذي نما في داخلي قد تبدّد. فلو كانت أمّي، أو أبي، أو أصدقائي ما زالوا أحياء، لوجدناهم بانتظارنا عند الباب. من السذاجة أن أعتقد أنّ ما حدث مع عمّار، أيّاً يكن، قد يحدث مجدّداً.

قال ديفيد: "أنا أدعى ديفيد. كما سبق وأخبرتكم زوي على الأرجح، أنا قائد مكتب الشؤون الجينية. سأبذل ما في وسعي لأشرح لكم. غير أنّ أوّل ما يجب أن تعرفوه، هو أنّ المعلومات التي أعطتكم إيّاها إديث برايور صحيحة إلى حدّ ما وحسب".

عندما لفظ اسم "برايور"، استقرّ نظره عليّ. كان جسدي يرتجف حماسة. فمنذ أن شاهدت ذلك التسجيل، وأنا يائسة للحصول على إجابات. وها أنا على وشك الحصول عليها.

قال ديفيد: "لقد زوّدَتكم بقدر كافٍ من المعلومات خدمة لأغراض تجاربنا. وفي كثير من الأحيان، استلزم ذلك مبالغة في التبسيط، كما اضطررنا إلى حذف بعض المعلومات، وحتّى تزييفها. لكن بما أنّكم أصبحتم هنا الآن، لم نعد بحاجة إلى أيّ من ذلك".

قال توبياس: "أنتم لا تكفّون عن ذكر كلمة تجارب، فهلاّ شرحت لنا ما هي تلك التجارب؟"

نظر ديفيد إلى عمّار قائلاً: "أجل، حسناً، هذا ما كنت سأتحدّث عنه. من أين بدأوا عندما شرحوا لكم الأمر؟"

قال عمّار وهو يعبث بعقد أصابعه الجافّة: "لا يهمّ من أين تبدأ، فأنت لن تستطيع جعل المسألة أسهل عليهم".

فكّر ديفيد للحظة، ثمّ تنحنح وقال: "منذ مدّة طويلة، اهتمّت حكومة الولايات المتّحدة-"

سأله يوريا: "حكومة ماذا؟"

قال عمّار: "إنّها دولة، دولة كبيرة. ولديها حدود واضحة، وهيئة حاكمة خاصّة بها، ونحن فيها الآن. يمكننا التحدّث عن ذلك لاحقاً. تابع سيّدي".

ضغط ديفيد على كفّه بإبهامه، وراح يدلّك يده. من الواضح أنّه استاء من المقاطعة.

استأنف مجدّداً:

"منذ بضعة قرون، اهتمّت حكومة هذه البلاد بفرض سلوك معيّن مرغوب فيه على مواطنيها. فقد أشارت بعض الدراسات إلى أنّ الميول العنفية يمكن إرجاعها جزئيّاً إلى العامل الوراثي، وتحديداً إلى مورّثة تدعى "مورّثة القتل". غير أنّه ثمّة عدد من المورّثات الأخرى، كالاستعداد الوراثي تجاه الجبن، والكذب، وانخفاض مستوى الذكاء. بعبارة أخرى، كلّ الصفات التي تساهم في النهاية في تفكّك المجتمع".

علّمونا أنّ الجماعات تشكّلت لحلّ مشكلة، ألا وهي مشكلة طبيعة الجنس البشري المنقوصة. ويبدو أنّ الأشخاص الذين يصفهم ديفيد، أيّاً كانوا، اعتقدوا هم أيضاً بوجود تلك المشكلة.

ما أعرفه عن علم الوراثة قليل، يقتصر على ما أراه انتقل من الآباء إلى أطفالهم، في ملامحي وملامح أصدقائي. ولا يمكنني أن أتخيّل إمكانيّة عزل مورّثة مسؤولة عن القتل، أو الجبن، أو الكذب. فهذه الأشياء تبدو بالغة الصِغر، ولا تملك مكاناً ملموساً في جسد الإنسان. غير أنّني لست عالمة.

تابع ديفيد: "من الواضح أنّه ثمّة عدد من العوامل التي تحدّد الشخصية، بما في ذلك تربية المرء وتجاربه. لكن على الرغم من السلام والازدهار اللذين خيّما على هذه البلاد لمدّة قرن من الزمن تقريباً، بدا لأسلافنا أنّه من المفيد تقليص خطر ظهور هذه الصفات غير المرغوب فيها لدى شعوبنا من خلال تصحيحها، أو بتعبير آخر، تصحيح الجنس البشري.

"هكذا وُلدت تجربة التلاعب الوراثي. يستغرق الأمر عدّة أجيال لكي يتجلّى أثر التلاعب. غير أنّه تمّ اختيار أشخاص من الشعب بأعداد كبيرة، بحسب خلفيّاتهم أو سلوكهم، وإعطاؤهم الخيار لتقديم هدية للأجيال القادمة، وذلك من خلال تعديل وراثي يجعل سلالتهم أفضل بقليل".

نظرت إلى بقيّة أصحابي. كان فم بيتر مزموماً بازدراء، فيما قطّب كاليب جبينه، وفغرت كارا فاها، كأنّها تنتظر بنهم الإجابات وتنوي أكلها. أمّا كريستينا فبدت متشكّكة، بحاجبها المرفوع، فيما وقف توبياس يحدّق إلى حذائه.

أحسست أنّني لا أسمع شيئاً جديداً، بل هي الفلسفة نفسها التي أنتجت الجماعات، ودفعت الناس إلى تعديل مورّثاتهم عوضاً عن تقسيم الشعب إلى مجموعات ترتكز على الفضائل. أنا أفهم ذلك، وأوافق عليه إلى حدّ ما. غير أنّني لا أعرف ما هي صلته بنا الآن.

قال ديفيد: "لكن عندما بدأ مفعول التلاعب الوراثي يظهر، تبيّن أنّ عواقب تلك التعديلات كارثية. فالمحاولة لم تُنتج مورّثات مصحّحة بل مورّثات معطوبة. في الواقع، عندما تحرم شخصاً ما من خوفه، أو من قلّة ذكائه، أو من عدم صدقه... فإنّك تحرمه من التعاطف. وعندما تجرّده من عدائيته، تجرّده من حافزه أو من قدرته على تأكيد نفسه. وعندما تخلّصه من أنانيته، فإنّك تخلّصه أيضاً من حسّ الحفاظ على الذات. إن فكّرتم في الأمر، أنا واثق أنّكم ستفهمون تماماً ما أعنيه".

ركّزت على كلّ من الصفات التي عدّدها؛ الخوف، انخفاض الذكاء، الكذب، العدائية، وعدم الأنانية. إنّه يتحدّث عن جماعاتنا. وهو على حقّ عندما يقول إنّ كلّ جماعة تخسر شيئاً معيّناً عندما تكتسب فضيلة. فالشجعان جريئون لكنّهم قساة، وأهل المعرفة أذكياء لكنّهم مغرورون. جماعة الوئام مسالمة، لكنّها سلبية، وجماعة النزاهة صادقة، لكنّها لا تتمتّع بأيّ اعتبار للغير. أمّا نكران الذات فهي غير أنانية، لكنّها خانقة.

"لم تكن البشرية كاملة في يوم من الأيّام، غير أنّ التعديلات الوراثية جعلتها أسوأ من أيّ وقت مضى. وقد تجلّى ذلك في ما أطلقنا عليه اسم حرب النقاء. وهي حرب أهلية شنّها أصحاب المورّثات المعطوبة ضدّ الحكومة وكلّ من يتمتّع بمورّثات نقية. أدّت حرب النقاء إلى مستوى غير مسبوق من الدمار على الأرض الأميركية، وقضت على نصف سكّان البلاد تقريباً".

قال أحد الأشخاص الجالسين إلى مكتب في غرفة المراقبة: "لقد أصبح الشريط المرئي جاهزاً".

ظهرت خارطة على الشاشة فوق رأس ديفيد. كانت تمتاز بشكل غير مألوف، ولم أعرف ماذا تمثّل، إلاّ أنّها كانت مكسوّة ببقع من الأضواء الوردية، والحمراء، والقرمزية الداكنة.

قال ديفيد: "هذه بلادنا قبل حرب النقاء، وهذا ما أصبحت عليه بعدها".

بدأت الأضواء تتراجع، والبُقع تنكمش مثل برك الماء التي تجفّ في الشمس. أدركت بعد ذلك أنّ الأضواء الحمراء كانت أشخاصاً، أشخاصاً اختفوا وانطفأ نورهم. حدّقت إلى الشاشة، عاجزة عن استيعاب هذه الخسارة الفادحة.

تابع ديفيد يقول: "عندما وضعت الحرب أوزارها أخيراً، طلب الناس حلاًّ دائماً للمشكلة الوراثية. لهذا السبب، تمّ إنشاء مكتب الشؤون الوراثية. فقد استعان أسلافنا بالمعرفة العلمية التي كانت بتصرّف حكومتنا، وصمّموا تجارب لإعادة البشرية إلى نقائها الوراثي.

"طلبوا من ذوي المورّثات المعطوبة أن يتقدّموا إلى ذلك المكتب لكي يقوم بتعديل مورّثاتهم. فوضعهم المكتب في بيئات آمنة للاستقرار على المدى الطويل، مجهّزين بالأشكال الأساسيّة من الأمصال لمساعدتهم على السيطرة على مجتمعهم. وكان على هؤلاء أن ينتظروا مرور الوقت والأجيال لولادة أناس يتمتّعون بصحّة وراثية أفضل، أو كما تسمّونهم... الجامحون".

منذ أن أخبرتني توري عن تلك الكلمة التي تصف وضعي، جامحة، وأنا أتوق لمعرفة معناها. وها هو أبسط جواب حصلت عليه: "جامحة" تعني أنّ مورّثاتي شُفيت من التلف. أصبحَت نقية، ومكتملة. عليّ أن

أشعر بالارتياح لمعرفة الجواب الحقيقي أخيراً. لكن أعتقد أنّني لم أحصل بعد على جواب شافٍ. فما زال في رأسي علامات استفهام.

ظننت أنّ كلمة "جامحة" ستشرح كلّ ما أنا عليه وما سأكون عليه، غير أنّني كنت مخطئة.

بدأ صدري يضيق وأنا أسمع كلام ديفيد، الذي راح يكشف لنا الأكاذيب والأسرار. وضعتُ يدي على صدري لأشعر بنبض قلبي، وأحاول أن أهدّئ نفسي.

"كانت مدينتكم هي واحدة من تلك التجارب التي سعينا فيها إلى الشفاء الوراثي وأنجحها، وذلك بسبب القدرة على التعديل السلوكي. أعني بذلك الجماعات". ابتسم ديفيد، كما لو أنّه شيء يبعث على الفخر، لكنّني لم أشعر بذلك. لقد صنعونا، وصنعوا عالمنا، وحدّدوا الأشياء التي يجب أن نعتقد بها.

ما داموا هم من حدّدوا لنا معتقداتنا، ولم نتوصّل إليها بأنفسنا، فهل تبقى حقيقية؟ ضغطتُ أكثر على صدري. اهدأي.

"كانت الجماعات عبارة عن محاولة قام بها أسلافنا لإضافة عنصر تنشئة إلى التجربة، إذ اكتشفوا أنّ التصحيح الوراثي بمفرده ليس كافياً لتغيير سلوك الناس. فوضعوا نظاماً اجتماعياً جديداً يقترن بالتعديل الوراثي لإيجاد حلّ أكثر كمالاً للمشكلة السلوكية التي سبّبها العطب الوراثي". تلاشت ابتسامة ديفيد وهو ينظر إلينا. لا أدري ماذا توقّع منّا، أن نردّ له الابتسام؟ تابع قائلاً: "تمّ إدخال نظام الجماعات لاحقاً إلى معظم تجاربنا الأخرى، وثلاثة منها ما زالت ناشطة حاليّاً. لقد بذلنا جهوداً عظيمة لحمايتكم، ومراقبتكم، والتعلّم منكم".

مرّرت كارا يديها على شعرها، كأنّها تتحقّق من عدم وجود خصل شاردة. وحين لم تجد، قالت: "إذاً، عندما قالت إديث برايور إنّه كان يفترض بنا أن نحدّد سبب الجموح ونأتي لمساعدتكم، كان ذلك..."

قال ديفيد: "لقد قرّرنا إعطاء وصف جامح لأولئك الذين بلغوا المستوى المرغوب فيه من الشفاء الوراثي. أردنا أن نحرص على أن يكون هؤلاء محطّ تقدير زعماء مدينتكم. ولم نتوقّع أن تبدأ زعيمة جماعة المعرفة بملاحقتهم، أو أن تبوح جماعة نكران الذات بأسمائهم. وخلافاً لما قالته إديث برايور، نحن لم نتوقّع حقّاً منكم إرسال جيش من الجامحين إلينا. فنحن في النهاية لسنا بحاجة فعلاً إلى مساعدتكم، بل كلّ ما أردناه هو أن تبقى مورّثاتكم السليمة بحالة جيّدة، وتنتقل إلى الأجيال القادمة".

قال كاليب: "هل تعني إذاً أنّنا إن لم نكن جامحين فنحن نعاني من عطب؟" كان صوته يرتجف. في الحقيقة، لم أتوقّع يوماً أن أرى كاليب على شفير البكاء بسبب أمر كهذا.

قلت في نفسي مجدّداً، اهدأي، وأخذت نفساً بطيئاً وعميقاً آخر.

قال ديفيد: "عطب وراثي، أجل. غير أنّنا فوجئنا باكتشاف أنّ عنصر التعديل الوراثي في تجربة مدينتنا كان فعّالاً جدّاً، حتّى مدّة قصيرة. فقد ساعد في الواقع على حلّ المشاكل السلوكية التي جعلت التلاعب الوراثي مثيراً للجدل في الأساس. لذلك عموماً، لا يمكن معرفة ما إذا كانت مورّثات المرء ما زالت معطوبة أم شفيت من سلوكه.

قال كاليب: "أنا ذكيّ، وبحسب قولك، بما أنّ أسلافي قد تمّ تعديلهم ليكونوا أذكياء، ليس بإمكاني أنا، أي سلالتهم، أن أكون متعاطفاً تماماً. أنا،

وكلّ شخص يعاني من عطب وراثي، محدودون بمورّثاتنا المعطوبة. أمّا الجامحون، فليسوا كذلك".

قال ديفيد وهو يرفع أحد كتفيه: "حسناً، يمكنك قول ذلك".

نظر إليّ كاليب للمرة الأولى منذ أيّام، وبادلته النظر. أهذا ما يفسّر خيانة كاليب؟ هل مورّثاته المعطوبة هي السبب؟ هل حالته تشبه مرضاً لا يمكن علاجه، ولا يمكنه السيطرة عليه؟ لا يبدو هذا صحيحاً.

قال عمّار: "المورّثات ليست كلّ شيء. فحتّى الأشخاص الذين يعانون من عطب وراثي يتّخذون خيارات معيّنة. وهذا ما يهمّ".

فكّرتُ بأبي، الذي ينتمي في الأصل إلى المعرفة، وليس جامحاً. رجل لم يستطع إلاّ أن يكون ذكياً، غير أنّه اختار نكران الذات، وعاش حياة من الصراع ضدّ طبيعته، وقام في النهاية بواجباته على أتمّ وجه. إنّه رجل حارب نفسه تماماً مثلما أحارب نفسي.

لا تبدو هذه الحرب الداخلية نتاج تلف وراثي، بل تبدو سمة بشرية بالكامل.

نظرت إلى توبياس. بدا منهكاً ومنهاراً كأنّه على وشك أن يفارق الحياة. لم يكن هو الوحيد كذلك، بل ظهرت آثار الصدمة على وجه كلّ من كريستينا، وبيتر، ويوريا، وكاليب. كانت كارا تشدّ على طرف قميصها، وتحرّك إبهامها فوق القماش وهي عابسة.

قال ديفيد: "من الصعب استيعاب كلّ هذه المعلومات".

كانت تلك الملاحظة مبالغة في التبسيط.

ضحكت كريستينا ساخرة بجانبي.

تابع ديفيد كما لو أنّ أحداً لم يقاطعه: "كما أنّكم لم تناموا طوال الليل، لذلك سأريكم مكاناً تحصلون فيه على بعض الراحة والطعام".

قلت: "مهلاً". فكّرت بالصورة التي أحملها في جيبي، وكيف عرفت زوي اسمي عندما أعطتني إيّاها. فكّرت أيضاً بما قاله ديفيد، عن مراقبتنا والتعلّم منّا، وبصفوف الشاشات المطفأة أمامي. "قلت إنّكم كنتم تراقبوننا. كيف؟"

زمّت زوي شفتيها. أمّا ديفيد، فأومأ برأسه إلى أحد الأشخاص الجالسين إلى المكاتب خلفه. فجأة، أضيئت كلّ الشاشات، وعرضت كلّ منها تسجيلاً من كاميرا مختلفة. رأيت على الشاشات الأقرب إليّ مقرّ الشجاعة، ومركز عديمي الرحمة، وحديقة الميلينيوم، ومبنى هانكوك، والمحور.

قال ديفيد: "كنتم تعرفون أنّ الشجعان يراقبون المدينة بكاميرات مراقبة، ولدينا القدرة على الوصول إلى تلك الكاميرات نحن أيضاً".

لقد كانوا يراقبوننا.

* * *

فكّرت في الرحيل.

مررنا بنقطة التفتيش في طريقنا إلى المكان الذي يصطحبنا إليه ديفيد، فخطر لي عبورها مجدّداً، وأخذ سلاحي، والخروج من هذا المكان الذي كانوا يراقبونني فيه، منذ صغري. خطواتي الأولى، وكلماتي الأولى، وأوّل يوم لي في المدرسة، وقبلتي الأولى.

كانوا يراقبون عندما هاجمني بيتر، وعندما خضعَت جماعتي لتأثير المحاكاة وتحوّلت إلى جيش، وعندما مات أبواي.

ماذا رأوا أيضاً؟

الشيء الوحيد الذي منعني من الذهاب هو الصورة التي في جيبي. فأنا لن أترك أولئك الأشخاص قبل أن أعرف كيف تعرّفوا على أمّي.

اصطحبنا ديفيد عبر المجمّع إلى غرفة مكسوّة بالسجّاد، توزّعت في جانبيها أصص النباتات. كان ورق الجدران قديماً ومصفرّاً، تساقط عن زوايا الجدران. تبعناه إلى غرفة كبيرة سقفها عالٍ وأرضها مكسوّة بالخشب، انبعث من مصابيحها ضوء برتقالي مائل إلى الاصفرار. توزّعت أسرّة مرتّبة في صفّين مستقيمين، مع خزائن إلى جانبها لنضع فيها أمتعتنا. واحتلّت الجدار المقابل نوافذ كبيرة ذات ستائر أنيقة. لكن عندما اقتربت منها، لاحظت أنّها قديمة، وبالية عند الأطراف.

أخبرنا ديفيد أنّ هذا الجزء من المجمّع كان فندقاً يتّصل بالمطار عبر نفق، وأنّ هذه الغرفة كانت في الماضي قاعة رقص. تلك الكلمة أيضاً لم تعنِ لنا شيئاً، لكن لا يبدو أنّه لاحظ ذلك.

قال: "هذا مجرّد مسكن مؤقّت بالطبع. عندما تقرّرون ماذا ستفعلون، سنؤمّن لكم مسكناً آخر، إمّا في هذا المجمّع أو في مكان آخر. ستحرص زوي على أن تحظوا بالرعاية اللازمة، وسأعود غداً لأطمئنّ عليكم".

نظرتُ إلى توبياس الذي كان يروح ويجيء أمام النوافذ وهو يقضم أظافره. لم أدرك أبداً أنّه يملك تلك العادة. ربّما لم يسبق له أن شعر بهذا الحزن ليصل به الأمر إلى قضم أظافره.

يمكنني البقاء لمواساته، لكنّني أحتاج إلى إجابات عن أمّي، ولن أنتظر أكثر. وأنا واثقة أنّ توبياس، دوناً عن كلّ الناس، سيفهم. تبعتُ ديفيد إلى الممرّ. وقف خارج الغرفة، ثمّ اتّكأ على الجدار وأخذ يحكّ مؤخّر رقبته.

قلت له: "مرحباً، أنا أدعى تريس، وأعتقد أنّك كنت تعرف والدتي".

أُجفل قليلاً غير أنّه ابتسم لي بعد ذلك. كتفتُ ذراعيّ، وكان شعوري يشبه ذاك الذي انتابني عندما نزع بيتر منشفتي عنّي خلال فترة التلقين، ليضايقني بقسوة. أحسست أنّني عارية، ومحرَجة، وغاضبة. ربّما ليس عادلاً أن أعتبر ديفيد مسؤولاً عن كلّ ذلك، لكن لم أستطع منع نفسي. فهو قائد هذا المجمّع، ورئيس المكتب.

قال: "أجل طبعاً، أنا أعرفك".

من أين، من الكاميرات الخفية التي كانت تتابع كلّ حركاتي وسكناتي؟ شددت ذراعيّ أكثر حول صدري.

"صحيح". انتظرتُ لحظة، ثمّ قلت: "أريد معلومات عن أمّي. أعطتني زوي صورة لها وهي تقف بجانبك، لذلك تصوّرت أنّك قد تساعدني".

قال: "آه، هل يمكنني رؤية الصورة؟"

أخرجتها من جيبي وأعطيته إيّاها. ففردها بأنامله، وارتسمت ابتسامة غريبة على وجهه وهو ينظر إليها كأنّه يداعبها بعينيه. نقلت وزني من رجل إلى أخرى، وأحسست كأنّني دخيلة على لحظة خاصّة.

قال: "لقد عادت إلينا مرّة قبل أن تستقرّ وتصبح أمّاً. وخلال تلك الرحلة أخذنا هذه الصورة".

تساءلت: "عادت إليكم؟ وهل كانت واحدة منكم؟"

"أجل". قالها ببساطة كما لو أنّها ليست كلمة تغيّر عالمي بأكمله. "كانت تنتمي إلى هذا المكان. أرسلناها إلى المدينة عندما كانت شابّة لتحلّ مشكلة في التجربة".

قلت بصوت مرتعش، من دون أن أعرف السبب: "كانت تعرف إذاً، تعرف بأمر هذا المكان وما يوجد خارج السياج".

بدت الحيرة على وجه ديفيد، الذي قطّب حاجبيه الكثيفين مجيباً: "نعم، بالطبع".

انتقلت الرعشة من ذراعيّ إلى يديّ، وسرعان ما بدأ جسدي يرتعد بأكمله، كأنّه يرفض سمّاً ابتلعته، والسمّ هو المعرفة، المعرفة بهذا المكان، وشاشاته، والأكاذيب التي بنيت حياتي عليها. "كانت تعرف أنكّم تراقبوننا في كلّ لحظة... تراقبون لحظة موتها، ولحظة موت أبي، والحرب التي بدأ فيها الجميع يقتلون بعضهم البعض! هل أرسلتم أحداً لمساعدتها، أو مساعدتي؟ كلاّ! كلاّ، بل كلّ ما قمتم به هو تدوين الملاحظات".

"تريس..."

مدّ يده نحوي، فدفعتُها بعيداً. "لا تناديني كذلك. لا ينبغي أن تعرف اسمي، ولا ينبغي أن تعرف شيئاً عنّا".

عدت وأنا أرتجف إلى الغرفة.

* * *

في الداخل، كان الباقون قد اختاروا أسرّتهم ووضعوا أمتعتهم. كنّا بمفردنا هنا، من دون دخلاء. استندت إلى الحائط المجاور للباب ومرّرت كفّيّ على سروالي لأمسح عنهما العرق.

لا يبدو أنّ أحداً منّا يتكيّف مع هذا الواقع الجديد. فقد استلقى بيتر في مواجهة الحائط. وجلس يوريا وكريستينا جنباً إلى جنب يتكلّمان بصوت منخفض. وبينما وقف كاليب يدلّك صدغيه بأصابعه، واصل توبياس ذهابه وإيابه وقضمه لأظافره. أمّا كارا، فجلست بمفردها، تمرّر يدها فوق وجهها. للمرّة الأولى منذ أن التقيت بها تبدو مضطربة، وقد زال عنها درع البرودة الذي تحتمي خلفه جماعة المعرفة.

جلستُ أمامها. "لا تبدين بخير".
كان شعرها، الأملس عادة والمعقود بترتيب خلف رأسها، مشعّثاً في تلك اللحظة. رمقتني قائلة: "هذا لطف منك".
"أنا آسفة، لم أكن أعني ذلك".
تنهّدت قائلة: "أعرف. أنا... أنا من المعرفة، كما تعلمين".
ابتسمتُ قليلاً. "أجل، أعرف".
هزّت كارا رأسها: "كلاّ. هذا الشيء الوحيد الذي أنتمي إليه، المعرفة. وها هم يقولون الآن إنّ ذلك هو نتيجة عيب ما في صفاتي الوراثية... وإنّ الجماعات بحدّ ذاتها هي مجرّد سجن ذهني لإبقائنا تحت السيطرة، تماماً كما قالت إيفلين جونسون والمنبوذون". صمتت قليلاً قبل أن تضيف: "لماذا إذاً ألّفنا مجموعة الأوفياء؟ ولماذا تكبّدنا عناء المجيء إلى هنا؟"
لم أدرك كم تعلّقت كارا بفكرة كونها من الأوفياء، وإخلاصها إلى نظام الجماعات ومؤسّسيه. بالنسبة إليّ كانت تلك مجرّد هويّة مؤقّتة، تكمن قوّتها في قدرتها على إخراجي من المدينة. لكن بالنسبة إليها، يبدو تعلّقها بالفكرة أكثر عمقاً.
قلت: "ما زال مجيئنا إلى هنا يُعتبر خطوة جيّدة. فقد مكّننا من اكتشاف الحقيقة. أليس لهذا قيمة عندك؟"
قالت كارا بصوت خافت: "بالطبع له قيمة عندي، لكنّه يعني أنّني أحتاج إلى كلمات أخرى لوصف نفسي".
بعد وفاة أمّي، تمسّكت بجموحي كما لو كان يداً ممدودة لإنقاذي. احتجت إلى تلك الكلمة لتخبرني من أكون عندما كان كلّ شيء ينهار من حولي. لكنّني أتساءل الآن ما إذا كنت أحتاج إليها بعد اليوم، وما إذا كنّا

نحتاج حقّاً إلى تلك الكلمات، "الشجاعة"، "المعرفة"، "الجامحون"، "الأوفياء"، أم يمكننا أن نكون أصدقاء أو عشّاقاً أو أقارب وحسب، تُعرّفُنا الخيارات التي نقوم بها في الحياة، والحبّ والولاء الذي يربط بيننا.

قالت كارا وهي تومئ برأسها نحو توبياس: "يستحسن أن تطمئنّي عليه".

قلت: "أجل".

مشيت عبر الغرفة، ووقفت أمام النوافذ المطلّة على جزء من المجمّع، والذي كان مؤلّفاً من الزجاج، والفولاذ، والأرصفة، والأعشاب، والسياجين. عندما رآني، توقّف عن المشي، ووقف بجانبي.

قلت له: "هل أنت بخير؟"

"أجل". جلس على حافة النافذة، بمواجهتي، وأصبحت أعيننا بالمستوى نفسه. "أعني كلاّ، لست بخير حقّاً. في هذه اللحظة، أنا أفكّر كم كان كلّ شيء بلا معنى. أعني نظام الجماعات".

أخذ يفرك مؤخّر عنقه، فتساءلت ما إذا كان يفكّر بالأوشام الموجودة على ظهره.

قال: "لقد وضعنا فيه كلّ شيء نملكه، كلّنا، حتّى لو لم ندرك أنّنا نفعل ذلك".

سألته رافعة أحد حاجبيّ: "أهذا ما تفكّر فيه؟ توبياس، لقد كانوا يراقبوننا. رأوا كلّ ما حدث، وكلّ ما فعلناه. لم يتدخّلوا، بل اكتفوا باقتحام خصوصيّتنا، طوال الوقت".

فرك صدغه بأنامله. "لا أظنّ أنّ هذا الأمر يشغل بالي حاليّاً".

لا بدّ أنّني نظرت إليه بعدم تصديق من دون أن أدرك، لأنّه هزّ رأسه قائلاً: "تريس، لقد عملت في غرفة المراقبة في مقرّ الشجاعة. وكانت

الكاميرات موزّعة في كلّ مكان، وتعمل طوال الوقت. حاولت تحذيركم أنّه ثمّة أشخاص يراقبونكم خلال التدريب، هل تذكرين؟"

تذكّرت عينيه اللتين كانتا تلتفتان إلى السقف والزوايا. تذكّرت تحذيراته المبطّنة، وهمساته المتوتّرة. لم أدرك أبداً أنّه كان يحذّرني من الكاميرات، ولم يخطر ذلك في بالي أبداً من قبل.

قال: "كان يزعجني ذلك، غير أنّني تجاوزته منذ زمن طويل. لطالما ظننّا أنّنا كنّا بمفردنا، وها قد تبيّن لنا أنّنا كنّا على حقّ، فقد تركونا بمفردنا. هذا ما جرى".

"لكن لا أظنّ أنّني أتقبّل ذلك. إن رأيت شخصاً واقعاً في مشكلة، عليك مساعدته، سواء كان يخضع لتجربة أم لا. ربّاه... كم رأوا من الأحداث". انكمشت وأنا أفكّر بذلك.

ابتسم قليلاً وهو ينظر إليّ.

سألته: "ماذا؟"

قال وهو يضع يده على خصري: "أفكّر ببعض الأشياء التي رأوها". حدّقت إليه للحظة، لكنّني لم أستطع الاستمرار وهو يبتسم إليّ هكذا. لم أكن أعرف أنّه يحاول أن يغيّر مزاجي، إلاّ أنّني ابتسمت قليلاً.

جلستُ بجانبه على حافة النافذة، وحشرت يديّ بين ساقيّ والخشب. "أتعلم، إنّ ما يقوله المكتب عن تأسيس الجماعات لا يختلف كثيراً عمّا نعرفه: منذ وقت طويل، ارتأت مجموعة من الناس أنّ نظام الجماعات سيكون أفضل طريقة للعيش- أو لجعل الناس يعيشون أفضل حياة ممكنة".

لم يجبني في البداية، بل اكتفى بعضّ باطن شفته، والنظر إلى أقدامنا المتجاورة. مرّت أصابع قدمي فوق الأرض من دون أن تلامسها.

قال: "هذا يساعد في الواقع، لكن كثيراً من الأمور التي نعرفها كانت كذباً، بحيث أصبح من الصعب تمييز ما هو حقيقي، وواقعي، وما يهمّ فعلاً".

أمسكت بيده، وشبكت أصابعي بأصابعه، بينما لامس جبيني بجبينه.

لاحظتُ أنّني أقول في نفسي من باب العادة، الحمد لله على ذلك. ففهمت في تلك اللحظة ما الذي يشغل باله. ماذا لو كانت معتقدات أهلي بمجملها هي مجرّد أفكار حاكتها عصبة من العلماء لإبقائنا تحت سيطرتهم؟ لا يقتصر ذلك على معتقداتهم الدينية وما يوجد بعد الموت، بل يشمل كلّ ما يتعلّق بالخطأ والصواب، وبحبّ الغير. هل سيتغيّر كلّ ذلك بعدما عرفنا كيف صُنع عالمنا؟

لا أدري...

سألته: "لماذا نجد أنفسنا دائماً محاطين بالناس؟"

أجاب: "لا أدري، ربّما لأنّنا غبيّان".

ضحكتُ، وكانت الضحكة، هي التي أنارت الظلام الذي كان يتراكم في داخلي، وذكّرتني أنّني ما زلت حية حتّى في هذا المكان الذي كان ينهار فيه كلّ شيء عرفته يوماً. مع ذلك، أنا أعرف بعض الأمور؛ أعرف أنّني لست وحيدة، وأنّني أملك أصدقاء، وأنّني عاشقة. أعرف من أين أتيت. كما أعرف أنّني لا أرغب في الموت، وبالنسبة إليّ يُعتبر ذلك شيئاً هامّاً، وما كنتُ لأقوله منذ بضعة أسابيع.

* * *

في تلك الليلة، قرّبنا سريرَينا قليلاً من بعضهما، ونظرنا إلى عينيّ بعضنا البعض قبل أن نغفو. عندما استغرق أخيراً في النوم، كانت أصابعنا متشابكة في الفراغ الذي يفصل بين السريرين.

ابتسمتُ قليلاً، واستسلمتُ للنوم أنا أيضاً.

الفصل السادس عشر
توبياس

لم تكن الشمس قد غربت تماماً عندما خلدنا إلى النوم، غير أنّني استيقظت بعد بضع ساعات، في منتصف الليل. فالأفكار التي تشغل بالي حرمتني الراحة، وامتلأ ذهني بالتساؤلات والشكوك. كانت تريس قد تركت يدي، وتدلّت أصابعها الآن فوق الأرض. نامت منبطحة على الفراش، وشعرها يغطّي عينيها.

انتعلت حذائي، ومشيت في الأروقة، وأنا أجرّ أربطة الحذاء على السجّاد. كنت معتاداً على مجمّع الشجاعة بحيث استغربت صرير الأرضيات الخشبية تحت قدميّ، كما أنّني اعتدت على خشونة وصدى الحجر، وهدير مياه النهر.

بعد مرور أسبوع من فترة التلقين، شعر عمّار بالقلق لدى رؤيتي أزداد انعزالاً وهوساً، فدعاني للانضمام إلى الشجعان الأكبر سنّاً في لعبة تحدٍّ. استلزم التحدّي الذي خضته أن نعود إلى القبو لأضع أوّل أوشامي، وهو نيران الشجاعة التي تغطّي قفصي الصدري. كان الألم مبرحاً، وقد كرهت كلّ ثانية من تلك الجلسة.

عندما بلغت نهاية أحد الأروقة، وجدت نفسي في دهليز تحيط بي رائحة الأرض الرطبة. عُلّقت النباتات والأشجار في الماء في كلّ مكان، على طريقة البيوت الزجاجية في مجمّع الوئام. وفي وسط الغرفة، كان ثمّة شجرة في حوض ماء عملاق، رُفع عالياً فوق الأرض بحيث رأيت شبكة الجذور من تحته، وبدت لي بشرية على نحو غريب، مثل أعصاب الجسد.

"لم تعد يقظاً بقدر ما كنت من قبل". كان ذلك صوت عمّار من خلفي. "تبعتك إلى هنا طوال الطريق من ردهة الفندق".

سألته وأنا أطرق على الخزّان بعقد يدي مسبّباً تموّجات في المياه: "ماذا تريد؟"

"ظننت أنّك ترغب في سماع تفسير لسبب عدم كوني ميتاً".

قلت: "فكّرتُ في الأمر. في الواقع، لم يسمحوا لنا أبداً برؤية جثّتك. وليس من الصعب ادّعاء موت أحدهم من دون إظهار الجثّة".

صفق عمّار يديه على بعضهما قائلاً: "يبدو أنّك حزرتَ كلّ شيء. حسناً، سأذهب إذاً، إن لم تكن تشعر بالفضول..."

كتفتُ ذراعيّ.

مرّر عمّار يده على شعره الأسود، وأحكم ربطه بشريط مطّاطي. "حين عرفوا أنّني جامح، ادّعوا موتي، لا سيما وأنّ جانين كانت قد بدأت بقتل الجامحين. حاولوا إنقاذ أكبر عدد ممكن قبل أن تصل إليهم، لكنّ الأمر لم يكن سهلاً كما تعرف، لأنّها كانت دائماً تتقدّم عليهم خطوة".

سألته: "هل يوجد آخرون؟"

"عدد قليل".

"هل بينهم أحد يدعى برايور؟"

هزّ رأسه نافياً. "كلاّ. ناتالي برايور توفّيت مع الأسف. كانت هي من ساعدني على الخروج، كما ساعدَت ذاك الشابّ أيضاً... جورج. أتعرفه؟ إنّه الآن في دورية، وإلاّ لأتى معي لأخذكم. ما زالت أخته داخل المدينة".

أحسست أنّ الاسم اعتصر معدتي.

قلت وأنا أستند إلى الخزّان: "آه، ربّاه".

"ماذا؟ هل تعرفه؟"

أخذت أهزّ رأسي يميناً ويساراً.

لم أستطع تخيّل ما يجري. بضع ساعات فقط فصلت بين موت توري ووصولنا. في يوم عادي، من شأن بضع ساعات أن تتضمّن فترات طويلة من الفراغ، نتحقّق فيها من مرور الوقت. أمّا بالأمس، فقد فرّقت بضع ساعات بين توري وشقيقها إلى الأبد.

قلت: "توري هي أخته. لقد حاولَت مغادرة المدينة معنا".

كرّر عمّار: "حاولَت. آه، يا إلهي، أكانت..."

صمتنا أنا وهو لبرهة. لن يتمكّن جورج أبداً من الاجتماع بأخته مجدّداً، أخته التي ماتت وهي تعتقد أنّه قُتل على يد جانين. لم أجد كلاماً أقوله، فما من شيء يستحقّ أن يقال.

الآن وقد اعتادت عيناي على ضوء الغرفة، لاحظتُ أنّ نباتاتها اختيرت لغرض جمالي، لا عملي؛ أزهار، ولبلاب، ونباتات ذات أوراق بنفسجية أو حمراء. كانت الأزهار الوحيدة التي رأيتها في حياتي هي الأزهار البرّية، أو أزهار التفّاح في بساتين الوئام. أمّا هذه التي هنا، فكانت أكثر ترفاً، وجمالاً، وتعقيداً، بتلاتها متداخلة ببعضها. أيّاً يكن هذا المكان، فهو لا يمتاز بطابع عملي مثل مدينتنا.

قلت: "هل هذا يعني أنّ تلك المرأة التي وجدَت جثّتك كانت... تكذب؟"

"لا يمكن الوثوق بالناس لكي يواصلوا الكذب باستمرار". قطّب حاجبيه متابعاً: "لم أتخيّل يوماً أنّني سأقول هذه الجملة، لكنّ ما قالته كان صحيحاً على أيّ حال. فقد تمّ مسح ذاكرتها، وتعديلها بحيث تتضمّن رؤيتي وأنا أقفز عن سطح المبنى الزجاجي، والجثّة التي وُضعت

هناك لم تكن جثّتي. لكنّها تعرّضت لتشويه كبير بحيث لم يتمكّن أحد من ملاحظة ذلك".

"مسح ذاكرتها؟ أتعني بمصل نكران الذات؟"

"نحن نسمّيه مصل الذاكرة، لأنّه لا ينتمي عمليّاً إلى جماعة نكران الذات وحسب، لكن أجل، هذا هو".

كنت مستاءً منه في البداية، مع أنّني لا أعرف السبب حقّاً. ربّما لأنّ العالم أصبح مكاناً معقّداً جدّاً بحيث أشعر أنّني لم أعرف أبداً ولو جزءاً من الحقيقة. وربّما لأنّني حزنت على شخص لم يمت فعلاً، مثلما حزنت على أمّي طوال السنوات التي ظننت فيها أنّها ماتت. إنّ خداع شخص والتسبّب بحزنه هو واحد من أقسى أشكال الخداع، وقد تعرّضت له مرّتين.

لكن عندما أنظر إليه، أشعر أنّ غضبي يتلاشى، مثل تبدّل المدّ والجزر. وعوضاً عن الغضب، أرى أمامي مدرّبي وصديقي حياً يرزق.

ابتسمت قائلاً: "إذاً أنت حيّ".

قال مشيراً إليّ: "والأهمّ أنّك لم تعد مستاءً من ذلك".

أمسك بذراعي، واحتضنني، وهو يربّت على ظهري بيد واحدة. حاولت أن أبادله الحماس، لكنّ ردّ فعلي لم يأتِ طبيعياً. عندما ابتعدنا عن بعضنا، أحسست بحرارة في وجهي. فانفجر ضاحكاً، وعرفت في تلك اللحظة أنّ الاحمرار غزا خديّ.

قال: "المتزمّت يبقى متزمّتاً".

"لا تكترث. إذاً، هل تحبّ هذا المكان؟"

هزّ عمّار كتفيه. "لا أملك الخيار حقّاً، لكن أجل، يعجبني. أنا أعمل في الأمن، كما هو واضح، لأنّ هذا ما تدرّبت عليه. ونودّ لو تنضمّ إلينا، لكنّ مهاراتك تتجاوز هذا المجال على الأرجح".

قلت: "لم أقرّر بعد الاستقرار هنا، لكن شكراً لك".

"ما من مكان أفضل هنا. يعيش معظم سكّان البلاد في هذه المدن الكبيرة مثل مدينتنا، لكنّ كلّ المدن الأخرى قذرة وخطرة، ما لم تكن تعرف الأشخاص المناسبين. هنا على الأقلّ، لدينا مياه نظيفة، وطعام، وأمن".

نقلتُ وزني من قدم إلى أخرى بامتعاض. لا أريد التفكير في البقاء هنا، وجعل هذا المكان موطناً لي. فأنا أشعر أساساً بالخيبة. لم يكن هذا ما توقّعته عندما قرّرت الفرار من أبويّ والذكريات السيّئة. غير أنّني لم أشأ تخريب علاقتي بعمّار بعدما استرجعت صديقي أخيراً. لذلك اكتفيت بالقول: "سأفكّر بالأمر".

"اصغِ إليّ، ثمّة أمر آخر يجب أن تعرفه".

"ماذا؟ مزيد من الأشخاص الذين بُعثوا من جديد؟"

هزّ عمّار رأسه نافياً، وقال: "الأمر ليس كذلك بالفعل، بما أنّني لم أمت أساساً، أليس كذلك؟ كلاّ، المسألة تتعلّق بالمدينة. فقد سمع أحدهم اليوم في غرفة المراقبة أنّ محاكمة ماركوس حُدّدت صباح غد".

عرفت أنّ ذلك سيحدث، عرفت أنّ إيفلين ستحتفظ به حتّى النهاية، وتتلذّذ باللحظة التي ستمضيها وهي تراقبه يراوغ تحت مصل الحقيقة كما لو كان وجبتها الأخيرة. غير أنّني لم أدرك أنّني سأتمكّن من رؤية ذلك حتّى لو أردت. اعتقدت أنّني تحرّرت منهما، هما الاثنين، إلى الأبد.

"آه"، هذا كلّ ما استطعت قوله.

رافقني إحساسي بالخدر والإرباك وأنا عائد إلى العنبر لاحقاً لأتمدّد على السرير، ولم أعرف ماذا سأفعل.

الفصل السابع عشر

تريس

استيقظت قبل شروق الشمس والجميع نيام. كانت ذراع توبياس تحت عينيه، لكنّه يرتدي حذاءه الآن، كأنّه استيقظ وتجوّل في منتصف الليل. وكان رأس كريستينا مدفوناً تحت وسادتها. استلقيت لبضع دقائق، أتأمّل السقف، ثمّ انتعلت حذائي، ومرّرت أصابعي في شعري لتسويته.

كانت أروقة المجمّع خالية، باستثناء بعض الأشخاص. فافترضت أنّهم يتمّون المناوبة الليلية، لأنّ ظهورهم كانت محنيّة فوق الشاشات، وذقونهم مستندة إلى أيديهم، أو متّكئين على المكانس، وقد أنهكهم التعب. دسست يديّ في جيبيّ وتبعت الإشارات المؤدّية إلى المدخل، إذ أردت إلقاء نظرة أوضح على المنحوتة التي رأيتها البارحة.

أيّاً يكن الشخص الذي بنى هذا المكان، لا شكّ في أنّه يحبّ الضوء. فقد وضع الزجاج في انحناء أسقف كلّ الممرّات وعلى طول كلّ الجدران المنخفضة. وحتّى في هذه اللحظة التي لم تشرق فيها الشمس تماماً، كان النور كافياً للرؤية.

بحثت في جيبي عن الشارة التي أعطتني إيّاها زوي أمس عند العشاء، وعبرتُ نقطة التفتيش حاملة إيّاها. عندئذٍ رأيت المنحوتة، وذلك على بعد بضع مئات من الياردات من الأبواب التي دخلنا منها بالأمس. وجدتُها كئيبة، وضخمة، وغامضة، كأنّها كائن حيّ.

كانت عبارة عن لوح ضخم من الحجر الداكن، مربّع الشكل وخشن الملمس، مثل الصخور الموجودة في قعر النهر. امتدّ شقّ كبير عبر وسطه، وكان ثمّة خطوط من الصخر الأفتح لوناً قرب الأطراف. عُلّق فوق اللوح

خزّان زجاجي بالمقاسات نفسها، وكان مليئاً بالماء. كما ثُبّت مصباح فوق وسط الخزّان وامتدّ ضوءه عبر المياه، وانعكس على تموّجاتها. سمعت صوتاً خافتاً، صادراً عن نقطة مياه تسقط على الحجر. أتى الصوت من أنبوب صغير يمتدّ عبر وسط الخزّان. في البداية، ظننت أنّ الخزّان يسرّب الماء، ثمّ سقطت نقطة ثانية، وتلتها ثالثة ورابعة على مسافة زمنية واحدة. تجمّعت بضع قطرات من الماء، ثمّ اختفت عبر قناة ضيّقة في الحجر. لا بدّ أنّ هذا الأمر مقصود.

وقفت زوي من الجهة الأخرى من المنحوتة قائلة: "مرحباً. أنا آسفة، كنت آتية إلى العنبر من أجلك ثمّ رأيتك تسلكين هذا الاتّجاه. هل ضللت الطريق؟"

أجبتها: "لا، لم أضلّ طريقي، بل قصدت المجيء إلى هنا".

"آه". وقفَت بجانبي وكتفت ذراعيها. كانت بمثل طولي تقريباً، لكنّها تقف باستقامة أكبر بحيث بدت أطول قامة. "غريبة، أليس كذلك؟"

بينما كانت تتكلّم، رحت أنظر إلى النمش الذي يعلو خدّيها، ويبدو مثل أشعّة الشمس التي تتخلّل الأوراق الكثيفة.

"هل يعني شيئاً؟"

قالت: "إنّه رمز مكتب الشؤون الوراثية. فاللوح الحجري هو المشكلة التي نواجهها. وخزّان الماء هو قدرتنا على تغيير تلك المشكلة. أمّا نقطة الماء فتمثّل ما نحن قادرون فعلاً عليه، في أيّ وقت".

لم أستطع مقاومة الضحك. "هذا ليس مشجّعاً، أليس كذلك؟"

ابتسمَت قائلة: "هذه واحدة من الطرق لرؤية الأمر. لكنّني أفضّل أن أنظر إلى المسألة من ناحية أخرى، أي إن كنّا مثابرين بما فيه الكفاية،

حتّى قطرات المياه الصغيرة من شأنها أن تغيّر الصخر إلى الأبد مع مرور الوقت. ولن يعود كما كان أبداً".

أشارت إلى وسط اللوح، حيث ظهر انخفاض صغير، مثل حوض ضحل نُحت في الصخر.

"مثلاً، لم يكن لهذا وجود عندما أنشأوا هذا التمثال".

هززت رأسي، وأنا أراقب سقوط القطرة التالية. مع أنّني حذرة إزاء المكتب وكلّ من فيه، إلاّ أنّني أحسست بالأمل الصامت الذي تبثّه المنحوتة بداخلي. إنّه رمز عمليّ، يمثّل الصبر الذي تحلّى به الأشخاص الموجودون طوال هذه السنوات، يراقبون وينتظرون. لكن لا بدّ من السؤال.

"ألن يكون من الأفضل فتح الخزّان بأكمله دفعة واحدة؟" تخيّلت موجة الماء وهي ترتطم بالصخر، وتنسكب على الأرض، ثمّ تتجمّع حول حذائي. فعل القليل في كلّ مرّة قد يصلح الأمور في نهاية المطاف، لكن برأيي، عندما بشعر المرء أنّه يواجه مشكلة حقيقية، عليه أن يرتمي عليها بكلّ ثقله، لأنّه لا يستطيع تمالك نفسه ببساطة.

قالت: "مؤقّتاً، لكن عندئذٍ لن يتبقَّ لدينا أيّ قدر من المياه لفعل شيء آخر، كما أنّ العطب الوراثي ليس من المشاكل التي يمكن حلّها بواسطة شحنة واحدة كبيرة".

"أفهم ذلك، لكنّني أتساءل ما إذا كان من المجدي أن يلتزم المرء إلى هذا الحدّ بالخطوات الصغيرة عندما يكون قادراً على اتّخاذ بعض الخطوات الكبيرة".

"مثل ماذا؟"

رفعتُ كتفيّ قائلة: "لا أظنّ أنّني أعرف حقّاً، لكنّ الأمر يستحقّ التفكير".

"لا خطأ في ذلك".

"إذاً... قلتِ إنّك كنت تبحثين عنّي، لماذا؟"

وضعت زوي يدها على جبينها قائلة: "آه! لقد نسيت. طلب منّي ديفيد أن أبحث عنك وأصطحبك إلى المختبر. فثمّة شيء هناك كان ينتمي إلى أمّك".

"أمّي؟" خرج صوتي مخنوقاً وعالياً. ابتعدنا معاً عن المنحوتة، ورافقتها إلى نقطة التفتيش مجدّداً.

"عليّ تحذيرك: ستكونين محطّ الأنظار". قالت زوي ذلك ونحن نعبر الآلة الماسحة. كانت الأروقة تحتوي الآن على عدد أكبر من الناس؛ لا بدّ أنّ دوام عملهم قد حان. "فوجهك مألوف هنا. ذلك أنّ الناس في المكتب يراقبون الشاشات في أغلب الوقت، وخلال الأشهر الماضية، شاركتِ في كثير من الأحداث المثيرة. لذلك فإنّ كثيراً من الشباب يرونك بطلة".

قلت بمرارة: "هذا رائع. فالبطولات هي ما كنت أسعى إليه، كما تعلمين، وليس محاولة تفادي الموت".

توقّفت زوي قائلة: "أنا آسفة، لم أكن أعني الاستخفاف بما مررتِ به".

ما زالت فكرة كون حياتي تحت المجهر تزعجني، وتشعرني أنّني أحتاج إلى تغطية وجهي، أو الاختباء بعيداً عن الأنظار. لكن لا ذنب لزوي في ذلك، فقرّرت عدم قول شيء.

كان معظم الأشخاص الذين يتجوّلون في القاعات يرتدون أشكالاً مختلفة من الزيّ نفسه، الذي يأتي إمّا بلون كحلي أو زيتي. ومنهم من

كان يرتدي السترات أو البدلات أو القمصان القطنية المفتوحة التي تظهر تحتها قمصان قطنية بألوان مختلفة، بعضها رُسمت عليه صور.

سألتُ زوي: "هل تعني ألوان الملابس شيئاً؟"

"نعم في الواقع. فاللون الكحلي هو للعلماء أو الباحثين، والزيتي لموظّفي الدعم الذين يقومون بأعمال الصيانة وما إلى ذلك".

"هم مثل المنبوذين إذاً".

أجابت: "كلاّ، إطلاقاً، فالآلية مختلفة هنا. إذ يقوم كلّ شخص بما يستطيع لدعم المهمّة. ولكلّ منهم قيمته وأهمّيته".

كانت على حقّ، فقد حدّق الناس إليّ فعلاً. معظمهم اكتفى بالتحديق إليّ مطوّلاً، لكن منهم من أشار بالأصابع، ومنهم من سمّاني باسمي، كأنّه ينتمي إليهم. جعلني ذلك أشعر بالتشنّج، بحيث عجزت عن الحركة بشكل طبيعي.

قالت زوي: "معظم أعضاء الدعم كانوا ينتمون إلى تجربة إنديانابوليس، وهي مدينة أخرى لا تبعد كثيراً عن هنا. لكن بالنسبة إليهم، كان الانتقال أسهل بعض الشيء ممّا سيكون عليكم، ذلك أنّ إنديانابوليس لم تتضمّن العناصر السلوكية التي تضمنّتها مدينتكم". صمتَت قليلاً ثمّ أضافت: "أعني بذلك الجماعات. فبعد مرور عدّة أجيال، عندما امتنعت مدينتكم عن تمزيق نفسها كما فعلت المدن الأخرى، طبّق المكتب نظام الجماعات على المدن الجديدة، مثل سانت لويس، ديترويت، ومينيابوليس، مستخدماً تجربة إنديانابوليس الجديدة نسبيّاً كمجموعة مراقبة. قام المكتب دائماً بتجاربه في الجزء الغربي الأوسط، نظراً لوجود مساحة أكبر بين الأماكن والمناطق الحضارية هناك. أمّا في الشرق، فالمدن قريبة من بعضها".

"إذاً في إنديانابوليس، اكتفيتم... بتعديل مورّثاتهم وحشدهم في مدينة في مكان ما؟ من دون جماعات؟"

"كان لديهم نظام معقّد من القوانين، لكن... أجل، هذا ما حدث مبدئيّاً".

"ولم ينجح تماماً؟"

"كلاّ". زمّت شفتيها متابعة: "فالمعطوبون وراثياً الذين اعتادوا على المعاناة ولم يتعلّموا العيش بطريقة أخرى، مثلما يتعلّم الناس في ظلّ الجماعات، ميّالون جدّاً إلى التدمير. لذلك، سرعان ما فشلت تلك التجربة، في غضون ثلاثة أجيال. أمّا شيكاغو، مدينتكم، والمدن الأخرى التي قامت على نظام الجماعات، فاستمرّت أكثر من ذلك بكثير".

شيكاغو. من الغريب إعطاء اسم للمكان الذي كان دائماً الوطن وحسب بالنسبة إليّ. وقد جعل ذلك المدينة تبدو أصغر حجماً في عقلي.

قلت: "إذاً، أنتم تقومون بهذا منذ وقت طويل".

"أجل، هذا صحيح. فالمكتب مختلف عن معظم الوكالات الحكومية، بسبب طبيعة عملنا، وموقعنا المحصور والبعيد نسبيّاً. ونحن نقوم بنقل معرفتنا وأهدافنا إلى أطفالنا عوضاً عن الاعتماد على التوظيف أو التعيينات. فقد تدرّبت على ما أقوم به الآن منذ نعومة أظفاري".

رأيت من خلال النوافذ العديدة مركبة غريبة شبيهة بالطائر، ذات جناحين وأنف دقيق، لكنّها تملك عجلات مثل السيّارة.

سألتها مشيرة إلى العربة: "أهذه للسفر جوّاً؟"

ابتسمت مجيبة: "أجل، إنّها طائرة. قد تسنح لنا الفرصة باصطحابكم في جولة فيها يوماً ما، إن لم يبدُ لك ذلك مخيفاً جدّاً".

لم أتفاعل مع تلميحها. فأنا لم أنس تماماً كيف عرفتني على الفور.

كان ديفيد واقفاً قرب أحد الأبواب أمامنا. فرفع يده ملوّحاً عندما رآنا.

قال: "مرحباً تريس. شكراً لك زوي على إحضارها".

"العفو، سيّدي. سأترككما إذاً، ينتظركما عمل كثير".

ابتسمت لي، ثمّ ابتعدَت. لم أعد أرغب في ذهابها، ذلك أنّني بقيت وحيدة مع ديفيد وذكرى صراخي في وجهه البارحة. لم يقل شيئاً عن ذلك، بل اكتفى بتمرير شارته في الآلة الماسحة لفتح الباب.

دخلنا إلى مكتب من دون نوافذ. جلس إلى أحد المكاتب شابّ، بسنّ توبياس ربّما، وفي الطرف الآخر من الغرفة رأيت مكتباً آخر شاغراً. نظر إلينا الشابّ عندما دخلنا، ثمّ طبع شيئاً على شاشته، ووقف.

قال: "أهلاً، سيّدي. كيف يمكنني مساعدتك؟"

قال ديفيد: "ماثيو، أين رئيسك؟"

أجاب ماثيو: "ذهب لتناول الطعام في الكافتيريا".

"حسناً، ربّما يمكنك مساعدتي. أنا أحتاج إلى تحميل ملفّ ناتالي رايت على شاشة محمولة، هل يمكنك فعل ذلك؟"

رايت؟ هل كانت هذه هي شهرة أمّي الحقيقية؟

قال ماثيو وهو يجلس مجدّداً: "بالتأكيد". طبع شيئاً على جهازه، ثمّ أخرج سلسلة من الوثائق التي لم أستطع رؤيتها بوضوح. "حسناً، يتمّ نقلها الآن".

"لا بدّ أنّك بياتريس، ابنة ناتالي". أسند ذقنه على يديه ونظر إليّ بتمعّن. كانت عيناه داكنتين جدّاً وأقرب إلى السواد، تنحرفان قليلاً عند

الأطراف. لم يبد عليه الإعجاب أو الاستغراب عندما رآني. "لا تشبهينها كثيراً".

قلت بشكل آلي: "تريس". غير أنّني سررت بعض الشيء لأنّه لا يعرف لقبي، فهذا يعني أنّه لا يقضي النهار وهو يحدّق إلى الشاشات كما لو أنّ حياتنا في المدينة هي للتسلية. "أجل، أعرف ذلك".

سحب ديفيد كرسياً، أصدر صريراً على الأرض، ثمّ ربّت عليه.

"اجلسي. سأعطيك شاشة تحتوي على كلّ ملفّات ناتالي لتقرئيها أنت وأخيك، لكن إلى أن ينتقل الملفّ، يمكنني أن أحكي لك القصّة".

جلست على طرف الكرسي، وجلس هو خلف مكتب رئيس ماثيو، وراح يحرّك فنجان قهوة شبه خالٍ في دوائر على السطح المعدني.

"اسمحي لي أن أبدأ بالقول إنّ والدتك كانت اكتشافاً مذهلاً. فقد عثرنا عليها بالصدفة تقريباً في عالم مدمّر، وكانت مورّثاتها في حالة ممتازة تقريباً". ابتسم ديفيد متابعاً: "أخرجناها من وضع سيّئ وأحضرناها إلى هنا. فأمضت عدّة سنوات معنا، ثمّ واجهنا أزمة في مدينتكم، فتطوّعت للذهاب لحلّها. لكن أنا واثق أنّك تعرفين كلّ شيء عن ذلك".

نظرت إليه بذهول لبضع ثوانٍ. هل أتت أمّي من خارج هذا المكان؟ من أين؟

أدركت مجدّداً أنّها مشت في هذه القاعات، وشاهدت المدينة على شاشات غرفة المراقبة. هل جلست على هذا الكرسي؟ هل داست بقدميها على هذه الأرض؟ أحسست فجأة بوجود آثار غير مرئية لأمّي في كلّ مكان، على كلّ جدار، وقبضة باب، وعمود.

أمسكت بطرف الكرسي، وحاولت تجميع أفكاري لطرح سؤال.

"كلاّ، لا أعرف. أيّ أزمة؟"

"كان ممثّل جماعة المعرفة قد بدأ للتوّ بقتل الجامحين. كان اسمه نور-نورمان؟"

قال ماثيو: "نورتون. إنّه سلف جانين، ويبدو أنّه نقل إليها فكرة قتل الجامحين، قبل أن يصاب بنوبة قلبية".

"شكراً لك. على أيّ حال، أرسلنا ناتالي للتحقيق في المسألة وإيقاف أعمال القتل. بالطبع، لم يخطر لنا أبداً أن تبقى هناك طوال هذه المدّة، لكنّها كانت مفيدة. إذ لم يسبق أن فكّرنا بزرع أحد عناصرنا هناك، غير أنّها استطاعت تحقيق إنجازات لا تقدّر بثمن بالنسبة إلينا. وفي أثناء ذلك، أسّست حياة لنفسها، وكنتِ ضمنها بالتأكيد".

عبستُ قائلة: "لكنّ الجامحين كانوا لا يزالون يتعرّضون للقتل عندما بدأتُ فترة تلقيني".

قال ديفيد: "لقد عرفتم بأمر الأشخاص الذين ماتوا وحسب، لكن ثمّة من نجوا، وبعضهم موجود هنا، في هذا المجمّع. أعتقد أنّك التقيت بعمّار، فهو واحد منهم. لكنّ بعض الجامحين الذين تمّ إنقاذهم احتاجوا إلى الابتعاد عن تجربتكم. فقد كان من الصعب عليهم رؤية الناس الذين عرفوهم وأحبّوهم يخسرون حياتهم، لذلك تمّ تدريبهم على الاندماج في حياة خارج المكتب. لكنّني لا أنكر أنّ أمّك قامت بعمل هامّ".

روت أيضاً عدداً لا بأس به من الأكاذيب، وتكتّمت على بعض الحقائق. أتساءل ما إذا كان أبي قد عرف من تكون، ومن أين أتت فعلاً. فهو من زعماء نكران الذات في النهاية، وأحد حافظ أسرارها بالتالي. خطرت لي فجأة فكرة مرعبة. ماذا لو أنّها تزوّجت به لأنّه يفترض بها ذلك وحسب، كجزء من مهمّتها في المدينة. ماذا لو كانت علاقتهما بأكملها زائفة؟

قلت وأنا أراجع في ذهني الأكاذيب التي رافقت حياتنا: "إذاً، هي لم تولد فعلاً في جماعة الشجاعة".

"دخلَت المدينة للمرّة الأولى على أنّها من الشجعان، لأنّها كانت تملك أوشاماً في الأساس، الأمر الذي يصعب شرحه لأهل المدينة. كانت في السادسة عشر، لكنّنا قلنا إنّها في الخامسة عشرة لكي نتيح لها الوقت للتكيّف. كان هدفنا بالنسبة إليها..." رفع كتفه ثمّ قال: "حسناً، عليك أن تقرأي ملفّها. فأنا لا أستطيع أن أشرح بشكل عادل وجهة نظر ابنة ستّة عشر عاماً".

في تلك اللحظة، فتح ماثيو درجاً، وأخرج قطعة مسطّحة وصغيرة من الزجاج. لمسها بإصبعه، فظهرت عليها صورة. إنّها إحدى الوثائق التي فتحها للتوّ على حاسوبه. ناولني اللوح، فوجدته أكثر متانة ممّا توقّعت، كان صلباً وقوياً.

قال ديفيد: "لا تخافي، إنّه عمليّ وغير قابل للتلف. أنا واثق أنّك ترغبين في العودة إلى أصدقائك. ماثيو، هلاّ رافقت الآنسة برايور إلى الفندق؟ لديّ بعض الأعمال".

قال ماثيو: "وماذا عن أعمالي أنا؟" ثمّ غمز مضيفاً: "كنت أمزح، سيّدي. سأرافقها".

قلت لديفيد قبل أن يخرج: "شكراً لك".

قال: "العفو. اطرحي عليّ أيّ سؤال يخطر في بالك".

سألني ماثيو: "هل أنت جاهزة؟"

كان طويل القامة، ربّما بطول كاليب، غرّته السوداء مشعّثة على نحو فنّي، كأنّه أمضى وقتاً طويلاً وهو يسرّحها ليبدو كأنّه نهض من

السرير على ذلك النحو. تحت بدلته الكحلية، كان يرتدي قميصاً قطنياً أسود، وقلادة سوداء حول عنقه، تتحرّك كلّما ابتلع ريقه.

رافقته إلى خارج المكتب الصغير وعبر الممرّ مجدّداً. كان عدد الموجودين هناك قد انخفض؛ لا بدّ أنّهم انصرفوا إلى أعمالهم أو لتناول الإفطار. يعيش الناس هنا حياة كاملة. ينامون، ويأكلون، ويعملون، ينجبون الأطفال، ويؤسّسون الأسر، ويفارقون الحياة. هذا مكان اعتبرته أمّي يوماً ما بيتها.

قال: "أتساءل متى سينتابك الذعر، بعد اكتشاف كلّ هذه الأمور دفعة واحدة".

أجبت بنبرة دفاعية: "لن ينتابني الذعر". فكّرت أنّ الخوف سبق وتملّكني، لكنّني لن أقرّ بذلك.

هزّ ماثيو كتفيه قائلاً: "أنا كنت لأخاف، لكن لا بأس".

رأيت أمامي لافتة كُتب عليها مدخل الفندق. فضممت الشاشة إلى صدري، وأحسست باللهفة للعودة إلى العنبر وإخبار توبياس عن أمّي.

قال ماثيو: "اسمعي، من الأمور التي نقوم بها أنا ورئيسي هي إجراء الاختبارات الوراثية. أتساءل ما إذا كنت تمانعين أنت وذاك الشابّ الآخر، ابن ماركوس إيتون، في المجيء لكي أجري اختباراً لمورّثاتكما".

"لماذا؟"

رفع كتفيه مجيباً: "من باب الفضول. فنحن لم نقم باختبار مورّثات أحد أبناء جيل متقدّم في هذه التجربة من قبل، وتبدين لي أنت وتوبياس... غريبَين إلى حدّ ما في تعاملكما مع بعض الأمور".

رفعت حاجبيّ باستغراب.

"أنت مثلاً أبديت مقاومة غير عادية للمصل، مع أنّ معظم الجامحين عاجزون عن مقاومة المصل بقدرك. كما أنّ توبياس قادر على مقاومة المحاكاة، لكنّه لا يمتاز ببعض الخصائص التي أصبحنا نتوقّعها لدى الجامحين. يمكنني أن أشرح لك بتفصيل أكثر لاحقاً".

تردّدت غير واثقة ممّا إذا كنت أرغب في رؤية مورّثاتي، أو مورّثات توبياس، أو مقارنتها كأنّ للأمر أهمّية. لكنّ ماثيو بدا متلهّفاً، مثل الأطفال، وأنا أتفهّم الفضول.

أجبته: "سأسأله إن كان على استعداد لذلك، أمّا بالنسبة إليّ فأنا أرغب في إجراء الاختبار. متى؟"

"هل يناسبك هذا الصباح؟ أستطيع المجيء لإحضارك خلال ساعة تقريباً. على أيّ حال، لا يمكنك دخول المختبر من دوني".

وافقت بإيماءة من رأسي، وشعرت فجأة بالحماسة لمعرفة المزيد عن مورّثاتي. كان هذا الإحساس مشابهاً لتوقي لقراءة يوميات أمّي واستعادة أجزاء منها.

الفصل الثامن عشر

توبياس

من الغريب رؤية أشخاص لا تعرفهم جيّداً في الصباح، قبل أن ينفضوا النعاس عن أعينهم وتتخلّص خدودهم من آثار ثنايا الوسادة. هكذا اكتشفت أنّ كريستينا تكون مبتهجة صباحاً، بينما يستيقظ بيتر بشعر مسطّح تماماً، أمّا كارا فتتواصل بواسطة سلسلة من الأنّات، وهي تشقّ طريقها خطوة خطوة باتّجاه القهوة.

أوّل ما قمت به هو أخذ حمّام وتبديل ملابسي بتلك التي أعطونا إيّاها، والتي لم تكن تختلف كثيراً عن الملابس التي اعتدت على ارتدائها. غير أنّ الألوان اختلطت ببعضها، كأنّها لا تعني شيئاً لأهل هذا المكان، وهي على الأرجح لا تعني شيئاً بالفعل. ارتديت قميصاً أزرق اللون وسروال جينز أزرق، وحاولت إقناع نفسي أنّ الأمر طبيعي، وأنّني طبيعي، وأتكيّف مع واقعي الجديد.

تبدأ محاكمة أبي اليوم، لكنّني لم أقرّر بعد ما إذا كنت سأشاهدها أم لا.

عندما عدت، وجدت تريس بكامل ملابسها، جالسة على طرف أحد الأسرّة كأنّها مستعدّة لتقفز على قدميها في أيّ لحظة، تماماً مثل إيفلين.

تناولتُ قطعة مافين من صينية الإفطار التي أحضرها لنا أحدهم، وجلست أمامها. "صباح الخير، يبدو أنّك استيقظت باكراً".

قالت وهي تمرّر قدمها بين قدميّ: "أجل، فقد عثرت عليّ زوي عند تلك المنحوتة الكبيرة هذا الصباح، وكان لدى ديفيد شيء يودّ أن يريني إيّاه". تناولت شاشة زجاجية موضوعة على السرير إلى جانبها. توهّجت عندما لمستها، وظهرت وثيقة عليها. "هذا ملفّ لأمّي. فقد كتبت

يوميّاتها. لا تبدو كبيرة للوهلة الأولى، لكن لا بأس بها". تحرّكت بشيء من الانزعاج. "لم أتفحّصها جيّداً بعد".

قلت: "إذاً، لماذا لا تقرأينها؟"

"لا أدري". وضعت الشاشة من يدها، فانطفأت آلياً. "أعتقد أنّني خائفة منها".

لا يتعرّف أبناء نكران الذات على أهلهم جيّداً سوى في حالات نادرة، لأنّ الآباء في تلك الجماعة لا يكشفون أنفسهم أبداً كما يفعل بقيّة الآباء عندما يبلغ أولادهم سنّاً معينة. فهم يحرصون على إخفاء أنفسهم خلف درع من الملابس الرمادية والأعمال الغيرية، مقتنعين أنّ المشاركة هي عمل أناني. وهذه الشاشة لا تتضمّن جزءاً من والدة تريس فحسب، بل هي أوّل وآخر نظرة صادقة تلقيها تريس على ناتالي برايور الحقيقية.

أفهم إذاً لماذا تعتبرها شيئاً سحرياً، يمكن أن يختفي في أيّ لحظة. ولماذا تريد أن تبقيها غامضة لبعض الوقت، لأنّني أحسّ بالشيء نفسه تجاه محاكمة أبي. فمن الممكن أن تكتشف أمراً لا ترغب في معرفته.

تابعتُ نظراتها التي تحوّلت نحو كاليب. كان جالساً يقضم قطعة خبز بكآبة، مثل طفل حزين.

سألتها: "ألن تريه إيّاها؟"

غير أنّها لم تجبني.

تابعتُ أقول: "عادة، لا أحبّ إعطاءه شيئاً. لكن في هذه الحالة... لا تنتمي هذه المعلومات إليك وحسب".

أجابت بشكل مقتضب: "أعرف ذلك. بالطبع سأريه إيّاها، لكن أظنّ أنّني أودّ الاطّلاع عليها بمفردي أوّلاً".

لم أجادلها في ذلك. فقد أمضيت معظم حياتي أتكتّم على المعلومات، وأقلّبها في رأسي مراراً وتكراراً. كانت الرغبة في المشاركة جديدة عليّ، وحافز إخفاء المعلومات طبيعي مثل التنفّس.

تنهّدَت، ثمّ أخذَت قطعة من المافن التي أحملها. أمسكتُ بأصابعها قبل أن تصل إلى فمها وقلت: "مهلاً، ثمّة الكثير منها على بعد خطوات إلى يمينك".

أجابت مبتسمة: "لا ينبغي أن تخشى إذاً خسارة هذه القطعة".

"أنتِ على حقّ".

مالت نحوي، وعانقتني، ثمّ لاحظت أنّها تسرق منّي قطعة أخرى. فابتعدتُ ورمقتها شزراً.

قلت: "حقّاً، سأحضر لك واحدة. لن يستغرق الأمر أكثر من ثانية".

أجابت مبتسمة: "بالمناسبة، أريد أن أسألك شيئاً. هل أنت مستعدّ لإجراء اختبار وراثي صغير هذا الصباح؟"

صدمني التناقض في عبارة "اختبار وراثي صغير".

سألتها: "لماذا؟" بدا طلب رؤية مورّثاتي أشبه بطلب تعريتي.

"في الواقع، التقيت بشابّ يدعى ماثيو يعمل في أحد المختبرات هنا. قال إنّه مهتمّ في فحص مورّثاتنا من أجل الأبحاث، وسأل عنك تحديداً، لأنّك تُعتبر حالة شاذّة نوعاً ما".

"حالة شاذّة؟"

قالت: "يبدو أنّك تتمتّع ببعض خصائص الجامحين دوناً عن خصائص أخرى. لا أدري بالضبط، لكنّه يبدي فضولاً إزاء ذلك، لكنّك لست مضطرّاً بالطبع".

أحسست أنّ الهواء المحيط بي أصبح أكثر دفئاً وثقلاً. لتخفيف الانزعاج، لمستُ مؤخّر عنقي، ورحت أحكّه.

بعد ساعة تقريباً، سيظهر ماركوس وإيفلين على الشاشات. عرفت فجأة أنّني لن أتمكّن من المشاهدة.

مع أنّني لا أرغب حقّاً في السماح لغريب بتفحّص أجزاء الأحجية التي تؤلّف وجودي، وافقتُ قائلاً: "بالتأكيد، لا أمانع".

قالت وهي تتناول قطعة أخرى من المافن: "عظيم". سقطت خصلة من الشعر على عينيها، فأبعدتُها قبل أن تلاحظ حتّى. وضعت يدها على يدي، وكانت دافئة وقوية، بينما ارتسمت ابتسامة على زاويتي فمها.

فُتح الباب، ودخل شابّ ذو عينين منحرفتين وشعر أسود. عرفته فوراً، إنّه جورج، شقيق توري. كانت تناديه "جورجي".

ابتسم ببشاشة، فشعرتُ بالرغبة في الابتعاد عنه ووضع أكبر مسافة ممكنة بيني وبين حزنه الوشيك.

قال لاهثاً: "لقد عدتُ للتوّ. قالوا لي إنّ أختي خرجت معكم، و-"

تبادلنا أنا وتريس نظرة مربكة. لاحظ جميع من حولنا دخول جورج، فساد الصمت، كما يحدث في جنازات نكران الذات. حتّى بيتر، الذي أتوقّع منه دائماً أن يفرح لأحزان الناس، بدا حائراً، وأخذ ينقل يديه من خصره إلى جيوبه.

استأنف جورج: "و... لماذا تنظرون إليّ هكذا؟"

تقدّمت كارا خطوة، واستعدّت لنقل الخبر السيّئ، لكنّني لم أتخيّل أنّ كارا ستنجح في ذلك، لذلك نهضت وقلت بصوت أعلى من صوتها: "لقد غادرت أختك معنا فعلاً، لكنّنا تعرّضنا لهجوم من قبل المنبوذين، ولم... تتمكّن من النجاة".

اختصرت تلك الجملة الكثير. لم تروِ كم كان موتها سريعاً، ولم تصف صمت جسدها وهو يسقط على الأرض، والفوضى التي عمّت بينما راح الجميع يفرّون ليلاً، متعثّرين فوق العشب. لم أعد من أجلها، مع أنّه كان ينبغي لي ذلك، ذلك أنّ توري كانت أكثر من عرفته. عرفتُ كم كانت يدها تشدّ بقوّة على إبرة الأوشام، وكم كانت ضحكتها تبدو خشنة، كأنّها كُشطت بورق الزجاج.

استند جورج إلى الجدار خلفه. "ماذا؟"

قالت تريس بلطف مثير للاستغراب: "لقد ضحّت بحياتها دفاعاً عنّا. لولاها، لما تمكنّا من الخروج".

قال جورج بصوت ضعيف: "ماتت؟" استند بكامل ثقله وتهدّل كتفاه.

رأيت عمّار في الرواق، حاملاً قطعة خبز محمّص بيده، لكن سرعان ما تبدّدت الابتسامة عن وجهه. وضع قطعة الخبز على طاولة قرب الباب.

قال: "حاولتُ إيجادك قبل الآن لأخبرك".

في الليلة الفائتة، ذكر عمّار اسم جورج على نحو عابر، ولم أدرك أنّهما يعرفان بعضهما حقّاً. لكن من الواضح أنّهما صديقان.

ترقرقت عينا جورج بالدموع، فاحتضنه عمّار بذراع واحدة. اشتدّت أصابع جورج على قميص عمّار، وبدت عقدها بيضاء من شدّة التوتّر. لم أسمعه يبكي، وربّما لم يكن يفعل، بل كلّ ما أحتاج إليه هو التمسّك بشيء ما. كانت ذكريات حزني على أمّي ضبابية، عندما اعتقدتُ أنّها ماتت. كلّ ما أذكره هو إحساسي أنّني منفصل عن كلّ ما حولي، فضلاً

عن تلك الحاجة الدائمة إلى ابتلاع شيء. لكن لا أدري كيف هو شكل الحزن بالنسبة إلى الآخرين.

في النهاية، اصطحب عمّار جورج إلى خارج الغرفة، وراقبتهما وهما يعبران الممرّ جنباً إلى جنب ويتحدّثان بصوت منخفض.

* * *

بالكاد أذكر أنّني وافقت على المشاركة في اختبار وراثي عندما ظهر فتى أمام باب العنبر. لم يكن فتى في الواقع، لأنّه بدا بسنّي تقريباً. لوّح لتريس.

قالت: "آه، هذا ماثيو. أعتقد أنّه يجدر بنا الذهاب".

أمسكت بيدي وقادتني نحو الباب. لا أذكر أنّها أخبرتني أنّ "ماثيو" لم يكن عالِماً عجوزاً، ربّما لم تأتِ على ذكر ذلك.

فكّرت، لا تكن غبياً.

مدّ ماثيو يده قائلاً: "مرحباً، تشرّفت بمعرفتك، أنا ماثيو".

قلت: "توبياس"، ذلك أنّ اسم "فور" يبدو غريباً هنا، ففي هذا المكان لا يعرّف الناس أنفسهم بعدد مخاوفهم. "الشرف لي".

قال: "لنذهب إلى المختبر، إنّه من هذا الطريق".

كان المجمّع يعجّ بالناس هذا الصباح، جميعهم يرتدون الملابس الزيتية أو الكحلية التي تتجمّع عند الكاحلين أو تعلو الحذاء ببضعة إنشات، بحسب طول الشخص. كان المجمّع مليئاً بالقاعات المفتوحة التي تتفرّع من الأروقة الرئيسة، مثل حجرات القلب، وكلّ منها محدّدة بحرف ورقم. وكان الناس يتنقّلون بينها، بعضهم يحمل أجهزة زجاجية كذاك الذي أحضرته تريس هذا الصباح، وبعضهم خالي اليدين.

سألَته تريس: "ما وظيفة هذه الأرقام؟ أهي مجرّد طريقة لتعريف كلّ قاعة؟"

قال ماثيو: "كانت أبواباً، أي أنّ كلّاً منها كان لديه باب وممرّ يؤدّي إلى طائرة معيّنة متوجّهة إلى منطقة معيّنة. لكن عندما تمّ تحويل المطار إلى هذا المجمّع، نُزعت كلّ المقاعد التي كان الناس يستخدمها لانتظار رحلاتهم، واستُبدلت بمعدّات مخبرية أُخذ معظمها من كلّيات المدينة. تشكّل هذه المنطقة من المجمّع مختبراً هائلاً في الأساس".

سألتُه وأنا أشاهد امرأة تندفع عبر الممرّ حاملة شاشة على كفّيها كأنّها قربان: "ما الذي يعملون عليه؟ اعتقدت أنّكم تراقبون التجارب وحسب". تسلّلت أشعّة الشمس إلى الأرض عبر نوافذ السقف. من خلال النوافذ، بدا كلّ شيء مسالماً، وأمام مشهد الأعشاب المشذّبة والأشجار البرّية التي تتمايل في البعيد، كان من الصعب تخيّل وجود أناس يقتتلون هناك بسبب "مورّثاتهم المعطوبة" أو يعيشون تحت رحمة قوانين إيفلين الصارمة في المدينة التي رحلنا عنها.

"هذا ما يفعله البعض. يقومون بتسجيل وتحليل كلّ ما يلاحظونه في كافة التجارب الباقية، الأمر الذي يحتاج إلى عدد كبير من اليد العاملة. غير أنّ بعضهم يعمل أيضاً على إيجاد طرق أفضل لعلاج العطب الوراثي، أو تطوير أمصال لاستخدامنا الخاصّ وليس لاستخدامها في التجارب، أي عشرات المشاريع. كلّ ما عليك فعله هو ابتكار فكرة، وتجميع فريق، واقتراحها على المجلس الذي يدير المجمّع تحت إشراف ديفيد. وعادة، يوافقون على أيّ شيء ما لم يكن ينطوي على مجازفة كبيرة".

قالت تريس بسخرية: "بالطبع، فهم لا يحبّون المجازفات".

قال ماثيو: "لمساعيهم تلك سبب وجيه. فقبل تأسيس نظام الجماعات، وابتكار الأمصال معها، كانت التجارب عرضة لهجوم شبه ثابت من الداخل. فالأمصال تساعد أهالي التجارب على إبقاء الأمور تحت السيطرة، لا سيّما مصل الذاكرة. في الواقع، لا أعتقد أنّ أحداً يعمل على هذا الأمر حاليّاً، فهو في مختبر الأسلحة".

"مختبر الأسلحة". خرجت تلك الكلمات من فمه كأنّها هشّة، ومبجّلة.

قالت تريس: "إذاً، المكتب هو الذي أعطانا الأمصال في البداية".

قال: "أجل، وبعد ذلك تابعت جماعة المعرفة العمل عليها لتحسينها، بمن فيهم أخوك. بصراحة، بعض إنجازاتنا على صعيد المصل تمّت بفضلهم، من خلال مراقبتهم. غير أنّهم لم ينجزوا الكثير على صعيد مصل الذاكرة، أي مصل نكران الذات، على عكسنا، بما أنّه أعظم سلاح لدينا".

كرّرت تريس: "سلاح".

"في الواقع، هذا المصل يسلّح المدن ضدّ متمرّديها. فمن جهة، عندما تُمحى ذاكرة الأشخاص، لا يعود ثمّة سبب لقتلهم، إذ ينسون ما كانوا يقتتلون عليه. ويمكننا استخدامه أيضاً ضدّ المتمرّدين في الضواحي، التي تبعد حوالى ساعة من هنا. ففي بعض الأحيان، يحاول القاطنون في الضواحي شنّ غارات علينا، ومصل الذاكرة يوقفهم من دون قتلهم".

بدأت قائلاً: "هذا..."

قال ماثيو: "يبقى عملاً فظيعاً؟ أجل، طبعاً. لكنّ رؤساءنا هنا يعتقدون أنّه يصون حياتنا ويساعدنا على البقاء. ها قد وصلنا".

رفعت حاجبيّ مستغرباً. لقد تحدّث للتوّ ضدّ رؤسائه على نحو عارض جدّاً. فتساءلت ما إذا كان يُسمح في هذا المكان بالتعبير عن الاستياء علناً في وسط حديث عادي، وليس همساً خلف أبواب مغلقة.

مرّر بطاقته في جهاز المسح عند باب منيع إلى يسارنا، ثمّ عبرنا رواقاً آخر. كان ضيّقاً هذه المرّة ومضاءً بمصباح لاصف باهت. توقّف عند باب كُتب عليه غرفة العلاج الوراثي 1. في الداخل، وقفت فتاة سمراء ترتدي بدلة زيتية وتقوم باستبدال الورق الذي يغطّي طاولة الفحص.

"هذه خوانيتا، موظّفة المختبر. خوانيتا، هذا-"

قالت مبتسمة: "أجل، أعرفهما". لمحت من زاوية عيني تريس تتصلّب، وقد انتابها الغضب من انتهاك الكاميرات لحياتنا. غير أنّها لم تقل شيئاً.

مدّت الفتاة يدها لمصافحتي قائلة: "رئيس ماثيو هو الشخص الوحيد الذي يناديني خوانيتا، باستثناء ماثيو على ما يبدو. أدعى نيتا. ترغبان في إجراء فحص؟"

أجاب ماثيو بإيماءة من رأسه.

"سأقوم بتحضيرهما". فتحَت عدداً من الخزائن في الغرفة وبدأَت تُخرج منها معدّات. كانت كلّها مغلّفة بأكياس بلاستيكية وورق وتحمل ملصقات بيضاء. فامتلأت الغرفة بصوت حفيف الورق والنايلون.

سألتنا: "ما رأيكما بهذا المكان حتّى الآن؟"

أجبت: "نحاول التكيّف".

ابتسمَت قائلة: "أجل، أعرف ماذا تعني. فقد أتيتُ من إحدى التجارب الأخرى، تجربة إنديانابوليس الفاشلة. آه، لكنّكما لا تعرفان أين تقع إنديانابوليس، أليس كذلك؟ ليست بعيدة عن هنا، على مسافة أقلّ

من ساعة بالطائرة". صمتت قليلاً، ثمّ أضافت: "هذا أيضاً لا يعني لكما شيئاً. أتعرفان، هذا ليس مهمّاً".

أخرجت حقنة وإبرة من غلافها البلاستيكي والورقي، ولاحظتُ أنّ تريس تتوتّر.

سألَت تريس: "ما الغرض منها؟"

أجاب ماثيو: "هذا ما سيمكّننا من قراءة مورّثاتكما. هل أنت بخير؟"

أجابت من دون أن يفارقها التوتّر: "أجل، أنا فقط... لا أحبّ أن أُحقن بمواد غريبة".

هزّ ماثيو رأسه قائلاً: "أقسم أنّها تهدف إلى قراءة مورّثاتك وحسب، هذا كلّ شيء. ونيتا شاهدة على ذلك".

هزّت نيتا رأسها موافقة.

قالت تريس: "حسناً، لكن... هل يمكنني أن أقوم بذلك بنفسي؟"

قالت نيتا: "بالتأكيد". جهّزَت الحقنة، وملأتها بالمادّة التي تنوي حقننا بها، ثمّ أعطت تريس إيّاها.

قال ماثيو بينما كانت نيتا تمسح ذراع تريس بالمعقّم: "سأشرح لكما باختصار كيف تعمل". اخترقت رائحة المعقّم الحادّة أنفي.

"يحتوي السائل على أجهزة كمبيوتر فائقة الصغر. وهي مصمّمة لكشف علامات وراثية معيّنة ونقل البيانات إلى شاشة كمبيوتر. سيستغرق الأمر حوالى ساعة لأحصل على المعلومات التي أريدها، علماً أنّ قراءة المادّة الوراثية بأكملها يتطلّب أكثر من ذلك بكثير، بالطبع".

غرزت تريس الإبرة في ذراعها، وضغطت عليها.

سحبت نيتا ذراعي إلى الأمام، ومرّرت القطن المحمّل بالسائل البرتقالي على بشرتي. كان السائل الموجود في الحقنة رمادياً مائلاً إلى اللون

الفضّي، مثل برش السمك، وعندما تدفّق في جسدي من خلال الإبرة، تخيّلت التكنولوجيا فائقة الصغر وهي تقتحم جسدي، تقرأني وتحلّلني. بجانبي، مرّرت تريس القطن على موضع الوخزة، وابتسمت لي.

"ما هي... أجهزة الكمبيوتر فائقة الصغر؟" هزّ ماثيو رأسه، وتابعتُ أسأل: "عمّ تبحث بالضبط؟"

"عندما أدخل أسلافنا في المكتب المورّثات المصحّحة في أجساد أجدادنا، أدخلوا معها متعقّباً وراثياً، وهو جهاز يُظهر أساساً أنّ الشخص قد شُفي وراثياً. في هذه الحالة، المتعقّب الوراثي هو الوعي خلال المحاكاة. فهو شيء يمكننا اختباره بسهولة، ويُظهر لنا ما إذا كانت مورّثاتكم قد شُفيت أم لا. هذا أحد الأسباب التي تفرض على كلّ شخص في المدينة الخضوع لاختبار الجدارة عند سنّ السادسة عشرة. فإن ظلّوا واعين في أثناء الاختبار، هذا يعني أنّ مورّثاتهم شُفيت ربّما".

أضفت اختبار الجدارة إلى قائمة الأشياء التي كانت في الماضي مهمّة جدّاً بالنسبة إليّ، ثمّ طرحتُها جانباً لأنّها مجرّد خدعة لحصول أولئك الناس على المعلومات أو النتائج التي يريدونها.

لا أصدّق أنّ الوعي خلال المحاكاة، ذاك الشيء الذي يشعرني أنّني قويّ وفريد من نوعي، ذاك الشيء الذي دفع جانين وجماعة المعرفة إلى القتل بسببه، هو في الواقع مجرّد إشارة إلى الشفاء الوراثي بالنسبة إلى هؤلاء الناس. كأنّه رمز خاصّ يخبرهم أنّني أنتمي إلى مجتمعهم المتعافي وراثياً.

تابع ماثيو يقول: "المشكلة الوحيدة مع المتعقّب الوراثي هو أنّ الوعي خلال المحاكاة ومقاومة الأمصال لا يعنيان بالضرورة أنّ الشخص جامح، بل هو مجرّد دليل قوي. ففي بعض الأحيان، يقاوم الناس

المحاكاة أو الأمصال حتّى لو كانت مورّثاتهم ما زالت معطوبة". هزّ كتفيه متابعاً: "لهذا السبب أنا مهتمّ بمورّثاتك، توبياس. فأنا أشعر بالفضول لمعرفة ما إذا كنت جامحاً بالفعل، أم أنّ وعيك خلال المحاكاة هو الذي يجعلك تبدو كذلك".

ضغطت نيتا على شفتيها وهي تنظّف الطاولة، كما لو أنّها تمنع نفسها من الكلام. شعرتُ فجأة بعدم الارتياح. هل ثمّة احتمال ألاّ أكون جامحاً فعلاً؟

قال ماثيو: "ما علينا الآن سوى الجلوس والانتظار. أنا ذاهب لإحضار الفطور. هل يرغب أحدكم في تناول شيء؟"

رفضنا أنا وتريس بهزّة من رأسينا.

"سأعود قريباً. هلاّ بقيت بصحبتهما، نيتا؟"

رحل ماثيو من دون أن ينتظر جواب نيتا، فجلست تريس على طاولة الفحص. وتجعّد الورق تحتها، وتمزّق عند الأطراف. دسّت نيتا يديها في جيوب سترتها ونظرت إلينا. لمعت عيناها الداكنتان، مثل بركة زيت تسرّبت من محرّك. عندما أعطتني كرة قطن، ضغطتها على نقطة الدم التي تجمّعت في باطن مرفقي.

قالت تريس: "إذاً، أتيتِ من إحدى التجارب. كم مضى على وجودك هنا؟"

"منذ تفكيك تجربة إنديانابوليس، أي منذ حوالى ثماني سنوات. كان بإمكاني الاندماج مع عامة الشعب، خارج التجارب، لكنّني لم أستطع التكيّف". اتّكأت نيتا على الطاولة. "لذلك تطوّعتُ للمجيء إلى هنا. كنت في البداية حاجبة، ثمّ تمّت ترقيتي مع الوقت، على ما أظنّ".

قالت ذلك بشيء من المرارة، ففكّرتُ أنّه، على غرار جماعة الشجاعة، ثمّة حدود للترقيات هنا، وقد بلغتها أبكر ممّا توقعّت. هذا ما حدث معي، عندما اخترت وظيفتي في غرفة المراقبة.

سألتها تريس: "وماذا عن مدينتك، ألم يكن فيها جماعات؟"

"كلاّ، بل كانت مجموعة مراقبة. إذ ساعدَتهم على قياس فاعلية الجماعات بالمقارنة. غير أنّها اشتملت على كثير من القوانين، كمنع التجوّل، وأوقات الاستيقاظ، وأنظمة الأمان. ولم يكن يسمح باستخدام الأسلحة، هذا بالإضافة إلى أنظمة مشابهة".

سألتُها: "وماذا حدث؟" غير أنّني سرعان ما ندمت على سؤالي، لأنّ الكآبة علت وجه نيتا وضغطت بثقلها على ملامحها.

"في الواقع، كان بعض الأشخاص في الداخل ما زالوا يعرفون كيفيّة صنع الأسلحة. فصنعوا قنبلة، وهي أداة متفجّرة، وزرعوها في مبنى الحكومة. أودى الانفجار بحياة عدد كبير من الناس. عندئذٍ، وجد المكتب أنّ تجربتنا مُنيت بالفشل. فقاموا بمحو ذاكرة المسؤولين عن التفجير، وأعادوا توزيع من بقي منّا. أنا واحدة من القلّة الذين أرادوا المجيء إلى هنا".

قالت تريس بلطف: "أنا آسفة". في بعض الأحيان أنسى أن أنظر إلى النواحي الألطف عندها. فمنذ وقت طويل، لم أرَ منها سوى القوّة، التي تجلّت في عضلات ذراعيها النحيلتين، أو الحبر الأسود الذي يزيّن عنقها.

قالت نيتا: "لا بأس، فقد عانيتما أنتما أيضاً من أمور مشابهة، مع كلّ ما فعلته جانين ماثيوس، وما حدث في ما بعد".

قالت تريس: "لماذا لم يُغلقوا مدينتنا، مثلما فعلوا بمدينتكم؟"

"قد يُغلقونها فعلاً. لكن أظنّ أنّ تجربة شيكاغو على وجه التحديد حقّقت نجاحاً لوقت طويل بحيث يتردّدون في إيقافها ببساطة الآن. فهي أوّل مدينة قامت على نظام الجماعات".

نزعتُ القطن عن ذراعي، فرأيت تحته بقعة حمراء صغيرة في موضع الوخزة، لكنّها لم تعد تنزف.

قالت نيتا: "أودّ التفكير أنّني كنت لأختار جماعة الشجاعة، لكن لا أظنّ أنّني جرئية بما فيه الكفاية".

قالت تريس: "قد تفاجئين لمعرفة ما تتجرّئين على فعله عندما تضطرّك الظروف".

أحسست بانقباض في وسط صدري، فقد كانت على حقّ. من شأن اليأس أن يدفع المرء إلى أفعال غير معهودة. كلانا يعرف ذلك؟

* * *

عاد ماثيو بعد ساعة تماماً، وجلس أمام جهاز الكمبيوتر لمدّة طويلة، وهو ينقّل نظره فوق الشاشة. كان يصدر همهمات من وقت إلى آخر أو أصوات تعجّب. وكلّما طال انتظارنا لسماع النتيجة، أصبحت أكثر توتّراً، إلى أن شعرتُ أنّ كتفيّ أصبحا كالصخر. أخيراً، نظر إلينا وأدار الشاشة نحونا لكي نرى ما عليها.

قال: "يساعدنا هذا البرنامج على تفسير البيانات بشكل مفهوم. ما تريانه هنا هو تصوير مبسّط لسلسلة حمض نووي معيّنة في المادّة الوراثية لدى تريس".

كانت الصورة الظاهرة على الشاشة عبارة عن كتلة معقّدة من الخطوط والأرقام، مع أجزاء محدّدة بالأصفر والأحمر. غير أنّني لم أفهم بقيّة رموز الصورة، لأنّها تتجاوز مستوى فهمي.

قال مشيراً إلى بعض أجزاء الشاشة: "تدلّ هذه الأجزاء المحدّدة على مورّثات متعافية. وما كنّا لنراها لو كانت معطوبة". لم أفهم ما الذي يشير إليه، لكن لا يبدو أنّه لاحظ ذلك، بل كان مستغرقاً في الشرح. "وتشير الأجزاء المحدّدة هنا إلى أنّ البرنامج عثر أيضاً على المتعقّب الوراثي، أي الوعي أثناء المحاكاة. واقتران المورّثات المتعافية مع مورّثات الوعي أثناء المحاكاة هو ما أتوقّع رؤيته لدى شخص جامح. نأتي الآن إلى الجزء الغريب".

لمس الشاشة مجدّداً، فتغيّرت، لكنّها ظلّت غامضة، عبارة عن شبكة من الخطوط والأرقام المتداخلة.

قال ماثيو: "هذه هي خارطة مورّثات توبياس. كما تريان، لديه المكوّنات الوراثية الصحيحة للوعي أثناء المحاكاة، لكنّه لا يملك مورّثات متعافية على غرار تريس".

أحسست بجفاف في حلقي، وشعرتُ أنّني أتلقّى أنباءً سيّئة، لكنّني لم أفهم تماماً بعد ماهيّتها.

سألتُه: "ما معنى ذلك؟"

أجاب: "هذا يعني أنّك لست جامحاً. فمورّثاتك ما زالت معطوبة، لكنّك تملك شذوذاً وراثياً يسمح لك أن تكون واعياً خلال المحاكاة. بعبارة أخرى، أنت تشبه الجامحين شكلاً، لكنّك لست واحداً منهم فعليّاً".

أخذت أحلّل المعلومات رويداً رويداً. أنا لست جامحاً، ولست مثل تريس، بل أعاني من عطب وراثي.

استقرّت كلمة "عطب" في ذهني بثقل، كأنّها من رصاص. لطالما عرفت على ما أظنّ أنّني أعاني من خطب ما، غير أنّني اعتقدت أنّ السبب أبي، أو أمّي، والألم الذي أورثاني إيّاه كأنّه إرث عائلي، انتقل إليّ

من جيل إلى جيل. هذا يعني أنّ الشيء الجيّد الوحيد الذي كان يملكه أبي، أي جموحه، لم يبلغني.

لم أنظر إلى تريس، لم أحتمل. عوضاً عن ذلك، نظرت إلى نيتا، التي كان تعبيرها قاسياً، وأقرب إلى الغضب.

قالت: "ماثيو، ألا تريد أخذ هذه البيانات إلى المختبر لتحليلها؟"

أجاب ماثيو: "في الواقع، كنت أفكّر بمناقشتها مع موظّفينا هنا".

قالت تريس بحدّة: "لا أظنّها فكرة جيّدة".

قال ماثيو شيئاً لم أسمعه جيّداً، فقد طغى نبض قلبي على كلّ الأصوات الأخرى. نقر على الشاشة مجدّداً، فاختفت صورة حمضي النووي، وانطفأت الشاشة. رحل، طالباً منّا زيارته في المختبر إن أردنا مزيداً من المعلومات. وبقيت أنا، وتريس، ونيتا في الغرفة يخيّم علينا الصوت.

قالت تريس بحزم: "الأمر ليس بذي أهمّية، اتّفقنا؟"

قلت بصوت أعلى ممّا أردت: "لا تقولي إنّه ليس بذي أهمّية".

انشغلت نيتا بالأدوات الموجودة على الطاولة، وراحت ترتّبها في صفّ مستوٍ، مع أنّها لم تتحرّك من مكانها منذ أن دخلنا.

قالت تريس: "بلى سأقول! أنت ما زلت الشخص نفسه الذي كان منذ خمس دقائق، ومنذ أربعة أشهر، ومنذ ثماني سنوات! هذا لا يغيّر بك شيئاً".

كان كلامها صحيحاً، لكن يصعب عليّ تصديقها حاليّاً.

قلت: "إذاً، أنت تقولين إنّ هذا لا يؤثّر على شيء، وإنّ الحقيقة لن تغيّر شيئاً".

سألتني: "أيّ حقيقة؟ إن قال أولئك الناس إنّ مورّثاتك معطوبة، تصدّقهم فوراً؟"

أشرتُ إلى الشاشة قائلاً: "كان كلّ شيء أمامنا، ورأيتِه بنفسك".

قالت بشراسة، وهي تمسك بذراعي: "أنا أراك أنت أيضاً، وأعرف من تكون".

رحت أهزّ رأسي. ما زلت عاجزاً عن النظر إليها والتركيز على أيّ شيء. "أنا... أحتاج إلى الانفراد بنفسي. أراك لاحقاً".

"توبياس، مهلاً-"

خرجتُ، وتحرّر شيء من الضغط المتراكم في داخلي ما إن غادرت تلك الغرفة. مشيت في الرواق المزدحم الذي أطبق على أنفاسي، وخرجت منه إلى القاعات المضاءة بنور الشمس. كانت السماء قد أصبحت الآن زرقاء ساطعة. سمعتُ خطوات ثقيلة خلفي، وعرفت أنّها لا تنتمي إلى تريس.

"مهلاً". توقّفت نيتا وأصدر حذاؤها صريراً على الأرض. "أنا لا أضغط عليك، لكن أودّ التحدّث معك عن مسألة... العطب الوراثي. إن كنت مهتمّاً، قابلني هنا الليلة عند الساعة التاسعة. و... مع احترامي لصديقتك، لكن قد يكون من الأفضل عدم إحضارها معك".

"لماذا؟"

"لأنّها نقية وراثياً، ولن تفهم. في الواقع يصعب عليّ الشرح، لكن ثق بي، من الأفضل بقاؤها على مسافة لبعض الوقت".

"حسناً".

"اتّفقنا". هزّت نيتا رأسها مضيفة: "عليّ الذهاب الآن".

راقبتها وهي تجري عائدة إلى غرفة العلاج الوراثي، ثمّ تابعت طريقي. لم أعرف إلى أين أذهب بالضبط، لكن عندما أمشي، يتوقّف جنون المعلومات التي عرفتها في الأيّام الماضية عن دورانه السريع، وعن الصياح بأعلى صوته داخل رأسي.

الفصل التاسع عشر

تريس

لم ألحق به لأنّني لم أعرف ماذا أقول.

عندما اكتشفت أنّني جامحة، ظننت أنّني أتمتّع بقوّة سرّية لا يملكها أحد آخر، شيء يجعلني مختلفة، وأفضل، وأقوى. أمّا الآن، بعد مقارنة حمضنا النووي أنا وتوبياس على شاشة كمبيوتر، أدركت أنّ كلمة "جامح" ليست كما ظننت، بل هي مجرّد كلمة لتعريف سلسلة معينة في حمضي النووي، كما لو كانت تصف كلّ الأشخاص الذين يملكون عيوناً بنّية أو شعراً أشقر.

وضعت رأسي بين يديّ. مع ذلك، فإنّ هؤلاء الأشخاص يظنّون أنّها تعني شيئاً، ويظنّون أنّني شُفيت بشكل من الأشكال، وأنّ توبياس لم يُشفَ. ويريدون منّي أن أثق بذلك، وأن أصدّقه ببساطة.

حسناً، أنا لا أصدّق، ولا أفهم لماذا يصدّقهم توبياس، ولماذا اقتنع بهذه السرعة أنّه معطوب.

لا أريد التفكير في ذلك بعد الآن. تركت غرفة العلاج الوراثي في اللحظة التي عادت فيها نيتا.

سألتُها: "ماذا قلت له؟"

كانت جميلة، تتمتّع بقامة طويلة، لكن ليس كثيراً، ونحيلة، لكن ليس كثيراً، وذات بشرة غنية باللون.

قالت: "أردت أن أتأكّد فقط أنّه لن يضلّ طريقه، فهذا المكان مربك".

"أنت على حقّ". بدأت أمشي من دون أن أعرف إلى أين سأتوجّه. يكفي أن اكون بعيدة عن نيتا، الفتاة الجميلة التي تحدّثت مع صديقي في غيابي. لكن في النهاية، لم يكن حديثها طويلاً.

رأيت زوي في آخر الممرّ، فلوّحت لي للمجيء إليها. بدت أكثر استرخاءً ممّا كانت عليه هذا الصباح. فقد كان جبينها أكثر انبساطاً، وشعرها منسدلاً على كتفيها. دسّت يديها في جيوبها.

قالت: "أخبرت الآخرين للتوّ إنّنا سنقوم بجولة بالطائرة بعد ساعتين لمن يرغب في الذهاب. هل تريدين مرافقتنا؟"

تملّكني الخوف والحماسة معاً، تماماً كما حدث قبل أن أنزلق من أعلى مبنى هانكوك. تخيّلت أنّني أنطلق في الجوّ في سيّارة بجناحين، وتخيّلت طاقة المحرّك وقوّة الهواء الذي سيهبّ عبر جميع الفتحات في الجدران واحتمال فشل شيء ما، وإن كان ذلك بعيداً، وسقوطي إلى حتفي.

قلت: "أجل".

"سنلتقي عند الباب ب14. اتبعي اللافتات!" ثمّ ابتسمَت ورحلت.

نظرت إلى النوافذ من فوقي. كانت السماء صافية وشاحبة، بلون عينيّ. أحسست أنّ الأمر حتمي بشكل من الأشكال، كأنّه كان ينتظرني دائماً، ربّما لأنّني أتوق إلى الأعالي بينما يخشاها الآخرون، أو ربّما عندما يرى المرء ما رأيته، لا يبقى أمامه سوى حدود واحدة لاستكشافها، وهي السماء.

* * *

أخذت الدرجات المعدنية المؤدّية إلى الرصيف تصرّ تحت كلّ خطوة من خطواتي. كنت أرفع رأسي إلى الأعلى لأنظر إلى الطائرة، التي كانت

أكبر ممّا توقّعت، وتمتاز باللونين الفضّي والأبيض. تحت الجناح، رأيت أسطوانة هائلة تدور مراوح بداخلها. تخيّلت تلك الشفرات تمتصّني وتلقيني من الجهة الأخرى، فارتعدت قليلاً.

قال يوريا من خلفي: "كيف يمكن لشيء بهذا الحجم أن يحلّق في السماء؟"

هززت رأسي. فأنا لا أدري، ولا أريد التفكير بالأمر. تبعتُ زوي عبر مجموعة أخرى من الدرجات المؤدّية إلى فجوة بداخل الطائرة. ارتجفت يدي عندما أمسكت بالدرابزين، ثمّ نظرت إلى الخلف مرّة أخيرة لأرى ما إذا كان توبياس قد لحق بنا. غير أنّه لم يكن هناك، ولم أره منذ الاختبار الوراثي.

انحنيت لأعبر الفتحة، مع أنّها أعلى من رأسي. بداخل الطائرة، توزّعت صفوف وصفوف من المقاعد المغطّاة بقماش أزرق بالٍ وممزّق. اخترت مقعداً في المقدّمة، قرب النافذة. ضغط على ظهري عمود معدني، فأحسست أنّني أجلس على هيكل عظمي لمقعد لا تكسوه كمية كافية من اللحم.

جلست كارا خلفي، وذهب بيتر وكاليب إلى آخر الطائرة، ليجلسا قرب بعضهما بجانب النافذة. لم أدرك أنّهما أصبحا صديقين، لكنّهما مناسبَين لبعضهما نظراً إلى حقارة كلّ منهما.

سألتُ زوي، التي وقفت على مقربة منّي: "كم عمر هذه المركبة؟"

أجابت: "إنّها قديمة. لكنّنا جدّدنا تماماً الأجزاء المهمّة فيها. ويُعتبر حجمها مناسباً للغرض الذي نريده".

"بماذا تستعملونها؟"

"نستعملها عموماً في المراقبة. فنحن نتابع عن كثب ما يجري عند الضواحي، حرصاً على عدم تهديد ما يجري هنا". صمتت قليلاً، ثمّ أضافت: "فالضواحي هي مكان كبير وفوضوي إلى حدّ ما، يقع بين شيكاغو وأقرب منطقة تخضع لنظام حكومي، وهي ميلووكي، التي تبعد مسافة ثلاث ساعات بالسيّارة من هنا".

أردت أن أسألها ما الذي يجري بالضبط عند الضواحي، لكنّ يوريا وكريستينا جلسا على المقعد المجاور لي ولم أتمكّن من ذلك. خفض يوريا ذراع المقعد بيني وبينه، واتّكأ عليه لينظر عبر النافذة.

قال: "إن عرف الشجعان بوجود شيء كهذا، سيقفون بالصفّ ليتعلّموا قيادتها، بمن فيهم أنا".

وكزت كريستينا ذراعه قائلة: "كلاّ، بل سيربطون أنفسهم على الأجنحة. ألا تعرف جماعتك؟"

وكز خدّها، ثمّ التفت مجدّداً إلى النافذة.

سألتهما: "هل رأى أحد منكما توبياس مؤخّراً؟"

أجابت كريستينا: "كلاّ لم نره. هل أنتما بخير؟"

قبل أن أجيبها، وقفت بين صفَّي المقاعد امرأة أكبر سنّاً، تحيط بفمها تجاعيد دقيقة، وصفقت بيديها.

أعلنت قائلة: "أنا أدعى كارين، سأقوم بقيادة هذه الطائرة اليوم! قد يبدو الأمر مخيفاً للوهلة الأولى، لكن تذكّروا أنّ احتمال سقوط الطائرة هو أدنى بكثير من احتمال حوادث السيّارات".

تمتم يوريا مبتسماً: "وكذلك احتمال بقائنا على قيد الحياة إن سقطت الطائرة فعلاً". كانت عيناه السوداوان يقظتين، وبدا مرحاً كالأطفال. لم أره كذلك منذ موت مارلين. لقد عاد وسيماً من جديد.

اختفت كارين في مقدّمة الطائرة، بينما جلست زوي على مقعد في الطرف الآخر من الممرّ، بموازاة كريستينا. وكانت تلتفت لإعطاء تعليمات مثل "اربطوا الأحزمة!" و"لا تقفوا قبل أن نبلغ ارتفاع التطواف!" لم أفهم ما هو ارتفاع التطواف، ولم تشرحه لنا، كالعادة. من العجيب أساساً أنّها تذكّرت أن تشرح مسألة الضواحي قبل قليل.

بدأت الطائرة تتحرّك إلى الخلف، وفاجأتني سلاستها، كما لو كنّا نحلّق منذ الآن فوق الأرض. استدارت بعد ذلك، وبدأت تنزلق فوق الرصيف، الذي كان مكسوّاً بعشرات الخطوط والرموز. راح قلبي ينبض بسرعة كلّما ابتعدنا عن المجمّع، ثمّ ارتفع صوت كارين من خلال جهاز الاتصال الداخلي: "استعدّوا للإقلاع!"

تمسّكت بذراعيّ المقعد مع تحرّك الطائرة. ضغطني زخمها إلى الخلف، على هيكل المقعد، وتحوّل المشهد في الخارج إلى مزيج من الألوان. ثمّ بدأ بالإقلاع، أحسست بالطائرة وهي ترتفع، ورأيت الأرض تنتشر تحتنا، وكلّ شيء يصغر ويتقلّص. فتحت فمي ونسيت أن أتنفّس.

رأيت المجمّع، وبدا على شكل صورة خلية عصبية رأيتها مرّة في كتاب العلوم، يحيط به السياج. انتشرت حوله سلسلة من الطرقات الإسمنتية تفصل بينها الأبنية.

فجأة، لم أعد أرى الطرقات أو المباني، بل حلّت مكانها صفحة ملوّنة بالرمادي، والأخضر، والبنّي، وامتدّت الأرض في كلّ اتجاه.

لم أعرف ماذا كنت أتوقّع، أن أرى المكان الذي ينتهي عنده العالم، مثل جرف هائل معلّق في السماء؟

ما لم أتوقّعه هو اكتشافي أنّني كنت أعيش في منزل لا أستطيع رؤيته من هنا، وأنّني مشيت في شارع من بين مئات، لا بل آلاف الشوارع الأخرى.

ما لم أتوقّعه هو إحساسي أنّني صغيرة جدّاً، جدّاً.

قالت زوي: "لا نريد التحليق عالياً جدّاً ولا قريباً جدّاً من المدينة لكي لا نلفت الانتباه، لذلك سنتفرّج من مسافة بعيدة. سترون إلى يسار الطائرة بعض الدمار الذي سبّبته حرب النقاء، قبل أن يلجأ المتمرّدون إلى الحرب البيولوجية عوضاً عن المتفجّرات".

رففت عينيّ لإبعاد الدموع قبل أن أتمكّن من النظر إلى ما بدا للوهلة الأولى مجموعة من الأبنية السوداء. لكن سرعان ما أدركت أنّها لم تكن أبنية سوداء، غير أنّها احترقت وامّحت معالمها. بعضها سُوّي بالأرض، وتحطّمت الأرصفة الفاصلة بينها مثل قشرة بيضة.

كان هذا المكان يشبه بعض أجزاء المدينة، لكن في الوقت نفسه يختلف عنها. فدمار المدينة سبّبه الناس، لكنّ هذا الدمار سبّبه شيء آخر، شيء أعظم.

قالت زوي: "والآن، ستلقون نظرة سريعة على شيكاغو! ستلاحظون أنّ جزءاً من البحيرة تمّ تجفيفه لكي نتمكّن من بناء السياج، لكنّنا تركنا الجزء الأكبر منها على حاله قدر الإمكان".

في تلك اللحظة، رأيت مبنى المحور ببرجيه، وبدا صغيراً كاللعبة عن هذه المسافة، كما رأيت خطّ مدينتنا المتعرّج المحاذي لبحر الإسمنت. وخلفه، ظهر امتداد بنّي اللون، المستنقع، ومِن خلفه... مساحة زرقاء.

انزلقتُ مرّة على سلك من فوق مبنى هانكوك، وتخيّلت كيف يبدو المستنقع وهو مليء بالماء، أزرق رمادي يلمع تحت الشمس. والآن، وقد

استطعت رؤية ما لم أره يوماً، أدركت أنّه خلف حدود مدينتنا، كانت البحيرة تماماً مثلما تخيّلتها، تلمع في البعيد تحت أشعّة الشمس، تتخلّلها الأمواج.

خيم الصمت على الطائرة باستثناء هدير المحرّك.

هتف يوريا: "ربّاه".

قالت كريستينا: "اصمت".

سأل بيتر من مكانه: "ما هو حجمها مقارنة ببقية العالم؟" بدا صوته كأنّه يختنق مع كلّ كلمة. "أعني مدينتنا. ما هي النسبة التي تحتلّها من حيث المساحة؟"

قالت زوي: "تبلغ مساحة شيكاغو مئتين وسبعة وعشرين ميلاً مربّعاً، في حين إنّ مساحة اليابسة في الكرة الأرضية هي أقلّ بقليل من مئتي مليون ميل مربّع. وبالتالي فإنّ النسبة... صغيرة جدّاً وغير جديرة بالذكر".

ذكرت تلك الحقائق بهدوء، كما لو أنّها لا تعني لها شيئاً. غير أنّها صدمتني بقوّة، وأحسست أنّها تعتصرني، كما لو أنّني أُسحق تحت ثقلها. كلّ هذه المساحة! أتساءل كيف تبدو الأماكن الأخرى، وكيف يعيش الناس هناك.

نظرت من النافذة مجدّداً، وأخذت أنفاساً عميقة وبطيئة، بجسدي الذي كان شديد التوتّر. وبينما كنت أحدّق إلى الأرض، فكّرت أنّ هذا وحده هو دليل قاطع على وجود الله، وأنّ عالمنا هائل جدّاً بحيث يخرج عن سيطرتنا، ويحدّ من جبروتنا.

صغيرة جدّاً وغير جديرة بالذكر.

هذا غريب، لكنّ شيئاً ما في تلك الفكرة جعلني أشعر أنّني... حرّة تقريباً.

* * *

في ذلك المساء، عندما ذهب الجميع إلى العشاء، جلست على حافة النافذة في عنبر النوم، وشغّلت الشاشة التي أعطاني إيّاها ديفيد. أخذت يداي ترتجفان عندما فتحت الملفّ الذي يحمل عنوان "يوميّات".

كانت البداية على الشكل التالي.

يلحّ عليّ ديفيد لكي أدوّن ما أعيشه. أظنّ أنّه يتوقّع أن يكون ذلك فظيعاً، وربّما هذا ما يريده. أظنّ أنّ أجزاء منه كانت كذلك، لكنّ التجربة كانت سيّئة بالنسبة إلى الجميع، ولا يجعل منّي ذلك شخصاً مميّزاً.

لقد نشأتُ في منزل في ميلووكي، في مقاطعة ويسكونسن. لم أعرف أبداً من كان يعيش على الأراضي الواقعة خارج مدينتنا (التي يسمّيها الجميع هنا "الضواحي")، بل كلّ ما أعرفه أنّه لا يفترض بي الذهاب إلى هناك. كانت أمّي تعمل في تطبيق القانون، وكانت حادّة الطباع ويصعب إرضاؤها. أمّا أبي فكان مدرّساً، وبالتالي شخصاً مطواعاً، وداعِماً، وعديم فائدة. في أحد الأيّام، تشاجرا في غرفة المعيشة، وخرجت الأمور عن السيطرة. فأمسك بها، إلاّ أنّها أطلقت عليه النار. في تلك الليلة، بينما كانت تدفن جثّته في الباحة الخلفية، جمعتُ كثيراً من أغراضي وخرجتُ من الباب الأمامي. ومنذ ذلك اليوم، لم أرها مجدّداً.

في المكان الذي نشأتُ فيه، عمّت المآسي. فمعظم أهالي أصدقائي كانوا يعيشون حياة من العربدة، أو يتشاجرون كثيراً، أو توقّفوا عن حبّ بعضهم منذ زمن طويل. هكذا كانت الأمور، وكنّا نعتبرها عادية. لذلك، عندما رحلت، أضفتُ الحادثة إلى قائمة طويلة من الأمور المريعة التي حدثت في حيّنا خلال العام الماضي.

عرفتُ أنّني إن ذهبت إلى أيّ مكان حكومي، كأن أقصد مدينة أخرى، سيعيدني موظّفي الحكومة إلى منزلي، ولا أظنّ أنّني سأتمكّن من النظر إلى أمّي من دون أن أرى خطّ الدماء الذي سال من رأس أبي على السجّاد في غرفة المعيشة. لهذا السبب، لم أذهب إلى أيّ مكان حكومي، بل قصدتُ الضواحي، التي كان يعيش فيها أناس في مستوطنة صغيرة مبنيّة من قماش القنّب والألمنيوم محاطين بالخراب الذي خلّفته الحرب. كانوا يعيشون على البقايا، ويحرقون الورق القديم للتدفئة، ذلك أنّ الحكومة عاجزة عن إعالتهم، لأنّها كانت تنفق كلّ مواردها على إعادة البلاد إلى ما كانت عليه. كانت تفعل ذلك منذ قرن من الزمن بعدما مزّقتنا الحرب. وربّما لم يرغبوا في إعالة أولئك الناس، لا أدري.

في أحد الأيّام، رأيت رجلاً يضرب أحد الأولاد في الضواحي، فضربته على رأسه بلوح خشبي لأوقفه، إلاّ أنّه قضى على الفور في الشارع. لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة في ذلك الوقت. فهربتُ. عثر عليّ شابّ في حافلة صغيرة، بدا كأنّه من الشرطة. لكنّه لم يصطحبني جانباً لكي يطلق عليّ النار، ولم يأخذني إلى السجن، بل اصطحبني إلى مكان آمن وقام باختبار مورّثاتي. أخبرني في أثناء ذلك كلّ شيء عن تجارب المدن، وأنّ مورّثاتي كانت أنقى من مورّثات

الناس الآخرين. حتّى أنّه سمح لي برؤية خارطة لصفاتي الوراثية على شاشة لإثبات ذلك.

غير أنّني قتلت رجلاً، تماماً كما فعلت أمّي. قال ديفيد إنّه لا بأس بذلك، لأنّني لم أقصد، ولأنّه كان على وشك أن يقتل ذلك الولد الصغير. غير أنّني واثقة أيضاً أنّ أمّي لم تقصد قتل أبي، فما الفرق بين أن يعني المرء أو لا يعني ارتكاب عمل خاطئ؟ سواء كانت الحادثة عرضية أم مقصودة، تبقى النتيجة واحدة، ولا يمكن إعادة الروح التي خسرناها.

هذا ما عانيته على ما أظنّ. وبحسب ديفيد، وقع كلّ ذلك لأنّ الناس حاولوا منذ وقت طويل جدّاً العبث بالطبيعة البشرية وانتهى بهم الأمر بجعلها أسوأ.

أظنّ أنّ كلامه منطقي، أو أحبّ أن أظنّ ذلك.

عضضت على شفتي. في هذه اللحظة، يجلس الناس في الكافتيريا في مجمّع المكتب، يأكلون ويشربون ويضحكون. وفي المدينة، يفعلون الشيء نفسه على الأرجح. تحيط بي حياة طبيعية، وأنا وحدي أكتشف هذه الأسرار.

ضممت الشاشة إلى صدري. كانت أمّي تنتمي إلى هذا المكان، الذي يحوي تاريخي القديم والحديث. يمكنني أن أشعر بها على الجدران وفي الهواء. أحسّ بها مستقرّة بداخلي. لن تفارقني مجدّداً. لا يمكن للموت أن يمحوها، بل هي دائمة.

هبّ الهواء عبر قميصي، فارتجفت. دخل يوريا وكريستينا من الباب إلى العنبر، وهما يضحكان على شيء ما. ملأتني عينا يوريا الصافيتين

وخطواته الثابتة بالارتياح، وترقرقت الدموع في عينيّ فجأة. بدا القلق عليه هو وكريستينا، فاستندا إلى النافذة من جانبيّ.

سألتني: "هل أنت بخير؟"

أجبت بإيماءة من رأسي، ورففت عينيّ للتخلّص من الدموع. "أين كنتما اليوم؟"

قال يوريا: "بعد رحلة الطائرة، ذهبنا لمراقبة الشاشات في غرفة المراقبة لبعض الوقت. من الغريب حقّاً رؤية ما يفعلونه الآن بعد ذهابنا. ما زالت معظم الأمور على حالها، أي سفالة إيفلين وأتباعها وما إلى ذلك، لكن كان الأمر أشبه بتقرير إخباري".

قلت: "لا أظنّ أنّني أودّ النظر إلى تلك الشاشات. فهي تبدو لي... تلصّصاً على حياة الناس".

هزّ يوريا كتفيه قائلاً: "لا أعرف. إن أرادوا مشاهدتي وأنا أحكّ مؤخّرتي أو أتناول العشاء، أشعر أنّ هذا الأمر يكشف عنهم أكثر ممّا يكشف عنّي".

ضحكت وسألته: "وكم مرّة تحكّ مؤخّرتك بالضبط؟"

فوكزني بمرفقه.

"لا أقصد تحويل مجرى حديثكما الهامّ جدّاً-" ابتسمت كريستينا قليلاً، "لكنّني أوافقك الرأي، تريس. فعندما شاهدت تلك الشاشات أحسست بشعور فظيع، كما لو أنّني أتجسّس. أظنّ أنّني سأتجنّبها من الآن فصاعداً".

أشارت إلى الشاشة الموضوعة في حضني، والتي كانت لا تزال مضاءة على كلمات أمّي. "ما هذا؟"

قلت: "اكتشفت للتوّ أنّ أمّي كانت من هنا. في الواقع، كانت من العالم الخارجي، ثمّ أتت إلى هنا في سنّ الخامسة عشرة، وأُدخلت إلى شيكاغو كواحدة من الشجعان".

تساءلت كريستينا: "أمّك كانت من هنا؟"

أومأت برأسي مجيبة: "نعم، هذا لا يعقل، أعرف ذلك. والأغرب أنّها كتبت هذه اليوميّات وتركتها معهم. وهذا ما كنت أقرأه قبل دخولكما".

قالت كريستينا بلطف: "آه، هذا جيّد، أليس كذلك؟ أعني، من الجيد أن تعرفي أكثر عنها".

"أجل، هذا صحيح. وأنا لم أعد غاضبة، لذلك توقّف عن النظر إليّ هكذا". في تلك اللحظة، اختفت نظرة القلق التي كانت قد بدأت تعلو وجه يوريا.

تنهّدت قائلة: "لا أكفّ عن التفكير... أنّني أنتمي إلى هذا المكان بشكل ما، كأنّه يمكن أن يصبح بيتاً لي".

قطّبت كريستينا حاجبيها.

قالت: "ربّما". أحسست أنّها لا تصدّق ذلك، لكن من اللطف أن تؤيّدني على أيّ حال.

قال يوريا، وبدت عليه الجدّية الآن: "لا أدري. لست واثقاً أنّني سأجد بيتاً لي بعد اليوم، حتّى لو عدنا".

قد يكون كلامه صحيحاً. ربّما كنّا غرباء أينما حللنا، سواء خارج المكتب، أو داخله، أو في التجربة. لقد تغيّر كلّ شيء، ولن يكفّ عن التغيّر قريباً.

ربّما سنبني بيتاً في مكان ما داخلنا، لنحمله معنا أينما ذهبنا، مثلما أحمل أمّي بداخلي الآن.

دخل كاليب إلى العنبر. كان على قميصه بقعة بدت مثل بقعة الصلصة، لكنّه لم يلاحظها على ما يبدو. عرفت من نظرة عينيه أنّه في حالة افتتان فكري، وتساءلت للحظة ماذا كان يقرأ أو يشاهد لكي يبدو على هذه الحال.

قال: "مرحباً"، وأوشك أن يقترب منّي، لكن لا بدّ أنّه رأى نفوري، لأنّه توقّف فوراً.

غطّيت الشاشة براحة يدي، مع أنّه لن يتمكّن من رؤيتها عن هذه المسافة، وحدّقت إليه، غير قادرة أو راغبة في الردّ عليه.

قال بحزن: "ألن تتحدّثي معي مجدّداً؟"

أجابته كريستينا ببرود: "إن فعلَت، سأقع من الصدمة".

أشحت بنظري. في الواقع، أشعر أحياناً أنّني أودّ أن أنسى كلّ شيء لنعود كما كنّا قبل أن نختار جماعة أخرى. فحتّى عندما كان يصرّ دائماً على تصحيح أفعالي، وتذكيري أن أكون ناكرة للذات، كان الوضع أفضل من هذا الشعور أنّني أحتاج إلى حماية مذكّرات أمّي منه، لكي لا يسمّمها كما سمّم كلّ شيء آخر. نهضتُ، ودسستها تحت وسادتي.

قال لي يوريا: "هيّا بنا، ألا تريدين تناول الحلوى معنا؟"

"ألم تفعلا أساساً؟"

"ولو". ابتسم يوريا، وأحاط كتفيّ بذراعه، ثمّ قادني إلى الباب.

ذهبنا نحن الثلاثة معاً إلى الكافتيريا، وتركنا شقيقي خلفنا.

الفصل العشرون

توبياس

قالت لي نيتا: "لم أكن متأكّدة أنّك ستأتي".

عندما استدارت لتقودني إلى المكان الذي نقصده، لاحظت أنّ قبّة قميصها الواسعة تُظهر وشماً على عمودها الفقري، لكنّني لم أعرف ما هو.

سألتها: "هل تضعون أوشاماً أنتم أيضاً هنا؟"

أجابت: "بعضنا. الوشم الموجود على ظهري يصوّر زجاجاً محطّماً". صمتت قليلاً، كمن يفكّر ما إذا كان ينبغي أن يبوح بشيء شخصي أم لا. "وضعتُه لأنّه يشير إلى العطب. إنّه... مزحة".

عدنا إلى ذكر "العطب"، تلك الكلمة التي كانت تظهر وتغيب، لتظهر وتغيب مجدّداً في ذهني منذ الاختبار الوراثي. إن كانت مزحة، فهي ليست مضحكة حتّى بالنسبة إلى نيتا التي تحدّثت بمرارة.

سلكنا أحد الممرّات، الذي كان شبه خالٍ الآن بعد انتهاء دوام العمل، ثمّ هبطنا سلّماً. في أثناء نزولنا، تراقصت الأضواء الزرقاء، والخضراء، والبنفسجية، والحمراء فوق الجدران، التي كانت تتعاقب مع كلّ ثانية. وصلنا إليه عند أسفل السلّم النفق إلى عريض ومظلم، لا ينيره سوى ضوء غريب. كانت الأرض هنا مكسوّة ببلاط قديم، أحسست حتّى من خلال نعل حذائي أنّه مكسوّ بالتراب والغبار.

قالت نيتا: "لقد تمّ تجديد وتوسيع هذا الجزء من المطار بشكل كامل بعد انتقالهم إلى هنا في البداية. بعد حرب النقاء، وُضعت كلّ المختبرات تحت الأرض لمدّة من الزمن، حفاظاً على أمنها في حال التعرّض للهجوم. أمّا الآن، وحدهم موظّفو الدعم ينزلون إلى هنا".

"وهل هم من تريدين أن ألتقي بهم؟"

أومأت برأسها مجيبة: "موظّفو الدعم هم أكثر من مجرّد موظّفين. فجميعنا تقريباً معطوبون وراثياً، ونُعتبر من مخلّفات تجارب المدن الفاشلة أو من سلالة مخلّفات التجارب أو أشخاصاً تمّ إحضارهم من الخارج، مثل والدة تريس، لكن من دون ميزتها الوراثية. وكلّ العلماء والزعماء أنقياء، ويتحدّرون من أناس قاوموا حركة الهندسة الوراثية من الأساس. ثمّة بعض الاستثناءات بالطبع، غير أنّهم قلّة بحيث يمكنني تعدادهم إن أردت.

كنت على وشك أن أسألها عن سبب هذا التقسيم الصارم، لكنّني فهمت من تلقاء نفسي. فقد نشأ "الأنقياء" في هذا المجتمع، وكانت حياتهم مليئة بالخبرة، والمراقبة، والتعلّم. أمّا "المعطوبون" فنشأوا في التجارب، ولم يتعلّموا سوى ما يلزمهم للبقاء حتّى الجيل التالي. من هنا فإنّ التقسيم يرتكز على المعرفة، والمؤهّلات. لكن كما تعلّمتُ من المنبوذين، فإنّ النظام الذي يعتمد على تفويض العمل القذر إلى مجموعة من الأشخاص غير المتعلّمين، من دون إعطائهم الفرصة للنهوض، ليس نظاماً عادلاً.

قالت نيتا: "أتعلم، أظنّ أنّ فتاتك على حقّ. لم يتغيّر شيء في الواقع، بل بتّ تعرف الآن أوجه قصورك بشكل أفضل. ولكلّ كائن بشري، قصور معيّن، حتّى الأنقياء".

"إذاً، ثمّة حدود لـ... ماذا؟ تعاطفي؟ ضميري؟ هذا هو التطمين الذي تمنحينني إيّاه؟"

تأمّلتني نيتا بعناية، من دون أن تجيب.

قلت: "هذا سخيف. من أين تملكين الحقّ أنت، أو هم، أو أيّ شخص كان برسم حدودي؟"

"هكذا هي الأمور، توبياس. الأمر وراثي وحسب، ليس أكثر".

"هذا كذب. الأمر يتجاوز الوراثة، هنا، وأنت تعرفين ذلك".

شعرت بالرغبة في الرحيل. أردت أن أستدير وأعود على أعقابي إلى العنبر. كان الغضب يغلي في داخلي، ويبعث فيّ الحرارة، من دون أن أعرف على من أصبّه بالضبط. هل على نيتا، التي قبلت ببساطة كونها محدودة بشكل من الأشكال، أو على من أخبرها بذلك؟ ربّما على الجميع.

وصلنا إلى آخر النفق، فدفعَت باباً خشبياً ثقيلاً بكتفها. انفتح الباب على عالم غارق في الأضواء والصخب. كانت القاعة مضاءة بأزرار متوهّجة صغيرة معلّقة على حبال، لكنّ الحبال كانت كثيفة بحيث شكّلت شبكة صفراء وبيضاء تغطّي السقف. من إحدى جهات القاعة، امتدّت طاولة خشبية، واصطفّت خلفها زجاجات برّاقة، وبحر من الكؤوس فوقها. وإلى يسار الغرفة، توزّعت الطاولات والكراسي، بينما جلست مجموعة من الأشخاص مع آلات موسيقية إلى اليمين. ضجّت الموسيقى في المكان، ومن خلال خبرتي المحدودة مع جماعة الوئام، عرفتُ الغيتار والطبلة.

أحسست أنّني أقف تحت الأضواء وأنّني محطّ أنظار الجميع، الذين ينتظرون أن أتحرّك، أو أتكلّم، أو أفعل شيئاً. للحظة، لم أستطع سماع شيء بسبب الموسيقى والهمهمات، لكن بعد بضع ثوانٍ، اعتدتُ على الصخب وسمعتُ نيتا وهي تقول: "من هنا! هل تريد أن تشرب شيئاً؟"

كنت على وشك أن أجيبها عندما دخل أحدهم إلى القاعة. كان قصير القامة، يرتدي قميصاً قطنياً كبيراً على مقاسه. أشار للعازفين لكي يتوقّفوا، وعندما فعلوا، صاح قائلاً: "حان وقت إصدار الحكم!"

نهض نصف الحاضرين، واندفعوا إلى الباب. ألقيت على نيتا نظرة استغراب، فقطّبت جبينها.

سألتها: "في حقّ من؟"

"ماركوس، من دون شكّ".

عندئذٍ، انطلقت أجري أنا الآخر.

* * *

رحت أجري عبر النفق، وأتسلّل بين الناس، كما لو كان خالياً. لحقت بي نيتا، وأخذت تناديني لأتوقّف، لكنّني لم أستطع. فقد أحسست أنّني منفصل عن هذا المكان، وعن أولئك الناس، وعن جسدي. ولطالما كنت أيضاً عدّاءً سريعاً.

صعدت السلّم كلّ ثلاث درجات معاً، وتمسّكت بالدرابزين للحفاظ على توازني. لم أعرف سبب لهفتي، أهي على إدانة ماركوس، أم على تبرئته؟ هل آمل أن تجده إيفلين مذنباً، وتحكم عليه بالإعدام، أم أن تعفو عنه؟ لم أعرف في الواقع. بالنسبة إليّ، كانت كلّ النتائج واحدة؛ إمّا شرّ ماركوس أو قناعه، وإمّا شرّ إيفلين، أو قناعها. لم أكن بحاجة إلى تذكّر موقع غرفة المراقبة، لأنّ الناس الموجودين في الردهة قادوني إليها. عندما وصلت، شققت طريقي للوقوف في المقدّمة، لأرى أمامي والديّ، يظهران على نصف الشاشات. ابتعد الجميع عنّي وهم يتهامسون، باستثناء نيتا، التي وقفت بجانبي وهي تلهث.

رفع أحدهم الصوت، لنتمكّن جميعنا من سماع ما يجري. لم يكن واضحاً، بسبب مكبّرات الصوت، لكنّني عرفت صوت والدي. استطعت سماع نبرته وهي تتبدّل في اللحظات المناسبة، وترتفع عند اللزوم. كنت قادراً على توقّع كلماته تقريباً قبل أن ينطق بها.

قال ساخراً: "أخذتِ وقتك. هل كنت تتمتّعين بحلاوة اللحظة؟"

تصلّب جسدي. هذا ليس قناع ماركوس. هذا ليس الشخص الذي تعرفه المدينة على أنّه أبي، زعيم نكران الذات الهادئ والصبور، الذي لا يجرؤ على إيذاء أحد أبداً، فما بالك بابنه أو زوجته. هذا هو الرجل الذي نزع حزامه رويداً رويداً، ولفّه حول يده. هذا ماركوس الذي أعرفه جيّداً، والذي يعيدني مرآه طفلاً، تماماً كما في مشهد الخوف.

قالت أمّي: "بالطبع لا، فقد خدمتَ هذه المدينة بإخلاص لسنوات عديدة. وهذا القرار لم نتّخذه أنا ومستشاريّ بخفّة".

لم يكن ماركوس يضع قناعه، بخلاف إيفلين، التي بدت صادقة إلى حدّ أقنعني تقريباً.

"لقد أخذت أنا وممثّلي الجماعات السابقين كثيراً من الأمور بعين الاعتبار. سنوات خدمتك، والإخلاص الذي زرعتَه بين أعضاء جماعتك، وأحاسيسي تجاهك كزوجي السابق..."

ضحكتُ ساخراً.

قال ماركوس: "ما زلت زوجك. فجماعة نكران الذات لا تسمح بالطلاق".

أجابت إيفلين: "بل تسمح به في حالة إساءة المعاملة الزوجية". عاودني في تلك اللحظة إحساسي القديم بالفراغ والثقل. لا أصدّق أنّها أقرّت بذلك للتوّ علناً.

غير أنّها تريد الآن من بقيّة سكّان المدينة أن ينظروا إليها بطريقة معيّنة، ليس على أنّها المرأة القاسية التي تسيطر على حياتهم، بل على أنّها المرأة التي عنّفها ماركوس، وهو السرّ الذي أخفته داخل جدران منزل نظيف وتحت ملابس رمادية مكوية بعناية.

الآن عرفتُ ما ستكون نتيجة هذه الجلسة.

قلت: "ستقتله".

قالت إيفلين بصوت لطيف تقريباً: "مع ذلك، فقد ارتكبتَ جرائم فاضحة ضدّ هذه المدينة. خدعتَ الأطفال الأبرياء ليخاطروا بحياتهم من أجل أغراضك الخاصّة. ورفضت اتّباع أوامري وأوامر توري، الزعيمة السابقة لجماعة الشجاعة، ممّا أدّى إلى عدد لا يحصى من الوفيات في هجوم المعرفة. لقد قمتَ بخيانة زملائك برفضك تنفيذ اتّفاقنا وبعدم قتالك ضدّ جانين ماثيوس. كما خنت جماعتك عبر كشف ما كان يفترض أن يبقى سرّاً دفيناً".

"أنا لم-"

قاطعته إيفلين قائلة: "لم أنهِ كلامي بعد. لكن نظراً إلى سجلّ خدمتك للمدينة، قرّرنا اعتماد حلّ بديل. لن تنال العفو ويُسمح لك بتقديم المشورة في المسائل التي تتعلّق بهذه المدينة، على غرار ممثّلي الجماعات السابقين. كما أنّه لن يتمّ إعدامك، مثلما حلّ بالخونة. عوضاً عن ذلك، سنقوم بإرسالك إلى خارج السياج، وخارج مجمّع الوئام، ولن يسمح لك بالعودة".

فوجئ ماركوس، ولا ألومه على ذلك.

قالت إيفلين: "تهانينا، لقد مُنحتَ فرصة البدء من جديد".

هل يجدر بي أن أشعر بالارتياح لأنّ أبي لن يتعرّض للإعدام، أم بالغضب لأنّني، ما كدت أوشك على الخلاص منه أخيراً، حتّى عاد يلاحقني؟

لا أعرف، أنا لا أشعر بشيء في الواقع. تخدّرت يداي، فأدركت أنّ ما أحسّ به هو الذعر، لكن ليس كالعادة. أحسست أنّني أريد أن أكون في مكان آخر. فاستدرت، وتركت خلفي والديّ، ونيتا، والمدينة التي عشت فيها في الماضي.

الفصل الحادي والعشرون

تريس

تمّ الإعلان عن تدريب الهجوم في الصباح، على جهاز الاتصال الداخلي بينما كنّا نتناول الإفطار. أمرنا الصوت الأنثوي بإقفال باب الغرفة التي نتواجد فيها من الداخل، وتغطية النوافذ، والجلوس بهدوء حتّى تصمت أجهزة الإنذار. قالت: "سيبدأ عند رأس الساعة".

بدا توبياس متعباً وشاحباً، تحيط الهالات السوداء بعينيه. تناول قطعة مافن، وراح يكسر منها قطعاً صغيرة، يأكلها أحياناً وينساها أحياناً أخرى.

استيقظ معظمنا في وقت متأخّر، عند الساعة العاشرة، وأظنّ أنّ السبب هو عدم وجود ما يشغلنا. فعندما غادرنا المدينة، خسرنا جماعاتنا، وإحساسنا بالهدف. ولم يعد لدينا ما نفعله هنا سوى انتظار حدوث شيء. وعوضاً عن الإحساس بالاسترخاء، جعلني ذلك أشعر بالتوتّر. فأنا معتادة على العمل والقتال. لذلك، حاولت أن أذكّر نفسي بالاسترخاء.

قلت لتوبياس: "اصطحبونا أمس في رحلة بالطائرة. أين كنت؟"

"أردت أن أتجوّل قليلاً لأفكّر ببعض الأمور". تحدّث باقتضاب وانزعاج. "كيف كانت الرحلة؟"

"رائعة، في الواقع". جلست أمامه بحيث تلامست ركبنا في المسافة الفاصلة بين سريرينا. "اكتشفت أنّ العالم... أكبر بكثير ممّا ظننت".

هزّ رأسه قائلاً: "ما كنت لأستمتع على الأرجح، بسبب الارتفاع وما إلى ذلك".

لم أفهم لماذا خيّب ردُّ فعله أملي. أردت أن يقول إنّه يتمنّى لو كان معي لنختبر تلك التجربة معاً، أو أن يسألني ماذا عنيت عندما قلت إنّها كانت رائعة. لكنّه اكتفى بالقول إنّه ما كان ليستمتع بها.

سألته: "هل أنت بخير؟ يبدو أنّك لم تنم جيّداً".

قال وهو يضع رأسه بين يديه: "في الواقع، كان يوم أمس مليئاً بالاكتشافات. لا تلوميني على انزعاجي".

قلت عابسة: "أنت حرّ بالانزعاج ممّا تشاء. لكن من وجهة نظري، لا أجد شيئاً يستحقّ استياءك. أعرف أنّها صدمة بالنسبة إليك، لكن كما سبق وقلت، ما زلتَ كما أنت، مهما يكن رأي أولئك الناس".

هزّ رأسه مجيباً: "أنا لا أتحدّث عن صفاتي الوراثية، بل عن ماركوس. ليس لديك فكرة عمّا جرى، أليس كذلك؟" كان سؤاله اتّهامياً، لكنّ نبرته لم تكن كذلك. نهض، ورمى قطعة المافن في سلّة المهملات.

أحسست بالإحباط. بالطبع عرفتُ بأمر ماركوس، فقد كان الناس يتحدّثون عنه عندما استيقظت. لكن لسبب ما، لم أعتقد أنّه سينزعج عندما يعرف أنّ والده لن يُعدم. يبدو أنّني كنت مخطئة.

في تلك اللحظة، انطلقت صفّارات الإنذار، ولم أستطع قول شيء له. كانت صاخبة، ومزعجة، ومؤلمة، بحيث عجزت عن التفكير، فما بالك بالحركة. وضعت يداً على أذني، ودسست الأخرى تحت وسادتي لأخرج الشاشة التي تحتوي على مذكّرات أمّي.

أقفل توبياس الباب وأغلق الستائر، وجلس الجميع على أسرّتهم. لفّت كارا وسادة حول رأسها، في حين جلس بيتر مستنداً إلى الحائط، واكتفى بإغلاق عينيه. لم أعرف أين كاليب، الذي يتابع ربّما أبحاثه التي أبعدته عنّا يوم أمس على الأرجح، ولا أين هما كريستينا ويوريا، اللذان

يقومان ربّما باستكشاف المجمّع. بعد التحلية التي تناولناها البارحة، أعربا عن رغبتهما في استكشاف كلّ زاوية من زوايا هذا المكان. أمّا أنا، فقرّرت أن أستكشف أفكار أمّي حياله، ذلك أنّها كتبت عدّة صفحات حول انطباعاتها عن المجمّع، ونظافته الغريبة، والابتسامة الدائمة التي تعلو وجوه الجميع، وكيف أُغرمت بالمدينة وهي تشاهدها من غرفة المراقبة.

أضأتُ الشاشة، على أمل أن أشغل ذهني عن الضجّيج.

تطوّعت اليوم لدخول المدينة. قال ديفيد إنّ الجامحين يُقتلون وإنّ على أحدنا إيقاف ذلك، لأنّنا نخسر أفضل موادنا الوراثية. أظنّ أنّ هذا أسوأ تعبير عن الواقع، لكنّ ديفيد لم يكن يعني ذلك. ما أراد قوله هو إنّه لو لم يكن الجامحون هم الذين يموتون، لما تدخّلنا إلاّ عند مستوى دمار معيّن. أمّا في هذه الحالة، فعلينا اتخاذ تدابير سريعة.

قال، فقط لبضع سنوات. كلّ ما أملكه هنا هو بضعة أصدقاء، لكن لا أسرة. كما أنّني شابّة بما فيه الكفاية بحيث سيكون من السهل إدخالي. كلّ ما يلزم هو مسح وإعادة ملء ذاكرة عدد من الأشخاص، لكي أدخل بكلّ سهولة. سيضعونني في البداية في جماعة الشجاعة، لأنّني أملك أوشاماً في الأساس، وسيصعب شرح السبب للناس الموجودين داخل التجربة. المشكلة الوحيدة هي أنّه سيكون عليّ الانضمام إلى جماعة المعرفة في العام التالي، في حفل اختيار الجماعة، لأنّ القاتل موجود هناك. لكنّني لست واثقة أنّني ذكية بما فيه الكفاية لأجتاز فترة التلقين. قال ديفيد إنّ الأمر لا يهمّ، وإنّه يستطيع تعديل نتائجي، لكنّ هذا العمل بدا خاطئاً. فحتّى لو كان المكتب يعتقد أنّ الجماعات لا تعني شيئاً وأنّها

مجرّد تعديل سلوكي سيساعد على التكيّف مع العطب الوراثي، إلاّ أنّ أولئك الناس يعتقدون بأهمّية نظامهم، وسيكون من الخطأ التلاعب به.

كنت أراقبهم منذ عامين، لذلك، لا أحتاج إلى كثير من المعلومات لكي أعرف كيف أندمج فيهم. أنا واثقة أنّني أعرف المدينة أكثر منهم. لكن سيكون من الصعب أن أرسل التقارير، لأنّ أحدهم قد يلاحظ أنّني أرتبط بخادم بعيد وليس بخادم داخل المدينة. بالتالي فإنّ تقاريري ستكون قليلة على الأرجح، هذا إن استطعت إرسالها. ومع أنّ انفصالي عن كلّ ما أعرفه سيكون صعباً عليّ، لكنه قد يكون مفيداً، وقد تشكّل هذه الخطوة بداية جديدة لي.

يمكنني حقّاً الاستفادة من هذه التجربة.

لم أستطع استيعاب كلّ ذلك، غير أنّني وجدت نفسي أعيد قراءة جملتها: المشكلة الوحيدة هي أنّه سيكون عليّ الانضمام إلى جماعة المعرفة في العام التالي، في حفل اختيار الجماعة، لأنّ القاتل موجود هناك. لا أدري عن أيّ قاتل تتحدّث، أهو سلف جانين ماثيوس؟ الأغرب أنّها لم تدخل أساساً في جماعة المعرفة.

ما الذي حدث ودفعها إلى الانضمام عوضاً عن ذلك إلى نكران الذات؟

توقّفت صفّارات الإنذار، وملأ الطنين أذنيّ في غيابها. خرج الباقون واحداً تلو الآخر، لكنّ توبياس بقي للحظة، وهو ينقر بأصابعه على قدمه. لم أتحدّث إليه، فأنا لست واثقة أنّني أرغب في سماع ما يريد قوله في هذه اللحظة وكلانا على شفير الانفجار.

لكن كلّ ما قاله هو: "هل يمكنني أن أعانقك؟"

أحسست بالارتياح وأجبته: "أجل".
على الأقلّ، يعرف كيف يحسّن مزاجي.
قلت: "لم أفكّر بماركوس، كان عليّ ذلك".
هزّ كتفيه مجيباً: "لقد انتهى الأمر الآن".
أعرف أنّه لم ينته بعد، ذلك أنّ ما اقترفه ماركوس خطير جدّاً. غير أنّني لم ألحّ عليه.
سألني: "مزيد من المذكّرات؟"
"أجل. مجرّد بعض الصفحات عن المجمّع حتّى الآن، لكنّها بدأت تصبح مثيرة للاهتمام".
قال: "جيّد. سأتركك معها".
ابتسم قليلاً، لكن من الواضح أنّه ما زال متعباً ومستاءً. لم أحاول استيقافه. فقد بدا لي بشكل ما أنّنا نترك بعضنا مع أحزاننا، هو على خسارة جموحه والآمال التي علّقها على محاكمة ماركوس، وأنا، أخيراً، على خسارة والديّ.
نقرت على الشاشة لأقرأ المادّة التالية.

عزيزي ديفيد،

رفعتُ حاجبيّ استغراباً. هل تكتب الآن إلى ديفيد؟

عزيزي ديفيد،
أنا آسفة، لكنّ الرياح لن تجري كما اشتهينا. لن أستطيع فعل ذلك. أعرف أنّك ستجدني مراهقة سخيفة، لكن هذه حياتي، وإن كنتُ سأمكث هنا لسنوات، عليّ أن أفعل الأشياء على طريقتي. سأظلّ قادرة على القيام

بمهمّتي من خارج جماعة المعرفة. لذلك غداً، في حفل الاختيار، سنقوم أنا وأندرو باختيار جماعة نكران الذات معاً.

آمل ألاّ تغضب منّي. وحتّى لو كنت مستاءً، فلن أعرف بذلك.

- ناتالي

قرأت رسالتها ثانية وثالثة، وتركتُ كلماتها تستقرّ في ذهني. سنقوم أنا وأندرو باختيار جماعة نكران الذات معاً.

ابتسمتُ في سرّي وأسندت رأسي إلى النافذة، ثمّ تركت دموعي تسيل بصمت.

لقد أحبّ والداي بعضهما بما فيه الكفاية للتخلّي عن الخطط والجماعات. أحبّا بعضهما بما فيه الكفاية لتحدّي شعار "الجماعة قبل الدم". واعتقدا أنّ الدم يأتي قبل الجماعة، لا بل الحبّ قبل الجماعة، دائماً.

أطفأت الشاشة غير راغبة في قراءة شيء يفسد عليّ هذا الإحساس: أنّني أعوم في مياه هادئة.

من الغريب أنّه، حتّى في الوقت الذي يجب أن أحزن فيه عليها، أشعر أنّني أستعيد أجزاء منها، كلمة كلمة، وسطراً سطراً.

الفصل الثاني والعشرون

تريس

كان الملفّ يحتوي على اثنتي عشرة مادّة أخرى، لا تجيبان عن كلّ تساؤلاتي، بل تطرحان مزيداً من الأسئلة. وعوضاً عن عرض أفكارها وانطباعاتها، كانت جميعها موجّهة إلى شخص ما.

عزيزي ديفيد،

ظننت أنّك صديق أكثر من كونك مشرفاً، لكن يبدو أنّني أخطأت.

ماذا ظننت أنّه سيحدث عندما آتي إلى هنا؟ هل ظننت أنّني سأبقى عزباء وأعيش وحيدة إلى الأبد؟ وأنّني لن أتعلّق بأحد، ولن أقوم بخياراتي؟

لقد تركتُ كلّ شيء خلفي للمجيء إلى هذه المدينة، في الوقت الذي رفض فيه الجميع ذلك. ويجدر بك أن تشكرني عوضاً عن اتّهامي أنّني أضعتُ مهمّتي. غير أنّني سأوضح لك أمراً. أنا لم أنسَ سبب مجيئي إلى هنا لمجرّد أنّني اخترت نكران الذات وأنّني أرغب في الزواج. أنا أستحقّ أن أعيش حياتي، الحياة التي اخترتها بنفسي، وليس تلك التي اختارها لي المكتب. يجب أن تعرف سبب كلّ ذلك، وأن تفهم لماذا تجذبني هذه الحياة بعد كلّ ما رأيته وعانيته.

بصراحة، لا أظنّ أنّك تكترث لأنّني لم أقم باختيار جماعة المعرفة كما كان يُفترض بي. ما يبدو لي في الواقع هو أنّك تشعر بالغيرة. وإن كنت تريد أن تبقى على اطّلاع على مجريات الأمور، عليك أن تعتذر على شكّك بي. أمّا إن لم تفعل، فلن أرسل لك مزيداً من التقارير، وبالتأكيد لن أغادر المدينة لزيارتكم بعد اليوم. الأمر عائد إليك.

- ناتالي

تساءلت ما إذا كانت على حقّ حيال ديفيد، ورحت أقلّب الفكرة في رأسي. هل شعر حقّاً بالغيرة من أبي؟ وهل زالت غيرته مع الزمن؟ لا يمكنني أن أرى علاقتهما سوى من زاويتها، ولست واثقة أنّها مصدر دقيق للمعلومات في هذه المسألة.

يمكنني القول إنّها تزداد نضجاً في كتاباتها، وإنّ لغتها تصبح أكثر تهذيباً مع مرور الزمن وابتعادها عن الضواحي التي عاشت فيها لمدّة، كما أنّ ردود أفعالها أصبحت أكثر اعتدالاً. لقد بدأت تنضج.

تحقّقت من تاريخ المادّة التالية، وكانت بعد بضعة أشهر. غير أنّها لم تكن موجّهة إلى ديفيد، على غرار الرسائل الأخرى. كما أنّ النبرة كانت مختلفة، بحيث بدت أقلّ ألفة وأكثر صراحة.

نقرت على الشاشة، وبحثت بين المواد إلى أن عثرت على مادّة موجّهة إلى ديفيد مجدّداً. بحسب تاريخها، أُرسلت بعد عامين كاملين.

عزيزي ديفيد،

وصلتني رسالتك. أنا أفهم لماذا لم تعد تستطيع أن تستلم هذه التقارير بعد اليوم، وأحترم قرارك، لكنّني سأفتقد إليك.

أتمنّى لك كلّ السعادة.

- ناتالي

بحثت عن رسالة أخرى، لكن مواد المذكّرات انتهت. كانت آخر وثيقة في الملفّ هي وثيقة وفاة. وحُدّد سبب الوفاة بجروح متعدّدة في الصدر ناتجة عن طلقات رصاص. رحت أهزّ جسدي إلى الأمام والخلف بعض الشيء، لكي أطرد من ذهني صورتها وهي تسقط في الشارع. لا أريد أن أفكّر بموتها، بل أريد أن أعرف المزيد عنها وعن أبي، وعنها وعن

ديفيد. أريد أن أعرف أيّ شيء يصرفني عن الطريقة التي انتهت بها حياتها.

* * *

من شدّة يأسي للحصول على معلومات، ذهبت إلى غرفة المراقبة مع زوي في وقت لاحق من ذلك الصباح. تحدّثَت مع مدير غرفة المراقبة لتحديد اجتماع مع ديفيد، بينما رحت أحدّق بتصميم إلى قدميّ، غير راغبة في النظر إلى الشاشات. فقد أحسست أنّني إن سمحتُ لنفسي بالنظر، ولو للحظة، سأدمن عليها وأضيع في العالم القديم، لا سيّما وأنّني لا أعرف كيف أتجوّل في العالم الجديد.

لكن بينما كانت زوي تنهي حديثها، لم أستطع السيطرة على فضولي. فاسترقت نظرة إلى الشاشة الكبيرة التي تعلو المكاتب. كانت إيفلين جالسة على سريرها، تمرّر يديها على شيء بجانب الطاولة المجاورة للسرير. اقتربت أكثر لأرى ماهيّته، فقالت لي المرأة الجالسة إلى المكتب أمامي: "هذه كاميرا إيفلين. نحن نتابعها على مدار الساعة".

"هل يمكنك سماعها؟"

"فقط إن رفعنا الصوت. فنحن نبقي الصوت مطفأً، لأنّه من الصعب الإصغاء إلى هذا القدر من الأحاديث طوال اليوم".

هززت رأسي موافقة. "ما هذا الذي تلمسه؟"

هزّت المرأة كتفيها مجيبة: "إنّها منحوتة ما، لا أدري. لكنّها تأمّلتها كثيراً".

عرفتُها من مكان ما، من غرفة توبياس التي نِمت فيها بعد أن أوشكوا على إعدامي في مقرّ المعرفة. إنّها مصنوعة من الزجاج الأزرق، وهي عبارة عن شكل مجرّد يشبه ماء متجمّد.

لمستُ ذقني وأنا أحاول أن أتذكّر. قال لي توبياس إنّ إيفلين أعطته هذه المنحوتة في صغره، وطلبت منه إخفاءها عن أبيه، الذي لن يوافق على امتلاك شيء بلا منفعة حتّى لو كان جميلاً، بحسب تعاليم نكران الذات. لم أفكّر به كثيراً في ذلك الوقت، لكن لا بدّ أنّه يعني لها شيئاً ما دامت قد حملته معها من قطاع نكران الذات إلى مقرّ المعرفة، وأبقته بجانب سريرها. ربّما كانت تلك هي طريقتها في التمرّد على نظام الجماعات.

على الشاشة، أسندت إيفلين ذقنها على يدها، وحدّقت إلى المنحوتة لبعض الوقت. بعد ذلك نهضت، ونفضت يديها، وغادرت الغرفة.

كلاّ، لا أظنّ أنّ المنحوتة هي دليل تمرّد، بل مجرّد تذكار عن توبياس. في الواقع، لم أدرك أبداً أنّه عندما خرج توبياس معي من المدينة لم يكن مجرّد متمرّد يتحدّى زعيمه، بل كان أيضاً ابناً يهجر أمّه. وهي الآن حزينة عليه.

أهو حزين أيضاً؟

يبدو أنّ الرابط الذي يجمعهما لم ينفصم فعلاً، مع أنّ علاقتهما كانت محفوفة بالمصاعب. لا يمكن لذلك الرابط أن ينفصم في الواقع.

لمست زوي كتفي. "ماذا أردتِ أن تسأليني؟"

التفتّ عن الشاشات. كانت زوي صغيرة في الصورة التي تقف فيها إلى جانب أمّي، لكنّها كانت موجودة، وتصوّرت أنّها قد تعرف شيئاً. يجدر بي أن أسأل ديفيد، لكن بصفته رئيس المكتب، لم يكن من السهل إيجاده.

قلت: "أردت أن أعرف بعض الأشياء عن أبي وأمّي. كنت أقرأ مذكّراتها، ولم أفهم تماماً كيف التقيا، أو لماذا قرّرا الانضمام معاً إلى نكران الذات".

هزّت زوي رأسها ببطء. "سأخبرك بما أعرفه. هل تمانعين مرافقتي إلى المختبر؟ فأنا أريد أن أترك رسالة مع ماثيو".

وضعت يديها خلف ظهرها، بينما كنت لا أزال أحمل الشاشة التي أعطاني إيّاها ديفيد. ظهرت بصمات أصابعي عليها، وكانت دافئة بسبب احتكاكها المتواصل بيديّ. أفهم لماذا تستمرّ إيفلين بلمس تلك المنحوتة، فهي آخر ما تملكه من ابنها، تماماً كما أنّ هذه هي آخر ما أملكه من أمّي. فأنا أشعر أنّني أقرب إليها عندما تكون الشاشة معي.

لهذا السبب على ما أظنّ، لا يمكنني إعطاؤها لكاليب حتّى لو كان يملك الحقّ في رؤيتها. فأنا لست واثقة أنّني قادرة على التخلّي عنها بعد.

قالت زوي: "التقيا في المدرسة. فمع أنّ أباك كان رجلاً شديد الذكاء، إلاّ أنّه لم يكن موهوباً جدّاً في علم النفس. والأستاذ، الذي كان ينتمي إلى المعرفة من دون شكّ، قسى عليه بسبب ذلك. فعرضت أمّك مساعدته بعد دوام المدرسة، وقال لأبويه إنّه يعمل على مشروع مدرسي. قاما بذلك لعدّة أسابيع، ثمّ بدءا يلتقيان سرّاً، وأظنّ أنّ أحد أماكنهما المفضّلة كانت النافورة الواقعة جنوب حديقة ميلينيوم. نافورة باكينغهام على ما أظنّ؟ بمحاذاة المستنقع تماماً؟"

تخيّلت أبي وأمّي جالسَين بجانب نافورة، تحت رذاذ الماء، وقد لامست أقدامهما قعرها الإسمنتي. أنا أعرف النافورة التي أشارت إليها زوي. لم يتمّ تشغيلها منذ زمن طويل، ولم أرى رذاذها يوماً، لكنّ الصورة أجمل على هذا الشكل.

"كان احتفال اختيار الجماعة يقترب، وكان والدك متلهّفاً لمغادرة المعرفة لأنّه رأى شيئاً فظيعاً-"

"ماذا؟ ماذا رأى؟"

"في الواقع، كان والدك صديقاً مقرّباً من جانين ماثيوس، وقد رآها تجري اختباراً على أحد المنبوذين مقابل شيء ما، طعام، أو ملابس، أو ما إلى ذلك. على أيّ حال، كانت تختبر مصل الخوف الذي تمّ إدخاله لاحقاً في تدريبات جماعة الشجاعة. ففي الماضي، لم تكن محاكاة الخوف تنتج عن مخاوف الشخص نفسه، بل كانت عبارة عن مخاوف عامّة، كالمرتفعات، أو العناكب، أو شيء من هذا القبيل. وكان نورتون، ممثّل المعرفة في ذلك الوقت، حاضراً، وترك الاختبار يطول أكثر بكثير ممّا ينبغي. بنتيجة ذلك، لم يخرج الرجل المنبوذ سليماً منه، وكانت تلك القشّة التي قصمت ظهر أبيك".

توقّفت أمام باب المختبر لكي تفتحه ببطاقتها. فدخلنا المكتب البسيط الذي أعطاني فيه ديفيد مذكّرات أمّي. كان ماثيو جالساً وأنفه على بعد ثلاثة إنشات من شاشته، وقد ضاقت عيناه من شدّة التركيز. بالكاد لاحظ دخولنا.

أحسست برغبة عارمة في الابتسام والبكاء في الوقت نفسه. جلست على كرسيّ بجانب المكتب الخالي واضعة يديّ بين ركبتيّ. كان أبي رجلاً صعباً، لكنّه كان صالحاً.

"أراد والدك الخروج من المعرفة، ولم ترغب أمّك في الانضمام إليها، مهما تكن شروط مهمّتها. كما أرادت البقاء بجانب أندرو، لذلك اختارا معاً نكران الذات". صمتت قليلاً ثمّ أضافت: "سبّب ذلك خلافاً بين أمّك وديفيد، وأنا واثقة أنّك لاحظت ذلك. اعتذر في نهاية المطاف، لكنّه قال

إنّه لم يعد يستطيع استلام تقارير منها. لم أعرف السبب، لأنّه لم يبح به، وبعد تلك الحادثة، أصبحت تقاريرها قصيرة جدّاً، تقتصر على المعلومات الهامّة. لهذا السبب، لم يتمّ إلحاقها بالمذكّرات".

"لكنّها ظلّت قادرة على تنفيذ مهمّتها في نكران الذات".

"نعم، وكانت أكثر سعادة بكثير هناك، برأيي، ممّا لو انضمّت إلى المعرفة. بالطبع، تبيّن أنّ نكران الذات هي جماعة أفضل من بعض النواحي. ويبدو أنّ العطب الوراثي طال كلّ شيء. فحتّى قيادة نكران الذات كانت مسمّمة به".

عبستُ قائلة: "هل تتحدّثين عن ماركوس؟ فهو جامح، ولا علاقة له بالعطب الوراثي".

قالت زوي: "لا يمكن للإنسان المحاط بالعطب الوراثي سوى أن يحاكيه بسلوكه". ثمّ قالت موجّهة حديثها إلى ماثيو: "ماثيو، يريد ديفيد تحديد اجتماع مع رئيسك لمناقشة أحد تطوّرات المصل. في المرّة الماضية، نسي ألان المسألة تماماً، لذلك أتساءل ما إذا كنت تستطيع مرافقته".

أجاب ماثيو من دون أن يبعد نظره عن الشاشة: "بالتأكيد، سأطلب منه إعطائي موعداً".

"ممتاز. والآن عليّ الذهاب، أتمنّى أن أكون قد أجبت عن سؤالك، تريس". ابتسمت لي وخرجت من الباب.

جلستُ محدّبة الظهر، واستندت إلى ركبتيّ. كان ماركوس جامحاً، يتمتّع بالنقاء الوراثي مثلي تماماً. لكن لا أعتقد أنّه كان سيّئاً لمجرّد معاشرته لأشخاص معطوبين وراثياً. فهكذا كنت أنا، وهكذا كان يوريا، وكذلك أمّي. لكنّ أيّاً منّا لم يصبّ جام غضبه على أحبّائه.

قال ماثيو: "في كلامها بعض الثغرات، أليس كذلك؟" كان يراقبني من خلف مكتبه، وهو ينقر بأصابعه على ذراع كرسيّه.

قلت: "أجل".

"بعض الناس هنا يحبّون إلقاء اللوم على العطب الوراثي في كلّ شيء. فقبول ذلك أسهل عليهم من قبول الحقيقة. والواقع هو أنّهم لا يستطيعون معرفة كلّ شيء عن الناس وعن أسباب سلوكهم".

"كلّ إنسان يبحث عن كبش محرقة يحمّله أوزار العالم. بالنسبة إلى أبي، كان كبش المحرقة هو جماعة المعرفة".

قال ماثيو مبتسماً: "على الأرجح، لا ينبغي أن أخبرك إذاً أنّ المعرفة كانت دائماً الجماعة المفضّلة عندي".

استقمت وسألته: "حقّاً؟ لماذا؟"

"لا أدري، أعتقد أنّني أتّفق معهم في أنّه لو سعى كلّ شخص إلى معرفة المزيد عن العالم من حوله، سيواجه مشاكل أقلّ في حياته".

قلت وأنا أسند ذقني على يدي: "لطالما كنت حذرة منهم. فقد كان أبي يكره المعرفة، وتعلّمت أن أكرههم بالنتيجة، وأكره كلّ ما فعلوه على مرّ الزمن. غير أنّني أعتقد الآن أنّه كان مخطئاً أو على الأقلّ... متحيّزاً".

"إزاء المعرفة أم إزاء التعلّم؟"

رفعت كتفيّ مجيبة: "كلاهما. فكثير من أبناء المعرفة ساعدوني من دون أن أطلب منهم". ويل، فيرناندو، كارا، كلّهم كانوا من المعرفة، ومن أفضل الأشخاص الذين عرفتهم، وإن لفترة وجيزة. "كانوا يسعون بكلّ ما أوتوا من قوّة إلى جعل العالم مكاناً أفضل". هززت رأسي متابعة: "ما فعلته جانين لا علاقة له بالتعطّش إلى المعرفة الذي يؤدّي إلى التعطّش

إلى السلطة، كما أخبرني أبي، بل بخوفها من حجم العالم ومن ضعفها إزاءه. ربّما كانت جماعة الشجاعة هي المحقّة".

قال ماثيو: "كان يقال إنّ في المعرفة قوّة؛ قوّة لفعل الشرّ، مثل جانين... أو قوّة لفعل الخير، كما نفعل نحن. القوّة بحدّ ذاتها ليست شرّاً، مثلما أنّ المعرفة بحدّ ذاتها ليست شرّاً".

"أظنّ أنّني نشأت على الارتياب من الاثنين، القوّة والمعرفة. فبالنسبة إلى نكران الذات، لا يجب إعطاء السلطة سوى إلى الأشخاص الذين لا يرغبون فيها".

"هذا صحيح إلى حدّ ما، لكن حان الوقت ربّما للتخلّص من هذه الريبة".

مدّ يده تحت المكتب وأخرج كتاباً. كان سميكاً، وبالي الغلاف، طُبع عليه عنوان علم الأحياء البشري.

"هذا الكتاب بدائي بعض الشيء، لكنّه علّمني ما معنى أن أكون إنساناً. اكتشفت فيه أنّني آلة بيولوجية معقّدة وغامضة، ومع ذلك، لديّ القدرة على تحليل تلك الآلة! وهذه ميزة خاصّة، غير مسبوقة في تاريخ النشوء. فقدرتنا على معرفة أنفسنا والعالم هي ما تجعل منّا بشراً".

أعطاني الكتاب والتفت مجدّداً إلى شاشته. فنظرت إلى الغلاف البالي ومرّرت أصابعي على أطراف الصفحات. لقد جعل اكتسابَ المعرفة يبدو مثل سرّ، مثل شيء جميل وقديم. فأحسست أنّني لو قرأت هذا الكتاب، يمكنني أن أطّلع على كلّ الأجيال البشرية وصولاً إلى أوّل جيل، أيّاً يكن زمانه، وأن أشارك في شيء أكبر وأقدم منّي بكثير.

شكرته، ليس على الكتاب، بل لأنّه أعاد إليّ شيئاً خسرته قبل أن أتمكّن من امتلاكه حقّاً.

* * *

فاحت في ردهة الفندق رائحة شبيهة برائحة الليمون والمبيّض، مشكّلة مزيجاً حادّاً أحرق أنفي وأنا أتنفّس. مررت من أمام نبتة مزروعة في وعاء، أغصانها مزيّنة ببراعم الأزهار، وتوجّهت إلى العنبر الذي أصبح بيتنا المؤقّت هنا. بينما كنت أمشي، مسحت الشاشة بطرف قميصي، محاولة إزالة بصماتي عنها.

كان كاليب بمفرده في العنبر، شعره مشعّث وعيناه حمراوان من أثر النوم. حدّق إليّ عندما دخلت ورميت كتاب علم الأحياء على سريري. أحسست بانقباض في معدتي وأنا أضغط الشاشة المحمّلة بملفّ أمّي على جنبي. إنّه ابنها، وله الحقّ بقراءة مذكّراتها، مثلك تماماً.

قال: "إن كنت تريدين قول شيء، قوليه وحسب".

"لقد عاشت أمّنا هنا". قلت ذلك بنبرة عالية وسريعة، كأنّه سرّ طال كتمانه. "أتت من الضواحي، وأحضروها إلى المكتب. عاشت هنا بضع سنوات، ثمّ ذهبت إلى المدينة لمنع جماعة المعرفة من قتل الجامحين".

حدّق إليّ كاليب بذهول. وقبل أن أبدّل رأيي، ناولته الشاشة. "حياتها مدوّنة هنا. ليست طويلة جدّاً، لكن يمكنك قراءتها".

نهض وأمسك بالشاشة. أصبح أطول بكثير ممّا كان عليه، ومنّي. عندما كنّا صغاراً، كنت أطول منه قامة، مع أنّني كنت أصغره بعام تقريباً. كانت تلك السنوات أجمل سنوات حياتنا، لم أشعر فيها أنّه يكبرني أو أنّه أفضل أو أذكى أو أقلّ أنانية منّي.

سألني وقد ضاقت عيناه: "منذ متى وأنت تعرفين ذلك؟"

أجبته وأنا أتراجع: "لا يهمّ، ها أنا أخبرك الآن. بالمناسبة، يمكنك الاحتفاظ بهذا الجهاز، فأنا لم أعد أحتاجه".

مسح الشاشة بكمّ قميصه، وبحث بأصابعه عن أوّل مادّة في مذكّرات أمّي. توقّعت أن يجلس للقراءة، وإنهاء المحادثة، لكنّه تنهّد عوضاً عن ذلك.

قال: "لديّ ما أريك إيّاه أنا أيضاً. إنّه يتعلّق بإديث برايور، تعالي".

كان اسمها، وليس تعلّقي به، هو الذي جرّني خلفه عندما بدأ يمشي.

قادني إلى خارج العنبر، وعبر الرواق، وحول المنعطفات، وصولاً إلى غرفة هي الأبعد بين الغرف التي رأيتها في المجمّع. كانت طويلة وضيّقة، جدرانها مليئة بالرفوف المحمّلة بكتب متشابهة ذات لون رمادي مائل إلى الأزرق، وكانت سميكة وثقيلة الوزن، مثل القواميس. بين الصفّين الأوّلين، وُضعت طاولة خشبية طويلة مع كراسٍ حولها. أضاء كاليب المصباح، فملأ نوره الشاحب الغرفة، وذكّرني بمقرّ المعرفة.

قال: "لقد أمضيت وقتاً طويلاً هنا، إنّها غرفة الأرشيف. يحتفظون هنا ببعض بيانات تجربة شيكاغو".

مشى بين الرفوف الممتدّة إلى يمين الغرفة، ومرّر أصابعه على أطراف الكتب. ثمّ أخرج أحد المجلّدات ووضعه على الطاولة، فانفتح على صفحات مليئة بالنصوص والصور.

سألته: "لماذا لا يحتفظون بهذه المعلومات على أجهزة الكمبيوتر؟"

أجاب من دون أن يرفع نظره عن المجلّد: "أفترض أنّهم حفظوا هذه السجلات هنا قبل أن يطوّروا نظاماً أمنياً متطوّراً على شبكتهم. فالبيانات لا تختفي بالكامل أبداً، أمّا الورق فيمكن تدميره إلى الأبد، وتستطيعين بالتالي التخلّص منه إن كنت لا تريدين أن يقع بين أيدي الأشخاص الخاطئين. في بعض الأحيان، من الآمن الاحتفاظ بالمعلومات على أوراق مطبوعة".

راحت عيناه الخضراوان تتنقّلان فوق المجلّد وهو يبحث عن المكان المقصود، ويتصفّح الأوراق بأصابعه التي بدت كأنّها مصمّمة لهذا العمل. فكّرت كيف أخفى هذه الناحية من شخصيته، وخبّأ الكتب خلف سريره في منزلنا، إلى أن أسقط دمه في مياه المعرفة، في احتفال اختيار الجماعة. كان يجب أن أعرف في ذلك الوقت أنّه كاذب، لا يخلص سوى لنفسه.

أحسست مجدّداً بذلك الألم، وبالكاد استطعت التواجد معه في هذه الغرفة المغلقة، لا تفصلنا سوى طاولة.

"آه، هنا". لمس صفحة، ثمّ وجّه الكتاب ناحيتي.

بدا النصّ كأنّه نسخة عن عَقد، لكنّه كان مكتوباً بالحبر بخطّ اليد:

أنا، أماندا ماري ريتر، من بيوريا، إلينويس، أوافق على الإجراءات التالية:

- عمليّة "الشفاء الوراثي"، كما حدّدها مكتب الشؤون الوراثية: "عمليّة هندسة وراثية مصمّمة لتصحيح المورّثات الموصوفة على أنّها "معطوبة" في الصفحة الثالثة من هذه الوثيقة.
- عمليّة "مسح الذاكرة"،كما حدّدها مكتب الشؤون الوراثية: "عمليّة محو للذاكرة مصمّمة لجعل المشارك في التجربة أكثر ملاءمة لها".

أقرّ أنّني تلقّيت تعليمات مفصّلة حيال مخاطر ومنافع هاتين العمليتين من قبل عضو في مكتب الشؤون الوراثية. وأنا أفهم أنّ هذا يعني إعطائي تاريخاً جديداً وهوية جديدة من قبل المكتب لإدخالي في تجربة شيكاغو، إلينويس، حيث سأعيش حتّى آخر أيّامي.

كما أوافق على الإنجاب مرّتين على الأقلّ لكي أمنح مورّثاتي الصحيحة أفضل فرصة ممكنة للبقاء. وأفهم أنّه سيتمّ تشجيعي على ذلك عند إعادة تعليمي بعد عمليّة مسح الذاكرة.

أوافق أيضاً على أن يستمرّ أولادي، وأحفادي، إلخ. في هذه التجربة إلى أن يعتبرها مكتب الشؤون الوراثية مكتملة. وسيتمّ تلقينهم التاريخ المزيّف الذي سأُعطى إيّاه بعد عمليّة مسح الذاكرة.

التوقيع،

أماندا ماري ريتر

أماندا ماري ريتر هي المرأة التي ظهرت في تسجيل الفيديو باسم إديث برايور، إحدى أجدادي.

نظرت إلى كاليب، الذي كانت عيناه تشعّان بالمعرفة، كما لو أنّ سلكاً حيّاً يجري فيهما.

أجدادنا.

سحبت أحد المقاعد وجلست. "هل كانت من أجداد أبي؟"

أومأ مجيباً برأسه، وجلس أمامي: "منذ سبعة أجيال، أجل. إنّها عمّته. وكان أخوها هو الذي حمل اسم برايور ونقله إلينا".

"وهذه..."

"وثيقة موافقتها على الانضمام إلى التجربة. ذُكر في الملاحظة في نهاية الوثيقة أنّها كانت المسوّدة الأولى، فهي واحدة من مصمّمي التجارب الأصليين، وإحدى أعضاء المكتب. لم يكن المكتب يضمّ سوى بضعة أعضاء في التجربة الأصلية. ومعظم المشاركين في التجربة لم يكونوا يعملون لحساب الحكومة".

قرأت كلامها مجدّداً، محاولة أن أفهم. عندما رأيتها في الفيديو، بدا لي منطقياً جدّاً أن تقرّر الإقامة في مدينتنا، والانضمام إلى جماعاتنا والتطوّع لترك كلّ شيء خلفها. لكن كان ذلك قبل أن أتعرّف على الحياة

خارج المدينة، وأكتشف أنّها لا تبدو فظيعة بقدر ما وصفتها لنا إديث في رسالتها.

لقد تلاعبت بنا بمهارة في ذلك الشريط الذي كان يهدف إلى إبقائنا مسجونين ومكرّسين لسياسة المكتب - العالم خارج المدينة مدمّر، وعلى الجامحين المجيء إلى هنا لإصلاحه. لم تكن كذبة تماماً، لأنّ الناس العاملين في المكتب يعتقدون فعلاً أنّ المورّثات السليمة ستصلح الأمور، وأنّنا إن اندمجنا في عامّة الناس ونقلنا مورّثاتنا إلى الأجيال القادمة، سيكون العالم أفضل ممّا هو عليه الآن. لكنّهم ليسوا بحاجة إلى زحف الجامحين من المدينة مثل جيش لمحاربة الطغيان وإنقاذ الناس، كما أوحت إديث. أتساءل الآن ما إذا كانت إديث برايور تصدّق ذلك الكلام أم أنّها قالته مجبرة.

كان ثمّة صورة لها في الصفحة التالية، بدا فيه فمها حازماً، وأحاطت خصل من شعرها البنّي بوجهها. لا بدّ أنّها رأت أموراً فظيعة لكي تتطوّع بمحو ذاكرتها وإعادة صنع حياتها بالكامل.

سألت: "هل تعرف لماذا شاركت في التجربة؟"

هزّ كاليب رأسه نافياً. "تشير السجلات، وإن تكن مقتضبة حيال هذه النقطة، إلى أنّ الناس انضمّوا إلى التجربة لمساعدة أسرهم على الخروج من الفقر المدقع. إذ كانت أسر أولئك الناس تتلقّى راتباً شهرياً لقاء مشاركة أحد أفرادها، وذلك لمدّة عشر سنوات. لكن بالطبع، لم يكن هذا هو دافع إديث، لأنّها عملت لصالح المكتب. أعتقد أنّها خاضت تجربة عنيفة، وكانت مصمّمة على نسيانها".

نظرت عابسة إلى صورتها. لا أتخيّل أيّ نوع من الفقر قد يدفع إنساناً إلى نسيان نفسه وكلّ أحبّائه لكي تحصل أسرته على راتب شهري.

ربّما عشت معظم حياتي على خبز وخضار نكران الذات، من دون أن أوفّر قرشاً، لكنّني لم أشعر أبداً بهذا اليأس. لا بدّ أنّ وضعهم كان أسوأ بكثير من أيّ شيء رأيته في المدينة.

لا أفهم أيضاً لماذا كانت إديث بهذا اليأس، أو ربّما لم تكن تملك أحداً لتحتفظ من أجله بذاكرتها.

قال كاليب: "كنت مهتمّاً بتلك السابقة القانونية التي قامت فيها بإعطاء موافقتها عن سلالتها. أظنّ أنّه استقراء لإعطاء الموافقة عن الأطفال تحت سنّ الثامنة عشرة، لكنّه يبدو لي غريباً بعض الشيء".

قلت بشرود: "أعتقد أنّنا نقرّر جميعاً مصير أطفالنا عندما نتّخذ قراراتنا الخاصّة في الحياة. فهل كنّا لنختار الجماعات نفسها لو أنّ أمّنا وأبانا لم يختارا نكران الذات؟" رفعتُ كتفيّ متابعة: "لا أدري. ربّما لما كنّا شعرنا بهذا الاختناق، وربّما كنّا سنصبح شخصين مختلفَين".

زحفت الفكرة إلى رأسي كالثعبان. ربّما كنّا سنصبح شخصين مختلفَين، بحيث لا يخون الأخ أخته.

حدّقت إلى الطاولة أمامي. خلال الدقائق القليلة الماضية، كان من السهل الادّعاء أنّنا عدنا أنا وكاليب أخاً وأختاً من جديد. لكنّ المرء لا يستطيع إبعاد الواقع - والغضب - طويلاً قبل أن تعود الحقيقة لتتجلّى أمامه مرّة أخرى. بينما كنت أرفع نظري نحوه، فكّرت كيف نظرت إليه بهذه الطريقة، عندما كنت لا أزال أسيرة في مقرّ المعرفة. فكّرت أنّني منهكة جدّاً لمواصلة الشجار معه، أو سماع أعذاره، وأنّني تعبت من التفكير في أنّ شقيقي تخلّى عنّي.

سألته باقتضاب: "هل انضمّت إديث إلى المعرفة، مع أنّها اتّخذت لنفسها اسماً من أسماء نكران الذات؟"

"أجل!" لم يبد عليه أن لاحظ نبرة صوتي. "في الواقع، معظم أجدادنا انتموا إلى المعرفة. صحيح أنّه ثمّة من انضمّوا إلى نكران الذات، فضلاً عن شخص أو اثنين انضمّا إلى النزاهة، لكنّ خطّ انتمائهم كان متّسقاً إلى حدّ كبير".

أحسست بالبرودة، كما لو أنّني سأرتجف ثمّ أتحطّم.

قلت بصوت ثابت: "أفترض إذاً أنّك استخدمت هذه الوقائع في عقلك الملتوي كعذر لما فعلتَه، أي انضمامك إلى المعرفة، وولائك لها. أعني، إن كان من المفترض أن تكون دائماً واحداً منهم، من المقبول أن تعتقد إذاً بمقولة الجماعة قبل الدم، أليس كذلك؟"

قال: "تريس..." وتوسّل إليّ بعينيه لكي أتفهّم، لكنّني لم ولن أفهم. وقفت قائلة: "بتّ أعرف الآن قصّة إديث وبتَّ تعرف قصّة أمّنا. حسن جدّاً. فلندع الأمور عند هذا الحدّ إذاً".

في بعض الأحيان، عندما أنظر إليه، أشعر بألم التعاطف معه. وفي أحيان أخرى، أودّ أن أطبق بيديّ على عنقه. لكن في هذه اللحظة، لم أكن أرغب سوى بالفرار، والادّعاء أنّ هذا لم يحدث أبداً. خرجت من غرفة الأرشيف، وأصدر حذائي صريراً على البلاط وأنا أجري عائدة إلى الفندق. ركضت حتّى اشتممت رائحة الليمون الحلوة، ثمّ توقّفت.

وجدت توبياس في الممرّ خارج عنبر النوم. فوقفت ألهث، وأحسست أنّ قلبي ينبض في أصابعي. شعرت في تلك اللحظة أنّني فريسة لمشاعر الخيبة، والعجب، والغضب، والشوق.

بدا القلق على جبين توبياس العابس وهو يقول: "تريس، هل أنت بخير؟"

هززت رأسي وأنا ما زلت أناضل لأتنفّس الهواء...

سمعت خطوات وضحكاً في آخر الرواق، فابتعدنا عن بعضنا. صفر أحدهم، كان يوريا على الأرجح، لكنّني سمعته بالكاد بسبب ضجيج أذنيّ.

التقت نظراتنا أنا وتوبياس، مثل أوّل مرّة نظرت فيها إليه فعلاً خلال التلقين، بعد جلسة المحاكاة. حدّقنا إلى بعضنا مطوّلاً. صحتت ليوريا من دون أن أنظر إليه: "اصمت".

دخل يوريا وكريستينا إلى العنبر، ولحقنا بهما أنا وتوبياس كأنّ شيئاً لم يكن.

الفصل الثالث والعشرون

توبياس

في تلك الليلة، عندما حطّ رأسي على الوسادة، مثقلاً بالأفكار، سمعت حفيفاً تحت خدّي. كان صادراً عن ملاحظة مدسوسة تحت وسادتي.

ت-

قابلني خارج مدخل الفندق عند الساعة الحادية عشرة. أريد التحدّث معك.

- نيتا

نظرت إلى سرير تريس. كانت نائمة على ظهرها، وقد غطّت أنفها وفمها خصلة شعر راحت تتطاير مع كلّ نفس من أنفاسها. لا أريد إيقاظها، لكنّني لم أسترح لفكرة مقابلة فتاة في منتصف الليل من دون إخبارها بالأمر، لا سيّما الآن ونحن نحاول أن نكون صادقَين مع بعضنا البعض.

نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى العاشرة وخمسين دقيقة.

نيتا مجرّد صديقة. يمكنك إخبار تريس غداً، فقد يكون الأمر عاجلاً.

دفعت عنّي الأغطية وانتعلت حذائي. كنت أنام بملابسي هذه الأيّام. مررت بسرير بيتر، ومن ثمّ بسرير يوريا. رأيت طرف قارورة بارزة من تحت وسادة يوريا. فحملتها بين أصابعي ثمّ دسستها تحت وسادة أحد الأسرّة الفارغة. لم أكن أعتني به جيّداً مثلما وعدت زيك.

عندما أصبحت في الممرّ، ربطت حذائي وسوّيت شعري. كنت قد توقّفت عن قصّه قصيراً على طراز نكران الذات عندما أردت أن يراني الشجعان كقائد محتمل، لكنّني أفتقد الآن إلى طرازي القديم، إلى أزيز

آلة الحلاقة وحركة يديّ الحذرة، إذ كنت أعتمد على اللمس أكثر من النظر. عندما كنت صغيراً، كان والدي يقص شعري في الردهة، في الطابق الأعلى من منزلنا في قطاع نكران الذات. ولطالما كان متهوّراً في استخدام الشفرة، بحيث يجرح مؤخّر عنقي أو أذني. لكنّه لم يتذمّر أبداً من اضطراره إلى قصّ شعري. وهذا شيء جيّد على ما أظنّ.

كانت نيتا تطرق بقدمها على الأرض. ارتدت هذه المرّة قميصاً أبيض قصير الأكمام، وسرّحت شعرها إلى الخلف. ابتسمت، لكنّ ابتسامتها لم تبلغ
عينيها.

قلت: "يبدو عليك القلق".

"لأنّني قلقة. تعال، ثمّة مكان أريد أن أريك إيّاه".

قادتني عبر ممرّات معتمة وخالية، باستثناء عدد من الحرّاس. بدا أنّهم يعرفون نيتا، لأنّهم لوّحوا لها أو ابتسموا. دسّت يديها في جيوبها، وأشاحت بعينيها عنّي كلّما التقت نظراتنا صدفة.

دخلنا باباً غير مقفل. كانت الغرفة الواقعة خلفه عبارة عن دائرة كبيرة تحتوي على شمعدان في وسطها تتدلّى منه القطع الزجاجية. أمّا الأرض، فكانت من الخشب الداكن المصقول، فيما كُسيت الجدران بصفائح البرونز التي راحت تلمع تحت الضوء. رأيت أسماء منقوشة على لوحات البرونز، عشرات الأسماء.

وقفت نيتا تحت الشمعدان الزجاجي، وفتحت ذراعيها مشيرة إلى الغرفة بأكملها.

قالت: "هذه أشجار أسر شيكاغو، بما فيها أسرتك".

اقتربت من أحد الجدران لقراءة الأسماء، والبحث عن اسم مألوف. أخيراً وجدت واحداً: يوريا بيدراد وإيزيكيال بيدراد. وبجانب كلّ منهما حرفين صغيرين هما "ش ش". كما رأيت نقطة بجانب اسم يوريا، يبدو أنّها نُقشت حديثاً في إشارة إلى كونه جامحاً على الأرجح.

سألتها: "هل تعرفين أين اسمي؟"

مشت في الغرفة ولمست أحد الألواح. "تُحدّد الأجيال من ناحية الأمّ. لهذا السبب ذكرت سجلات جانين أنّ تريس تنتمي إلى الجيل الثاني، لأنّ أمّها أتت من خارج المدينة. لا أدري كيف عرفت جانين ذلك، ولا أظنّ أنّنا سنعرف أبداً".

اقتربت من اللوح الذي يحمل اسمي بحذر، مع أنّني لا أدري سبب خوفي من رؤية اسمي واسم والديّ على البرونز. رأيت خطّاً عمودياً يربط كريستين جونسون بإيفلين جونسون، وخطّاً أفقياً يربط إيفلين جونسون بماركوس إيتون. وربط بين الاسمين اسم واحد: توبياس إيتون. أمّا الحرفان الصغيران المنقوشان بجانب اسمي فكانا "ن ش". وكان ثمّة نقطة أيضاً، مع أنّني بتّ أعرف الآن أنّني لست جامحاً فعلاً.

قالت: "يشير الحرف الأوّل إلى جماعة الأصل والثاني إلى الجماعة التي اخترتها. فقد رأوا أنّ تتبّع الجماعات يساعدهم على تعقّب طريق المورّثات".

نُقشت بجانب اسم أمّي الأحرف التالي: "م ن م". أفترض أنّ الميم الثانية تشير إلى المنبوذين.

أمّا الحرفان المحاذيان لاسم أبي فكانا: "ن ن"، مع نقطة.

لمست الخطّ الذي يربطني بهما، والخطّ الذي يربط إيفلين بأبويها، وذاك الذي يربطهما بأبويهما، مروراً بثمانية أجيال، بمن فيهم أنا. هذه

خارطة لما عرفته دوماً، أنّني مرتبط بهم، وملتزم إلى الأبد بهذا الإرث الفارغ مهما هربت.

قلت وقد تملّكني الحزن والتعب: "أشكرك على إحضاري إلى هنا، لكن لا أفهم لماذا يجب أن يكون في منتصف الليل".

"ظننت أنّك قد ترغب في رؤيته، كما أنّني أردت أن أتحدّث معك في موضوع".

"تريدين إعطائي مزيداً من الطمأنة أنّ قصوري لا يحدّ من قدراتي؟" هززت رأسي مضيفاً: "شكراً، سمعت ما فيه الكفاية".

"كلاّ، لكنّني سعيدة بسماع ذلك".

استندَت إلى اللوح، واختفى اسم إيفلين خلف كتفها. ابتعدتُ خطوة إلى الخلف، غير راغب في أن أكون قريباً منها إلى هذا الحدّ، بحيث أرى دائرة بنّية أفتح لوناً حول بؤبؤ عينيها.

"ذاك الحديث الذي أجريته معك في الليلة الماضية، حول العطب الوراثي... كان اختباراً في الواقع. أردت أن أرى ما سيكون ردّ فعلك تجاه ما قلته عن المورّثات المعطوبة، لكي أعرف ما إذا كنت ما أستطيع الوثوق بك أم لا. إن قبلت ما قلته حول أوجه قصورك، سيكون الجواب لا".

اقتربت منّي أكثر، بحيث غطّى كتفها اسم ماركوس أيضاً. "في الواقع، أنا لا أوافق حقّاً على تصنيفي كمعطوبة".

فكّرت بالطريقة التي شرحت لي بها وشم الزجاج المحطّم على ظهرها كما لو كان سمّاً.

بدأ قلبي ينبض بسرعة، كأنّه في عنقي. حلّت المرارة مكان المرح في صوتها، وزال الدفء من عينيها. فأحسست بالخوف منها وممّا تقوله،

وبالفرح أيضاً، لأنّه يعني أنّني لست مضطرّاً إلى قبول كوني أقلّ ممّا اعتقدت في الماضي.

قالت: "أفهم أنّك لا توافق على ذلك أنت أيضاً".

"كلاّ، لا أوافق".

قالت: "هذا المكان حافل بالأسرار. منها هو أنّ المعطوب وراثياً غير مأسوف عليه، ومنها أنّ بعضنا لن يجلسوا مكتوفي الأيدي ويقبلوا بذلك".

"ماذا تعنين بغير مأسوف عليه؟"

"إنّ الجرائم التي ارتكبوها بحقّ أشخاص مثلك هي جرائم خطيرة، وخفية. يمكنني أن أريك الدليل، لكنّ هذا سيأتي لاحقاً. حاليّاً، كلّ ما يمكنني قوله هو أنّنا نعمل ضدّ المكتب، لأسباب وجيهة، ونريدك معنا".

ضاقت عيناي وأنا أسأل: "لماذا؟ ماذا تريدون منّي بالضبط؟"

"حاليّاً، أريد أن أعرض عليك فرصة رؤية العالم خارج المجمّع".

"وعلام تحصلين في المقابل؟"

أجابت: "حمايتك. أنا ذاهبة إلى مكان خطر، ولا أستطيع إخبار أحد من المكتب. وبما أنّك لا تنتمي إلى هذا المكان، من الآمن لي أن أثق بك، وأنا أعرف أنّك تجيد الدفاع عن نفسك. إن أتيت معي، سأريك الدليل الذي تريد رؤيته".

لمست قلبها بخفّة، كأنّها تقسم. كانت شكوكي قوية، لكنّ فضولي أقوى. لم يكن من الصعب عليّ أن أصدّق أنّ المكتب قد يرتكب أعمالاً شنيعة، لأنّ كلّ حكومة عرفتها ارتكبت جرائم، حتّى أوليغارشية نكران الذات، التي كان أبي على رأسها. وخلف هذا الشكّ المنطقي، لديّ أمل يائس بداخلي أنّني لست معطوباً، وأنّني أكثر قيمة من المورّثات المصحّحة التي أنقلها إلى أولادي المحتملين.

لهذا السبب، قرّرت مجاراتها في ذلك، حاليّاً على الأقلّ.

قلت: "موافق".

"أوّلاً، وقبل أن أريك أيّ شيء، عليك أن تقبل عدم إخبار أحد، حتّى تريس، بما ستراه. هل أنت موافق على ذلك؟"

"إنّها شخص جدير بالثقة". لقد وعدت تريس أنّني لن أخفي عنها أسراراً بعد اليوم، ولا يجدر بي أن أضع نفسي في مواقف تجبرني على ذلك مجدّداً. "لماذا لا أستطيع إخبارها؟"

"أنا لا أقول إنّها ليست جديرة بالثقة. كلّ ما في الأمر أنّها لا تملك المهارات التي نحتاج إليها، ولا نريد تعريض أحد للخطر من دون داعٍ. في الواقع، لا يريدنا المكتب أن نؤسّس تنظيماً. فإن كنّا نعتقد أنّنا لسنا معطوبين، هذا يعني أنّ كلّ ما يفعلونه، أي التجارب، والتعديلات الوراثية، وكلّ شيء، هو مضيعة للوقت. ولا أحد يرغب في معرفة أنّ العمل الذي أفنى فيه حياته لا قيمة له".

أعرف تماماً معنى ذلك. إنّه مثل اكتشافنا أنّ الجماعات هو نظام زائف، وضعه العلماء لإبقائنا تحت سيطرتهم لأطول مدّة ممكنة.

ابتعدت عن الجدار، ثمّ قالت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقنعني:

"إن أخبرتها، فإنّك تحرمها من الخيار الذي أعطيك إيّاه الآن. وتجبرها على أن تصبح مشاركة في المؤامرة. أمّا إن أخفيت ذلك عنها، فإنّك تحميها".

مرّرت أصابعي فوق اسمي المنحوت على اللوح المعدني، توبياس إيتون. هذه مورّثاتي ومشكلتي. ولا أريد إقحام تريس فيها. قلت: "حسناً، أنا موافق".

* * *

رأيت ضوء مصباحها يعلو وينخفض مع خطواتها. كنّا قد أخذنا للتوّ حقيبة من إحدى الخزائن الموجودة في الردهة، فقد كانت مستعدّة لذلك. قادتني عميقاً في الأروقة تحت أرض المجمّع، مروراً بالمكان الذي يلتقي فيه المعطوبون، وإلى ممرّ لا تصله الكهرباء. انحنت في أحد الأماكن، ومرّرت يدها على الأرض إلى أن عثرت أصابعها على مزلاج. فأعطتني المصباح وسحبت المزلاج، ففتح باب في الأرض.

قالت: "هذا النفق يؤدّي إلى الخارج. كانوا قد حفروه عندما أتوا إلى هنا، وذلك لتأمين طريق للفرار في حالات الطوارئ".

أخرجت من حقيبتها أنبوباً أسود اللون، وفتحته. فأطلق شرارات من الضوء توهّجت بلون أحمر على بشرتها. أفلتته فوق الفتحة، فسقط عن مسافة عدّة أقدام، وخلّف خطّاً من الضوء على أجفاني. جلست على حافة الفتحة، وثبّتت حقيبتها حول كتفيها، ثمّ هبطت.

كنت أعرف أنّ المسافة قصيرة، لكنّها بدت أكبر في الفراغ تحتي. جلست، وبدا كلّ حذائي داكناً أمام الشرارات الحمراء، ثمّ دفعت نفسي إلى الأمام.

قالت نيتا عندما هبطتُ: "هذا مثير للاهتمام". رفعتُ المصباح، بينما حملَت الأنبوب المضيء أمامها ونحن نمشي في النفق، الذي اتّسع لنا بالكاد لنمشي جنباً إلى جنب، ونقف بشكل مستقيم. كان عابقاً برائحة عفنة. "نسيت أنّك تخشى المرتفعات".

أجبتها: "في الواقع، ثمّة أمور كثيرة أخرى لا أخشاها".

ابتسمت قائلة: "لا تكن دفاعياً! لطالما أردت في الواقع أن أسألك عن ذلك".

دستُ على بركة وحل، ومرّ نعل حذائي بخشونة على أرض النفق الرملية.

قالت: "في مشهد خوفك الثالث، تُطلق الرصاص على امرأة. من هي؟"

انطفأ الأنبوب، ولم نعد نعتمد سوى على المصباح الذي أحمله لإنارة الطريق. حرّكت ذراعي قليلاً لأترك مسافة أكبر بيننا، غير راغب في الاحتكاك بذراعها في الظلام.

قلت: "ليست شخصاً معيّناً، فالخوف كان من إطلاق النار عليها".

"وهل تخشى إطلاق النار على الناس؟"

"كلاّ، بل أخشى من قدرتي الكبيرة على القتل".

صمتَت، وكذلك فعلت. كانت هذه هي المرّة الأولى التي ألفظ فيها هذه الكلمات بصوت عالٍ، وقد بدت لي الآن غريبة جدّاً وأنا أسمعها. كم من الشباب يخافون من وجود وحش في داخلهم؟ إذ يفترض بالناس أن يخشوا الآخرين، وليس أنفسهم. ويفترض أن يطمحوا ليصبحوا مثل آبائهم، لا أن يرتعدوا خوفاً من تلك الفكرة.

"لطالما تساءلت ما ستكون مخاوفي". قالت ذلك بصوت منخفض، كأنّها تحدّث نفسها: "أشعر في بعض الأحيان أنّني أخشى كثيراً من الأشياء. وفي أحيان أخرى، أنّه لم يتبقَّ شيء أخشاه".

هززت رأسي موافقاً، مع أنّها لا تستطيع أن تراني، وتابعنا السير، على ضوء المصباح المتراقص، وعلى وقع خطواتنا، بينما هبّ علينا الهواء بنسماته الثقيلة العفنة من طرف النفق.

* * *

بعد عشرين دقيقة من السير، انعطفنا وتنشّقت هواء عذباً، وبارداً، بحيث ارتعشت. فأطفأت المصباح، وقادنا ضوء القمر المتسلّل من آخر النفق إلى المخرج.

لفظنا النفق في مكان ما في الخراب الذي مررنا به في طريقنا إلى المجمّع، بين حطام الأبنية، والأشجار الضخمة التي تتخلّل الأرصفة. رأيت على بعد بضع خطوات شاحنة قديمة مركونة جانباً، صندوقها مغطّى بقماش ممزّق وبالٍ. ركلت نيتا أحد الإطارات لاختبارها، ثمّ صعدت إلى مقعد السائق. كانت المفاتيح تتدلّى أساساً من اللوح.

جلست في المقعد المجاور وسألتها: "لمن الشاحنة؟"

"إنّها تنتمي إلى الأشخاص الذين نقصدهم. كنت قد طلبت منهم ركنها هنا".

"ومن هم؟"

"أصدقائي".

لا أدري كيف تجد طريقها عبر متاهة الشوارع الممتدّة أمامنا، غير أنّها نجحت في ذلك وقادت الشاحنة حول جذور الأشجار وأعمدة النور المحطّمة، ورأيت عن جانبينا حيوانات تفرّ من طريقنا.

مرّ من أمامنا حيوان طويل ذو وبر بنّي، وكان بارتفاع المصابيح الأمامية تقريباً. داست نيتا على الفرامل لكي لا تدهسه. فهزّ أذنيه، ونظر إلينا بعينيه السوداوين المستديرتين بفضول، كالأطفال.

قالت: "جميل، أليس كذلك؟ قبل أن آتي إلى هنا، لم يسبق لي أن رأيت غزالاً".

أومأت برأسي موافقاً. كان أنيقاً، لكنّه متردّد، وخائف.

ضغطت نيتا على البوق برؤوس أصابعها، فابتعد الغزال من طريقنا. زادت من السرعة مجدّداً، إلى أن وصلنا إلى طريق عريض ومفتوح يمتدّ فوق السكك الحديدية التي مشيت عليها للوصول إلى المجمّع. بدت أضواء هذا الأخير أمامنا، وكانت البقعة المنيرة الوحيدة في هذا الخراب المظلم.

أمّا نحن فكنّا نتوجّه نحو الشمال الغربي، بعيداً عنه.

* * *

مرّ وقت طويل قبل أن أرى ضوء مصباح كهربائي مجدّداً. ظهرت الأضواء على طول شارع ضيّق ومليء بالحفر. وتدلّت من حبل معلّق على مصابيح الشارع القديمة.

"سنتوقّف هنا". أوقفت نيتا الشاحنة في زقاق بين مبنيين من الطوب. سحبت المفاتيح من اللوح ونظرت إليّ. "افتح صندوق القفّازات، طلبتُ منهم إعطاءنا أسلحة".

فتحتُ صندوقاً أمامي، فوجدت خنجرين فوق بعض الغلافات القديمة.

سألتني: "هل تجيد استعمال الخنجر؟"

كانت جماعة الشجاعة تعلّم المبتدئين كيفيّة رمي الخناجر حتّى قبل التغييرات التي أدخلها ماكس على فترة التلقين قبل انضمامي إليهم. لم يعجبني ذلك أبداً، لأنّني شعرت أنّه يشجّع أعضاء الجماعة على الحركات المسرحية عوضاً عن تنمية مهارات مفيدة.

قلت مبتسماً: "أجل، مع أنّني لم أعتقد يوماً أنّ هذه المهارة ستكون ذات فائدة".

قالت مبتسمة: "يبدو أنّ الشجعان يجيدون فعل شيء في النهاية... فور". أخذت الخنجر الأكبر، وتركت لي الأصغر.

شعرت بالتوتّر وأنا أقلّب القبضة بين أصابعي ونحن نسير في الزقاق. فوقي، تراقصت خلف النوافذ أضواء من نوع مختلف؛ شعلات شموع أو قناديل. عندما نظرت إلى الأعلى في إحدى اللحظات، رأيت عينين غائرتين محاطتين بشعر طويل تحدّقان إليّ.

قلت: "ثمّة أشخاص يعيشون هنا".

"هذه أطراف الضواحي، تبعد حوالى ساعتين بالسيارة عن ميلووكي، وهي مدينة واقعة شمالاً. أجل، ثمّة أشخاص يعيشون هنا. هذه الأيّام، لا يغامر الناس بالابتعاد كثيراً عن المدن، حتّى لو كانوا يرغبون في العيش خارج نفوذ الحكومة، مثل هؤلاء".

"لماذا يريدون العيش خارج نفوذ الحكومة؟" كنت أعرف معنى ذلك من خلال مراقبة المنبوذين. فقد عانوا دوماً من الجوع، ومن البرد شتاءً والحرّ صيفاً، وناضلوا دوماً من أجل البقاء. ليس حياة يختارها المرء بسهولة، بل تدفع إليها أسباب قوية.

قالت نيتا وهي تنظر إليّ: "لأنّهم معطوبون وراثياً. فالمعطوبون هم أشخاص مساوون من الناحية القانونية لمن يتمتّعون بالنقاء الوراثي، لكنّ هذا الأمر هو على الورق وحسب. أمّا في الواقع، فهم أكثر فقراً وأكثر ميلاً للتعرّض للإدانة بالجرائم وأقلّ حظّاً في الوظائف الجيّدة... هذه مشكلة، وهي موجودة منذ حرب النقاء، أي منذ أكثر من قرن من الزمن. بالنسبة إلى قاطني الضواحي، بدا لهم من الأفضل الخروج من المجتمع تماماً، عوضاً عن محاولة إصلاحه من الداخل كما أنوي أن أفعل أنا".

فكّرت بكِسر الزجاج الموشومة على بشرتها، وتساءلتُ متى اكتسبتها، وما الذي وضع هذه النظرة الخطيرة في عينيها، وكلّ هذه الدراما في حديثها، وما الذي جعلها تصبح ثائرة.

"وكيف تخطّطين لفعل ذلك؟"

أجابت بتصميم: "من خلال سلب المكتب شيئاً من نفوذه".

فُتح الزقاق على شارع عريض. كان بعض الأشخاص يتجوّلون خلسة على الأطراف، في حين مشى بعضهم الآخر في الوسط، في مجموعات، حاملين زجاجات تتدلّى من أيديهم. كان كلّ من رأيتهم شباباً، وهذا يعني أنّ الضواحي لا تضمّ كثيراً من الكبار على ما أظنّ.

سمعت صراخاً أمامنا، وصوت تحطّم زجاج على الرصيف. وقفت هناك مجموعة من الأشخاص حول شابّين، وانهالوا عليهما لكماً وركلاً.

هممت بالاقتراب منهم، لكنّ نيتا أمسكت بذراعي وشدّتني نحو أحد المباني.

قالت: "الوقت غير مناسب للبطولات".

اقتربنا من باب المبنى الواقع عند الزاوية. وقف بجانبه رجل ضخم يقلّب خنجراً بكفّه. عندما صعدنا الدرجات، توقّف، ودسّ الخنجر بيده الأخرى، المليئة بالندوب.

يفترض بحجمه، وبراعته في حمل السلاح، وبندوبه، وهيئته أن تخيفني. لكنّ عينيه كانتا مثل عيني ذلك الغزال، كبيرتين، وحذرتين، وفضوليتين.

قالت: "أتينا لرؤية رافي، نحن من المجمّع".

قال الرجل: "يمكنكما الدخول، لكنّ الخناجر تبقى هنا". وجدت صوته أعلى وأخفّ ممّا توقّعت. كان من الممكن أن يكون رجلاً لطيفاً لو

كنّا في مكان مختلف. لكن والحال كذلك، أرى أنّه ليس لطيفاً، ولا يعرف معنى هذه الكلمة حتّى.

مع أنّني أنا نفسي تخلّيت عن أيّ شكل من أشكال الرقّة باعتبارها بلا نفع، أجد نفسي أفكّر أنّ هذا الرجل تعرّض لخسارة كبيرة إن كان قد أُجبر على إنكار طبيعته.

قالت نيتا: "مستحيل".

قال صوت من الداخل: "نيتا، أهذه أنت؟" كان معبّراً وموسيقياً. أمّا صاحب الصوت فكان قصير القامة، ذا ابتسامة عريضة. أتى إلى الباب قائلاً: "ألم أقل لك أن تسمح لهما بالدخول؟ تفضّلا، تفضّلا".

قالت وقد بدا عليها الارتياح: "مرحباً رافي. فور، هذا رافي. إنّه رجل هامّ في الضواحي".

قال رافي: "تشرّفت بلقائك". وأشار إلينا لنتبعه.

دخلنا إلى غرفة كبيرة مفتوحة مضاءة بصفوف من الشموع والقناديل. وكان الأثاث الخشبي منتشراً في كلّ مكان، وكلّ الطاولات خالية، ما عدا واحدة.

جلست امرأة في آخر الغرفة، واحتلّ رافي مكانه على الكرسي المجاور لها. مع أنّهما لا يبدوان متشابهين، فهي تملك شعراً أحمر وجسداً ممتلئاً، بينما كانت ملامحه سمراء وجسده نحيلاً كالسلك، إلاّ أنّهما يتمتّعان بالهيئة نفسها، كأنّهما صخرتين نُحتتا بإزميل واحد.

قال رافي: "ضعا الأسلحة على الطاولة".

هذه المرّة أطاعته نيتا، ووضعت خنجرها على طرف الطاولة، أمامها تماماً، ثمّ جلسَت. فحذوتُ حذوها. أمامنا، وضعت المرأة مسدّسها.

سألَت المرأة وهي تشير برأسها إليّ: "من يكون؟"

قالت نيتا: "هذا شريكي، فور".

"أيّ اسم هذا، فور". لم تسأل بنبرة ساخرة، كما يفعل الناس عادة عندما يطرحون عليّ هذا السؤال.

أجابت نيتا: "هذا اسم تحصلين عليه في إحدى تجارب المدن إن كنت تملكين أربعة مخاوف وحسب".

خطر لي أنّها قدّمتني بهذا الاسم لكي تتاح لها فرصة إخبارهم من أين أتيت. هل يعطيها هذا أفضلية عليهم؟ وهل يجعلني موثوقاً أكثر لدى هؤلاء الأشخاص؟

قالت المرأة وهي تطرق على الطاولة بسبابتها: "هذا مثير للاهتمام. أهلاً بك فور، أنا ماري".

قالت نيتا: "ماري ورافي يترأّسان الفرع الغربي الأوسط لمجموعة متمرّدة من المعطوبين وراثياً".

قال رافي بسلاسة: "تسميتها مجموعة يجعلنا أقرب إلى عدد من النساء العجائز اللواتي يلعبن الورق. نحن في الواقع أقرب إلى انتفاضة. يمتدّ نفوذنا إلى مختلف أنحاء البلاد؛ فثمّة مجموعة لكلّ منطقة حضارية، ومشرفين على أقاليم الغرب الأوسط، والجنوب، والشرق".

سألتُه: "ألا يوجد غرب؟"

أجابت نيتا بهدوء: "لم يعد له وجود. فقد أصبحت المنطقة وعرة جدّاً والمدن متباعدة كثيراً عن بعضها بحيث صعب العيش هناك بعد الحرب. وهي الآن بلاد مهجورة".

قالت ماري: "صحيح إذاً ما يقولونه، الناس في تجارب المدن لا يعرفون حقّاً ما يجري في الخارج". كانت عيناها تعكسان الضوء مثل كِسر الزجاج وهي تنظر إليّ".

قالت نيتا: "بالطبع صحيح، من أين لهم أن يعرفوا؟"

أحسست فجأة بالتعب يزحف بثقل إلى عينيّ. لقد شاركتُ في كثير من الانتفاضات خلال حياتي القصيرة. أوّلاً مع المنبوذين، والآن انتفاضة المعطوبين وراثياً على ما يبدو.

قالت ماري: "حسناً، من الأفضل لنا عدم المكوث هنا مطوّلاً. لا يمكننا ترك الناس في الخارج طويلاً وإلاّ سينتابهم الفضول".

قالت نيتا: "أنت على حقّ". ثمّ نظرت إليّ مضيفة: "فور، هل يمكنك إلقاء نظرة على ما يجري في الخارج؟ أودّ التحدّث مع ماري ورافي قليلاً على انفراد".

لو كنّا بمفردنا، لسألتها لماذا لا أستطيع البقاء خلال حديثها معهما، أو لماذا تكبّدت عناء إدخالي إلى هنا ما دمت أستطيع الوقوف حارساً في الخارج طوال الوقت. أظنّ أنّني لم أوافق فعليّاً بعد على مساعدتها، وربّما أرادت أن تعرّفهما عليّ لسبب ما. فنهضت من دون اعتراض، وأخذت خنجري معي، ثمّ ذهبت للانضمام إلى حارس رافي الذي يراقب الشارع.

كان الشجار الذي وقع في الشارع قد انتهى، مخلّفاً رجلاً وحيداً ملقياً على الرصيف. ظننت للحظة أنّه ما زال يتحرّك، ثمّ أدركت أنّ السبب هو وجود شخص آخر يفتّش جيوبه. لقد أصبح جثّة هامدة.

"مات؟" خرجت الكلمة من فمي كأنّها تنهيدة.

"أجل. إن عجزت عن الدفاع عن نفسك هنا، لن تعيش ليلة واحدة".

سألته عابساً: "لماذا يأتي الناس إلى هنا إذاً؟ لماذا لا يعودون إلى المدن؟"

صمت مطوّلاً، بحيث ظننت أنّه لم يسمع سؤالي. راقبت اللصّ وهو يقلّب جيوب الميت، قبل أن يتسلّل إلى داخل أحد المباني المجاورة. أخيراً، قال حارس رافي:

"هنا، ثمّة احتمال أن يكترث شخص ما لموتك، مثل رافي أو أحد القادة الآخرين. أمّا في المدن، إن تعرّضت للقتل، لن يكترث لك أحد إطلاقاً، لا سيّما إن كنت من المعطوبين. فأسوأ جريمة أدين بها أحد الأنقياء على قتل معطوب هي القتل غير المتعمّد. قمّة السخافة".

"قتل غير متعمّد؟"

أجاب رافي من خلفي بنبرة إيقاعية ناعمة: "هذا يعني أنّ الجريمة اعتُبرت حادثة، أو على الأقلّ ليست بخطورة القتل من الدرجة الأولى. رسمياً، بالطبع، يجب أن نعامَل جميعنا على قدم المساواة، لكنّ هذا القانون نادراً ما يطبّق".

وقف بجانبي طاوياً ذراعيه. عندما أنظر إليه، أرى ملِكاً يراقب مملكته، ويراها جميلة. وعندما أنظر إلى الشارع، إلى الرصيف المحطّم، والجثّة الهامدة المسلوبة، والنوافذ التي تتراقص خلفها أضواء الشموع، أدرك أنّ ما يراه هو حرّيته وحسب، حرّية اعتباره رجلاً كاملاً وليس معطوباً.

رأيت هذه الحرّية مرّة عندما نادتني إيفلين من بين المنبوذين، ودعتني للخروج من جماعتي لأصبح شخصاً أكثر كمالاً، لكنّها كانت كذبة.

سألني رافي: "هل أنت من شيكاغو؟"

هززت رأسي إلى الأسفل، وأنا أنظر إلى الشارع المظلم.

"والآن بعد خروجك، كيف يبدو لك العالم؟"

"هو نفسه تقريباً. لكنّ الناس هنا منقسمون لأسباب أخرى، ويخوضون حروباً مختلفة".

أصدرت خطوات نيتا صريراً على الأرض الخشبية في الداخل، وعندما التفتّ وجدتها خلفي تماماً، يداها مدسوستان في جيوبها.

قالت وهي تشير إلى رافي: "شكراً على ترتيب هذا اللقاء. حان الوقت للذهاب".

خرجنا إلى الشارع مجدّداً، وعندما التفتّ لأنظر إلى رافي، رفع يده ولوّح لي مودّعاً.

* * *

في طريق العودة إلى الشاحنة سمعت صراخاً من جديد، لكنّه كان هذه المرّة صراخ طفل. مررت بجوار أصوات البكاء والشهيق، وتذكّرت طفولتي وأنا راكع في غرفة نومي، أمسح أنفي بأكمامي. كانت أمّي تنظّف أطراف أكمامي بإسفنجة، قبل أن تلقي قميصي في الغسّالة. لم تقل شيئاً عن ذلك أبداً.

عندما صعدت إلى الشاحنة، أحسست أنّني اكتفيت من هذا المكان وآلامه، وأصبحت جاهزاً للعودة إلى حلم المجمّع، وإلى الدفء، والضوء، وإحساس الأمان.

قلت: "لا أفهم لماذا يفضّل الناس هذا المكان على حياة المدينة".

قالت نيتا: "لم أذهب إلى مدينة من خارج التجارب سوى مرّة واحدة. لديهم الكهرباء، لكنّهم يتّبعون نظام تقنين، إذ تحصل كلّ أسرة على عدد معيّن من ساعات التغذية. والأمر نفسه ينطبق على المياه. كما تكثر الجرائم، ويلقى اللوم فيها على العطب الوراثي. ومع أنّ الشرطة موجودة، إلاّ أنّها لا تفعل الكثير".

قلت: "إذاً، يصبح مجمّع المكتب هو أفضل مكان للعيش".

"من حيث الموارد، أجل. لكنّ نظام الاجتماعي السائد في المدن معتمد في المجمّع أيضاً، لكن تصعب رؤيته بعض الشيء".

رأيت الضواحي تختفي في المرآة الخلفية، لا يفصلها عن الأبنية المهجورة المحيطة بها سوى ذاك الحبل من المصابيح الكهربائية المعلّقة فوق الشارع الضيّق.

مررنا بمنازل مظلمة ذات نوافذ قذرة، وحاولت أن أتخيّلها عندما كانت نظيفة ولامعة، كما يفترض أن تكون في الماضي. كانت المنازل محاطة بحدائق مسوّرة، لا بدّ أنّها كانت مشذّبة وخضراء، نوافذها تتوهّج حياة في الأمسيات. أتخيّل أنّ الناس عاشوا هنا حياة مسالمة وهانئة.

سألتها: "ما الذي أردتِ أن تتحدّثي به معهما بالضبط؟"

أجابت نيتا: "أتيت إلى هنا لتعزيز خططنا". لاحظتُ على ضوء المصابيح الأمامية أنّها تملك بضع ندوب على شفتها السفلية، كما لو أنّها معتادة على عضّها. "كما أردت أن يتعرّفا عليك، ليأخذا فكرة عن الناس الموجودين في تجارب الجماعات. فقد كانت ماري تشكّ أنّ الناس أمثالك متآمرين مع الحكومة، وهو أمر غير صحيح بالطبع. أمّا رافي... فكان أوّل من أعطاني دليلاً على أنّ المكتب، أي الحكومة، يكذب علينا حيال تاريخنا".

صمتت بعد قول ذلك، كما لو أنّ ذلك يساعدني على الإحساس بوزن هذه الحقيقة، مع أنّني لا أحتاج لا إلى الوقت، ولا إلى الصمت، ولا إلى المساحة لتصديقها. فقد كذبت عليّ حكومتي طوال حياتي.

قالت نيتا: "فالمكتب يحدّثنا عن ذاك العصر الذهبي للبشرية، قبل التلاعب بالصفات الوراثية، الذي كان فيه الناس جميعاً أنقياء، والسلام يعمّ الأرض. لكنّ رافي أراني صوراً قديمة للحرب".

سألتها بعد لحظة تفكير: "إذاً؟"

أجابت بذهول: "إذاً؟ إن كان الناس الأنقياء قد تسبّبوا بحروب ودمار شامل في الماضي بقدر ما فعل العطوبون الآن، لماذا إذاً ننفق كلّ هذه الموارد والوقت على تصحيح العطب الوراثي؟ وما جدوى هذه التجارب، باستثناء إقناع الأشخاص المناسبين أنّ الحكومة تبذل جهدها لجعل حياتنا أفضل، مع أنّ هذا ليس صحيحاً".

الحقيقة تغيّر كلّ شيء. أليس هذا هو السبب الذي جعل تريس يائسة لنشر فيديو إديث برايور إلى حدّ التحالف مع أبي في سبيل ذلك؟ كانت تعرف أنّ الحقيقة، مهما تكن، ستغيّر صراعنا وتبدّل أولوياتنا إلى الأبد. والآن، ثمّة كذبة غيّرت الصراع، وبدّلت الأولويات إلى الأبد. فعوضاً عن مكافحة الخطر أو الجريمة التي عاثت فساداً بهذه البلاد، اختار الناس مكافحة العطب الوراثي.

سألتها وقد انتابني غضب مفاجئ: "لماذا؟ لماذا يقومون بإنفاق هذا القدر من الوقت والطاقة على مكافحة شيء لا يُعتبر مشكلة حقّاً؟"

"في الواقع، يقوم الناس بمكافحته الآن على الأرجح لأنّهم نشأوا على اعتباره مشكلة. وهذا أمر آخر أثبته لي رافي، إذ أعطاني أمثلة عن الدعاية التي أطلقتها الحكومة عن العطب الوراثي. أمّا في البداية؟ فلا أدري. ثمّة أمور عديدة على ما أظنّ. أهي الأحكام المسبقة حيال المعطوبين؟ أم حبّ السيطرة؟ أي السيطرة على المعطوبين من خلال تلقينهم أنّهم يعانون من خطب ما، والسيطرة على الأنقياء من خلال تلقينهم أنّهم

سليمون وكاملون؟ في الحقيقة، هذه الأمور لا تحدث بين ليلة وضحاها، ولا من أجل سبب واحد".

اتّكأتُ على النافذة الباردة وأغمضت عينيّ. كان رأسي يضجّ بكثير من المعلومات، بحيث عجزت عن التركيز على إحداها، ثمّ تخلّيت عن المحاولة، واستسلمت للنوم.

عندما عدنا عبر النفق، ورجعت إلى سريري، كانت الشمس على وشك أن تشرق، وذراع تريس متدلّية من حافة السرير مجدّداً، أصابعها تلامس الأرض.

جلست أمامها، أراقب للحظة وجهها النائم، وأفكّر بما اتّفقنا عليه تلك الليلة في حديقة ميلينيوم: لا كذب بعد اليوم. قطعنا وعداً على بعضنا. وإن لم أخبرها بما سمعت ورأيت هذه الليلة، سأنكث بوعدي. ومن أجل ماذا؟ حمايتها؟ أم من أجل نيتا، فتاة أعرفها بالكاد؟

أبعدتُ شعرها عن وجهها بلطف لكي أوقظها.

تريس لا تحتاج إلى حمايتي، فهي قوية بما فيه الكفاية.

الفصل الرابع والعشرون

تريس

وقف بيتر في الغرفة يجمع عدداً من الكتب في كومة ويضعها في حقيبة. عضّ على قلم أحمر وحمل الحقيبة إلى خارج الغرفة. سمعت الكتب وهي ترتطم بساقه في طريقه عبر الممرّ. انتظرت إلى أن ابتعد قبل أن ألتفت إلى كريستينا.

سألتها: "كنت أحاول ألاّ أسأل، لكنّني استسلمت. ما الذي يجري بينك وبين يوريا؟"

كانت كريستينا جالسة على سريرها، وإحدى ساقيها الطويلتين متدلّية من طرف السرير. رمقتني شزراً.

قلت: "ماذا؟ أنتما تمضيان كثيراً من الوقت معاً. معظم الوقت".

كان يوماً مشمساً، تسلّلت فيه أشعّة الشمس من خلال الستائر البيضاء. لا أدري، لكنّ العنبر كان عابقاً برائحة النوم؛ رائحة الغسيل، والأحذية، والعرق، وقهوة الصباح. كانت بعض الأسرّة مرتّبة، بينما تجمّعت الأغطية على أطراف بعضها الآخر. أتى معظمنا من جماعة الشجاعة، لكنّني متفاجئة من مدى اختلافنا. اختلاف في العادات، وفي الأطباع، وفي رؤيتنا للعالم.

"قد لا تصدّقينني، لكنّ الأمر ليس كذلك". اتّكأت على مرفقيها وتابعت قائلة: "إنّه في حالة حداد، وكلانا يشعر بالملل. كما أنّه يوريا".

"وماذا إذاً؟ هو شابّ وسيم".

"هو وسيم، لكنّه لا يستطيع المشاركة في حديث جدّي". هزّت رأسها مضيفة: "لا تسيئي فهمي، أنا أحبّ الضحك، لكنّني أرغب في علاقة تعني شيئاً".

هززت رأسي موافقة. أنا أفهم، أكثر من معظم الناس ربّما، لأنّنا أنا وتوبياس لسنا من الأشخاص الذين يكثرون من المزاح.

قالت: "بالإضافة إلى ذلك، لا تتحوّل كلّ صداقة إلى علاقة رومنسية، فأنا لم أحاول تقبيلك بعد".

ضحكتُ قائلة: "هذا صحيح".

سألتني كريستينا: "أين كنت مؤخّراً؟" هزّت حاجبيها متابعة: "مع فور؟ تقومان ببعض الجمع؟ والضرب؟"

غطّيت وجهي بيديّ: "هذه أسوأ مزحة سمعتها على الإطلاق".

"لا تتهرّبي من الإجابة".

قلت: "نحن لا نقوم بأيّ جمع، ليس بعد على أيّ حال. فقد كان منشغلاً بعض الشيء بمسألة العطب الوراثي".

جلسَت قائلة: "آه، تلك المسألة".

"ما رأيك بها؟"

"لا أدري، أظنّ أنّها تغضبني". عبسَت متابعة: "لا أحد يحبّ أن يقال له إنّه يعاني من خطب ما، لا سيّما بصفاته الوراثية، التي لا يمكنه تغييرها".

"هل تظنّين حقّاً أنك تعانين من خطب ما؟"

"أعتقد ذلك. إنّه شيء مثل المرض، صحيح؟ يستطيعون رؤيته في مورّثاتنا، وليس موضوع جدال حقّاً، أليس كذلك؟"

قلت: "أنا لا أقول إنّ مورّثاتنا ليست مختلفة، بل ما أقوله هو أنّ هذا لا يعني أنّ هذه المجموعة معطوبة وتلك لا. فمورّثات العيون الخضراء والعيون البنّية مختلفة أيضاً، لكن هل هذا يعني أنّ العيون

الخضراء معطوبة؟ يبدو لي أنّهم قرّروا عشوائياً أنّ نوعاً من أنواع الأحماض الوراثية سيّئ والآخر جيّد".

أشارت كريستينا: "هذا استناداً على الدليل أنّ سلوك المعطوبين وراثياً أسوأ".

أجبتها: "هذا قد يكون ناتجاً عن أمور عديدة".

ضحكت كريستينا قائلة: "لا أدري لماذا أتجادل معك مع أنّني أودّ فعلاً أن تكوني محقّة. لكن ألا تظنّين أنّ أناساً أذكياء مثل علماء المكتب قادرون على معرفة سبب سوء السلوك؟"

"بالتأكيد. لكن أظنّ أنّه مهما بلغ ذكاء الناس، فهم يرون ما يبحثون عنه وحسب".

قالت: "ربّما كنت متحيّزة أنت أيضاً لأنّك تملكين أصدقاء، وحبيباً، يعانون من هذه المشكلة الوراثية".

"ربّما". أعلم أنّني أفتّش عن تفسير، وإن كنت لا أعتقد به حقّاً، غير أنّني قلته على أيّ حال: "أعتقد أنّني لا أرى سبباً لتصديق مسألة العطب الوراثي. هل سيدفعني ذلك إلى معاملة الناس بشكل أفضل؟ كلاّ، بل ربّما العكس".

من ناحية أخرى، رأيت ما فعلَته بتوبياس، وكيف جعلَته يشكّ في نفسه. لذلك، لا أرى خيراً فيها.

قالت: "أنت لا تصدّقين الأمور لأنّها تجعل حياتك أفضل، بل لأنّها صحيحة".

أجبتها ببطء وأنا أفكّر: "لكن أليس النظر إلى نتيجة اعتقاد ما هي طريقة جيّدة لتقييم مدى صحّته؟"

"هذا يبدو مثل طرق تفكير المتزمّتين". صمتت قليلاً ثمّ تابعت: "كما أظنّ أنّني أفكّر على غرار أبناء النزاهة. ربّاه، نحن عاجزون حقّاً عن الهرب من جماعاتنا مهما ابتعدنا".

هززت كتفيّ قائلة: "ربّما كان الفرار منها غير مهمّ".

دخل توبياس إلى العنبر، وبدا شاحباً ومنهكاً، كما هو دائماً هذه الأيّام. كان شعره مضغوطاً على جهة واحدة، بسبب النوم على الوسادة، وما زال يرتدي ثياب الأمس. أصبح ينام بملابسه منذ مجيئنا إلى المكتب.

نهضت كريستينا قائلة: "حسناً، سأذهب وأترككما أنتما الاثنين... في كلّ هذا المكان، بمفردكما". أشارت إلى كلّ الأسرّة الخالية، ثمّ غمزتني وهي تغادر العنبر.

ابتسم توبياس قليلاً، لكن ليس بما فيه الكفاية لأعتقد أنّه مسرور بذلك. وعوضاً عن الجلوس بجانبي، تلكّأ عند طرف سريري، وأصابعه تتلاعب بحافة قميصه.

قال: "ثمّة أمر أودّ إخبارك إيّاه".

"حسناً". أحسست بالخوف يعتصر صدري.

"أتمنّى لو تعدينني ألاّ تغضبي، لكن..."

قلت بصوت مخنوق: "لكنّك تعرف أنّني لا أعطي وعوداً سخيفة".

"صحيح". جلس عندئذٍ فوق أغطية سريره غير المرتّب. تجنّب النظر إلى عينيّ وهو يروي قائلاً: "تركت نيتا ملاحظة تحت وسادتي تطلب منّي فيها ملاقاتها في الليلة الماضية، وقد فعلت".

توتّرتُ، وأحسست بحرارة الغضب تنتشر في داخلي وأنا أتخيّل وجه نيتا الجميل، وقدميها الرشيقتين، وهي تسير نحو حبيبي.

سألته: "طلبت منك فتاة جميلة ملاقاتها في ساعة متأخّرة من الليل، وفعلت؟ والآن تريدني ألاّ أغضب بسبب ذلك؟"

قال بسرعة، ونظر إليّ أخيراً: "المسألة ليست كذلك بين نيتا وبيني، بل أرادت أن تريني شيئاً. فهي لا تعتقد بالعطب الوراثي، كما ظننتُ، بل لديها خطّة لسلب المكتب شيئاً من سلطته، ومنح المعطوبين قدراً أكبر من المساواة. لقد ذهبنا إلى الضواحي".

أخبرني عن النفق الموجود تحت الأرض والمؤدّي إلى الخارج، وعن البلدة المتداعية في الضواحي، والحديث الذي دار بينه وبين رافي وماري. أخبرني عن الحرب التي أخفت الحكومة أمرها عن الناس لكي لا يظنّ أحد أنّ "الأنقياء وراثياً" يُقدمون على أعمال عنف، وعن طريقة عيش المعطوبين في المدن التي لا تزال تحت السيطرة الفعلية للحكومة.

بينما كان يتحدّث، شعرت أنّ شكوكي تجاه نيتا تتعاظم، لكنّني لم أعرف السبب، أهو حدسي الذي أثق به عادة أم غيرتي. عندما انتهى، نظر إليّ، فزممت شفتيّ مفكّرة.

سألته: "كيف تعرف أنّها تقول الحقيقة؟"

أجاب: "لا أدري، وعدتني أن تريني الدليل الليلة". ثمّ أمسك بيدي مضيفاً: "أودّ أن تأتي معي".

"وهل ستوافق نيتا على ذلك؟"

"لا يهمّني حقّاً". شبك أصابعه بأصابعي متابعاً: "لن أقدّم لها المساعدة ما لم توافق".

نظرت إلى أصابعنا المتشابكة، وإلى كمّ قميصه الرمادي البالي، وسرواله الممزّق عند الركبة. لا أريد أن أمضي وقتاً مع نيتا وتوبياس، وأنا أعرف أنّ العطب الوراثي المزعوم الذي تعاني منه يمنحها قاسماً مشتركاً

معه لا أملكه أنا. لكنّ هذا الأمر مهمّ بالنسبة إليه، كما أنّني أريد أن أعرف ما إذا كان ثمّة دليل على تعدّيات المكتب بقدر ما يقول.

"حسناً، سأذهب. لكن لا تظنّ لثانية واحدة أنّني أصدّق أنّ اهتمامها بك لا يتعدّى صفاتك الوراثية".

"حسناً، لكن لا تظنّي لثانية واحدة أنّني مهتمّ بأحد غيرك".

وضع يده على عنقي وعانقني.

أراحتني كلماته، لكنّ قلقي لم يتبدّد تماماً.

الفصل الخامس والعشرون

توبياس

ذهبنا أنا وتريس لمقابلة نيتا في ردهة الفندق بعد منتصف الليل، بين أوعية النباتات المزهرة، التي كانت بنظري حياة برّية روّضتها يد الإنسان. عندما رأت نيتا تريس إلى جانبي، تصلّب وجهها كمن تذوّق طعماً مرّاً.

قالت مشيرة إليّ: "وعدتَني ألاّ تخبرها. ماذا عن حمايتها؟"

أجبتها: "لقد غيّرت رأيي".

ضحكت تريس بصوت عالٍ. "أهذا ما قلته له، أنّه سيحميني؟ يا لك من مناوِرة بارعة، أحسنت".

رفعتُ حاجبيّ مستغرباً. لم أعتقد أبداً أنّها مناوَرة، وقد أخافني ذلك بعض الشيء. أنا أستطيع عادة الاعتماد على نفسي لرؤية دوافع الناس الخفية، لكنّني أصبحت معتاداً جدّاً على رغبتي في حماية تريس، لا سيّما بعدما أوشكت على خسارتها، بحيث لم أفكّر مرّتين.

وربّما أصبحت معتاداً على الكذب عوضاً عن قول الحقائق الصعبة، بحيث رحّبت بفرصة خداعها.

"لم تكن مناورة، بل هي الحقيقة". لم يبد على نيتا الغضب، بل التعب وحسب، وهي تمرّر يدها فوق وجهها ثمّ تسوّي شعرها. لم تبد ملامحها دفاعية، ما يعني أنّها تقول الحقيقة ربّما. "قد تتعرّضان للاعتقال لمجرّد معرفة هذه الأمور وعدم الإخبار عنها. لذلك ظننت أنّه من الأفضل تجنّب ذلك".

قلت لها: "حسناً، فات الأوان. تريس آتية معنا، هل من مشكلة؟"

"أفضّل وجودكما أنتما الاثنين على عدم وجود أيّ منكما، وأنا واثقة أنّ هذا شرطك الضمني". قالت نيتا ذلك وهي تنظر إلى الأعلى بسأم. "هيّا بنا".

* * *

مشينا أنا، وتريس، ونيتا في أرجاء المجمّع الهادئ والساكن إلى المختبر الذي تعمل فيه نيتا. لم يتحدّث أيّ منّا، بل كنت أسمع وقع كلّ خطوة أخطوها، وكلّ صوت يصدر في البعيد، وكلّ باب يغلق. أحسست أنّنا نقوم بأمر محظور، مع أنّنا لا نفعل. ليس بعد، على أيّ حال.

توقّفت نيتا قرب الباب المؤدّي إلى المختبر، ومرّرت بطاقتها على جهاز المسح. تبعناها عبر غرفة العلاج الوراثي التي رأيت فيها خارطة لصفاتي الوراثية، ومنها إلى قلب المجمّع، أبعد ممّا ذهبت حتّى الآن. خيّم الظلام هناك، وتطاير الغبار على الأرض عند مرورنا.

دفعت نيتا باباً آخر بكتفها، فدخلنا إلى مخزن. كانت الأدراج المعدنية تغطّي الجدران، وقد عُرّفت بملصقات ورقية تحمل أرقاماً، غير أنّ الحبر الذي كُتبت به أصبح باهتاً مع مرور الزمن. احتلّت وسط الغرفة طاولة وُضع عليها جهاز كمبيوتر ومجهر، وجلس إليها شابّ أشقر الشعر مسرّح إلى الخلف.

قالت نيتا: "توبياس، تريس، هذا صديقي ريجي. إنّه معطوب وراثياً هو الآخر".

قال ريجي مبتسماً: "تشرّفت بلقائكما". صافح تريس، ثمّ صافحني بيد حازمة.

قالت نيتا: "لنريهما الشرائح أوّلاً".

نقر ريجي على شاشة الكمبيوتر، وأومأ لنا للاقتراب. "لن أعضّكما".

تبادلنا أنا وتريس نظرة، ثمّ وقفنا خلف ريجي لرؤية الشاشة. بدأت الصور تتوالى، واحدة تلو الأخرى. كانت رمادية وغير واضحة؛ لا شكّ أنّها قديمة جدّاً. استغرقت بضع ثوانٍ لأدرك أنّها صور عذاب: أطفال صغار ذوي أعين كبيرة، حفر مليئة بالجثث، وأكوام هائلة من الأوراق المحترقة.

تلاحقت هذه الصور بسرعة، مثل صفحات كتاب تتطاير في الهواء، بحيث لم أحصل سوى على انطباعات عن تلك الفظاعات. أخيراً، أشحت بوجهي، غير قادر على رؤية المزيد، وأحسست بالصمت العميق ينمو في داخلي.

في البداية، عندما نظرت إلى تريس، وجدت تعابيرها جامدة مثل الماء، كما لو أنّ الصور التي رأيناها للتوّ لم تحرّك فيها ساكناً. لكن سرعان ما بدأ فمها يرتعش، فضغطت شفتيها على بعضهما لإخفاء ذلك.

"انظرا إلى هذه الأسلحة". أظهر لنا ريجي صورة رجل يرتدي بدلة، ويحمل مسدّساً. "هذا النوع من الأسلحة قديم جدّاً. والأسلحة التي استُخدمت في حرب النقاء كانت أكثر تطوّراً بكثير. حتّى المكتب يوافق على ذلك. لا بدّ أنّها استُخدمت في صراع قديم جدّاً، شنّه أشخاص أنقياء وراثياً، ذلك أنّ التلاعب الوراثي لم يكن موجوداً في ذلك الحين".

سألته: "وكيف يمكن إخفاء حرب؟"

أجابت نيتا بهدوء: "الناس المعزولون، الذين يتضوّرون جوعاً، لا يعرفون سوى ما يقال لهم، ولا يرون سوى المعلومات المتاحة لهم. ومن يتحكّم بكلّ ذلك؟ الحكومة".

هزّت تريس رأسها، وتكلّمت بسرعة وحدّة: "حسناً، هم يكذبون إذاً بشأن تاريخكم، أقصد تاريخنا. هذا لا يعني أنّهم العدوّ، بل يعني أنّه

مجموعة من الأشخاص الذين يملكون معلومات خاطئة جدّاً ويحاولون... تحسين العالم، على نحو غير حكيم".

تبادلت نيتا وريجي النظرات.

قالت نيتا: "هذا صحيح، إنّهم يؤذون الناس".

اتّكأت نيتا على الطاولة ومالت نحونا، فرأيت مجدّداً القوّة الثورية تتنامى بداخلها، وتطغى على النواحي الأنثوية فيها، وعلى كونها معطوبة وعاملة مختبر.

قالت ببطء: "عندما أرادت جماعة نكران الذات أن تشكف الحقيقة الكبرى عن عالمهم في وقت أبكر ممّا يفترض بها أن تفعل، في حين رغبت جانين في كتمها... لم يتردّد المكتب في تزويدها بمصل محاكاة متطوّر جدّاً، كان هو المسؤول عن محاكاة الهجوم التي استعبدت عقول الشجعان، وأدّت إلى دمار جماعة نكران الذات".

استغرقت بعض الوقت لاستيعاب ذلك.

قلت: "هذا مستحيل. فقد أخبرتني جانين أنّ النسبة الأعلى من الجامحين، أي الأنقياء وراثياً، موجودة في نكران الذات. وقد قلتِ للتوّ إنّ المكتب يقدّر الأنقياء بما فيه الكفاية لإرسال شخص إلى داخل المدينة لإنقاذهم. فلماذا يساعد جانين على قتلهم؟"

قالت تريس بشرود: "كانت جانين مخطئة، هذا ما قالته إيفلين. فالنسبة الأعلى من الجامحين كانت بين المنبوذين، وليس نكران الذات".

التفتّ إلى نيتا قائلاً: "ما زلت لا أفهم لماذا يخاطرون بهذا العدد الكبير من الجامحين. أريد دليلاً".

"لماذا أتينا إلى هنا برأيك؟" أضاءت نيتا مجموعة أخرى من المصابيح التي أنارت الأدراج، ومشت بمحاذاة الجدار الأيسر. قالت: "استغرقت

وقتاً طويلاً لأحصل على إذن دخول إلى هنا، ووقتاً أطول لاكتساب المعرفة لفهم ما رأيته. من ساعدني في الواقع كان أحد الأنقياء المتعاطفين مع قضيتنا".

حامت يدها فوق أحد الأدراج السفلية، وأخرجت منه قارورة من السائل البرتقالي.

سألتني: "هل يبدو لك هذا مألوفاً؟"

حاولت أن أتذكّر الحقنة التي تلقّيتها قبل أن تبدأ محاكاة الهجوم، أي قبل الجولة الأخيرة تماماً من تلقين تريس. كان ماكس هو الذي غرز الإبرة في جانب عنقي، تماماً كما فعلت أنا نفسي عشرات المرّات. وقبل أن يفعل، رأيت القارورة الزجاجية تحت الضوء، وكانت برتقالية، تماماً مثل هذه التي تحملها نيتا.

قلت: "الألوان هي نفسها، ماذا إذاً؟"

حملت نيتا القارورة نحو المجهر. فأخذ ريجي شريحة من صينية قريبة من الكمبيوتر، واستخدم قطّارة لوضع قطرتين من السائل البرتقالي في وسطها، ثمّ غطّى السائل بشريحة أخرى. وضعها تحت المجهر بحركة حذرة لكنّها ثابتة. كانت حركات شخص قام بتأدية العمل نفسه مئات المرّات.

نقر ريجي على شاشة الكمبيوتر بضع مرّات، ثمّ فتح برنامجاً يدعى "ميكروسكان".

قالت نيتا: "هذه المعلومات مجّانية ومتاحة لكلّ من يجيد استخدام هذه المعدّات ويملك كلمة سرّ النظام، والتي تكرّم المتعاطف معنا بإعطائي إيّاها. بعبارة أخرى، ليس الوصول إليها صعباً جدّاً، لكنّ أحداً لم يفكّر بتفحّصها عن كثب. وبما أنّ المعطوبين لا يملكون كلمات السرّ،

فنحن لا نعرف عنها شيئاً. تستخدم هذه الغرفة لأرشفة التجارب المهملة، أي الإخفاقات، أو التطوّرات التي عفى عليها الزمن، أو المعلومات عديمة الفائدة".

نظرت عبر المجهر، واستخدمت زرّاً لتوضيح الرؤية.

قالت: "تفضّل".

ضغط ريجي على زرّ في جهاز الكمبيوتر، فظهرت فقرات من النصوص تحت شريط "ميكروسكان" في أعلى الشاشة. أشارت إلى فقرة في وسط الصفحة، وقرأتها.

"مصل المحاكاة 4.2v. ينسّق عدداً كبيراً من الأهداف. يُرسل إشارات من على مسافات بعيدة. مادّة مسبّبة للهلوسة من صيغة أصلية غير مذكورة - واقع المحاكاة يحدّده المشرف على البرنامج".

إنّه هو.

هذا مصل محاكاة الهجوم.

سألَت نيتا: "لماذا يملك المكتب هذا المصل إن لم يكن هو الذي طوّره؟ كانوا هم من وضعوا المصل في التجارب، لكنّهم ينسون عادة أمر الأمصال، ويتركون سكّان المدينة يطوّرونها بمفردهم. إن كانت جانين هي من طوّرت هذا المصل، لن يسرقوه منها. لكن ما دام موجوداً هنا، فهذا يعني أنّه من صنعهم هم".

حدّقت إلى الشريحة المضاءة تحت المجهر، وإلى القطرة البرتقالية التي تسبح تحت العدسة، وخرج منّي نفس مرتعش.

قالت تريس مصدومة: "لماذا؟"

"كانت جماعة نكران الذات على وشك أن تكشف الحقيقة لكلّ من في المدينة. وقد رأيتما ما حدث الآن بعد أن عرفت المدينة تلك الحقيقة:

تبيّن أنّ إيفلين هي حاكمة مستبدّة، وبدأ المنبوذون بسحق أعضاء الجماعات، وأنا واثقة أنّ الجماعات ستنتفض ضدّهم عاجلاً أم آجلاً، وسيموت كثير من الناس. لا شكّ أنّ كشف الحقيقة يؤثّر على سلامة التجربة. لذلك، عندما أوشكت جماعة نكران الذات قبل بضعة أشهر على التسبّب بهذا الدمار وعدم الاستقرار من خلال كشف فيديو إديث برايور لمدينتكما، فكّر المكتب على الأرجح أنّه من الأفضل أن تتكبّد جماعة نكران الذات خسارة فادحة، حتّى على حساب عدد من الجامحين، عوضاً عن أن تعاني المدينة بأكملها. فضّلوا القضاء على أعضاء نكران الذات عوضاً عن المخاطرة بالتجربة. لذلك، اتصلوا بشخص عرفوا أنّه سيوافق على ذلك. وكان ذلك الشخص هو جانين ماثيوس".

أحاطت بي كلماتها، وتغلغلت بداخلي.

وضعت يديّ على الطاولة، وتركتها تبرّد كفيّ، وأنا أنظر إلى صورتي المنعكسة على السطح المعدني. ربّما كرهت أبي معظم حياتي، لكنّني لم أكره أبداً جماعته. لطالما أعجبني هدوء نكران الذات، ومجتمعهم، وروتين حياتهم. والآن، مات معظم أولئك الأشخاص اللطفاء والمعطاؤون. قُتلوا على أيدي الشجعان، بتحريض من جانين، وبدعم من المكتب.

وكانت أمّ تريس وأبوها من بينهم.

وقفت تريس ساكنة، وتدلّت يداها من الجانبين بلا حراك، حتّى أصبحتا حمراوين بفعل تدفّق الدم.

قالت نيتا الواقفة بجانبنا، كما لو أنّها تدسّ كلماتها في المساحات الفارغة من عقلنا: "هذه هي مشكلة التزامهم الأعمى بهذه التجارب. فالمكتب يقدّر التجارب أكثر من حياة المعطوبين، هذا واضح. والآن، من شأن الأمور أن تتفاقم".

قلت: "تتفاقم؟ أكثر من قتل معظم أعضاء نكران الذات؟ كيف ذلك؟"

أجابت نيتا: "تهدّد الحكومة بإيقاف التجارب منذ عام تقريباً. فالتجارب تُمنى بالفشل باستمرار لأنّ المجتمعات عاجزة عن العيش بسلام. غير أنّ ديفيد لا يكفّ عن إيجاد طرق لإعادة السلام في الوقت المناسب. وإن ساءت الأمور في شيكاغو، يمكنه أن يفعل ذلك مجدّداً. فهو قادر على مسح ذاكرة الخاضعين للتجارب في أيّ وقت".

قلت: "مسح ذاكرتهم؟"

قال ريجي: "بواسطة مصل الذاكرة الموجود بحوزة جماعة نكران الذات. هذا المصل هو في الواقع من صنع المكتب. في هذه الحالة، سيتعيّن على كلّ رجل، وامرأة، وطفل أن يبدأوا حياتهم من الصفر".

قالت نيتا بصوت متوتر: "يتمّ محو حياتهم بأكملها، ضدّ إرادتهم، من أجل حلّ مشكلة عطب وراثي لا وجود لها. هؤلاء الناس يملكون القدرة على فعل ذلك، وهذه القدرة لا يجب أن يملكها أحد".

عندما قالت لي جوانا إنّ جماعة الوئام تعطي مصل محو الذاكرة لحرّاس الشجاعة، خطر لي أنّه عندما تمحو ذكريات شخص ما، فإنّك تغيّر هويته.

فجأة، لم أعد آبه ما هي خطّة نيتا ما دامت تعني توجيه أكبر ضربة ممكنة للمكتب. فما عرفته خلال الأيّام القليلة الماضية جعلني أشعر أنّ هذا المكان لا يحتوي على شيء جدير بالإنقاذ.

قالت تريس بصوت مبهم وآلي تقريباً: "ما هي الخطّة؟"

قالت نيتا: "سأساعد أصدقائي من الضواحي على الدخول عبر النفق. وأنت توبياس، ستقوم بتعطيل نظام الأمن في أثناء ذلك، لكي لا يتمّ

القبض عليهم؛ إنّها التكنولوجيا نفسها التي عملتَ عليها في غرفة المراقبة لدى جماعة الشجاعة؛ سيكون هذا سهلاً عليك. بعد ذلك، سنقوم أنا، ورافي، وماري باقتحام مختبر الأسلحة، وسرقة مصل الذاكرة لكي لا يتمكّن المكتب من استخدامه. سيساعدنا ريجي من خلف الكواليس، لكنّه سيفتح لنا النفق يوم الهجوم".

سألتها: "وماذا ستفعلون بقوارير مصل الذاكرة؟"

أجابت نيتا بنبرة ثابتة: "سندمّرها".

انتابني إحساس غريب بالفراغ. لا أعرف ما الذي توقّعته عندما تحدّثت نيتا عن خطّتها، لكن حتماً ليس هذا. فهذه الخطّة تبدو صغيرة جدّاً وسلبية جدّاً للانتقام من الأشخاص المسؤولين عن هجوم المحاكاة، الأشخاص الذين قالوا لي إنّني أعاني من عطب في عمق كياني، في شيفرتي الوراثية.

أبعدت تريس نظرها أخيراً عن المجهر وقالت: "أهذا كلّ ما تنوين فعله؟" ضاقت عيناها وهي تنظر إلى نيتا: "تعرفين أنّ المكتب مسؤول عن قتل مئات الأشخاص، فتخطّطين... لسلبهم مصل الذاكرة؟"

"لا أذكر أنّني طلبت منك انتقاد خطّتي".

"أنا لا أنتقد خطّتك، بل أقول لك إنّني لا أصدّقك. أنت تكرهين أولئك الناس، أعرف ذلك من طريقة حديثك عنهم. لذلك، أيّاً يكن ما تنوين فعله، أظنّ أنّه أسوأ بكثير من مجرّد سرقة بعض المصل منهم".

"مصل الذاكرة هو ما يستخدمونه لإبقاء التجارب مستمرّة. إنّه المصدر الأكبر لسلطتهم على مدينتكم، وأريد أخذه منهم. برأيي، هذه الضربة قوية بما فيه الكفاية حاليّاً". بدت نيتا لطيفة، كما كمن يشرح

شيئاً لطفل صغير. "لم أقل أبداً إنّ هذا كلّ ما أنوي فعله. فليس من الحكمة دائماً توجيه ضربة كبيرة عند أوّل فرصة. هذا سباق طويل".

اكتفت تريس بهزّ رأسها.

قالت نيتا: "هل أنت موافق، توبياس؟"

انتقل نظري من تريس، بوضعيتها المتوتّرة والمتصلّبة، إلى نيتا المسترخية والمتأهّبة. لم أكن أرى ما تراه أو تسمعه تريس. وعندما أفكّر بالرفض، أشعر أنّ جسدي سينهار على نفسه. عليّ فعل شيء حتّى لو كان صغيراً، ولا أفهم لماذا لا تشعر تريس باليأس نفسه تجاه ذلك.

أجبت: "أجل". التفتت إليّ تريس، محملقة عينيها من دون تصديق. غير أنّني تجاهلتها قائلاً: "أستطيع تعطيل نظام المراقبة. غير أنّني سأحتاج إلى شيء من مصل السلام الذي تستخدمه جماعة الوئام، هل يمكنك الوصول إليه؟"

ابتسمت نيتا قليلاً مجيبة: "أجل. سأرسل لك رسالة عن الموعد. هيّا ريجي. دعنا نترك هذين الشابّين ليتحدّثا".

حيّانا ريجي أنا وتريس بإيماءة من رأسه، ثمّ غادر الغرفة مع نيتا، وأغلقا الباب خلفهما من دون ضجيج.

التفتت إليّ تريس، وقد طوت ذراعيها أمامها كأنّهما حاجز يفصلني عنها.

قالت: "لا أصدّق. إنّها تكذب، لماذا لا ترى ذلك؟"

"لأنّه غير موجود. أنا أعرف الكذب مثلما تعرفينه. وفي هذه الحالة، أظنّ أنّ حكمك متأثّر بشيء آخر، كالغيرة مثلاً".

أجابت عابسة: "أنا لا أشعر بالغيرة، لكنّني أفتح عينيّ جيّداً. خطّتها أكبر من ذلك، ولو كنت مكانك، لتجنّبت الناس الذين يكذبون عليّ لتوريطي في أمر أجهله".

هززت رأسي قائلاً: "حسناً، لستِ في مكاني. تريس، هؤلاء الناس قتلوا أبويك، ألا تريدين فعل شيء حيال ذلك؟"

أجابت بحدّة: "أنا لم أقل إنّني لن أفعل شيئاً، لكنّني لن أشارك في أوّل خطّة تُعرض عليّ".

"اسمعي، لقد أحضرتك إلى هنا لأنّني أردت أن أكون صادقاً معك، وليس لكي تطلقي الأحكام الخاطئة على الناس، وتخبرينني بما يجب عليّ فعله!"

قالت ببرود: "ألا تذكر ما حدث آخر مرّة لم تثق فيها بأحكامي؟ يومذاك اكتشفت أنّني كنت محقّة. كنت محقّة عندما قلت إنّ فيديو إديث برايور سيغيّر كلّ شيء، وكنت محقّة حيال إيفلين، وأنا محقّة الآن".

قلت: "أجل، أنت دائماً على حقّ. هل كنت على حقّ عندما وضعت نفسك في ظروف خطرة من دون سلاح؟ وهل كنت على حقّ عندما كذبت عليّ ومشيت بقدميك إلى حتفك في منتصف الليل حين ذهبت إلى مقرّ المعرفة؟ وماذا عن بيتر، هل كنت محقّة حياله؟"

"لا ترمي هذه الأشياء في وجهي". أشارت إليّ بسبابتها، وأحسست أنّني طفل يؤنّبه والداه. "أنا لم أقل إنّني كاملة، لكن أنت، لا يمكنك أن ترى أبعد من يأسك. جاريتَ إيفلين لأنّك كنت يائساً لاستعادة أمّك، والآن ستشارك في هذه الخطّة لأنّك يائس للتخلّص من عطبك-"

ارتجفت وأنا أسمع كلامها.

قلت بهدوء: "أنا لست معطوباً. لا أصدّق أنّك لا تثقين بي إلى حدّ أن تطلبي منّي عدم الثقة بنفسي". هززت رأسي متابعاً: "كما أنّني لست بحاجة لأخذ الإذن منك".

توجّهتُ إلى الباب، وعندما وضعت يدي على المقبض، قالت: "هل ترحل لكي تكون لك الكلمة الأخيرة؟ كم أنت ناضج!"

"تماماً مثل الارتياب من دوافع امرأة ما لمجرّد كونها جميلة، أظنّ أنّنا متعادلان".

خرجتُ من الغرفة.

أنا لست طفلاً يائساً وغير مستقرّ، يمنح ثقته لأيّ كان. أنا لست معطوباً.

الفصل السادس والعشرون

تريس

لامس جبيني المجهر، وسبح المصل أمام عيني بلونه البنّي المائل إلى البرتقالي.

لقد شغلتني أكاذيب نيتا عن التفكير بالحقيقة: لكي يضع المكتب يديه على هذا المصل، قام بتطويره وسلّمه لجانين لاستخدامه. ابتعدتُ، واستغرقت في التفكير. لماذا تتعاون جانين مع المكتب مع أنّها أرادت البقاء في المدينة بعيداً عنهم؟

أظنّ أنّه كان لدى المكتب وجانين هدف مشترك. فكلاهما أرادا استمرار التجربة، وكلاهما خشيا ما قد يحدث إن لم تستمرّ.كلاهما أيضاً كانا على استعداد للتضحية بحياة الأبرياء.

ظننت أنّ هذا المكان قد يصبح بيتاً لنا، غير أنّ المكتب حافل بالقتلة. رحت أتأرجح على عقبيّ، كأنّ قوّة خفية تدفعني، ثمّ غادرت الغرفة وقلبي ينبض بسرعة.

تجاهلت العدد القليل من الأشخاص الذين كانوا يتجوّلون في الممرّ أمامي، ورحت أبتعد داخل مبنى المكتب، وأغوص أكثر في أحشاء الوحش.

سمعت نفسي وأنا أقول لكريستينا، يمكن أن يصبح هذا المكان بيتاً لي.

وتردّدت كلمات توبياس في ذهني، هؤلاء الناس قتلوا أبويك.

لا أدري إلى أين أنا ذاهبة، إلاّ أنّني أحسست بالحاجة إلى المساحة والهواء. أمسكت بطاقتي بيدي، وهرولت عبر الحاجز الأمني باتجاه المنحوتة. لم يكن الخزّان يتوهّج بالضوء في تلك اللحظة، مع أنّ المياه ما

زالت تسيل منه، نقطة نقطة، مع كلّ ثانية. وقفت للحظة أشاهدها، ثمّ رأيت أخي أمام اللوح الحجري.

قال بتردّد: "هل أنت بخير؟"

لم أكن بخير. اعتقدت أنّني وجدت مكاناً أعيش فيه، مكاناً بعيداً عن المشاكل، أو الفساد، أو السيطرة بحيث يمكنني الانتماء إليه. لكن ينبغي أن أدرك أخيراً أنّ مكاناً كهذا لا وجود له.

أجبت: "كلاّ".

بدأ يدور حول اللوح الحجري، ويقترب منّي. "ما الأمر؟"

ضحكت مجيبة: "ما الأمر؟ اكتشفت للتوّ أنّك لست أسوأ شخص أعرفه".

انحنيت على الأرض، ومرّرت أصابعي في شعري. أحسست بالخدر وبالرعب من هذا الإحساس. المكتب هو المسؤول عن موت والديّ. لماذا أكرّر ذلك لنفسي كي أصدّقه؟ ما خطبي؟

قال: "آه، أنا.... آسف".

لم يصدر عنّي سوى أنين خافت.

قال: "هل تعرفين ما قالته لي أمّي مرّة؟" الطريقة التي لفظ بها كلمة أمّي، كما لو أنّه لم يخنها، وتّرت أعصابي. "قالت إنّ كلّ إنسان يملك بداخله بعض الشرّ، وإنّ الخطوة الأولى لنحبّ شخصاً ما هي الاعتراف أنّنا نملك الشرّ نفسه بداخلنا، لكي نتمكّن من مسامحته".

وقفت قائلة: "أهذا ما تريدني أن أفعله؟ ربّما ارتكبتُ أموراً سيّئة كاليب، لكنّني لن أقدم أبداً على تسليمك للإعدام".

"لا يمكنك قول ذلك". وبدا كما لو أنّه يتوسّل إليّ لكي أقول إنّني مثله تماماً، ولست أفضل. "أنت لا تعلمين كم يمكن لجانين أن تكون مقنعة-"

انتفض بداخلي شيء مثل حزام مطّاطي.

فجأة لكمته على وجهه.

كلّ ما استطعت التفكير فيه هو اللحظة الذي جرّدني فيها أعضاء المعرفة من ساعتي وحذائي، وقادوني إلى طاولة الإعدام الخالية، طاولة قد يكون كاليب هو الذي أعدّها بنفسه.

ظننت أنّني تجاوزت هذا النوع من الغضب، لكن بينما كان يتراجع متعثّراً واضعاً يده على وجهه، لحقت به، وأمسكت بقبّة قميصه، ثمّ دفعته على المنحوتة، وصحت في وجهه أنّه جبان، وخائن، وأنّني سأقتله، سأقتله.

أتت حارسة باتّجاهي، وما إن وضعت يدها على ذراعي، حتّى زال غضبي. تركتُ قميص كاليب، ثمّ نفضت يدي، واستدرت مبتعدة.

* * *

تدلّى قميص بلون البيج من على كرسيّ خالٍ في مختبر ماثيو، ولامس كمّه الأرض. لم ألتقِ يوماً برئيسه، بحيث بدأت أشكّ أنّ ماثيو يتولّى العمل كلّه بمفرده.

جلست فوق القميص ورحت أتفحّص عقد أصابعي. كان بعضها مشقوقاً بسبب اللكمات التي وجّهتها لكاليب، كما ظهرت عليها كدمات باهتة. من الطبيعي أن تخلّف الضربة أثراً على كلينا. هكذا يسير العالم.

في الليلة الماضية، عندما عدت إلى عنبر النوم، لم أجد توبياس هناك، وكنت غاضبة جدّاً بحيث عجزت عن النوم. في الساعات التي أمضيتها

وأنا ممدّدة، أحدّق إلى السقف، قرّرت عدم التدخّل لإيقاف خطّة نيتا حتّى لو كنت أرفض المشاركة فيها. فالحقيقة التي عرفتها عن محاكاة الهجوم ملأتني حقداً على المكتب، لذلك أريد أن أراه يقوَّض من الداخل.

كان ماثيو يتحدّث في موضوع علمي، لكنّني لم أنتبه لما يقول.

"- للقيام ببعض التحليل الوراثي، وهذا جيّد، لكن قبله، كنّا نطوّر طريقة لجعل مركَّب الذاكرة يتصرّف مثل الفيروس، ويتكاثر بالسرعة نفسها، ويتمتّع بالقدرة نفسها على الانتشار عبر الهواء. بعد ذلك، طوّرنا لقاحاً له. وكان مؤقّتاً، لا يدوم سوى لثمانٍ وأربعين ساعة".

هززت رأسي قائلة: "إذاً، صنعتموه لكي تتمكّنوا من إعداد بقيّة تجارب المدن على نحو أكثر فاعلية، صحيح؟ بهذه الطريقة، لا تحتاجون إلى حقن كلّ شخص بمصل الذاكرة، بل تكتفون بإطلاقه في الهواء وتركه ينتشر".

"هذا صحيح!" بدا متحمّساً إلى درجة إثارة اهتمامي بما يقول. "وهو نموذج أفضل، لأنّه يشتمل على إمكانية اختيار أعضاء معيّنين من السكّان، فنقوم بتلقيحهم، ثمّ ينتشر الفيروس خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، من دون أن يكون له أيّ تأثير عليهم".

هززت رأسي إلى الأسفل مجدّداً.

قال ماثيو وهو يرفع فنجان القهوة إلى فمه، ثمّ يخفضه: "هل أنت بخير؟ سمعت أنّ الحرّاس اضطرّوا إلى إبعادك عن أحدهم في الليلة الفائتة".

"كان أخي، كاليب".

رفع حاجبيه استغراباً: "آه، وماذا فعل هذه المرّة؟"

"لا شيء، حقّاً". شددت على كمّ القميص بأصابعي. كانت أطرافه بالية مع مرور الزمن. "كنت على وشك الانفجار على أيّ حال، وظهر هو في طريقي".

عرفت من نظرتي إليه السؤال الذي سيطرحه. في الحقيقة، أردت أن أشرح له كلّ شيء، كلّ ما قالته وأرتني إيّاه نيتا. لكن أتساءل ما إذا كان شخصاً موثوقاً.

قلت في محاولة لاختباره: "سمعت شيئاً يوم أمس عن المكتب، وعن مدينتي، والمحاكاة".

استقام في جلسته وألقى عليّ نظرة غريبة.

قلت: "ماذا؟"

"هل سمعتِ هذه الأشياء من نيتا؟"

"أجل، وكيف عرفت؟"

"ساعدتها عدّة مرّات، وقمت بإدخالها إلى غرفة الأرشيف. هل قالت لك شيئاً آخر؟"

حدّقت إليه بذهول. هل ماثيو هو المُخبر الذي يساعد نيتا؟ لم أعتقد أبداً أنّ ماثيو، الذي عاملني بلطف، وأظهر لي الفرق بين مورّثاتي "النقية" ومورّثات توبياس "المعطوبة"، هو من يساعد نيتا.

قلت ببطء: "قالت شيئاً عن خطّة".

نهض واقترب منّي، وقد بدا عليه التوتّر على نحو غريب، فابتعدت عنه تلقائيّاً.

قال: "هل سيبدأون؟ هل تعرفين متى؟"

سألته: "ما الذي يجري؟ لماذا تساعد نيتا؟"

قال: "لأنّ كلّ هذا الكلام عن العطب الوراثي هو مجرّد هراء. من المهمّ أن تجيبي عن سؤالي".

"سيبدأون، لكن لا أعرف متى. أظنّ أنّ الموعد قريب".

وضع ماثيو يديه على وجهه قائلاً: "تبّاً، لن يأتينا أيّ خير من هذا".

قلت له وأنا أنهض واقفة: "إن لم تتوقّف عن الكلام بالألغاز سأصفعك".

قال ماثيو: "كنت أساعد نيتا، إلى أن أخبرتني بما تريد فعله هي ومجموعة الضواحي. يريدون دخول مختبر الأسلحة و-"

"-سرقة مصل الذاكرة، أجل، سمعت بذلك".

هزّ رأسه قائلاً: "كلاّ، لا يريدون مصل الذاكرة، بل يريدون المصل القاتل، وهو شبيه بذاك الذي تملكه جماعة المعرفة، ذاك الذي كانوا سيعدمونك به. سيستخدمونه من أجل تنفيذ اغتيالات عديدة. فمن السهل إعداد بخّاخ، وإعطاؤه للأشخاص المناسبين لنشر الفوضى والعنف، وهذا بالضبط ما يريده أبناء الضواحي".

أفهم الآن. أرى منذ الآن قارورة تميل، وإصبعاً يضغط بسرعة على زرّ بخّاخ. أرى جثث أبناء نكران الذات والمعرفة وهي ملقاة في الشوارع وعلى السلالم. أرى الأجزاء الصغيرة لهذا العالم الذي تمكنّا من تحويله إلى رماد.

قال ماثيو: "ظننت أنّني كنت أساعدها في أمر أكثر ذكاءً. ولو علمت أنّني ساعدتها لإشعال حرب أخرى، لما فعلت. علينا القيام بشيء حيال ذلك".

قلت بصوت خافت، ليس لماثيو بل لنفسي: "قلت له، قلت له إنّها تكذب".

"ربّما نعاني من مشكلة في طريقة معاملة المعطوبين وراثياً في هذه البلاد، لكنّها لن تحلّ عبر قتل عدد من الناس. والآن تعالي، سنذهب إلى مكتب ديفيد".

لم أعد أميّز المخطئ من المصيب. فأنا لا أعرف شيئاً عن هذه البلاد، أو عن حياة أهلها، أو ما تحتاج إليه من أجل التغيير. لكنّني أعرف أنّ وقوع المصل القاتل بين أيدي نيتا وعدد من أبناء الضواحي ليس أفضل من وجوده في مختبر الأسلحة في المكتب. لذلك لحقت بماثيو إلى الممرّ. مشينا بسرعة باتجاه المدخل الذي دخلت منه أوّل مرّة إلى هذا المجمّع.

عندما عبرنا النقطة الأمنية، رأيت يوريا بجانب المنحوتة. لوّح لي بيده، وفمه مشدود على شكل خطّ، كان يمكن أن يتحوّل إلى ابتسامة لو بذل مجهوداً أكبر. فوق رأسه، انعكس الضوء عبر خزّان الماء، الذي كان رمز نضال المجمّع البطيء والذي لا جدوى منه.

كنت أعبر النقطة الأمنية عندما رأيت الجدار المجاور ليوريا ينفجر.

حدث ذلك مثل نار اندلعت من برعم زهر. تناثرت شظايا الزجاج والمعدن من وسط الانفجار، وقُذف جسد يوريا بينها. خرج صوت عميق من داخلي كالرعد. فتحت فمي وأنا أصرخ باسمه، لكنّني لم أسمع صوتي بسبب طنين أذنيّ.

انخفض الجميع من حولي على الأرض، وأحاطوا رؤوسهم بأيديهم. لكنّني بقيت واقفة، أشاهد الفجوة في جدار المجمّع. لم يدخل أحد منها.

بعد ثوانٍ، بدأ الجميع يركضون بعيداً عن الانفجار، أمّا أنا، فاندفعت بعكس اتّجاههم، أشقّ طريقي بكتفي نحو يوريا. اصطدم جنبي بمرفق أحدهم، فسقطت، واحتكّ وجهي بشيء قاسٍ ومعدني، كان طرف طاولة. ناضلت للوقوف، ومسحت الدماء عن حاجبي بكمّي.

احتكّ القماش بذراعيّ وأطرافي وشعري، ولم أرَ سوى عيوناً مذهولة، إضافة إلى لافتة فوق رؤوسهم كُتب عليها مخرج المجمّع.

صاح أحد الحرّاس عند النقطة الأمنية: "أطلقوا أجهزة الإنذار!" فخفضت رأسي تحت ذراع أحدهم، وابتعدت جانباً.

صاح حارس آخر: "لقد فعلت، لكنّها لا تعمل!"

أمسك ماثيو بكتفي وصاح في أذني: "ماذا تفعلين؟ لا تذهبي نحو-"

غير أنّني أسرعت ووجدت طريقاً مفتوحة لا يعيقها الناس، فلحق بي ماثيو.

قال: "لا يجدر بنا الذهاب إلى موقع الانفجار. فمن وضعه أصبح أساساً في المبنى. هيّا بنا إلى مختبر الأسلحة، فوراً!"

مختبر الأسلحة.

فكّرت بيوريا الممدّد على الأرض محاطاً بشظايا الزجاج والمعدن. كان جسدي، بكلّ عضلة فيه، يناضل للذهاب إليه، لكنّني أعرف أنّني لا أستطيع فعل شيء من أجله في هذه اللحظة. الأهمّ بالنسبة إليّ هو استخدام خبرتي مع الفوضى، والاعتداءات، لمنع نيتا وأصدقائها من سرقة المصل القاتل.

كان ماثيو على حقّ، لن نجني أيّ خير من هذا.

قادني ماثيو عبر حشود الناس كما لو كان يغوص في حوض سباحة. حاولت أن أنظر إلى مؤخّر رأسه فقط، وأن أتبعه، لكنّ وجوه الناس شتّت انتباهي، بأفواههم وأعينهم التي طغى عليها الرعب. فقدت أثره لبضع ثوانٍ، ثمّ وجدته مجدّداً على بعد عدّة ياردات، ينعطف عند الرواق التالي.

ناديته: "ماثيو!"، واندفعت عبر مجموعة أخرى من الناس. لحقت به أخيراً، وأمسكت بظهر قميصه. فاستدار وأمسك بيدي.

"هل أنت بخير؟" وحدّق إلى جبيني. في خضم الفوضى، نسيت الجرح الذي أصابني. ضغطت كمّي عليه، وعندما رفعته عنه، وجدته مخضباً بالدماء، لكنّني هززت رأسي إلى الأسفل.

"أنا بخير! هيّا بنا!"

رحنا نركض جنباً إلى جنب في ممرّ لم يكن مزدحماً بقدر الممرّات الأخرى، ثمّ لاحظت أنّ من أراد التسلّل إلى المبنى قد أصبح في الداخل أساساً. فقد كان ثمّة حرّاس ممدّدين على الأرض، بعضهم أحياء والبعض الآخر فارق الحياة. رأيت مسدّساً على الأرض بجانب نافورة مياه للشرب، فركضت باتجاهه، وتركت يد ماثيو.

حملت السلاح وأعطيته لماثيو. غير أنّه هزّ رأسه قائلاً: "لم يسبق لي أبداً أن استخدمت سلاحاً".

"آه، حبّاً بالله". أحطت الزناد بأصابعي. كان مختلفاً عن المسدّسات التي استخدمناها في المدينة. فهو لا يملك فوهة تتحرّك جانباً، ولا صلابة الزناد نفسها، أو حتّى توزيع الوزن نفسه. كان حمله أسهل بالنتيجة، لأنّه لا يعيد الذكريات نفسها.

كان ماثيو يلهث، وكذلك أنا، غير أنّني لم ألاحظ لأنّني ركضت بهذه السرعة في خضمّ الفوضى مرّات عديدة. كان الممرّ الذي قادني إليه خالياً، إلاّ من جندية ممدّدة على الأرض، بلا حراك.

قال: "اقتربنا". فوضعت إصبعي على شفتيّ لأطلب منه الصمت.

أبطأنا من سرعتنا، بينما أمسكت جيداً بالمسدّس الذي كان ينزلق من يدي بفعل العرق. لا أدري على كم رصاصة يحتوي، أو كيف أتحقّق

من ذلك. عندما مررنا بالجندية، توقّفت لتفتيشها بحثاً عن سلاح. فوجدت واحداً مدسوساً تحت وركها، حيث وقعَت فوق يدها. حدّق ماثيو إليها، مذهولاً، وأنا أستولي على سلاحها.

قلت بصوت خافت: "تابع السير. تحرّك الآن، وفكّر لاحقاً".

وكزته، وقدته عبر الممرّ. كانت الأروقة هنا معتمة، والأسقف مكسوّة بشبكة من القضبان والأنابيب. كنت أسمع الناس أمامي ولا أحتاج إلى إرشادات ماثيو لأجد طريقي.

عندما وصلنا إلى المكان الذي يفترض بنا فيه أن ننعطف، استندت إلى الجدار واسترقت النظر من عند الزاوية، محاولة عدم إظهار نفسي.

رأيت باباً زجاجياً مزدوجاً، بدا ثقيلاً مثل الأبواب المعدنية، لكنّه مفتوح. خلفه، امتدّ ممرّ ضيّق، وكان خالياً باستثناء ثلاثة أشخاص يرتدون الأسود. كانت ملابسهم سميكة، ويحملون أسلحة كبيرة، حتّى أنّني لا أدري ما إذا كنت قادرة على حمل أحدها. غطّوا وجوههم بقماش أسود أخفي كلّ ملامحهم، ما عدا أعينهم.

أمام الأبواب المزدوجة، ركع ديفيد. رأيت مسدّساً مضغوطاً على رأسه، والدم يسيل من ذقنه. وبين الدخلاء، وقفت فتاة ترتدي قناعاً مثل الآخرين، وقد ربطت شعرها الأسود إلى الخلف.

نيتا.

الفصل السابع والعشرون

تريس

قالت نيتا بصوت مموّه بفعل القناع: "أدخِلنا، ديفيد".

استدارت عينا ديفيد جانباً بكسل، نحو الرجل الذي يصوّب مسدّسه عليه.

قال: "لا أظنّ أنّكم ستقتلونني، فأنا الشخص الوحيد في هذا المبنى الذي يعرف هذه المعلومات، وأنتم تريدون ذاك المصل".

قال الرجل: "قد لا نطلق الرصاص على رأسك، لكن ثمّة أماكن أخرى".

تبادل الرجل نظرة مع نيتا، ثمّ أنزل مسدّسه إلى الأسفل، إلى قدمي ديفيد، وأطلق النار. أغمضت عينيّ بينما ملأ صراخ ديفيد الممرّ. ربّما كان أحد الأشخاص الذين أعطوا جانين مصل المحاكاة، لكن مع ذلك لم أتلذّذ بعذابه.

حدّقت إلى المسدّسين اللذين أحملهما، واحداً في كلّ يد، وبدت أصابعي شاحبة أمام الزناد الأسود. تخيّلت نفسي وأنا أزيح الأغصان المتشابكة التي تشوّش أفكاري، وأركّز على هذا المكان، وهذا الزمان وحسب.

قرّبت فمي من أذن ماثيو، وتمتمت قائلة: "اذهب لإحضار المساعدة، فوراً".

هزّ ماثيو رأسه، ثمّ بدأ يمشي. لحسن الحظّ، سار بهدوء، ولم يُسمع وقع خطواته على الأرض. في آخر الممرّ، التفت إليّ، قبل أن يختفي عند المنعطف.

قالت ذات الشعر الأحمر: "لقد سئمت من هذه السخافة. فجّروا الأبواب وحسب".

قالت نيتا: "سيفعّل الانفجار إحدى التدابير الأمنية الاحتياطية. نحن بحاجة إلى رمز الدخول".

استرقت النظر مجدّداً، وهذه المرّة التقت نظراتي بنظرات ديفيد. كان وجهه شاحباً، يتصبّب عرقاً، بينما أحاطت بركة كبيرة من الدماء بقدميه. أمّا الآخرون، فكانوا ينظرون إلى نيتا، التي أخرجت صندوقاً أسود من جيبها، وفتحته لتخرج منه حقنة وإبرة.

قال الرجل الذي يحمل المسدّس: "قلتِ إنّ هذه الأشياء لا تعمل عليه".

"قلت إنّه قد يقاومها، ولم أقل إنّها لن تعمل على الإطلاق. ديفيد، هذا مزيج قويّ من مصل الحقيقة ومصل الخوف. سأحقنك به إن لم تخبرنا ما هو رمز الدخول".

قال ديفيد بصوت ضعيف: "أعرف أنّ الذنب هو ذنب مورّثاتك، نيتا. إن توقّفتِ الآن، يمكنني أن أساعدك، يمكنني-"

ابتسمت نيتا ابتسامة ملتوية. وسرعان ما غرزت الإبرة في عنقه وضغطت عليها. تهاوى ديفيد، ثمّ أخذ جسده يرتعد.

حملق بعينيه، وأخذ يصرخ وهو يحدّق في الفراغ. كنت أعرف ما الذي يراه، لأنّني رأيته بنفسي، في مقرّ المعرفة، تحت تأثير مصل الخوف. لقد شاهدتُ أسوأ مخاوفي حيّة أمام عينيّ.

ركعت نيتا أمامه، وأمسكت بوجهه.

قالت بإلحاح: "ديفيد! يمكنني أن أوقفه إن أخبرتنا كيف ندخل إلى هذه الغرفة. هل تسمعني؟"

أخذ يلهث، لكنّ نظره لم يكن مركّزاً عليها، بل على شيء فوق كتفها. أخذ يصيح: "لا تفعل!" واندفع إلى الأمام، نحو الشبح الذي يراه تحت تأثير المصل.

وضعت نيتا ذراعها على صدره لتثبيته، بينما صاح: "كلاّ-!"

أخذت نيتا تهزّه. "سأمنعهم من فعل ذلك إن أخبرتني كيف أدخل!"

قال ديفيد: "هي!" ولمعت الدموع في عينيه. "الاسم-"

"اسم من؟"

قال الرجل الذي يصوّب المسدّس على ديفيد: "الوقت ينفد! إمّا أن نجد المصل أو أن نقتله-"

"هي" قال ديفيد ذلك، مشيراً إلى الفراغ أمامه.

مشيراً إليّ.

مددت ذراعيّ من حول زاوية الجدار وأطلقت النار مرّتين. أصابت الرصاصة الأولى الحائط. أمّا الثانية فاستقرّت في ذراع الرجل، ليسقط السلاح على الأرض. صوّبت المرأة ذات الشعر الأحمر سلاحها عليّ، أو على ما تراه منّي، لأنّني كنت مختبئة خلف الحائط، بينما صاحت نيتا: "لا تطلقي النار!"

قالت نيتا: "تريس، أنت لا تعرفين ماذا تفعلين-"

قلت وأنا أطلق النار مجدّداً: "أنت محقّة على الأرجح". هذه المرّة كانت يدي أكثر ثباتاً وأكثر قدرة على الاستهداف. فأصبتُ جنب نيتا، فوق وركها تماماً. صرخت من خلف القناع ووضعت يدها على الفجوة التي أحدثتها الرصاصة، ثمّ ركعت على ركبتيها، ويداها مضرّجتان بالدماء.

اندفع ديفيد نحوي، وقد قلّص الألم ملامحه، ومشى بصعوبة على رجله المصابة. فأحطت خصره بذراعي، وأدرت جسده بحيث أصبح بيني وبين بقيّة الجنود. بعد ذلك، ضغطت أحد أسلحتي على مؤخّر رأسه.

تجمّدوا كلّهم في أماكنهم. كنت أشعر بقلبي ينبض في حلقي، ويديّ، وخلف عينيّ.

قلت: "إن أطلقتم النار، سأقتله".

قالت المرأة ذات الشعر الأحمر: "لن تقتلي قائدك".

قلت: "هو ليس قائدي، ولا آبه ما إذا مات أو عاش. لكن إن كنتم تظنّون أنّني سأسمح لكم بالاستيلاء على المصل القاتل، فأنتم مخطئون".

بدأت أتراجع، وديفيد يعرج أمامي، وهو لا يزال تحت تأثير مزيج الأمصال. خفضت رأسي، وأبعدت جسدي جانباً مستخدمة جسده كدرع، بينما أبقيت مسدّساً موجّهاً على رأسه.

وصلنا إلى آخر الرواق، وهنا نفد صبر المرأة. فأطلقت النار، وأصابت ديفيد فوق ركبة ساقه السليمة. فانهار أرضاً وهو يصرخ، بحيث أصبحت مكشوفة. انخفضت إلى الأسفل، وارتطم مرفقاي بالأرض، بينما مرّت رصاصة من فوقي، وتردّدت صداها في رأسي.

في تلك اللحظة، شعرت بشيء حار يسيل على ذراعي اليسرى، ورأيت الدماء، قبل أن أتهاوى على الأرض. أطلقتُ النار عشوائياً في الممرّ، ثمّ أمسكت بديفيد من قبّة قميصه وجررته من حول الزاوية، بينما ألهب الألم ذراعي اليسرى.

سمعت خطوات تركض، وسمعت أنيناً. لكنّ الخطوات لم تكن آتية من خلفي، بل من أمامي. أحاط بي الناس، بمن فيهم ماثيو، وقام بعضهم بحمل ديفيد وأخذه بعيداً. أمّا ماثيو فمدّ لي يده.

ملأ الطنين أذنيّ. لا أصدّق أنّني فعلتها.

الفصل الثامن والعشرون

تريس

كان المستشفى مليئاً بالناس، وجميعهم يصيحون، أو يركضون ذهاباً وإياباً، أو يغلقون الستائر. قبل أن أجلس، فتّشت جميع الأسرّة بحثاً عن توبياس. وعندما لم أجده في أيّ منها، غمرني ارتياح كبير.

لم يكن يوريا هناك هو الآخر، بل في إحدى الغرف الأخرى وقد أُقفل عليه الباب. هذا لا يبشّر بالخير.

دهنت الممرّضة ذراعي بالمعقّم، وهي تلهث وتنظر حولها عوضاً عن التركيز على جرحي. قيل لي إنّه طفيف، ولا يدعو للقلق.

قلت: "يمكنني الانتظار إن كنت تريدين فعل شيء آخر. عليّ أن أجد أحدهم على أيّ حال".

إلاّ أنّها زمّت شفتيها قائلة: "أنت تحتاجين إلى قطب".

"لكنّه مجرّد خدش!"

قالت مشيرة إلى بقعة فوق عيني: "لا أعني ذراعك، بل رأسك". كنت قد نسيت تقريباً الشقّ الذي أصاب رأسي في خضم هذه الفوضى، والذي لم يتوقّف عن النزيف.

"حسناً".

قالت وهي تحمل إبرة: "سأحقنك بمخدّر".

لم أُبدِ أيّ ردّ فعل، فقد اعتدت على الإبر. دهنَت جبيني بالمعقّم، فهم يتعاملون بحذر شديد هنا مع الجراثيم، ثمّ شعرت بوخزة الإبرة، التي راح إحساسي بها يضعف تدريجيّاً مع بدء مفعول المخدّر.

راقبت الناس وهم يسرعون أمامي، بينما كانت تقطّب جبيني. خلع أحد الأطبّاء زوجاً من القفازات المطّاطية المكسوّة بالدماء، ومرّ ممرّض

حاملاً صينية شاشٍ، وقد أوشك على الانزلاق على الأرض، في حين أخذت امرأة من أسرة أحد الجرحى تعصر يديها قلقاً. كان الهواء عابقاً برائحة المواد الكيميائية، والورق القديم، والأجساد الدافئة.

سألتها: "هل من أخبار عن ديفيد؟"

"سيعيش، لكنّه سيحتاج وقتاً طويلاً قبل أن يتمكّن من السير مجدّداً". توقّفت عن زمّ شفتيها لبضع ثوانٍ فقط. "لكان الأمر أسوأ بكثير لو لم تكوني هناك. الجميع أدرك ذلك".

أومأت برأسي بصمت. أتمنّى لو أستطيع إخبارها أنّني لست بطلة، وأنّني استخدمته كدرع، كجدار بشري. أتمنّى لو أستطيع الاعتراف أنّني مليئة بالحقد على المكتب وعلى ديفيد، وأنّني كنت على استعداد لأعرّض شخصاً آخر للرصاص من أجل إنقاذ نفسي. لكان والداي خجلا منّي بالتأكيد.

وضعَت الممرّضة ضمادة على القطب لحماية الجرح، ثمّ جمعت كلّ الأغلفة والقطن المبلّل بيدها للتخلّص منها.

خرجَت قبل أن أتمكّن من شكرها، وانصرفَت إلى السرير التالي، للاهتمام بجريح آخر.

اصطفّ الجرحى في الردهة خارج قسم الطوارئ. فهمت من الأدلّة أنّه كان ثمّة انفجار آخر انطلق في وقت متزامن مع الانفجار الأوّل الذي وُضع قرب المدخل. كلاهما كانا يهدفان إلى تشتيت الانتباه. فالمهاجمين تسلّلوا عبر النفق الأرضي، مثلما قالت نيتا. غير أنّها لم تذكر أبداً أنّها ستقوم بتفجير الأسوار.

فُتحت الأبواب في آخر الرواق، واندفع منها بضعة أشخاص حاملين امرأة شابّة، نيتا. وضعوها على سرير بجانب أحد الجدران. كانت تئنّ

وهي تضغط القطن على جرح في جنبها. أحسست بعدم اكتراث غريب لألمها. لقد أطلقت عليها النار، لأنّني اضطررت إلى ذلك، وهذا كلّ شيء.

بينما كنت أمشي بين الجرحى، لاحظت الزيّ الذي يرتدونه. فكلّ الموجودين هناك يرتدون اللون الأخضر، ما يعني أنّهم جميعاً من موظّفي الدعم، باستثناء بعض الأشخاص. وكانوا جميعاً يضغطون على أذرعهم أو سيقانهم أو رؤوسهم النازفة، ولم تكن إصاباتهم أفضل من إصابتي، بل كان بعضهم أسوأ حالاً بكثير.

لمحت صورتي على النوافذ خلف الممرّ الرئيس، فوجدت شعري مشعّثاً، والضمادة تطغى على جبيني. كما أنّ دماء ديفيد ودمائي لطّخت ملابسي في بعض الأماكن. كنت بحاجة إلى الاستحمام وتبديل ثيابي، لكن عليّ أن أعثر أوّلاً على توبياس وكريستينا. فأنا لم أرهما منذ ما قبل الاعتداء.

سرعان ما وجدت كريستينا، فقد كانت جالسة في غرفة الانتظار عندما خرجت من قسم الطوارئ، تهزّ ركبتها بقوّة بحيث رمقها الشخص الجالس إلى جانبها شزراً. رفعت يدها لتحيّتي، لكن سرعان ما تحوّل نظرها عنّي إلى الباب.

سألتني: "هل أنت بخير؟"

"أجل. ما من أخبار عن يوريا بعد، لم أستطع الدخول إلى غرفته".

"هؤلاء الناس يثيرون جنوني، لا يقولون شيئاً لأحد. فهم لا يسمحون لنا برؤيته كما لو أنهم يملكونه، أو كأنّهم هم وحدهم المعنيون بما يحدث له!"

"إنّهم يعملون بشكل مختلف هنا. أنا واثقة أنّهم سيخبرونك عندما تتوفّر لديهم معلومات ملموسة".

قالت عابسة: "سيخبرونك أنت. لكنّني لا أظنّ أنّهم سيكترثون لأمري أنا".

قبل بضعة أيّام، كان من الممكن أن أخالفها الرأي، لأنّني لم أكن أكيدة من مدى تأثير اعتقادهم بالعطب الوراثي على سلوكهم. ولا أدري الآن ماذا أفعل، ولا كيف أتحدّث معها في ظلّ كلّ هذه المزايا التي أتمتّع بها دوناً عنها، والتي لا ذنب لنا نحن الاثنتين بها. كلّ ما استطعت فعله هو البقاء بجانبها.

"سأذهب للبحث عن توبياس، لكنّني سأعود بعد ذلك وأجلس معك، اتفقنا؟"

نظرت إليّ أخيراً وسكنت قدمها. "ألم يخبروك بعد؟"

تقلّصت معدتي من شدة الخوف. "بماذا يخبرونني؟"

قالت بهدوء: "لقد تمّ اعتقال توبياس. فقد رأيته جالساً مع المعتدين قبل مجيئي إلى هنا. رآه بعض الأشخاص في غرفة المراقبة قبل الاعتداء، وقالوا إنّه كان يعطّل نظام الإنذار".

رأيت في عينيها نظرة حزينة، كما لو أنّها تشفق عليّ، لكنّني أعرف ما فعله توبياس.

سألتها: "أين هم؟"

عليّ التحدّث معه، وأعرف ما أريد قوله.

الفصل التاسع والعشرون

توبياس

آلمني معصماي بسبب الرباط البلاستيكي الذي شدّه الحارس حولهما. لمست فكّي برؤوس أصابعي، أتحسّس وجود دماء على بشرتي.

سألني ريجي: "هل أنت بخير؟"

أومأت برأسي. سبق أن عرفت ما هو أسوأ. فقد أصبت بضربات أقوى من ضربة الجندي الذي صدم فكّي بعقب بندقيته عندما كان يعتقلني. كان الشرر يتطاير من عينيه.

جلست ماري ورافي على بعد عدة أقدام منّي، وضغط رافي قبضة من القطن على ذراعه الدامية. وقفت حارسة بيننا وبينه. نظرت إليهما، والتقى نظري بنظر رافي الذي هزّ برأسه، كأنّه يقول أحسنت.

لو كنت قد أحسنت صنعاً، لماذا أشعر بهذا الثقل في معدتي؟"

قال ريجي وهو يقترب منّي: "اسمع، سيقع الذنب على نيتا والشخصين اللذين أتيا من الضواحي. سيكون كلّ شيء على ما يرام".

أومأت برأسي مجدّداً، لكن عن غير اقتناع. كانت لدينا خطّة احتياطية في حال تعرّضنا للاعتقال، ولست قلقاً على نجاحها. ما يقلقني هو المدّة التي يستغرقونها للتعامل معنا، ومدى عفوية إجراءاتهم. فنحن نجلس هنا في ممرّ خالٍ منذ أن تمّ القبض على الدخلاء منذ أكثر من ساعة، ولم يحضر أحد لإخبارنا بما سيحلّ بنا، أو يطرح علينا أيّ سؤال. حتّى أنّني لم أرَ نيتا بعد.

أحسست بطعم حادّ في فمي. أيّاً يكن ما فعلناه، يبدو أنّه هزّهم من العمق، وما أعرفه هو أنّ لا شيء يهزّ الناس بهذا الشكل سوى خسارة الأرواح.

كم ضحية فقدت حياتها بسببي، بما أنّني شاركت في هذه العمليّة؟

سألت لريجي، وأنا أخشى النظر إليه: "قالت لي نيتا إنّهم سيسرقون مصل الذاكرة. هل كان هذا صحيحاً؟"

نظر ريجي إلى الحارسة الواقفة على بعد خطوات منّا. فقد تمّ توبيخنا لأنّنا تكلّمنا قبل قليل.

غير أنّني أعرف الجواب.

"ليس صحيحاً، أليس كذلك؟" كانت تريس على حقّ. نيتا كاذبة.

اقتربت منّا حارسة وصوّبت بندقيتها على المسافة الفاصلة بيننا. "أنت! ابتعد جانباً. الكلام ممنوع".

ابتعد ريجي إلى اليمين، والتقى نظري بنظر الحارسة.

سألتها: "ماذا يجري؟ ما الذي حدث؟"

أجابت: "آه، كأنّك لا تعرف. اخرس ولا تفتح فمك".

راقبتها وهي تبتعد، ثمّ رأيت فتاة شقراء قصيرة القامة تظهر في آخر الرواق. إنّها تريس. كان جبينها معصوباً بضمادة، والدماء تلوّث ملابسها في بقع على شكل أصابع. حملت بيدها ورقة.

قالت الحارسة: "أنت! ماذا تفعلين هنا؟"

أتى حارس آخر مهرولاً وقال لها: "شيلي، اهدأي، هذه الفتاة التي أنقذت ديفيد".

الفتاة التي أنقذت ديفيد.. ممّ أنقذته بالضبط؟

خفضت شيلي سلاحها قائلة: "آه، حسناً. لكنّني ما زلت أنتظر جواباً".

قالت تريس وهي تعطي الورقة لشيلي: "طلبوا منّي إخباركم بآخر المستجدّات. ديفيد في غرفة الإنعاش. سيعيش، لكنّهم غير واثقين من قدرته على السير مجدّداً. وقد تمّ علاج معظم الجرحى الباقين".

ازدادت المرارة في فمي. لم يعد ديفيد قادراً على السير، وكانوا طوال هذا الوقت يعالجون الجرحى. كلّ هذا الدمار، من أجل ماذا؟ حتّى إنّني لا أعرف. أنا لا أعرف الحقيقة.

ماذا فعلت؟

سألت شيلي: "هل عرفوا عدد الضحايا؟"

أجابت تريس: "ليس بعد".

"شكراً على إخبارنا".

"اسمعي". نقلت وزنها على قدمها الأخرى. "أحتاج إلى التحدّث إليه". أشارت برأسها نحوي.

قالت شيلي: "حقّاً، نحن لا نستطيع-"

"فقط لثانية واحدة، أنا أعدك، أرجوك".

قال الحارس الآخر: "دعيها، ما الضير من ذلك؟"

قالت شيلي: "حسناً، لديك دقيقتان".

أومأت برأسها نحوي، فاستندت إلى الحائط لكي أنهض، ذلك أنّ يديّ لا تزالان مقيّدتين أمامي. اقتربت منّي تريس، لكن ليس كثيراً. فالمسافة وذراعاها المطويتان شكّلت حاجزاً بيننا أشبه بجدار. لم تنظر إلى عينيّ مباشرة.

"تريس، أنا-"

"تريد أن تعرف ماذا فعل أصدقاؤك؟" كان صوتها يرتجف، ولم أخطئ وأعتقد أنّ الدموع هي السبب، بل كان الغضب. "لم يكن هدفهم

هو مصل الذاكرة، بل السمّ، المصل القاتل. أرادوا أن يقتلوا عدداً من المسؤولين لإشعال حرب".

نظرتُ إلى الأسفل، إلى يديّ، وإلى الأرض، وإلى طرف حذائها. حرب.

"لم أكن أعلم-"

"كنتُ على حقّ. كنتُ على حقّ، ولم تستمع إليّ مرّة أخرى". قالت ذلك بصوت هادئ. التقت نظراتنا، واكتشفت أنّني لا أريد ذلك مع أنّني أتوق إليه، لأنّه دمّرني. "كان يوريا واقفاً أمام إحدى المتفجّرات التي أطلقوها لتشتيت الانتباه. هو الآن في غيبوبة، ولا يعرفون ما إذا كان سيعيش".

من الغريب كيف أنّ كلمة، أو جملة، يمكن أن تبدو مثل ضربة على الرأس.

"ماذا؟"

كلّ ما استطعت رؤيته هو وجه يوريا عندما سقط في الشبك بعد حفل الاختيار، وابتسامته المرحة ونحن نساعده أنا وزيك على النزول إلى المنصّة المجاورة للشبكة. تذكّرته أيضاً وهو جالس في محلّ الأوشام، أذنه مثنية إلى الأمام لإبعادها من طريق توري التي كانت ترسم ثعباناً على بشرته. ألن يستيقظ يوريا؟ هل سيرحل إلى الأبد؟

لكنّني قطعتُ وعداً. لقد وعدتُ زيك أن أعتني به، وعدته...

قالت بصوت مخنوق: "إنّه أحد آخر أصدقائي. لا أعرف إن كنت سأتمكّن من النظر إليك مجدّداً كما كنت أفعل".

ابتعدت، وسمعت صوت شيلي المكتوم يأمرني بالجلوس. فهبطتُ على ركبتيّ، ووضعت يديّ على ساقيّ. حاولت إيجاد طريقة للخروج من

هذا المأزق، ومن هَول ما فعلت، لكن ما من منطق استطاع تحريري. لا مفرّ لي.

غطّيت وجهي بيديّ وحاولت عدم التفكير، وعدم تخيّل أيّ شيء.

* * *

عكس المصباح العلوي المثبّت في غرفة الاستجواب دائرة غير واضحة المعالم على وسط الطاولة. أبقيت نظري مثبّتاً عليها وأنا أتلو القصّة التي روتها لي نيتا، والتي كانت قريبة جدّاً من الحقيقة بحيث لم أجد صعوبة في قولها. عندما انتهيت، طبع الرجل الذي يدوّنها آخر جملة لي على شاشته، وأضاء الزجاج بالأحرف التي كان يلمسها بأصابعه. عندئذٍ قالت المرأة التي تولّت دور مندوبة ديفيد، وتدعى أنجيلا: "إذاً، لم تكن تعرف لماذا طلبت منك خوانيتا تعطيل نظام المراقبة؟"

"كلاّ"، وكان هذا صحيحاً. فأنا لم أعرف السبب الحقيقي، بل ما قيل لي كان مجرّد كذب.

أخضعوا جميع المتورّطين في الحادثة إلى مصل الحقيقة، ما عداي. فالشذوذ الوراثي الذي أعاني منه يجعلني واعياً خلال المحاكاة، ويشير أيضاً إلى أنّني قد أقاوم الأمصال، ممّا يجعل شهادتي تحت مصل الحقيقة غير موثوقة. لكن ما دامت روايتي مطابقة لروايات الآخرين، سيفترضون أنّها حقيقية. ولا يعرفون أنّنا قبل بضع ساعات، أخذنا جميعنا لقاحاً ضدّ مصل الحقيقة. فقد قام مُخبر نيتا، الذي يتمتّع بمورّثات نقية، بتزويدها باللقاح منذ بضعة أشهر.

"كيف دفعتك إذاً إلى القيام بذلك؟"

"نحن صديقان. فهي - كانت - واحدة من الأصدقاء القلائل الذين تعرّفت إليهم هنا. طلبت منّي أن أثق بها، وقالت إنّها تفعل ذلك لسبب جيّد، ففعلت".

"وما رأيك بالوضع الآن".

نظرت إليها أخيراً. "لم أندم على شيء في حياتي بهذا القدر".

لانت عينا أنجيلا القاسيتان واليقظتين. ثمّ هزّت رأسها قائلة: "في الواقع، روايتك تتوافق مع ما قاله الآخرون. وبما أنّك جديد هنا، ونظراً لجهلك بالخطّة الأساسيّة، ولقصورك الوراثي، سنكون متساهلين معك. سنحكم عليك بإطلاق سراح مشروط. بناء على ذلك، ستعمل من أجل صالح هذا المجتمع، وتلتزم بحسن السلوك لعام كامل. لن يُسمح لك بدخول أيّ مختبر أو غرفة خاصّة، ولن تغادر هذا المجمّع من دون إذن. ستراجع شهرياً ضابط الإفراج المشروط الذي سيعيَّن لك بعد انتهاء إجراءاتنا. هل فهمت هذه البنود؟"

علقت عبارة "قصورك الوراثي" في ذهني وأنا أهزّ رأسي قائلاً: "أجل".

"إذاً، انتهينا، أنت حرّ بالذهاب". وقفَت، وأبعدت كرسيّها إلى الخلف. وقف الكاتب أيضاً، ووضع شاشته في حقيبته. لمست أنجيلا الطاولة لكي أنظر إليها مجدّداً.

قالت: "لا تقسو على نفسك كثيراً، فما زلت صغيراً في السنّ".

لا أظنّ أنّ صغر سنّي يشكّل عذراً لما فعلته، إلاّ أنّني قبلت ملاطفتها من دون أيّ اعتراض.

سألتها: "هل يمكنني أن أسأل ما الذي سيحلّ بنيتا؟"

ضغطت أنجيلا على شفتيها ثمّ أجابت: "عندما تشفى من إصاباتها الخطيرة، سيتمّ نقلها إلى السجن لتمضي بقيّة حياتها هناك".

"لن يتمّ إعدامها؟"

"كلاّ، فنحن لا نطبّق عقوبة الإعدام على المعطوبين وراثياً". اقتربت أنجيلا من الباب مضيفة: "في النهاية، لا يمكننا أن نتوقّع من ذوي المورّثات المعطوبة السلوك الذي نتوقّعه من ذوي المورّثات النقية".

غادرت الغرفة بابتسامة حزينة، من دون أن تغلق الباب خلفها. فلازمتُ مقعدي لبضع ثوانٍ، أحاول استيعاب كلماتها القارصة. أردت أن أصدّق أنّهم مخطئون حيالي، وأنّني لست محدوداً بمورّثاتي، ولست أكثر تضرّراً من أيّ شخص آخر. لكن كيف يصحّ ذلك وقد ارتكبت أفعالاً أودت بيوريا إلى التهلكة، ولم تعد تريس قادرة على النظر إلى عينيّ بعد أن تسبّبتُ بموت عديد من الناس؟

غطّيت وجهي، وصررت على أسناني، بينما سالت دموعي. أحسست بموجة من اليأس تضربني مثل لكمة قوية. عندما نهضت للذهاب، كانت أكمامي مبلّلة بالدموع، وفكّي يؤلمني.

الفصل الثلاثون

تريس

"ألم تدخلي بعد؟"

وقفت كارا بجانبي، طاوية ذراعيها. نُقل يوريا يوم أمس من غرفته المقفلة إلى غرفة ذات نافذة يمكننا رؤيته من خلالها، لكي لا نزعجهم بطلب رؤيته تكراراً على ما أظنّ. جالست كريستينا بجانب سريره، تمسك بيده الجامدة.

ظننت أنّه انهار مثل دمية من القماش سُحب خيط منها. غير أنّه لم يبد مختلفاً عن يوريا الذي نعرفه، باستثناء بعض الضمادات والخدوش. أحسست أنّه سيستيقظ في أيّ لحظة، ثمّ يبتسم ويسألنا لماذا نحدّق إليه كلّنا.

قلت: "كنت في الداخل في الليلة الماضية. إذ لم يبد لي مناسباً أن نتركه بمفرده".

قالت كارا: "تشير بعض الأدلّة إلى أنّه، اعتماداً على امتداد الضرر الدماغي، يمكنه أن يسمعنا ويشعر بنا. علماً أنّ التشخيص لا ينبئ بالخير، كما قيل لي".

في بعض الأحيان، ما زلت أرغب في لكمها. فأنا لا أحتاج إلى تذكيري أنّ يوريا قد لا يشفى. "نعم".

بعد أن خرجت من غرفة يوريا في الليلة الماضية، تجوّلت في المجمّع من دون أيّ حسّ بالاتّجاه. كان ينبغي أن أفكّر بصديقي الذي يترنّح بين هذا العالم والعالم الآخر، لكنّ ذهني كان مشغولاً بما قلته لتوبياس، وبما شعرت به عندما نظرت إليه، كما لو أنّ شيئاً ما يتحطّم.

لم أخبره أنّ علاقتنا انتهت. أردت ذلك، لكن عندما نظرت إليه، استحال عليّ قول تلك الجملة. أحسست بالدموع تفيض من عينيّ مجدّداً، كما كان يحدث كلّ ساعة تقريباً منذ يوم أمس، فقاومتها وكبتّها.

قالت كارا وهي تلتفت إليّ: "إذاً، أنقذتِ المكتب. يبدو أنّك تتورّطين في كثير من الصراعات. وأفترض أنّنا يجب أن نكون ممتنّين لبقائك ثابتة في الأزمات".

أجبتها: "أنا لم أنقذ المكتب، ولست مهتمّة بإنقاذه. كلّ ما فعلته هو منع بعض الأيادي الخطرة من الوصول إلى سلاح قاتل". سكتُّ للحظة ثمّ أضفت: "هل كنت تجاملينني للتوّ؟"

"أنا قادرة على الاعتراف بنقاط القوّة لدى شخص آخر". ابتسمت متابعة: "بالإضافة إلى ذلك، أظنّ أنّ مشاكلنا حُلّت الآن، على الصعيدين المنطقي والعاطفي". تنحنحَت قليلاً، بينما تساءلتُ ما إذا كانت تعترف أخيراً أنّ لديها أحاسيس تجعلها غير مرتاحة، أو شيء من هذا القبيل.

"يبدو أنّك عرفتِ شيئاً عن المكتب أثار غضبك. أتساءل ما إذا كنتِ تستطيعين إخباري به".

أسندت كريستينا رأسها على طرف فراش يوريا، وتراخى جسدها النحيل جانباً. قلت متعبة: "أتساءل.. قد لا نعرف أبداً".

ظهرت الثنية بين حاجبيّ كارا عندما عبست، لتصبح أكثر شبهاً بويل، بحيث أشحت بنظري عنها. "ربّما يجب أن أقول رجاءً".

تتنهّدتُ مجيبة: "حسناً. هل تذكرين مصل المحاكاة الذي استخدمته جانين؟ في الواقع، لم يكن من صُنعها. تعالي، سأريك. فهذا أسهل".

ربّما كان من السهل إخبارها بما رأيته في غرفة الأرشيف، الواقعة في أعماق مختبرات المكتب. غير أنّ ما أردته في الواقع هو أن أشغل نفسي لكي لا أفكّر لا بيوريا ولا بتوبياس.

قالت كارا في طريقنا: "يبدو أنّنا لن ننتهي أبداً من هذه الخيبات. الجماعات، والفيديو الذي تركته لنا إديث برايور... كلّها أكاذيب كان الهدف منها إجبارنا على التصرّف بطريقة معيّنة".

"أهذا رأيك حقّاً بالجماعات؟ ظننت أنّك أحببت الانتماء إلى المعرفة".

"بالفعل". حكّت مؤخّر عنقها، وخلّفت أظافرها خطوطا حمراء صغيرة على جلدها. "لكنّ المكتب جعلني أشعر بالغباء على قتالي من أجلها أو من أجل أهداف الأوفياء. وأنا لا أحبّ أن أشعر بالغباء".

"إذاً، أنت لا تعتقدين أنّ أهداف الأوفياء كانت تستحقّ النضال".

"وهل تفعلين؟"

أجبتها: "لقد أخرجتنا من المدينة، وأوصلتنا إلى الحقيقة، وكانت أفضل من المجتمع الخالي من الجماعات الذي خطّطت له إيفلين، والذي لا يحصل فيه أحد على فرصة اختيار أيّ شيء".

"أفترض أنّني فخورة بكوني قادرة على رؤية خفايا الأمور، بما في ذلك نظام الجماعات".

"هل تعرفين ما كانت جماعة نكران الذات تقوله عن الفخر؟"

"أفترض أنّها لم تكن تحبّه".

ضحكتُ مجيبة: "بالطبع. كانوا يقولون إنّه يعمي الناس عن رؤية حقيقتهم".

وصلنا إلى باب المختبر، فنقرتُ بضع مرّات لكي يسمعني ماثيو ويسمح لنا بالدخول. بينما كنّا ننتظر، نظرت إليّ كارا بغرابة.

قالت: "تقول كتابات جماعة المعرفة القديمة الشيء نفسه إلى حدّ ما".

لم أعتقد أبداً أنّ المعرفة تنتقد الفخر أو تشغل نفسها حتّى بالأخلاقيات. لكن يبدو أنّني كنت مخطئة. أردت أن أسألها المزيد، لكنّ الباب فُتح، ووقف ماثيو في الردهة يقضم لبّ التفّاحة.

سألته: "هل تسمح لي بالدخول إلى غرفة الأرشيف؟ أريد أن أري كارا شيئاً".

تناول قضمة أخرى من اللبّ، ثمّ هزّ رأسه مجيباً: "بالتأكيد".

تقلّصت ملامحي وأنا أتخيّل طعم بذور التفّاح المرّ، وتبعته.

الفصل الحادي والثلاثون

توبياس

لا يمكنني أن أواجه تحديقات وتساؤلات العنبر. أعرف أنّه لا ينبغي لي العودة إلى مسرح جريمتي، حتّى لو لم تكن من الأماكن المحظورة عليّ، لكنّني أردت أن أرى ماذا يجري في المدينة. أردت أن أتذكّر أنّه يوجد مكان خارج هذا العالم لست مكروهاً فيه.

دخلت غرفة المراقبة، وجلست على أحد المقاعد. كانت كلّ شاشة من الشاشات المثبّتة فوقي تظهر جزءاً مختلفاً من المدينة: مركز عديمي الرحمة، ردهة مقرّ المعرفة، حديقة ميلينيوم، والجناح القائم خارج مبنى هانكوك.

راقبت مطوّلاً الناس وهم يتجوّلون في مقرّ المعرفة، أذرعهم مغطّاة بشارات المنبوذين، أسلحتهم تتدلّى على أردافهم، يتجاذبون أطراف الحديث، أو يناولون بعضهم علب الطعام، وهي عادة قديمة لدى المنبوذين.

فجأة، سمعت أحدهم يقول لزميله في غرفة المراقبة: "ها هو"، فجال نظري على الشاشات لأرى عمّن يتحدّث. أخيراً، رأيته واقفاً أمام مبنى هانكوك: ماركوس، يتحقّق من ساعته، بجانب المدخل.

نهضتُ ونقرت على الشاشة بسبابتي لأشغّل الصوت. للحظة، لم أسمع سوى صوت الهواء ينبعث من مكبّرات الصوت أسفل الشاشة، ومن ثمّ وقع خطوات. اقتربت جوانا ريس من والدي. فمدّ يده لمصافحتها، لكنّها امتنعت عن ذلك، وبقيت يد أبي معلّقة في الهواء، كأنّها طعم لم تبتلعه.

قالت: "أعرف أنّك بقيت في المدينة. إنّهم يبحثون عنك في كلّ مكان".

تجمّع عدد من الأشخاص الموجودين في غرفة المراقبة خلفي للمشاهدة. غير أنّني بالكاد لاحظتهم، إذ كنت أراقب يد أبي وهي تنخفض بقبضة مشدودة.

قال ماركوس: "هل أسأت إليك؟ اتّصلت بك لأنّني ظننت أنّك صديقة".

"ظننت أنّك اتّصلت بي لأنّك تعرف أنّني ما زلت قائدة الأوفياء، وتريد حليفاً". قالت جوانا ذلك وهي تميل رأسها، إلى أن سقطت خصلة شعر فوق عينها المصابة. "واعتماداً على طبيعة هدفك، ما زلتُ كذلك، ماركوس، لكن أظنّ أنّ صداقتنا انتهت".

قطّب ماركوس جبينه. يتمتّع أبي بملامح رجل كان وسيماً في الماضي، لكن مع تقدّمه في السنّ، تجوّف خدّاه، وأصبحت ملامحه قاسية وصارمة. ولم يساعد شعره، بقصّته القصيرة على طراز نكران الذات، على تخفيف هذا الانطباع.

قال ماركوس: "لا أفهم".

"لقد تحدّثت مع بعض أصدقائي في جماعة النزاهة، وأخبروني بما قاله ابنك عندما كان تحت تأثير مصل الحقيقة. هذا يعني أنّ تلك الشائعة القذرة التي أطلقتها جانين ماثيوس عنك أنت وابنك... كانت صحيحة، أليس كذلك؟"

أحسست بحرارة في وجهي، وانكمشتُ على نفسي، بحيث تقوّس كتفاي.

هزّ ماركوس رأسه مجيباً: "كلاّ، توبياس".

رفعت جوانا يدها، وتحدّثت بعينين مغمضتين، كما لو أنّها لا تحتمل النظر إليه. "رجاءً. لقد شاهدت كيف يتصرّف ابنك، وكيف تتصرّف زوجتك. أنا أعرف ما يبدو عليه الناس الملطّخون بالعنف". أبعدت شعرها خلف أذنها مضيفة: "نحن نعرف بعضنا".

بدأ ماركوس يقول: "لا يمكنك التصديق-" ثمّ هزّ رأسه وقال: "أنا انضباطي، أجل، لكنّني أردت فقط الأفضل-"

قالت جوانا: "لا يجب على الزوج أن يؤدّب زوجته، ولا حتّى في جماعة نكران الذات. أمّا بالنسبة إلى ابنك... حسناً، لنقل إنّني أصدّق ذلك منك".

مرّت أصابع جوانا فوق ندبة خدّها، وطغى عليّ إيقاع قلبي. إنّها تعرف. تعرف، ليس لأنّها سمعتني أعترف بذلك في غرفة الاستجواب عند النزاهة، بل لأنّها تعرف. لقد اختبرت ذلك بنفسها، أنا واثق من ذلك. أتساءل من الذي فعل ذلك بها، أمّها؟ أبوها؟ أم شخص آخر؟

لطالما تساءلت ماذا يفعل والدي لو تمّت مواجهته بالحقيقة بشكل مباشر. أظنّ أنّه سيتحوّل من زعيم نكران الذات المنطوي إلى الكابوس الذي أعرفه في المنزل، وأنّه سيكشف وجهه الحقيقي. لو رأيت ردّ فعله هذا، لأحسست بالرضى، لكنّه ظلّ متماسكاً.

اكتفى بالوقوف هناك مربكاً، وتساءلت للحظة ما إذا كان مربكاً حقّاً، وما إذا كان، بقلبه المريض، يصدّق أكاذيبه عن تأديبي. ولّدت تلك الفكرة بداخلي عاصفة من رعد وريح.

قالت جوانا وقد هدأت بعض الشيء: "والآن بعد أن كلّمتك بصراحة، يمكنك أن تخبرني لماذا طلبت منّي المجيء إلى هنا".

انتقل ماركوس إلى موضوع آخر كما لو أنّ حديثه الأوّل لم يكن. رأيت فيه رجلاً يقسّم نفسه إلى أجزاء، ويتنقّل بينها على هواه. كان أحد تلك الأجزاء مخصّصاً لي ولأمّي.

حرّك موظّفو المكتب الكاميرا لتصبح أقرب إليهما، بحيث تحوّل مبنى هانكوك إلى مجرّد خلفيّة سوداء وراء كلّ من ماركوس وجوانا. ركّزت على عارضة منحرفة على الشاشة، لكي لا أضطرّ للنظر إليه.

قال ماركوس: "إيفلين والمنبوذون هم طغاة. والسلام الذي عشناه في ظلّ الجماعات يمكن إعادته، أنا واثق من ذلك، وأريد أن أحاول. أعتقد أنّ هذا ما تريدينه أنت أيضاً".

قالت جوانا: "صحيح. ماذا يجب أن نفعل برأيك في سبيل ذلك؟"

قال ماركوس: "هذا هو الجزء الذي قد لا يروق لك، لكن أتمنّى أن تحاولي الإصغاء إليّ. إيفلين تسيطر على المدينة لأنّها تسيطر على السلاح. لكن إن استطعنا تجريدها منه، ستضعف قوّتها، وسيصبح تحدّيها ممكناً".

هزّت جوانا رأسها موافقة، ومرّرت حذاءها على الرصيف. لم أر سوى الجهة السليمة من وجهها من هذه الزاوية، بشعرها المجعّد، وفمها الممتلئ.

سألت: "ماذا تريدني أن أفعل؟"

دعيني أشاركك في قيادة الأوفياء، فقد كنت زعيم نكران الذات، وعملياً، زعيم هذه المدينة. سيحتشد الناس حولي".

أشارت جوانا: "الناس احتشدوا أساساً، لكن ليس حول شخص واحد، بل حول الرغبة في إعادة نظام الجماعات. من قال إنّني بحاجة إليك؟"

قال ماركوس: "أنا لا أودّ أن أقلّل من أهمّية إنجازاتك، لكنّ الأوفياء ما زالوا ضعفاء جدّاً، لا يتجاوزون كونهم انتفاضة صغيرة. إنّ عدد المنبوذين يفوقنا بكثير، وأنت بحاجة إليّ، تعرفين ذلك".

يتمتّع والدي بقدرة على إقناع الناس من دون سحر، ولطالما أربكتني تلك القدرة. يعطي آراءه كما لو كانت حقائق، وافتقاره الكامل إلى الشكّ يجعلك تصدّقه. تخيفني هذه الصفة الآن لأنّني أعرف ما قاله لي: إنّني محطّم، وبلا قيمة، ولا أساوي شيئاً. كم من هذه الصفات جعلني أصدّق؟

أستطيع أن أرى أنّ جوانا بدأت تصدّقه، وتفكّر بالمجموعة الصغيرة من الناس التي حشدتها خلف قضية الأوفياء. لا بدّ أنّها تفكّر في المجموعة التي أرسلتها إلى خارج السياج، مع كارا، ولم تعد تسمع عنها شيئاً. وتتذكّر كم هي وحيدة، وكم أنّ تاريخه القيادي غنيّ وحافل. أردت أن أصرخ لها عبر الشاشات ألاّ تثق به، وأن أخبرها أنّه لا يريد إعادة نظام الجماعات إلاّ ليستعيد كرسيّ الزعامة مرّة أخرى. لكنّ صوتي لن يصل إليها، ولن أتمكّن من إقناعها حتّى لو كنت واقفاً بجانبها.

قالت جوانا بحذر: "هل تعدني أنّك ستحاول، متى تسنّى لك ذلك، الحدّ من الدمار الذي سنتسبّب به؟"

"بالطبع".

هزّت رأسها مرّة أخرى، لكن بدت هذه المرّة كأنّها تومئ لنفسها.

قالت، كما لو كانت تتحدّث مع الرصيف وليس مع ماركوس: "في بعض الأحيان، نحتاج إلى القتال من أجل السلام. وأعتقد أنّنا في أحد هذه الأوقات. كما أعتقد أنّك ستساعدني على حشد الناس خلف هذه القضية".

إنّها بداية ثورة الأوفياء التي كنت أتوقّعها منذ أن سمعت للمرة الأولى عن تأليف المجموعة. ومع أنّ ذلك بدا لي محتّماً منذ أن رأيت الطريقة التي قرّرت بها إيفلين حكم المدينة، إلاّ أنّني شعرت بالسأم. أنّ الثورات لن تتوقّف لا في المدينة، ولا في المجمّع، ولا في أيّ مكان. لا تفصل بينها سوى أنفاس، نسمّيها بحماقة "السلام".

ابتعدت عن الشاشة، وأنا أنوي مغادرة غرفة المراقبة، وتنشّق بعض الهواء النقيّ إن أمكن.

لكن في طريقي إلى الخارج، لمحت شاشة أخرى تُظهر امرأة سوداء الشعر، تروح وتجيء في أحد مكاتب مقرّ المعرفة. إنّها إيفلين. بالطبع، يتابعون تحرّكاتها على أبرز شاشات غرفة المراقبة، هذا منطقي تماماً.

مرّرت إيفلين يديها في شعرها، ولفّت أصابعها حول خصله الكثيفة. انحنت على الأرض، بينما تناثرت الأوراق حولها. إنّها تبكي، غير أنّني لست واثقاً من السبب، ولم أرَ كتفيها يهتزّان.

سمعتُ طرقة على باب مكتبها، عبر مكبّرات الصوت. فاستقامت واقفة، وسوّت شعرها، ثمّ مسحت وجهها قائلة: "ادخل!"

دخلت تيريز، وبدت شارة المنبوذين منحرفة على ذراعها. "وصلتني للتوّ أخبار من الدوريات. يقولون إنّهم لم يروا أيّ أثر له".

هزّت إيفلين رأسها قائلة: "عظيم. مع أنّني نفيته، بقي داخل المدينة. لا بدّ أنّه يفعل ذلك لمجرّد إغاظتي".

أجابت تيريز وهي تستند إلى أحد المقاعد: "أو أنّه انضمّ إلى الأوفياء، وقاموا بإيوائه". داست بحذائها على إحدى الأوراق الملقاة على الأرض.

"بالطبع". وضعت إيفلين ذراعها على النافذة واستندت إليها، ثمّ راحت تتأمّل المدينة، ومن ورائها المستنقع. "شكراً على تزويدي بالأخبار".

"سنجده. لا يمكنه الابتعاد كثيراً، أقسم أنّنا سنجده".

"أريده أن يرحل وحسب". قالت إيفلين ذلك بصوت مشدود ومنخفض، كما لو كانت طفلة. تساءلت ما إذا كانت ما زالت تخشاه، مثلي أنا، كأنّه كابوس يراودني حتّى خلال النهار. أتساءل كم نحن متشابهان أنا وأمّي في أعماقنا، في المسائل التي تهمّنا.

خرجت تيريز قائلة: "أعرف ذلك".

وقفتُ مطوّلاً أشاهد إيفلين وهي تحدّق من النافذة، وأصابعها تنتفض إلى جانبيها.

أشعر أنّني أصبحت في منتصف الطريق بين أمّي وأبي، عنيفاً، ومتسرّعاً، ويائساً، وخائفاً. أشعر أنّني فقدت السيطرة على ما أصبحت عليه.

الفصل الثاني والثلاثون

تريس

استدعاني ديفيد إلى مكتبه في اليوم التالي، فخشيت أن يتذكّر كيف استخدمته كدرع عندما كنت أغادر مختبر الأسلحة، وكيف وجّهت سلاحاً إلى رأسه وقلت إنّني لا آبه إن عاش أو مات.

استقبلتني زوي في ردهة الفندق، وقادتني عبر الممرّ الرئيس، تلاه ممرّ آخر طويل وضيّق، ذو نوافذ إلى يميني تطلّ على الأسطول الصغير من الطائرات المصطفّة على الإسمنت. داعبت الثلوج الخفيفة الزجاج، مبشّرة بشتاء مبكر، وذابت خلال ثوانٍ.

استرقت نظرة إليها ونحن نمشي، آملة أن أعرف كيف تكون إن لم تعتقد أنّ أحداً يراقبها. غير أنّها بدت كعادتها، مرحة لكنّها عمليّة، كما لو أنّ الاعتداء لم يقع أبداً.

قالت عندما وصلنا إلى آخر الرواق الضيّق: "إنّه يجلس على كرسيّ متحرّك. لكن من الأفضل عدم تضخيم الأمر، فهو لا يحبّ الشفقة".

"أنا لا أشفق عليه". حاولت أن أبعد الغضب عن صوتي لكي لا أثير شكوكها. "فهو ليس أوّل شخص يتعرّض لإطلاق نار".

"أنسى دائماً أنّك عشت أحداثاً عنيفة أكثر منّا بكثير". مرّرت بطاقتها عند الحاجز الأمني التالي. حدّقت من خلال الزجاج إلى الحرّاس الواقفين من الجانب الآخر، فوجدتهم متأهّبين، أسلحتهم على أكتافهم، ينظرون إلى الأمام. أظنّ أنّهم يقفون هكذا طوال النهار.

أحسست بالثقل والألم، كما لو أنّ عضلاتي تمرّر لي ألماً نفسياً أعمق. ما زال يوريا في غيبوبة، وما زلت عاجزة عن النظر إلى توبياس كلّما رأيته في العنبر، أو الكافتيريا، أو في الممرّ من دون أن أتذكّر الجدار الذي انفجر

بجانب رأس يوريا. لا أدري ما إذا كانت الأمور ستتحسّن، وما إذا كانت هذه الجراح ستندمل يوماً.

تجاوزنا الحرّاس، وأصبحت الأرضيات خشبية تحت أقدامنا. عُلّقت على الجدران لوحات صغيرة ذات إطارات مذهّبة، ووُضعت أمام مكتب ديفيد طاولة صغيرة عليها باقة من الأزهار. كانت لمسات بسيطة، لكنّها ولّدت لديّ إحساساً أنّ ملابسي ملطّخة بالأوساخ.

قرعت زوي الباب، فتناهى صوت من الداخل: "ادخل!"

فتحت لي الباب، لكنّها لم تتبعني إلى الداخل. كان مكتب ديفيد فسيحاً ودافئاً. اصطفّت الكتب على جدرانه الخالية من النوافذ. إلى اليسار، كان ثمّة مكتب عُلّقت فوقه شاشات زجاجية، بينما احتلّ الجانب الأيمن مختبر صغير مع أثاث خشبي وليس معدنياً.

جلس ديفيد على كرسي متحرّك، وغُطّيت ساقاه بمادّة صلبة، لتثبيت العظام حتّى تُشفى، على ما أظنّ. بدا شاحباً ومتعباً، لكنّه بصحة جيّدة. ومع أنّني أعرف أنّ له يداً في هجوم المحاكاة، وكلّ تلك الوفيات، إلاّ أنّني وجدت صعوبة في نسب تلك الأعمال إلى الرجل الذي أراه أمامي. أتساءل ما إذا كان هذا هو حال جميع الأشرار، بحيث يبدون للآخرين مثل الناس الصالحين، يتحدّثون مثلهم، ويبدون محبّبين مثلهم.

"تريس". دفع نفسه نحوي، وأمسك يدي بين يديه. تركته يشدّ عليها، مع أنّ بشرته كانت جافّة، ومع أنّني أحسست بالنفور منه.

قال: "أنت شُجاعة جدّاً". ثمّ ترك يدي مضيفاً: "كيف حال إصاباتك؟"

هززت كتفيّ مجيبة: "عرفت أسوأ منها. ماذا عنك؟"

"سأستغرق بعض الوقت قبل أن أمشي مجدّداً، لكنّهم واثقون أنّني سأفعل. يقوم بعض الأشخاص لدينا بتطوير أقواس للساق على أيّ حال، لذلك يمكنهم إجراء أوّل تجربة عليّ، إن اضطرّ الأمر". تغضّنت زوايا عينيه. "هل يمكنك أن تدفعيني خلف المكتب مجدّداً؟ ما زلت أواجه صعوبة في قيادة هذا الكرسي".

نفّذت طلبه، فوجّهت ساقيه المتصلّبتين تحت الطاولة، وتبعهما بقيّة جسده. عندما تأكّدت أنّه في وضعية سليمة، جلست على الكرسي المقابل، وحاولت الابتسام. لكي أجد طريقة للانتقام لوالديّ، عليّ أن أحافظ على ثقته وولعه بي. ولن أتوصّل إلى ذلك بالعبوس.

قال: "لقد طلبت منك المجيء إلى هنا في الغالب لكي أشكرك. فأنا لا أعتقد أنّ كثيراً من الشباب سيهبّون لنجدتي عوضاً عن الفرار بحياتهم، أو سيتمكّنون من إنقاذ هذا المجمّع مثلما فعلتِ".

فكّرت بتوجيه مسدّس إلى رأسه وتهديده، فازدرت ريقي.

قال: "لقد كنتِ أنت ورفاقك في حالة مؤسفة عند وصولكم. نحن لسنا متأكّدين تماماً ممّا سنفعله بكم، بصراحة، وأنا واثق أنّكم لا تعرفون ماذا ستفعلون بأنفسكم. غير أنّني فكّرت بشيء أودّ منك فعله. أنا القائد الرسمي لهذا المجمّع، لكن بغضّ النظر عن ذلك، لدينا نظام حكم شبيه بنظام جماعة نكران الذات، لذلك أنا آخذ بنصيحة مجموعة صغيرة من المستشارين. وأودّ منك أن تبدأي بالتدرّب على هذا المنصب".

اشتدّت قبضتي حول ذراع الكرسي.

قال: "كما ترين، علينا إجراء بعض التغييرات هنا بعد تعرّضنا لهذا الهجوم. وسيكون علينا اتّخاذ موقف أقوى من أجل قضيتنا، وأعتقد أنّك تعرفين كيفيّة القيام بذلك".

لم أستطع مجادلته في ذلك.

"ماذا..." تنحنحت قبل أن أتابع: "ماذا سيترتّب على هذا التدريب؟"

"حضور اجتماعاتنا، وتعلّم كيفيّة الدخول والخروج من المجمّع، كيف نعمل، من أعلى الهرم إلى أسفله، تاريخنا، قيمنا، وما إلى ذلك. لا يمكنني أن أسمح لك بالانضمام إلى المجلس رسمياً وأنت بهذه السنّ، كما أنّه ثمّة طريق عليك اتباعه - مساعدة أحد الأعضاء الحاليين للمجلس - لكنّني أدعوك إلى السير في هذه الطريق، إن رغبت في ذلك".

طرح عليّ السؤال بعينيه، وليس بصوته.

المستشارون هم على الأرجح الأشخاص أنفسهم الذين أعطوا الإذن لشنّ هجوم المحاكاة، وضمنوا انتقاله إلى جانين في الوقت المناسب. ويريد منّي أن أجلس بينهم، وأتعلّم أن أكون واحدة منهم. مع أنّني أحسست بالمرارة في فمي، إلاّ أنّني لم أجد صعوبة في الإجابة.

قلت مبتسمة: "بالطبع، يشرّفني ذلك".

إن أتاح لك شخص ما فرصة الاقتراب من عدوّك، عليك اقتناصها دائماً. أعرف ذلك من دون أن أتعلّمه من أحد.

لا شكّ أنّه صدّق ابتسامتي، لأنّه بادلني الابتسام.

"عرفت أنّك ستوافقين. هذا أمر أردت من أمّك أن تفعله معي، قبل أن تتطوّع لدخول المدينة. لكنّني أعتقد أنّها وقعت في حبّ ذلك المكان من بعيد، ولم تستطع مقاومته".

"وقعت في حبّ... المدينة؟ كم تختلف الأذواق".

كانت مزحة، لكنّها لم تبلغ قلبي. مع ذلك، ضحك ديفيد، فعرفت أنّني أصبت في الإجابة.

"هل كنت... مقرّباً من والدتي عندما كانت هنا؟ قرأت مذكّراتها، لكنّها لا تكثر من الكلام".

"هذا صحيح، فهي ليست من هذا النوع. لطالما كانت ناتالي صريحة جدّاً. أجل، كنّا أنا وأمّك مقرّبَين جدّاً". لان صوته وهو يتحدّث عنها، ولم يعد القائد الصارم لهذا المجمّع، بل رجلاً عجوزاً يتذكّر ماضيه الجميل.

حدث هذا الماضي قبل أن يتسبّب هو بمقتلها.

"كان تاريخنا متشابهاً. فأنا أيضاً أُخرجت من عالم فاسد في طفولتي، إذ كان والداي شخصين منحرفَين تمّ زجّهما في السجن عندما كنت صغيراً. لكن عوضاً عن الخضوع لنظام التبنّي المثقل بالأيتام، هربنا أنا وإخوتي إلى الضواحي، وهو المكان نفسه الذي لجأت إليه أمّك بعد سنوات، لكنّني الوحيد الذي خرجت منه حياً".

لا أعرف ماذا أقول عن ذلك، ولا أدري ماذا أفعل حيال التعاطف المتنامي في داخلي تجاه رجل أعرف أنّه ارتكب أموراً رهيبة. اكتفيت بالتحديق إلى يديّ، وتخيّلت أنّ أحشائي معدن سائل يتصلّب في الهواء، ويتّخذ شكلاً لن يتغيّر مرّة أخرى.

"عليك الذهاب إلى هناك برفقة دورياتنا غداً، لتري الضواحي بنفسك. فهذا أمر مهمّ بالنسبة إلى عضو مستقبلي في المجلس".

قلت: "أودّ ذلك كثيراً".

"ممتاز. حسناً، أكره أن أنهي هذا اللقاء، لكن لديّ كثير من العمل المتأخّر. سأطلب من أحدهم إبلاغك بموعد الدوريات، أمّا اجتماعنا الأوّل للمجلس فسيكون يوم الجمعة عند العاشرة صباحاً. سأراك قريباً إذاً".

أحسست بتوتّر شديد، فأنا لم أطرح عليه الأسئلة التي كانت تدور في ذهني. لا أظنّ في الواقع أنّ الفرصة سنحت لذلك. وقد فات الأوان على أيّ حال. نهضت وذهبت نحو الباب، لكنّه تحدّث مجدّداً.

"تريس، أظنّ أنّني يجب أن أكون صريحاً معك، إن أردنا أن نثق ببعضنا البعض".

للمرّة الأولى منذ أن قابلت ديفيد، يبدو لي خائفاً تقريباً. فقد كانت عيناه تحملقان بي مثل طفل صغير. لكن سرعان ما اختفى هذا التعبير.

قال: "ربّما كنتُ تحت تأثير مزيج من الأمصال في ذلك اليوم، لكنّني أعرف ما قلتِه لهم لمنعهم من إطلاق النار علينا. قلتِ إنّك على استعداد لقتلي لحماية ما يوجد في مختبر الأسلحة".

ضاق حلقي بحيث عجزت عن التنفّس.

"لا تخافي، فهذا أحد الأسباب التي دفعتني لعرض هذه الفرصة عليك".

"لماذا؟"

"لأنّك أثبتِّ أنّك تملكين الصفة الأهمّ التي أحتاجها لدى مستشاريّ، وهي القدرة على تقديم تضحيات من أجل صالح أعظم. فإن كنّا نريد أن نخسر هذه المعركة ضدّ العطب الوراثي، وأن ننقذ التجارب من التعرّض للتوقّف، سنحتاج إلى تقديم تضحيات. أنت تفهمين، أليس كذلك؟"

أحسست بثورة من الغضب العارم، لكنّني أجبرت نفسي على هزّ رأسي موافقة على ما يقول. كانت نيتا قد أخبرتنا أنّ التجارب معرّضة لخطر الإغلاق، لذلك لم يدهشني سماع كلامه. لكنّ رغبة ديفيد اليائسة في إنقاذ العمل الذي أفنى فيه حياته لا تبرّر قتل جماعة، جماعتي.

وقفت للحظة ويدي على قبضة الباب، محاولة أن أتماسك، ثمّ قرّرت المجازفة.

"ماذا كان سيحدث لو أنّهم سبّبوا انفجاراً آخر لدخول المختبر؟ فقد قالت نيتا إنّه سيؤدّي إلى تفعيل تدبير أمني احتياطي، لكنّه بدا لي الحلّ الأبسط لمشكلتهم".

أجاب ديفيد: "كان سيؤدّي إلى إطلاق مصل في الهواء... مصل لا يمكن للأقنعة أن تحول دونه، لأنّ امتصاصه يتمّ عبر الجلد. حتّى الأنقياء وراثياً لا يستطيعون مقاومته. لا أدري كيف عرفت نيتا بأمره، لأنّه ليس من المعلومات المتداولة، لكن أظنّ أنّنا سنعرف في وقت ما".

"وماذا يفعل هذا المصل؟"

تحوّلت ابتسامته إلى تكشيرة. "لنقل إنّه سيّئ بما فيه الكفاية بحيث تفضّل نيتا تمضية بقيّة حياتها في السجن على التقاطه".

كان على حقّ. ليس مضطرّاً لقول المزيد.

الفصل الثالث والثلاثين

توبياس

قال بيتر وأنا أدخل إلى العنبر: "انظروا من أتى، الخائن".

انتشرت الخرائط على سريره والسرير المجاور. كانت بيضاء، وزرقاء فاتحة، وخضراء داكنة، جذبتني إليها بقوّة مغناطسية غريبة. كان بيتر قد رسم على كلّ منها دائرة متعرّجة حول مدينتنا، شيكاغو. إنّه يرسم الحدود التي كان يعيش فيها.

راقبت تلك الدائرة وهي تتقلّص على كلّ خارطة، إلى أن أصبحت مجرّد نقطة حمراء، مثل قطرة من الدم.

فجأة تراجعتُ، وقد شعرت بالخوف من معنى كوني صغيراً إلى هذا الحدّ.

"إن كنتَ تظنّ أنّك تتمتّع بأخلاقيات عالية، فأنت مخطئ. لمَ كلّ هذه الخرائط؟"

أجاب: "أجد صعوبة في استيعاب حجم العالم. وقد قام بعض العاملين في المكتب بمساعدتي على تعلّم المزيد عن ذلك. الكواكب، والأجرام، والمسطّحات المائية، وما إلى ذلك".

قال ذلك بنبرة عرضية، لكنّني أعرف من خربشاته المحمومة على الخرائط أنّ اهتمامه بالمسألة ليس عارضاً، بل هوسياً. فقد كنت مهووساً بمخاوفي ذات مرّة، بالطريقة نفسها، أحاول استيعابها دائماً، مراراً وتكراراً.

سألته: "وهل يساعدك ذلك؟" أدركت أنّه لم يسبق لي أن تحدّثت مع بيتر من دون صراخ. صحيح أنّه كان يستحقّ ذلك، لكنّني لا أعرف شيئاً عنه. فأنا بالكاد أذكر شهرته التي كانت مدوّنة في جدول المبتدئين. هايس، بيتر هايس.

"نوعاً ما". تناول إحدى الخرائط الأكبر حجماً، التي تُظهر الكرة الأرضية بأكملها، مسطّحة مثل عجينة. حدّقت إليها مطوّلاً لاستيعاب الأشكال المرسومة عليها، المساحات المائية الزرقاء وأجزاء اليابسة الملوّنة. كان على إحدى تلك الأجزاء نقطة حمراء، أشار إليها قائلاً: "تغطّي تلك النقطة كافة الأماكن التي سبق أن رأيناها. يمكنك أن تقصّ ذلك الجزء من اليابسة وتلقي به في المحيط من دون أن يلاحظ أحد".

أحسست بهذا الخوف مجدّداً، الخوف من حجمي. "صحيح، وماذا إذاً؟"

"ماذا إذاً؟ كلّ ما شغل فكري يوماً، وكلّ ما قلتُه أو فعلته لا أهمّية له". هزّ رأسه مضيفاً: "على الإطلاق".

"بالطبع يهمّ. فكلّ تلك الأرض مليئة بالناس، وكلّ واحد منهم يختلف عن الآخر، وما يفعلونه لبعضهم البعض مهمّ".

هزّ رأسه مجدّداً، وتساءلت فجأة ما إذا كان يواسي نفسه بهذه الطريقة، عبر إقناع نفسه أنّ الأمور السيّئة التي ارتكبها لا أهمّية لها. هذا يعني أنّ هذا الكوكب العملاق الذي يخيفني هو جنّة بالنسبة إليه، مكان هائل يمكنه الاختفاء فيه، من دون أن يعرفه أحد، ومن دون أن يتحمّل وزر أفعاله.

انحنى لربط حذائه، وهو يسألني: "إذاً، هل نبذتك مجموعة أنصارك الصغيرة؟"

أجبت آلياً: "كلاّ". ثمّ أضفت: "ربّما، لكنّهم ليسوا أنصاري".

"آه حقّاً؟ كأنّهم أتباع فور".

ضحكت قائلاً: "هل تشعر بالغيرة؟ هل تتمنّى لو كان لديك أتباع من المرضى النفسيين؟"

ارتفع أحد حاجبيه. "لو كنت مريضاً نفسياً، لقتلتك وأنت نائم".

"وأضفتَ عينَيّ إلى مجموعتك الخاصّة من العيون، من دون شكّ".

ضحك بيتر هو الآخر، وأدركت أنّني أتبادل المزاح والحديث مع المبتدئ الذي طعن إدوارد في عينه وحاول قتل حبيبتي، هذا إن كانت لا تزال كذلك. إلاّ أنّه أيضاً الشجاع الذي ساعدنا على إنهاء محاكاة الهجوم، وأنقذ تريس من موت محتّم. لا أدري أيّ من أفعاله تزن أكثر في عقلي. ربّما يجدر بي أن أنساها كلّها، وأسمح له أن يبدأ من جديد.

قال بيتر: "ربّما يجدر بك الانضمام إلى مجموعتي الصغيرة من الأشخاص المكروهين، التي لا تضمّ حاليّاً سواي أنا وكاليب. لكن نظراً إلى سهولة إثارة غضب تلك الفتاة، أظنّ أنّ أعدادنا ستتنامى".

تصلّبت مجيباً: "أنت على حقّ، من السهل إثارة غضبها. ما عليك سوى أن تحاول تعريضها للقتل".

تقلّصت معدتي. كدت أن أعرّضها للقتل أنا نفسي. فلو كانت تقف على مسافة أقرب من الانفجار، لكانت الآن مثل يوريا، موصولة إلى الأنابيب في المستشفى، وعقلها ساكن.

لا عجب أن تحتار ممّا إذا كانت ترغب في البقاء معي أم لا.

تبدّد السلام الذي خيّم علينا للحظة، ولم أعد قادراً على نسيان ما فعله بيتر، لأنّه لم يتغيّر. ما زال الشخص نفسه المستعدّ للقتل، والتشويه، والتدمير ليكون على رأس لائحة المبتدئين. ولا يمكنني أن أنسى ما فعله أيضاً. نهضت واقفاً.

اتّكأ بيتر إلى الجدار، وشبك أصابعه فوق بطنه. "ما أعنيه هو أنّها إن قرّرت اعتبار شخص ما عديم القيمة، يحذو الجميع حذوها. وهذه

موهبة غريبة بالنسبة إلى فتاة كانت مجرّد متزمّتة مملّة، أليس كذلك؟ كما أنّه نفوذ كبير بالنسبة إلى شخص واحد، ما رأيك؟"

"موهبتها لا تتمثّل في السيطرة على آراء الآخرين، بل في كونها عادة محقّة برأيها في الناس".

أغمض عينيه قائلاً: "كما تشاء، فور".

أحسست أنّ أطرافي مشدودة من شدة التوتّر، فتركت العنبر والخرائط بدوائرها الحمراء، مع أنّني لا أدري إلى أين أذهب. بالنسبة إليّ، لطالما بدت تريس جذّابة على نحو لا أستطيع وصفه، ولا تدركه هي. لم أخشاها أو أكرهها أبداً بسبب ذلك، مثلما يفعل بيتر، لكنّني كنت دائماً في مركز قوّة أنا نفسي، بحيث لم تشكّل تهديداً بالنسبة إليّ. والآن وقد فقدت ذلك المنصب، أشعر بالغيظ يتملّكني، بقوّة وثقة مثل يد تمسك بذراعي.

وجدت نفسي مجدّداً في حديقة الدهليز، وهذه المرّة توهّج الضوء خلف النوافذ. بدت الأزهار جميلة وبرّية في ضوء النهار، مثل مخلوقات متوحّشة معلّقة في الزمن، بلا حراك.

أتت كارا مهرولة، وقد تطاير شعرها فوق جبينها. "ها أنت ذا. من السهل إضاعة الناس في هذا المكان".

"ما الأمر؟"

"هل أنت بخير، فور؟"

عضضت على شفتي بقوّة. "أنا بخير، ما الأمر؟"

"سنعقد اجتماعاً، ووجودك ضروري".

"ومن نحن بالضبط؟"

أجابت: "المعطوبون وراثياً والمتعاطفون معهم الذين لا يريدون أن يسمحوا للمكتب بالنجاة ببعض أفعاله". ثمّ أمالت رأسها جانباً مضيفة: "لكنّ خططهم أفضل من خطط الأشخاص الذين تورّطتَ معهم مؤخّراً".

أتساءل من أخبرها. "أنت تعرفين بأمر هجوم المحاكاة؟"

أجابت كارا: "لا بل أكثر من ذلك، تعرّفتُ على مصل المحاكاة تحت المجهر عندما أرتني إيّاه تريس. أجل، أنا أعرف".

هززت رأسي مجيباً: "في الواقع، أنا لن أتورّط في هذا الموضوع مجدّداً".

"لا تكن غبياً. الحقيقة التي سمعتَها لا تزال حقيقة. هؤلاء الناس مسؤولون عن مقتل معظم أبناء نكران الذات، وعن الاستعباد الذهني للشجعان، ودمار حياتنا، ولا بدّ من إيقافهم".

لست واثقاً أنّني أرغب في التواجد في غرفة واحدة مع تريس، وأنا أعرف أنّنا على وشك أن نقطع علاقتنا، كمن يقف على حافة الهاوية. فمن الأسهل التظاهر بعدم حدوث ذلك عندما أكون بعيداً عنها. لكنّ كارا صاغت المسألة على نحو لا يمكن عدم موافتها عليه: أجل لا بدّ من إيقافهم.

أمسكَت بيدي، وقادتني عبر ردهة الفندق. أعرف أنّها محقّة، لكنّني لست واثقاً ولا مرتاحاً حيال المشاركة في محاولة مقاومة أخرى. مع ذلك، أنا ذاهب إليها، وجزء منّي متلهّف على فرصة للحركة مجدّداً، عوضاً عن الوقوف جامداً أمام كاميرات المدينة، كما كنت أفعل.

عندما تأكّدت أنّني أتبعها، تركَت يدي وسوّت شعرها المشعّث خلف أذنيها.

قلت: "ما زال من الغريب رؤيتك في غير اللون الأزرق".

"أظنّ أنّ الوقت قد حان للمضيّ قدماً. وحتّى لو كنت أستطيع العودة، فلن أفعل الآن".

"ألا تفتقدين للجماعات؟"

أجابت وهي تنظر إليّ: "بلى، في الواقع". مرّ وقت طويل على وفاة ويل ولم أعد أراه عندما أنظر إليها، بل أرى كارا وحسب. عرفتها أكثر بكثير ممّا عرفته. وهي تمتاز بشيء من لطفه وسهولة معشره، بحيث أشعر أنّني أستطيع أن أمزح معها من دون أن أسبّب لها الاستياء. "لقد ترعرعتُ ونموت في جماعة المعرفة. وكنت محاطة بكثير من الأشخاص الذين كرّسوا أنفسهم للاكتشاف والتجديد. لكن الآن وقد عرفت ما هو حجم العالم الحقيقي... أفترض أنّني أصبحت كبيرة على جماعتي بنتيجة ذلك". عبست مضيفة: "أنا آسفة، هذا غرور بالنفس، أليس كذلك؟"

"ومن يأبه؟"

"بعض الناس يفعلون، ويسعدني أنّك لست واحداً منهم".

لاحظت رغماً عنّي أنّ بعض الناس الذين مررنا بهم في طريقنا إلى الاجتماع نظروا إليّ بخبث، أو نأوا بأنفسهم عنّي. سبق أن كرهَني الناس وتجنّبوني من قبل، بصفتي ابن إيفلين جونسون، حاكمة المنبوذين المستبدّة، لكنّ هذا الأمر يزعجني أكثر هذه المرّة. فأنا أعرف الآن أنّني ارتكبت عملاً يستحقّ هذا الحقد، لقد خنتهم جميعاً.

قالت كارا: "لا تعرهم أيّ اهتمام، فهم لا يعرفون ما معنى أن اتّخاذ قرار صعب".

"أنا واثق أنّك ما كنت لتفعلي ذلك".

"فقط لأنّني تعلّمت أن أكون حذرة إن كنت أجهل كافّة المعلومات، في حين أنّك تعلّمت أنّ المجازفة قد تؤتي ثمارها". ثمّ نظرت إليّ شزراً مضيفة: "أو في هذه الحالة، لا تؤتي أيّ ثمار على الإطلاق".

توقّفت أمام باب المختبر الذي يستخدمه ماثيو ورئيسه، وقرعَت الباب. فتح ماثيو، وأخذ قضمة من تفّاحة يحملها. دخانا خلفه إلى الغرفة التي اكتشفت فيها أنّني لست جامحاً.

كانت تريس هناك، واقفة بجانب كريستينا، التي نظرت إليّ كما لو كنت شيئاً متعفّناً يجب إلقاؤه في القمامة. وفي الزاوية عند الباب، وقف كاليب، وكان وجهه مكسوّاً بالكدمات. كنت على وشك أن أسأل ما الذي حلّ به عندما لاحظت أنّ عقد أصابع تريس محمرّة هي أيضاً، وتتجنّب عمداً النظر إليه.

وإليّ.

قال ماثيو: "أعتقد أنّ الجميع هنا. حسناً... إذاً... تريس، أنا متشوّق لسماعك".

أجابت مبتسمة: "هذا واضح". فأحسست بالغيرة تجتاحني.

تنحنحت قائلة: "إذاً، نحن نعرف أنّ هؤلاء الأشخاص مسؤولون عن الهجوم على نكران الذات، وأنّنا لا نستطيع الوثوق بهم لحماية مدينتنا بعد اليوم. نعرف أنّنا نريد أن نفعل شيئاً حيال ذلك، وأنّ المحاولة السابقة لفعل شيء كانت..." تحوّلت نظراتها إليّ، وشعرت أنّني أصبحت أصغر حجماً. "غير حكيمة. يمكننا القيام بما هو أفضل".

سألتها كارا: "ماذا تقترحين؟"

"كلّ ما أعرفه حالياً هو أنّني أريد أن أكشفهم على حقيقتهم. فالمجمّع لا يعرف بأكمله ماذا فعل قادتهم، وأظنّ أنّه علينا أن نريهم.

ربّما يعمدون عندئذٍ إلى انتخاب قادة جدد، لن يعاملوا الناس داخل التجارب على أنّهم أشياء قابلة للاستهلاك. فكّرت أنّ إصابة واسعة النطاق بمصل الحقيقة قد-"

تذكّرت وزن مصل الحقيقة وهو يملأ كلّ فراغاتي، ورئتيّ، وبطني، ووجهي. تذكّرت كم بدا لي مستحيلاً أن تتمكّن تريس من حمل ذلك الوزن لكي تكذب.

قلت: "لن ينجح. فهم أنقياء، أتذكرين؟ باستطاعة الأنقياء مقاومة مصل الحقيقة".

قال ماثيو: "هذا ليس صحيحاً بالضرورة. فنحن لا نصادف كثيراً من الجامحين الذين قاوموا مصل الحقيقة، باستثناء تريس، في الماضي القريب. فالقدرة على مقاومة المصل تتفاوت بين شخص وآخر - خذ مثالاً على ذلك أنت نفسك، توبياس". هزّ ماثيو كتفيه متابعاً: "مع ذلك، لهذا السبب دعوتك أنت، كاليب. فقد عملتَ على الأمصال من قبل، وتعرفها بقدر ما أعرفها أنا ربّما. ماذا لو تمكّنّا من تطوير مصل حقيقة تصعب مقاومته أكثر؟"

قال كاليب: "لا أريد أن أخوض في عمل كهذا مجدّداً".

قالت تريس: "آه، اخرس-"

قاطعها ماثيو قائلاً: "أرجوك، كاليب".

تبادلت كريستينا وتريس نظرة. كانت البشرة التي تغطّي وجهه وعقد أصابعها باللون نفسه، الذي يتراوح بين الأرجواني، والأزرق، والأخضر، كأنّه رُسم بالحبر. هذا ما يحدث عندما يتصادم الأخوة، فهم يؤذون بعضهم بالقدر نفسه. تراجع كاليب إلى الخلف، ولامس رأسه الخزائن المعدنية.

قال: "حسناً، شرط أن تعدينني بعدم استخدام هذا الأمر ضدّي، بياتريس".

سألَته: "ولماذا أفعل؟"

قالت كارا وهي ترفع يدها: "أنا أستطيع المساعدة، فقد عملت على الأمصال أيضاً، بصفتي من أعضاء المعرفة".

قال ماثيو وهو يصفق بيديه: "عظيم، في هذه الأثناء، ستؤدّي تريس دور الجاسوسة".

قالت كريستينا: "وماذا عنّي؟"

قالت تريس: "كنت آمل أن تتمكّني أنت وتوبياس من الاتّفاق مع ريجي. فديفيد لم يخبرني ما هي التدابير الاحتياطية في مختبر الأسلحة، ولا يمكن أن تكون نيتا هي الوحيدة التي تعرف بأمرها".

سألتها كريستينا: "تريدنني أن أتّفق مع الشابّ الذي زرع المتفجّرات التي سبّبت الغيبوبة ليوريا؟"

"لستِ مضطرّة أن تصبحي صديقته، لكن يمكنك التحدّث معه عمّا يعرفه. وباستطاعة توبياس أن يساعدك".

"أنا لا أحتاج إلى فور، يمكنني القيام بذلك بنفسي".

تحرّكت على طاولة الفحص، وتمزّقت الأوراق تحتها، بينما ألقت عليّ نظرة حادّة أخرى. أعرف أنّها ترى وجه يوريا الشاحب عندما تنظر إليّ. أحسست كأنّ شيئاً ما علق في حلقي.

"أنت تحتاجين إليّ في الواقع، لأنّه يثق بي أساساً. كما أنّ هؤلاء الناس متكتّمون جدّاً، ما يعني أنّ الأمر يحتاج إلى سرعة البديهة".

قالت كريستينا: "يمكنني أن أكون سريعة البديهة".

"كلاّ، لا يمكنك ذلك".

قالت تريس مبتسمة: "لديه وجهة نظر..."
لكمتها كريستينا على ذراعها، فلكمَت تريس ظهرها.
قال ماثيو: "اتّفقنا إذاً. أظنّ أنّه علينا الاجتماع مجدّداً بعد مشاركة تريس في اجتماع المجلس، وذلك يوم الجمعة. تعالوا إلى هنا عند الساعة الخامسة".
اقترب من كارا وكاليب وقال شيئاً عن المركّبات الكيميائية لم أفهمه تماماً. خرجت كريستينا واصطدمت بكتفي وهي تغادر. أمّا تريس، فنظرت إليّ.
قلت لها: "علينا أن نتحدّث".
"حسناً". فتبعتها إلى الممرّ.
وقفنا بجانب الباب إلى أن رحل الجميع. كان كتفاها محدّبين، كأنّها تحاول أن تجعل نفسها أصغر حجماً ممّا هي عليه أساساً، والاختفاء. كما أنّنا وقفنا على مسافة بعيدة من بعضنا، بحيث فصل بيننا عرض الرواق بكامله. حاولت أن أتذكّر آخر مرّة عانقتها فيها، إلاّ أنّني لم أستطع.
أخيراً أصبحنا وحدنا، وخيّم السكون على الرواق. بدأت أشعر بخدر ووخز في يديّ، كما يحدث عادة عندما تنتابني نوبة ذعر.
سألتها: "هل تعتقدين أنّك ستسامحينني يوماً؟"
هزّت رأسها نافية، لكنّها قالت: "لا أعرف. أظنّ أنّني أحتاج إلى التفكير في الأمر".
"أنت تعرفين... تعرفين أنّني لم أقصد أبداً إيذاء يوريا، أليس كذلك؟"
نظرتُ إلى القطب على جبينها وأضفت: "أو إيذاءك. لم أقصد أبداً إيذاءك أنت أيضاً".

كانت تطرق بقدمها على الأرض، وجسدها يتحرّك مع تلك الحركة. هزّت رأسها مجيبة: "أعرف".

"كان عليّ فعل شيء، كان عليّ ذلك".

"لقد تأذّى عدد كبير من الناس، وكلّ ذلك لأنّك لم تصغِ إليّ، لأنّك - وهذا أسوأ ما في الأمر، توبياس - لأنّك ظننت أنّني تافهة وغيورة. مجرّد فتاة سخيفة في سنّ السادسة عشرة، أليس كذلك؟" وهزّت رأسها باستياء.

قلت بجدّية: "لم أفكّر أبداً أنّك سخيفة أو تافهة. اعتقدت أنّ حكمك لم يكن موضوعياً، صحيح، لكن هذا كلّ شيء".

"هذا كافٍ". مرّرت أصابعها في شعرها وأحاطته بها. "هذا ما يحدث دائماً، أليس كذلك؟ لا تحترمني بقدر ما تقول إنّك تفعل. وعندما يصبح الأمر جدّياً، أكتشف أنّك ما زلت تظنّ أنّني عاجزة عن التفكير بعقلانية".

قلت بحرارة: "هذا غير صحيح! أنا أحترمك أكثر من أيّ شخص آخر. لكنّني في هذه اللحظة أتساءل ما الذي يزعجك أكثر، كوني اتّخذت قراراً سخيفاً أم عدم انصياعي لقرارك أنت".

"ماذا تعني؟"

"أعني ربّما قلتِ إنّك تريديننا أن نكون صريحَين مع بعضنا البعض، لكن أظنّ أنّ ما أردته حقّاً هو أن أوافقك دائماً".

"لا أصدّق أنّك تقول ذلك! لقد كنتَ مخطئاً-"

"صحيح، لقد أخطأت!" كنت أصيح الآن، ولا أعرف من أين أتى هذا الغضب، لكنّني أحسست به وهو يعصف بداخلي، وكان عنيفاً ومؤذياً، والأقوى منذ أيّام. "لقد أخطأت، ارتكبت خطأً فادحاً! وأوشكت على التسبّب بموت شقيق أعزّ أصدقائي! لكنّك تتصرّفين كأنّك أمّي،

وتعاقبينني لأنّني لم أنفّذ ما قيل لي. لكنّك لستِ أمّي، تريس، ولا يمكنك أن تملي عليّ أفعالي وخياراتي-!"

قالت بصوت خافت: "كفّ عن الصراخ في وجهي"، ونظرت إليّ أخيراً. كنت أرى كثيراً من الأشياء في عينيها، الحبّ والشوق والفضول، لكن كلّ ما أراه في هذه اللحظة هو الغضب. "توقّف حالاً".

صوتها المنخفض أطفأ غضبي، فاسترخيت واتّكأت إلى الجدار خلفي، ثمّ دسست يديّ في جيبيّ. لم أقصد الصراخ في وجهها ولم أشأ أن أغضب بهذا الشكل.

حدّقت إليها مصدوماً عندما سالت الدموع على خدّيها. لم أرها تبكي منذ وقت طويل. راحت تشهق محاولة أن تبدو طبيعية، لكنّها لم تكن كذلك.

قالت بصوت خنقته العبرات: "أنا أحتاج إلى بعض الوقت، مفهوم؟"

"حسناً".

مسحت خدّيها بكفّيها، وابتعدَت. راقبت رأسها الأشقر إلى أن اختفت عند المنعطف، وأحسست أنّني عارٍ، مجرّد من أيّ شيء يقيني من الألم. وأكثر ما آلمني كان غيابها.

الفصل الرابع والثلاثين

تريس

قال عمّار وأنا أقترب من المجموعة: "ها هي. تعالي، سأعطيك سترتك، تريس".

"سترتي؟" كما وعدني ديفيد البارحة، سأذهب إلى الضواحي عصر هذا اليوم. لم أعرف ماذا ينتظرني، وهذا الأمر يسبّب لي التوتّر عادة. لكنّ ما جرى في الأيّام الماضية أرهقني جدّاً ولم أشعر بشيء.

قال: "سترة واقية من الرصاص. فالضواحي ليست آمنة على الإطلاق". مدّ يده إلى صندوق بجانب الباب، وبحث بين كومة من السترات السوداء السميكة إلى أن وجد المقاس المناسب. ثمّ خرج بواحدة بدت كبيرة جدّاً عليّ. "آسف، لكن ليس لدينا تشكيلة واسعة هنا. أظنّ أنّ هذه ستفي بالمطلوب. ارفعي يديك".

ألبسني السترة، وأحكم ربط الأشرطة على الجانبين.

قلت: "لم أكن أعرف أنّك سترافقنا".

ابتسم مجيباً: "ماذا تظنّين أنّني أفعل في المكتب؟ أتجوّل بين الموظّفين وأمازحهم؟ لقد وجدوا طريقة جيّدة للاستفادة من خبرتي كشجاع. فأنا أنتمي إلى الفريق الأمني، شأني شأن جورج. نتولّى عادة الشؤون الأمنية في المجمّع، لكنّني أتطوّع كلّما أراد أحدهم الذهاب إلى الضواحي".

سأل جورج، الذي كان واقفاً بين أفراد المجموعة عند الباب: "هل تتحدّثان عنّي؟ مرحباً، تريس. أتمنّى ألاّ يكون قد قال عنّي أموراً سيّئة".

أحاط جورج كتفي عمّار بذراعه، وابتسما لبعضهما. بدا جورج أفضل حالاً من آخر مرّة رأيته فيها، لكنّ الحزن ترك أثره على ملامحه، وحال دون بلوغ الابتسامة عينيه وخدّيه.

نظر إليّ عمّار قائلاً: "كنت أفكّر أنّه يجدر بنا إعطاؤها مسدّساً. نحن عادة لا نعطي أعضاء المجلس المحتملين أسلحة، لأنّهم لا يجيدون استخدامها. لكن من الواضح أنّك تفعلين".

قلت: "لا ضرورة لذلك حقّاً، فأنا لا أحتاج-"

قال جورج: "كلاّ، أنت على الأرجح أفضل من معظمهم في الرماية. يمكننا الاستفادة من شجاع آخر معنا. سأذهب لإحضار واحد".

بعد بضع دقائق، توجّهت إلى الشاحنة برفقة عمّار حاملة سلاحي. صعدنا أنا وهو في الخلف، وصعد جورج وامرأة تدعى آن في الوسط، واثنان من ضبّاط الأمن الأكبر سنّاً في المقدّمة، وكانا يدعيان جاك وفيوليت. كان الجزء الخلفي من الشاحنة مكسوّاً بغطاء أسود سميك. بدت الأبواب الخلفية عازلة وسوداء من الخارج، إلاّ أنّها كانت شفّافة من الداخل، بحيث استطعنا رؤية ما يجري. جلستُ بين عمّار وكومة من المعدّات التي حجبت رؤيتنا لمقدّمة الشاحنة. حدّق جورج إلينا من فوق المعدّات، وابتسم عندما انطلقت الشاحنة، لكن بخلاف ذلك، كنّا أنا وعمّار بمفردنا.

راقبت المجمّع وهو يختفي خلفنا. مررنا بين الحدائق والمباني المحيطة به، ولمحت من خلف أطراف المجمّع الطائرات البيضاء المركونة هناك. وصلنا إلى السياج، وفُتحت لنا البوّابة. سمعت جاك وهو يتحدّث مع الجندي الواقف عند السياج الخارجي، ويخبره بوجهتنا وبمحتويات

الشاحنة - سلسلة من الكلمات التي لم أفهمها - قبل أن يسمح لنا بالخروج.

سألت: "ما هو هدف هذه الدورية؟ أعني باستثناء اصطحابي لرؤية ما يجري في الخارج".

أجاب عمّار: "لطالما أبقينا عيننا على الضواحي، وهي أقرب منطقة خارج المجمّع مأهولة بالمعطوبين وراثياً. معظم العاملين في المجمّع يجرون الأبحاث ويدرسون سلوك المعطوبين. لكن بعد الهجوم، قرّر ديفيد والمجلس أنّنا نحتاج إلى مراقبتهم على نطاق أوسع، لمنع تكرار الهجوم".

مررنا بأنقاض مشابهة لتلك التي رأيتها عندما غادرنا المدينة؛ المباني المنهارة على نفسها، والنباتات البرّية التي طغت على كلّ شيء.

لم أكن أعرف عمّار، ولا أثق به تماماً، لكن عليّ أن أسأل.

"إذاً هل تصدّق كلّ شيء؟ كلّ هذا الحديث عن كون العطب الوراثي هو سبب... هذا؟"

كان كلّ أصدقائه القدامى في التجربة معطوبين وراثياً. هل يمكن حقّاً أن يصدّق أنّهم غير أسوياء، وأنّهم يعانون من خطب ما؟

سألني: "ألا تصدّقين؟ برأيي، الأرض موجودة منذ زمن سحيق، أطول ممّا يمكننا أن نتخيّل. وقبل حرب النقاء، لم يرتكب أحد هذا، أليس كذلك؟" وأشار بيده إلى العالم الخارجي.

أجبت: "لا أدري. فأنا أجد صعوبة في تصديق ذلك".

"إنّ رأيك بالطبيعة البشرية كئيب حقّاً".

لم أجبه.

تابع يقول: "على أيّ حال، لو أنّ شيئاً كهذا حدث في تاريخنا، لكان المكتب عرف به".

فاجأتني سذاجته بالنسبة إلى شخص عاش في المدينة، ورأى، من خلال الشاشات على الأقلّ، كم أخفينا من الأسرار عن بعضنا. لقد حاولت إيفلين أن تسيطر على الناس بوضع يدها على الأسلحة، لكنّ جانين كانت أكثر طموحاً، وأدركت أنّها عندما تسيطر على المعلومات أو تتحكّم بها، لن تحتاج إلى القوّة لكي تبقي الناس تحت إمرتها. فهم يمكثون هناك بإرادتهم.

وهذا ما يفعله المكتب، وربّما الحكومة بأكملها؛ يكيّفون الناس ليكونوا سعداء تحت إمرتهم.

تقدّمنا بصمت لبعض الوقت، لا يرافقنا سوى صوت المحرّك واهتزاز المعدّات. في البداية، رحت أنظر إلى كلّ مبنى نمرّ به، وأتساءل مَن سكن فيه في الماضي، لكن سرعان ما بدأت المباني تختلط ببعضها بالنسبة إليّ. كم يتعيّن على المرء أن يرى من الأنقاض قبل أن يستسلم أخيراً لتسميتها كلّها "أنقاضاً"؟

قال جورج من وسط الشاحنة: "أوشكنا على الوصول إلى الضواحي. سنتوقّف هنا، ونتابع سيراً على الأقدام. فليحمل كلّ منكم بعض المعدّات وينطلق، باستثناء عمّار الذي سيتولّى العناية بتريس فقط. تريس، تفضّلي بالنزول لإلقاء نظرة على المكان، لكن لا تبتعدي عن عمّار".

أحسست كأنّ أعصابي أصبحت قريبة جدّاً من السطح، وأنّ أقلّ لمسة ستجعلها تنفجر. كانت الضواحي هي المكان الذي لجأت إليه أمّي بعدما شهدت على جريمة قتل. وهناك عثر عليها المكتب وأنقذها، لأنّ

رجاله اشتبهوا بكونها سليمة وراثياً. والآن سأدخل إلى تلك الأحياء التي تُعتبر بشكل من الأشكال المكان الذي بدأ منه كلّ شيء.

توقّفت الشاحنة وفتح عمّار الباب. حمل مسدّسه بيد وأشار لي باليد الأخرى، فقفزتُ خلفه.

كان ثمّة مبانٍ هنا، لكنّها لم تبلغ حتّى منزلة البيوت المؤقّتة. فقد كانت مصنوعة من الخردة المعدنية والنايلون، ومصفوفة بجانب بعضها البعض كما لو أنّ واحدها يسند الآخر. في الأزقّة الضيّقة التي تفصل بينها كان ثمّة أشخاص، معظمهم من الأطفال، يبيعون أشياء على الصواني، أو يحملون دلاءً من الماء، أو يطهون على نار مكشوفة.

عندما رآنا الأولاد الأقرب إلينا، انطلق أحد الصبية وهو يجري ويصرخ: "مداهمة! مداهمة!"

قال لي عمّار: "لا تخافي، يظنّون أنّنا جنود. ففي بعض الأحيان، يقوم الجنود بمداهمات لنقل الأطفال إلى دور الأيتام".

بالكاد انتبهت لتعليقه. فقد بدأت أمشي في أحد الأزقّة بينما راح معظم الناس يهربون أو يلجأون إلى داخل أكواخهم المصنوعة إمّا من الورق المقوّى أو من قماش القنّب. رأيتهم من خلال شقوق الجدران. كان أثاثهم يقتصر على كومة من المواد الغذائية والأدوات من جهة، بينما كُوّمت الفرش التي ينامون عليها على الجهة الأخرى. تساءلت ماذا يفعلون في الشتاء، وأين هي حمّاماتهم.

فكّرت بالأزهار الموجودة داخل المجمّع، وبالأرضيات الخشبية، وكلّ الأسرّة غير المشغولة في الفندق، فسألته: "هل تساعدونهم؟"

أجاب عمّار، كما لو أنّه يتلو شيئاً حفظه عن ظهر قلب: "نحن نعتقد أنّ أفضل طريقة لمساعدة العالم هي بإصلاح العيوب الوراثية.

إطعام الناس هو مجرّد وضع ضمادة صغيرة على جرح كبير. قد يوقف النزيف لفترة من الوقت، لكنّ الجرح لن يندمل".

لم أستطع الإجابة. فاكتفيت بهزّ رأسي قليلاً ومتابعة السير. بدأت أفهم لماذا انضمّت أمّي إلى جماعة نكران الذات في حين أنّه كان يفترض بها الانضمام إلى جماعة المعرفة. لو أنّها احتاجت حقّاً إلى الأمان بسبب الفساد المتنامي الذي تغرق فيه جماعة المعرفة، لذهبت إلى الوئام أو النزاهة. إلاّ أنّها اختارت الجماعة التي تستطيع فيها مساعدة الناس المحتاجين، وكرّست معظم حياتها لتزويد المنبوذين بما يحتاجون إليه.

لا بدّ أنّهم ذكّروها بهذا المكان، الضواحي.

التفتّ عن عمّار لكي لا يرى الدموع في عينيّ. "فلنعد إلى الشاحنة".

"هل أنت بخير؟"

"أجل".

استدرنا معاً في طريق العودة إلى الشاحنة، غير أنّنا سمعنا طلقات مفاجئة، تبعها صراخ على الفور.

"النجدة!"

تفرّق كلّ من حولنا.

قال عمّار وهو ينطلق جارياً عبر أحد الأزقّة إلى اليمين: "هذا جورج". لحقت به عبر البيوت المعدنية، لكنّه كان سريعاً جدّاً، والمكان عبارة عن متاهة. فأضعته في غضون ثوانٍ، ووجدت نفسي بمفردي.

مهما بلغ تعاطفي المستمدّ من نكران الذات مع الأشخاص القاطنين في هذا المكان، إلاّ أنّني أخشاهم أيضاً. فإن كانوا مثل المنبوذين، لا بدّ أنّهم يائسون مثلهم، وأنا أخشى الناس اليائسين.

أطبقت يد حول ذراعي وجرّتني إلى الخلف، إلى أحد الأكواخ المبنية من صفائح الألمنيوم. في الداخل، كان كلّ شيء مصبوغاً باللون الأزرق بسبب قماش القنّب الذي يغطّي الجدران، ويشكّل عازلاً للبرد. كانت الأرض مغطّاة برقائق الخشب، في حين وقفت أمامي امرأة نحيلة وقصيرة ذات وجه قذر.

قالت: "لا يمكنك الوقوف هناك. فهم ينقضّون على أيّ شخص، مهما كان صغيراً".

سألتها: "هم؟"

"يوجد هنا كثير من الناس الغاضبين. في بعض الأحيان، يدفع الغضب الناس إلى قتل كلّ من يعتبرونه عدوّاً. بينما يدفع آخرين ليكونوا بنّائين أكثر".

"شكراً على مساعدتك. اسمي تريس".

"وأنا آيمي، اجلسي".

"لا أستطيع، فأصدقائي هناك".

"إذاً عليك الانتظار حتّى يهجم أولئك الناس على أصدقائك، ثمّ تتسلّلين عليهم من الخلف".

بدا هذا ذكياً.

جلست على الأرض، وغرق مسدّسي بساقي. كانت السترة المضادة للرصاص سميكة جدّاً وغير مريحة، لكنّني فعلت ما في وسعي لأبدو مسترخية. سمعت أشخاصاً يركضون في الخارج ويصرخون. فأزاحت آيمي طرف ستارة القنّب قليلاً لترى ما يجري في الخارج.

قالت وهي تنظر إلى الشارع: "إذاً أنت وأصدقائك لستم جنوداً، ما يعني أنّكم تنتمون إلى مكتب الشؤون الوراثية، صحيح؟"

"كلاّ. أعني هم ينتمون إلى المكتب، أمّا أنا فأتيت من المدينة. أعني شيكاغو".

رفعت آيمي حاجبيها قائلة: "تبّاً، هل أُغلقت المدينة؟"

"ليس بعد".

"هذا مؤسف".

عبست متسائلة: "مؤسف؟ أنت تتحدّثين عن وطني، هل تعرفين؟"

"في الواقع، وطنك يساهم في إدامة الاعتقاد أنّ الأشخاص المعطوبين وراثياً يحتاجون إلى الإصلاح - أي أنّهم هم أنفسهم معطوبون. والحقيقة أنّهم، أي نحن، لسنا كذلك. بالتالي، أجل إنّه لأمر مؤسف أن تكون التجارب ما زالت مستمرّة، ولن أعتذر عن قول ذلك".

لم أكن قد فكّرت بهذا الأمر على هذا النحو. فبالنسبة إليّ، يجب أن تستمرّ شيكاغو لأنّ الناس الذين خسرتهم عاشوا هناك، ولأنّ طريقة الحياة التي أحببتها يوماً مستمرّة هناك، وإن بشكل مشوّه. لكنّني لم أدرك أنّ مجرّد وجود شيكاغو يؤذي أناساً آخرين في الخارج يريدون أن ينظر إليهم الناس على أنّهم كاملون.

خفضت آيمي زاوية الستارة قائلة: "حان الوقت للذهاب. هم على الأرجح في أحد أماكن الاجتماع، شمال غرب هذا المكان".

"شكراً لك مجدّداً".

أجابتني بإيماءة من رأسها، قبل أن أخفض رأسي وأنا خارجة من منزلها، والألواح تصرّ تحت قدميّ.

تنقّلت بسرعة عبر الأزقّة، وسررت لأنّ المارّة تفرّقوا جميعاً عند وصولنا بحيث لم أجد أحداً يعيق طريقي. قفزت فوق بركة لا أريد أن

أعرف محتواها، ثمّ خرجت إلى باحة وقف فيها صبيّ طويل القامة، يحمل مسدّساً مصوّباً على جورج.

أحاط حشد صغير من الناس بالصبيّ. كانوا قد وزّعوا على بعضهم معدّات المراقبة التي يحملها جورج، ويقومون بتدميرها وتكسيرها بأحذيتهم، أو بالأحجار، أو المطارق.

رآني جورج، لكنّني وضعت إصبعي على شفتيّ بسرعة. كنت أقف الآن خلف جمع الناس، ولم يرني الشابّ المسلّح.

قال جورج: "اخفض سلاحك".

أجابه الصبيّ: "كلاّ!" كان نظر عينيه الشاحبتين يتنقّل بين جورج والناس المحيطين به. "عانيتُ الكثير من المشاكل من أجل هذا، ولن أعطيك إيّاه الآن".

"إذاً... دعني أذهب، يمكنك الاحتفاظ به".

"ليس قبل أن تخبرنا إلى أين أخذتم أصدقاءنا!"

"لم نأخذ أحداً من أصدقائكم. فنحن لسنا جنوداً، بل علماء وحسب".

قال الصبيّ: "آه، صحيح. وتملكون سترات مقاومة للرصاص؟ إن لم تكن هذه من أمتعة الجنود، أكون أغنى ولد في أميركا. والآن أخبرني ما أريد معرفته!"

تراجعتُ بحيث أصبحت خلف أحد الأكواخ، ثمّ مددت مسدّسي حول طرف الكوخ وصحت: "أنت!"

التفت الجميع في وقت واحد، لكنّ الصبيّ المسلّح ظلّ يصوّب مسدّسه على جورج، مثلما توقّعت.

قلت: "أنتم في مرمى الرصاص. ارحلوا حالاً وسأترككم بسلام".

قال الصبيّ: "سأقتله!"

قلت: "وأنا سأقتلك أنت. نحن مع الحكومة، لكنّنا لسنا جنوداً، ولا نعرف أين هم أصدقاؤكم. إن أطلقتم سراحه، سنرحل جميعنا بهدوء. أمّا إن قتلتموه، فأؤكّد لكم أنّ الجنود سيحضرون إلى هنا قريباً لاعتقالكم، ولن يكونوا متسامحين بقدرنا".

في تلك اللحظة خرج عمّار إلى الباحة من خلف جورج، بينما صاح أحدهم: "ثمّة المزيد منهم!" فتفرّق الجميع. اختفى الصبيّ المسلّح في أقرب زقاق، وتركنا أنا وجورج وعمّار بسلام. مع ذلك، أبقيت سلاحي مرفوعاً أمامي تحسّباً في حال عودتهم.

احتضن عمّار جورج، وربّت جورج على ظهره. نظر إليّ عمّار من فوق كتف جورج. "ما زلتِ لا تصدّقين أنّ العطب الوراثي مسؤول عن هذه المشاكل؟"

مررت بأحد الأكواخ، ورأيت فتاة صغيرة تجلس في الداخل منكمشة على نفسها، تحتضن ركبتيها. رأتني من خلال شقّ في ستائر القنّب، وبدأت تئنّ خوفاً. تساءلت من علّم أولئك الناس الخوف من الجنود إلى هذا الحدّ، وما الذي يجعل صبياً صغيراً في حالة من اليأس، إلى حدّ تصويب سلاح على أحدهم.

أجبت: "كلاّ، لا أعتقد".

أنا أعرف أناساً آخرين ألقي عليهم اللوم.

* * *

عندما عدنا إلى الشاحنة، وجدنا جاك وفيوليت يثبّتان كاميرا مراقبة لم يسرقها أهل الضواحي. كانت فيوليت تحمل لائحة طويلة من الأرقام، وتقرأها على جاك، الذي يقوم ببرمجتها على شاشته.

سألَنا جاك: "أين كنتم".

أجاب جورج: "لقد تعرّضنا للاعتداء، علينا الرحيل حالاً".

قالت فيوليت: "لحسن الحظّ هذه آخر مجموعة من الإحداثيات، فلنرحل".

دخلنا إلى الشاحنة مجدّداً. أغلق عمّار الأبواب خلفنا، بينما وضعت مسدّسي على الأرض بعد أن أغلقته بصمّام الأمان، وقد أسعدني التخلّص منه. لم أعتقد أنّني سأوجّه سلاحاً خطيراً على أحدهم اليوم عندما استيقظت. ولم أعتقد أنّني سأجد هناك هذا النوع من الظروف المعيشية.

قال عمّار: "إنّ مبادئ نكران الذات بداخلك هي التي تجعلك تكرهين هذا المكان، أنا واثق من ذلك".

"بل كثير من الأشياء بداخلي".

"إنّه أمر لاحظته لدى فور أيضاً. فجماعة نكران الذات تُنتج أشخاصاً جدّيين كثيراً، يرون بشكل آلي أموراً مثل الحاجة. وقد لاحظت أنّه عندما ينتقل الناس إلى الشجاعة، تَنتج لدينا أنواع متشابهة من الناس. فأبناء المعرفة المنتقلين إلى الشجاعة، يصبحون قساة وعنيفين. بينما يميل أبناء النزاهة إلى الصخب وحب العراك عند انتقالهم إلى الشجاعة. أمّا أبناء نكران الذات، فيصبحون... لا أدري، جنوداً على ما أظنّ، وثوريين. وهذا ما بإمكانه أن يكون، لو كان أكثر ثقة بنفسه. لو لم يكن فور كثير الشكّ بنفسه، لأصبح قائداً عظيماً، برأيي. هذا ما ظننته دوماً".

قلت: "أعتقد أنّك على حقّ. فهو لا يدخل في متاعب إلاّ عندما يكون تابعاً، كما حدث مع نيتا، أو إيفلين".

سألت نفسي، وماذا عنكِ؟ فقد أردتِ جعله تابعاً أنت أيضاً.

كلاّ، لم أفعل. لكنّني لست واثقة إن كنت أصدّق ذلك.

أومأ عمّار برأسه موافقاً.

أخذَت صور الضواحي تقفز إلى رأسي بين حين وآخر. تخيّلت أمّي وهي طفلة، منكمشة في أحد تلك الأكواخ، تبحث عن الأسلحة لأنّها تعني شيئاً من الأمان، وتختنق بالدخان التماساً للدفء في الشتاء. لم أعرف لماذا رغبت في ترك ذلك المكان بعدما تمّ إنقاذها. فقد أصبحت جزءاً من المجمّع، وعملت لصالحه لبقية حياتها. هل نسيَت المكان الذي أتت منه؟

هذا غير ممكن. فقد أمضت حياتها وهي تحاول مساعدة المنبوذين. وربّما لم يكن ذلك تلبية لواجبها كناكرة للذات، بل نابعاً من رغبتها في مساعدة أشخاص مثل أولئك الذين تركتهم وراءها.

فجأة، لم أعد أحتمل التفكير فيها، أو في ذلك المكان، أو في الأشياء التي رأيتها. فتعلّقت بأوّل فكرة خطرت في بالي، لكي ألهي نفسي.

"إذاً كنتما أنت وتوبياس صديقين حميمين؟"

هزّ عمّار رأسه نافياً وأجاب: "وهل يملك توبياس أصدقاء حميمين؟ لكنّني أنا من أعطاه ذلك اللقب. فقد شاهدته كيف كان يواجه مخاوفه، ورأيت مدى اضطرابه، فتخيّلت أنّه يستطيع الاستفادة من حياة جديدة، لذلك بدأت أناديه فور. لكنّني لا أظنّ أنّنا كنّا صديقين حميمين، ليس بقدر ما أردت".

أسند عمّار رأسه إلى الحائط، وأغمض عينيه. فيما تراقصت ابتسامة صغيرة على شفتيه...

قال عمّار: "يجب أن تفهمي أنّ المكتب مهووس بمسألة التناسل من أجل تمرير المورّثات إلى أجيال جديدة. بالتالي فأيّ علاقة لا تُنتج شيفرة وراثية أقوى... لا يتمّ التشجيع عليها".

هززت رأسي قائلة: "آه، لا تقلق، فأنا لست مهووسة بإنتاج مورّثات أقوى". وابتسمت بامتعاض.

جلسنا بصمت لبضع ثوانٍ نشاهد الأنقاض وهي تمرّ بعكس اتجاهنا مع إسراع الشاحنة.

قال: "أتعلمين، أظنّ أنّك مناسبة لفور".

حدّقت إلى يديّ المتشابكتين في حضني. لم أشعر بالرغبة في أن أشرح له أنّنا على وشك الانفصال. فأنا لا أعرفه، وحتّى لو كنت أعرفه، لما شعرت بالرغبة في الحديث عن ذلك. فاكتفيت بالقول: "آه؟"

"أجل. فأنا أرى ما يمكنك أن تُخرجي منه. أنت لا تعرفين ذلك لأنّك لم تعيشيه يوماً. لكنّ فور من دونك هو شخص مختلف تماماً... استحواذي، سريع الغضب، يفتقر إلى الإحساس بالأمان..."

"استحواذي؟"

"بماذا إذاً تصفين شخصاً يدخل تكراراً إلى مشهد الخوف الخاصّ به؟"

"لا أدري... قوي العزيمة". صمتّ مضيفة: "شجاع".

"نعم، بالطبع، لكنّه أيضاً مجنون بعض الشيء، أليس كذلك؟ أنا أعني أنّ معظم الشجعان يفضّلون القفز في النهر عوضاً عن الدخول تكراراً في مشاهد الخوف. فالشجاعة تختلف عن المازوشية، والخطّ الفاصل بينهما لم يعد واضحاً تماماً بالنسبة إليه".

قلت: "هذا الخطّ مألوف لديّ".

ابتسم عمّار قائلاً: "أعرف. على أيّ حال، ما أقوله هو أنّه عند سحق شخصين على بعضهما، تحدث مشاكل. لكن أعتقد أنّ علاقتكما تستحقّ العناء، هذا كلّ شيء".

كشّرت قائلة: "سحق شخصين على بعضهما، حقّاً؟"

عندئذٍ، ضغط عمّار كفّيه على بعضهما ولواهما إلى الأمام والخلف، ليوضح لي الفكرة. فضحكت، لكنّني لم أستطع أن أتجاهل إحساس الألم في صدري.

الفصل الخامس والثلاثين
توبياس

ذهبت إلى مجموعة المقاعد الأقرب إلى النوافذ في غرفة المراقبة، وأظهرت تسجيل مختلف الكاميرات في المدينة، واحدة تلو الأخرى، بحثاً عن والديّ. وجدت إيفلين أوّلاً. كانت في ردهة مقرّ المعرفة، تتحدّث مع تيريز وأحد المنبوذين، اللذين أصبحا مساعدَيها الأوّل والثاني بعد رحيلي. رفعت الصوت، لكنّني لم أستطع سماع شيء سوى همهمات.

من خلال النوافذ الممتدّة على طول الحائط الخلفي لغرفة المراقبة، رأيت سماء الليل نفسها التي تعلو المدينة، لا يتخلّلها سوى أضواء صغيرة زرقاء وحمراء تحدّد مدارج الطائرات. من الغريب التفكير بوجود شيء مشترك بيننا على الرغم من اختلاف كلّ شيء هنا.

أصبح موظّفو غرفة المراقبة يعرفون الآن أنّني أنا من عطّل نظام المراقبة في الليلة السابقة للهجوم، مع أنّني لست أنا من دسّ مصل السلام لأحد المناوبين لكي أتمكّن من ذلك، بل كانت نيتا. لكنّهم تجاهلوني عموماً ما دمت بعيداً عن مكاتبهم.

على شاشة أخرى، بحثت بين الكاميرات مجدّداً بحثاً عن ماركوس أو جوانا، أو عن أيّ شيء يُظهر لي ما يجري مع الأوفياء. كانت كلّ أحياء المدينة ظاهرة على الشاشة، الجسر المجاور لمركز عديمي الرحمة، والمبنى الزجاجي الذي يعلو مقرّ الشجاعة، والشارع الرئيس لقطاع نكران الذات، هذا فضلاً عن مبنى المحور، وعجلة فيريس، وحقول الوئام، التي تؤمّها الآن كلّ الجماعات. لكنّني لم أجد ما أبحث عنه على أيّ كاميرا.

قالت كارا وهي تقترب: "أنت تأتي إلى هنا كثيراً. هل تخاف من بقيّة المجمّع، أم من شيء آخر؟"

كانت على حقّ، فأنا آتي كثيراً إلى غرفة المراقبة. إنّه مجرّد مكان أمضي فيه الوقت بانتظار صدور حكم تريس عليّ، وبانتظار تنفيذ خطّتنا لضرب المكتب، وبانتظار شيء، أيّ شيء.

"كلاّ، أنا أراقب والديّ وحسب".

"والداك اللذان تكرههما؟" وقفت بجانبي طاوية ذراعها. "أجل، أنا أفهم لماذا ترغب في إنفاق كلّ دقيقة من وقتك وأنت تحدّق إلى الأشخاص الذين لا تريد أن تجمعك بهم أيّ علاقة. هذا منطقي تماماً".

"إنّهما خطيران، لا سيّما وأنّ أحداً غيري لا يعرف مدى خطورتهما".

"وماذا ستفعل من هنا إن أقدما على فعل أمر فظيع؟ هل ستُرسل إشارة بالدخان؟"

رمقتها بحدّة.

رفعت يديها استسلاماً قائلة: "حسناً، حسناً. كنت أحاول تذكيرك وحسب أنّك لم تعد في عالمهم، بل في هذا العالم. هذا كلّ شيء".

"وصلت الفكرة".

لم أتوقّع يوماً أن يكون أبناء المعرفة قادرين على إدراك حساسية العلاقات أو العواطف، لكنّ عينَي كارا تلاحظان كلّ شيء؛ خوفي، وبحثي عن المواساة في الماضي. هذا مخيف تقريباً.

تجاوزتُ إحدى زوايا الكاميرا، ثمّ توقّفت وعدت إلى الخلف. كان المشهد معتماً، نظراً إلى الوقت، لكنّني رأيت أشخاصاً يترجّلون مثل سرب من الطيور حول مبنى لم أعرفه، وذلك بحركات متزامنة.

قالت كارا بحماسة: "لقد فعلوها. الأوفياء يضربون ضربتهم".

هتفتُ لإحدى النساء الجالسات إلى مكاتب غرفة المراقبة: "من فضلك!" رفعت أكبرهنّ سنّاً رأسها، وكانت دائماً ترمقني بحدّة عندما أدخل. "الكاميرا الرابعة والعشرين! بسرعة!"

نقرت على شاشتها، وتحلّق جميع الموجودين حولها. توقّف بعض الأشخاص المارّين في الرواق لرؤية ما يجري، بينما التفتّ إلى كارا.

سألتها: "هل يمكنك مناداة الباقين؟ أظنّ أنّ عليهم رؤية ما يجري".

هزّت رأسها موافقة، واندفعت بحماسة خارجة من غرفة المراقبة.

كان الناس المحيطين بالمبنى يرتدون زيّاً واحداً لتمييز أنفسهم، لكنّهم لا يحملون شارة المنبوذين، وكانوا مسلّحين. حاولت تمييز وجه ما، أو التعرّف على أحد، لكنّ الصورة كانت ضبابية جدّاً. راقبتهم وهم يرتّبون أنفسهم، ويتواصلون بالإشارة، ملوّحين بأذرعهم السوداء في ليل أكثر سواداً.

وضعتُ إبهامي بين أسناني، أنتظر حدوث شيء بفارغ الصبر. بعد بضع دقائق، عادت كارا والباقون في أعقابها. حين وصلوا إلى مجموعة الناس المحيطين بالشاشات الرئيسة، قال بيتر بصوت عالٍ: "المعذرة!" فاستدار الناس. وعندما عرفوه، أفسحوا له المجال.

سألني عندما اقترَب: "ما الأمر، ماذا يجري؟"

أجبت مشيراً إلى الشاشة المثبّتة إلى اليسار: "لقد شكّل الأوفياء جيشاً شاركت فيه كلّ الجماعات، حتّى الوئام والمعرفة. فقد شاهدت الكثير مؤخّراً".

سأل كاليب: "المعرفة؟"

ردّت كارا: "الأوفياء هم أعداء الأعداء الجدد، أي المنبوذين. وهذا يمنح المعرفة والأوفياء هدفاً مشتركاً، ألا وهو الإطاحة بإيفلين".

سألتني كريستينا: "هل قلت إنّ الجيش يضمّ أشخاصاً من الوئام؟"

أجبت: "هم لا يشاركون فعليّاً في أعمال العنف، بل في المجهود".

قالت المرأة الشابّة الجالسة إلى أحد المكاتب الأقرب إلينا من خلف كتفها: "لقد قام الأوفياء بمداهمة مخزن أسلحة للمرّة الأولى منذ بضعة أيّام، وهذا هو الثاني. هكذا حصلوا على تلك الأسلحة. بعد غارتهم الأولى، قامت إيفلين بنقل معظم الأسلحة إلى أماكن أخرى، لكنّها لم تتمكّن من إفراغ هذا المخزن في الوقت المناسب".

كان أبي يعرف ما تعرفه إيفلين، وهو أنّ القوّة التي تجعل الناس يهابونك هي القوّة الوحيدة التي تحتاج إليها. والسلاح برأيه يؤدّي هذا الغرض.

سأل كاليب: "ما هو هدفهم؟"

قالت كارا: "الأوفياء تحرّكهم الرغبة في إعادة مدينتنا إلى هدفها الأصلي، سواء كان ذلك يعني إرسال مجموعة من الأشخاص إلى خارج المدينة، مثلما طلبت إديث برايور - الأمر الذي اعتقدناه مهمّاً في ذلك الوقت، مع أنّني أصبحت أعرف أنّ تعليماتها ليست بذات أهمّية - أو إعادة فرض نظام الجماعات بالقوّة. إنّهم يجهّزون لشنّ هجوم على معقل المنبوذين. فهذا هو ما بحثناه أنا وجوانا قبل رحيلي. صحيح أنّنا لم نتحدّث في مسألة التحالف مع والدك، توبياس، لكن أظنّ أنّها قادرة على اتخاذ قراراتها بنفسها".

كنت قد نسيت تقريباً أنّ كارا كانت زعيمة الأوفياء قبل رحيلنا. لست واثقاً الآن أنّها تكترث لمسألة استمرار الجماعات أم لا، لكنّها ما زالت تهتمّ لأمر الناس. عرفت ذلك من طريقة مراقبتها للشاشات، بلهفة وخوف على حدّ سواء.

سمعت إطلاق النار عندما بدأ، على الرغم من الثرثرة من حولي. كانت مجرّد قعقعات صادرة عن مكبّرات الصوت. نقرت على الشاشة بضع مرّات، فتحوّلت زاوية الكاميرا إلى تلك الموجودة داخل المبنى الذي اقتحمه الجنود للتوّ. كُدّست صناديق صغيرة - ذخيرة - على طاولة في الداخل، فضلاً عن بضعة مسدّسات. لم تكن تساوي شيئاً مقارنة بالأسلحة التي يملكها الناس هنا وبوفرتها، لكن أعرف أنّ هذا القدر اليسير يُعتبر قيّماً في المدينة.

قام بحراسة الطاولة عدد من الرجال والنساء الذين يحملون شارت المنبوذين، إلاّ أنّهم سرعان ما سقطوا أمام الأوفياء الأكثر عدداً. تعرّفت على وجه مألوف بينهم، كان وجه زيك الذي ضرب فكّ أحد المنبوذين بكعب مسدّسه. هُزم المنبوذون في غضون دقيقتين، بعد أن أصيبوا برصاص لم أره إلاّ بعدما كان يخترق الأجساد. انتشر الأوفياء في المخزن، ومشوا من فوق الجثث كما لو كانت مجرّد نفايات، وهم يجمعون ما قدروا عليه. جمع زيك الأسلحة على الطاولة، وعلت وجهه نظرة قاسية لم أرها سوى بضع مرّات.

لم يكن يعرف حتّى ما حلّ بيوريا.

نقرت المرأة على الشاشة في عدة أماكن. فظهرت على الشاشات الأصغر حجماً فوقها صورة هي عبارة عن مقطع من مشاهد المراقبة التي رأيناها، لكنّها جُمّدت على لحظة معيّنة. نقرت مجدّداً، فاقتربت الصورة أكثر من هدفها، لتُظهر رجلاً قصير الشعر وامرأة ذات شعر أسود طويل يغطّي جانباً من وجهها.

ماركوس، بالطبع، وجوانا، تحمل مسدّساً.

"لقد تمكّنا من حشد معظم أعضاء الجماعات المخلصين خلف قضيتهما. لكنّ المثير للاستغراب هو أنّ الأوفياء ما زالوا أقلّ عدداً من المنبوذين". استندت المرأة إلى ظهر كرسيّها، وهزّت رأسها متابعة: "لقد تبيّن أنّ المنبوذين هم أكثر عدداً بكثير ممّا توقّعنا. فمن الصعب في النهاية تعداد السكّان عندما يكونون مشتّتين".

قال كاليب: "جوانا تتزعّم تمرّداً؟ بالسلاح؟ هذا غير منطقي".

قالت لي جوانا مرّة أنّها لو كانت تملك حرّية القرار، لأيّدت العمل ضدّ المعرفة عوضاً عن السلبية التي تدعو إليها جماعتها. إلاّ أنّها كانت تحت رحمة جماعتها وخوفهم. أمّا الآن، مع تفكّك الجماعات، أصبحت على ما يبدو شخصاً مختلفاً عن لسان الوئام أو حتّى زعيمة الأوفياء. لقد أصبحت جندية.

قلت: "هذا منطقي أكثر ممّا تظنّ"، وهزّت كارا رأسها موافقة على كلامي.

راقبتهم وهم يفرغون الغرفة من السلاح والذخيرة ويخرجون بسرعة، ثمّ يتفرّقون كذرّ الرماد. أحسست بثقل على كاهليّ، وتساءلت ما إذا كان من حولي، أي كارا، وكريستينا، وبيتر، وحتّى كاليب يشعرون بالشيء نفسه. فقد أصبحت المدينة، مدينتنا، أقرب إلى الدمار الشامل من أيّ وقت مضى.

يمكننا الادّعاء أنّنا لم نعد ننتمي إلى هناك ونحن نعيش في أمان نسبي في هذا المكان. لكنّنا ما زلنا ننتمي إليها، وسنبقى دوماً.

الفصل السادس والثلاثون

تريس

كان الظلام دامساً والثلج يتساقط عندما وصلنا إلى مدخل المجمّع. تناثرت الثلوج على الطريق، خفيفة كالسكّر الناعم. كنّا في بداية الخريف، ما يعني أنّه سيذوب في الصباح. خلعت سترتي المقاومة للرصاص ما إن ترجّلت من الشاحنة، وأعطيتها لعمّار هي والمسدّس. لم أعد أشعر بالارتياح وأنا أحمله الآن، وكنت أظنّ أنّ انزعاجي سيزول مع الوقت، إلاّ أنّني لم أعد واثقة. ربّما لن يزول أبداً، وربّما لا بأس في ذلك.

أحاطني الدفء ما إن عبرت الباب. وبدا لي المجمّع أكثر نظافة من أيّ وقت مضى بعد أن رأيت الضواحي. ما زالت المقارنة غير مريحة. كيف يمكنني السير على هذه الأرض اللامعة وارتداء هذه الملابس النظيفة وأنا أعرف أنّه ثمّة أناس هناك يحيطون أكواخهم بالقنّب لينعموا بشيء من الدفء؟

عندما وصلت إلى عنبر الفندق، كان هذا الإحساس قد زال.

بحثت في الغرفة عن كريستينا أو توبياس، لكنّ أيّاً منهما لم يكن موجوداً. وحدهما بيتر وكاليب كانا هناك. وضع بيتر على حضنه كتاباً كبيراً، وراح يدوّن الملاحظات على دفتر بقربه. بينما جلس كاليب يقرأ مذكّرات أمّنا على الشاشة، وعيناه مترقرقتان بالدموع. غير أنّني حاولت تجاهل ذلك.

"هل رأى أحدكما..." لكن إلى من أريد التحدّث، كريستينا أم توبياس؟

سألني كاليب، مقرّراً عنّي: "فور؟ رأيته منذ قليل في غرفة الأنساب".

"غرفة... ماذا؟"

"يعرضون أسماء أسلافنا في إحدى الغرف". ثمّ قال لبيتر: "هل لي بورقة؟"

مزّق بيتر ورقة من آخر دفتره وأعطاها لكاليب، الذي دوّن عليها شيئاً؛ الاتّجاهات. قال كاليب: "وجدت أسماء أبوينا هناك. على الحائط الأيمن للغرفة، اللوحة الثانية بعد الباب".

أعطاني الورقة التي رسم عليها الاتجاهات من دون أن ينظر إليّ. نظرت إلى كلماته الواضحة والمرتّبة. قبل أن أتعارك مع كاليب، كان سيصرّ على مرافقتي بنفسه، ذلك أنّه كان يسعى يائساً إلى تبرير أفعاله لي. لكنّه أصبح يحافظ على مسافة بيني وبينه مؤخّراً، إمّا لأنّه خائف منّي أو لأنّه استسلم أخيراً.

لم يرحني أيّ من السببين.

"شكراً... كيف حال أنفك؟"

"بخير. أعتقد أنّ الكدمة اقتلعت عينيّ، ألا تظنّين ذلك؟"

ابتسم قليلاً، فحذوت حذوه. لكن من الواضح أنّ أيّاً منّا لا يدري ماذا يفعل الآن، لأنّنا التزمنا الصمت.

قال بعد لحظة: "مهلاً، لم تكوني هنا اليوم، أليس كذلك؟ لقد حدث شيء في المدينة. تمرّد الأوفياء على إيفلين، وهاجموا أحد مخازن الأسلحة".

حدّقت إليه بذهول. فأنا لم أتساءل ماذا يحدث في المدينة منذ بضعة أيّام، إذ كنت منشغلة جدّاً بما يجري هنا.

"الأوفياء؟ هل تعني أنّ الأشخاص الذين تتزعّمهم جوانا ريس حاليّاً... هاجموا مخزناً؟"

كنت واثقة قبل رحيلنا أنّ العنف على وشك الانفجار مجدّداً في المدينة. وأظنّ أنّ الوقت قد حان. غير أنّني أحسست بعدم الاكتراث لما يجري، ذلك أنّ كلّ من أهتمّ لأمرهم تقريباً موجودون هنا.

قال كاليب: "تتزعّمهم جوانا ريس وماركوس إيتون. لكنّ جوانا كانت هناك، مسلّحة. كان الوضع غريباً، وقد بدا موظّفو المكتب منزعجين جدّاً".

هززت رأسي قائلة: "عجباً. أعتقد أنّها كانت مسألة وقت وحسب".

غرقنا في الصمت مجدّداً، ثمّ ابتعدنا عن بعضنا في الوقت نفسه. فعاد كاليب إلى سريره، بينما ذهبت أتبع توجيهاته.

رأيت غرفة الأنساب من بعيد، إذ كانت الجدران البرونزية تلمع في الضوء الخفيف. وقفت عند الباب، وأحسست أنّني أمام مشهد غروب، تحيط بي أشعّة الشمس. مرّت أصابع توبياس على خطوط شجرة أسرته، على ما أظنّ، لكن بكسل، كما لو أنّه لا يعيرها انتباهاً حقّاً.

أحسست أنّني قادرة على رؤية ميوله الاستحواذية التي ذكرها عمّار. أنا أعرف أنّ توبياس كان يشاهد والديه على الشاشات، وهو يقف الآن يحدّق إلى اسميهما، مع أنّ هذه الغرفة لا تحتوي على شيء لا يعرفه أساساً. كنت محقّة في القول إنّه كان يائساً، من أجل شيء يربطه بإيفلين، ويائساً ليكون غير معطوب، لكنّني لم أفكّر أبداً كيف ترتبط هذه الأمور ببعضها. لا أعرف معنى أن يكره الإنسان تاريخه وأن يتوق في الوقت نفسه إلى الحبّ من جانب الأشخاص الذين منحوه ذاك التاريخ. كيف أمكنني ألاّ أرى أبداً الصدع الموجود في قلبه؟ وكيف لم أدرك أبداً من قبل أنّه إلى جانب أجزائه القوية واللطيفة يملك أجزاءً مؤلمة ومحطّمة؟

أخبرني كاليب أنّ أمّي قالت له إنّ الشر موجود في كلّ منّا، وإنّ الخطوة الأولى لنحبّ شخصاً ما تتمثّل في الاعتراف بالشرّ الموجود بداخلنا، لكي نتمكّن من مسامحته. كيف أعيّر توبياس بيأسه، كما لو كنت أفضل منه، وكما لو أنّني لم أسمح أبداً لانكساري أن يعمي عينيّ.

بادرته وأنا أدسّ الورقة التي أعطاني إيّاها كاليب في جيبي الخلفي: "مرحباً".

التفت نحوي بتعبيره الجادّ والمألوف. بدا شبيهاً بتوبياس في الأسابيع الأولى التي عرفته فيها، مثل حارس على أفكاره العميقة.

قلت: "اسمع، ظننت أنّه يفترض بي التفكير في ما إذا كنت أستطيع مسامحتك أم لا. لكنّني أجد الآن أنّك لم ترتكب في حقّي شيئاً يستحقّ المسامحة، باستثناء ربّما اتهامي أنّني أغار من نيتا..."

فتح فمه ليقاطعني، لكنّني رفعت يدي لمنعه.

"إن بقينا معاً، سيتعيّن عليّ أن أسامحك مراراً وتكراراً، وإن قبلتَ باستمرار هذه العلاقة، سيتعيّن عليك أن تسامحني مراراً وتكراراً. هذا يعني أنّ المسألة لا تكمن في المغفرة. وما يجدر بي التفكير فيه حقّاً هو ما إذا كنّا ما زلنا مناسبَين لبعضنا أم لا".

فكّرت في طريق العودة بما قاله عمّار، إنّ لكلّ علاقة مشاكلها. فكّرت أيضاً بأبويّ اللذين تشاجرا أكثر من أيّ زوجين عرفتهما في جماعة نكران الذات، لكنهما بقيا معاً حتّى وفاتهما.

ثمّ فكّرت كم أصبحت قوية، وكم صرت أشعر بالأمان مع الإنسانة التي أصبحت عليها الآن، وكيف كان يؤكّد لي على الدوام أنّني شُجاعة، ومحترمة، ومحبوبة، وجديرة بالحبّ.

"نعم؟" لاحظت عدم استقرار في صوته، وعينيه، ووقفته.

"أظنّ أنّك ما زلت الشخص الوحيد الحادّ بما فيه الكفاية لشحذ شخص مثلي".

أجاب بصوت خشن: "أنا كذلك".

وعانقته.

احتضنني بقوّة، ورفعني على رؤوس أصابعي. فدفنت وجهي في عنقه وأغمضت عينيّ، أتنشّق رائحته النظيفة، رائحة الرياح.

كنت أظنّ أنّه عندما يُغرم الناس ببعضهم، يسيّرهم القدر، ولا يملكون الخيار في ما يحدث لاحقاً. وقد يكون هذا صحيحاً في البداية، لكنّه لا ينطبق على ما يجري الآن.

لقد أُغرمت به، لكنّني لم أبق معه حُكماً، لعدم توافر شخص آخر. أنا أبقى معه لأنّني أختار ذلك، في كلّ يوم أستيقظ فيه، وفي كلّ يوم نتشاجر فيه، أو نكذب على بعضنا، أو نخيّب أمل بعضنا. أنا أختاره مراراً وتكراراً، وكذلك يفعل هو.

الفصل السابع والثلاثين

تريس

وصلت إلى مكتب ديفيد لحضور أوّل اجتماع للمجلس عندما بلغت ساعتي العاشرة، وسرعان ما لحق بي وهو يدفع نفسه عبر الممرّ. بدا أكثر شحوباً ممّا كان عليه في المرّة الماضية التي رأيته فيها، وكانت الهالات السوداء المحيطة بعينيه أكثر بروزاً، وأقرب إلى الكدمات.

قال: "مرحباً تريس. أنت متحمّسة، أليس كذلك؟ فقد وصلتِ في الوقت المحدّد".

ما زلت أشعر ببعض الثقل في أطرافي بسبب مصل الحقيقة الذي جرّبه عليّ كلّ من كارا، وكاليب، وماثيو في وقت سابق، كجزء من خطّتنا. فهم يحاولون تطوير مصل حقيقة قوي، لا يمكن حتّى للأنقياء المقاومين للمصل مثلي مقاومته. فتجاهلت الثقل وقلت: "بالطبع أنا متحمّسة، فهذا اجتماعي الأوّل. هل ترغب في المساعدة؟ تبدو متعباً".

"حسناً، حسناً".

وقفت خلفه، ثمّ أمسكت بمقبضَي الكرسي المتحرّك ودفعته أمامي.

تنهّد قائلاً: "لا شكّ في أنّني متعب. فقد أمضيت الليل وأنا أحاول حلّ آخر أزماتنا. انعطفي يساراً".

"أيّ أزمة؟"

"آه، ستكتشفين قريباً. لا داعي للعجلة".

عبرنا الأروقة المعتمة للمحطّة 5، بحسب اللافتة. قال ديفيد: "إنّه اسم قديم". لم تكن هذه القاعة تحتوي على أيّ نوافذ أو أيّ إطلالة على العالم الخارجي، بحيث شعرت أنّ الريبة تنبعث من الجدران، كما لو أنّ

المحطّة نفسها مرعوبة من الأعين غير المألوفة. فقط لو يعرفون ما تبحث عنه عيناي.

بينما كنت أمشي، لمحتُ يدَيّ ديفيد الممسكتين بذراع الكرسي. كانت البشرة المحيطة بأظافره طرية وحمراء، كما لو أنّه كان يعضّها ليلاً. أمّا أظافره نفسها فكانت متعرّجة. تذكّرت عندما كانت يداي بهذه الحالة، حين كانت ذكريات محاكاة الخوف تتسلّل إلى أحلامي كلّ ليلة، وتشغل ذهني كلّما توقّف عن التفكير. ربّما كانت ذكريات ديفيد عن الهجوم هي التي فعلت به ذلك.

فكّرت، لا آبه بما يحدث له. تذكّري ما فعله وما هو مستعدّ لفعله مجدّداً.

قال ديفيد: "ها قد وصلنا". فدفعته عبر باب مزدوج مفتوح. بدا أنّ معظم أعضاء المجلس موجودون هناك، يحرّكون أعواداً صغيرة في أكواب صغيرة من القهوة، وكان معظمهم رجال ونساء من جيل ديفيد. رأيت أيضاً بعض الأعضاء الأصغر سنّاً، ومن بينهم زوي، التي بادرتني عندما دخلت بابتسامة مصطنعة، لكنّها مهذّبة.

قال ديفيد وهو يدفع نفسه إلى رأس طاولة الاجتماعات: "فلنبدأ!" جلست على أحد المقاعد الموزّعة على أطراف الغرفة، بجانب زوي. فمن الواضح أنّه لا يفترض بنا الجلوس إلى الطاولة مع كلّ الأشخاص المهمّين. كما أنّ هذا المكان يناسبني، ويسمح لي بأخذ غفوة في حال أصبح الأمر مملاًّ. غير أنّني أشكّ في ذلك، ما دامت الأزمة الجديدة خطيرة بما فيه الكفاية لإبقاء ديفيد مستيقظاً طوال الليل.

قال ديفيد: "تلقّيت في الليلة الماضية اتّصالاً من موظّفي غرفة المراقبة. من الواضح أنّ العنف على وشك الانفجار مجدّداً في شيكاغو.

فمؤيّدوا نظام الجماعات الذين يسمّون أنفسهم الأوفياء تمرّدوا على حكم المنبوذين، وهاجموا مخابئ الأسلحة. لكنّ ما يجهلونه هو أنّ إيفلين جونسون اكتشفت سلاحاً جديداً، يتمثّل في كمّيات كبيرة من المصل القاتل المخبّأة في مقرّ المعرفة. وكما نعلم، لا يستطيع أحد مقاومة المصل القاتل، ولا حتّى الجامحين. فإن هاجم الأوفياء حكومة المنبوذين، وشنّت إيفلين جونسون هجوماً انتقامياً، ستسقط أعداد لا تحصى من الضحايا".

حدّقت إلى الأرض أمامي بينما علا النقاش في الغرفة.

قال ديفيد: "هدوء. التجارب هي أساساً معرّضة لخطر الإيقاف إن لم نثبت لرؤسائنا أنّنا قادرون على السيطرة عليها. واندلاع ثورة أخرى في شيكاغو سيرسّخ اعتقادهم أنّ هذه المحاولة لم تعد مجدية، وهو أمر لا يمكننا أن نسمح بحدوثه إن أردنا الاستمرار في مكافحة العطب الوراثي".

خلف تعبير ديفيد المنهك والشاحب كان ثمّة شيء أقسى وأقوى. أنا أصدّقه. أصدّق أنّه لن يسمح بحدوث ذلك.

قال: "لقد حان الوقت لاستخدام فيروس مصل الذاكرة من أجل إجراء مسح شامل. وأظنّ أنّه علينا استخدامه في تجاربنا الأربعة".

لم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال بصوت عالٍ: "مسح شامل؟" التفت جميع من في الغرفة نحوي في وقت واحد. يبدو أنّهم نسوا وجود عضو سابق في تجاربهم معهم في الغرفة.

قال ديفيد: "المسح هي الكلمة التي نستخدمها للإشارة إلى محو الذاكرة على نطاق واسع. وهذا ما نفعله عندما تكون تجاربنا المشتملة على التعديل السلوكي عرضة لخطر الانهيار. استخدمناه عندما بدأنا كلّ من التجارب المشتملة على تعديل سلوكي، وآخر مرّة استخدمناه في

شيكاغو كانت قبل بضعة أجيال من جيلك". ابتسم لي بغرابة مضيفاً: "لماذا برأيك وقع هذا القدر من الدمار في قطاع المنبوذين؟ لقد حدث تمرّد، واضطررنا إلى قمعه بأنظف طريقة ممكنة".

جلست مذهولة وأنا أتخيّل الطرقات المشقّقة، والنوافذ المحطّمة، وأعمدة النور المقلوبة في قطاع المنبوذين في المدينة، وهو دمار لا يوجد في أيّ مكان آخر، ولا حتّى شمال الجسر الذي يحتوي على مبان مهجورة لكن يبدو أنّها أخليت بسلام. لطالما اعتقدت أنّ قطاعات شيكاغو المدمّرة هي دليل على ما حدث عندما كان الناس لا ينتمون إلى مجتمع. ولم أتخيّل يوماً أنها نتيجة تمرّد أعقبه مسح للذاكرة.

فجأة، تملّكني الغضب. يكفي أنّهم يريدون قمع ثورة، ليس لإنقاذ البشر، بل لإنقاذ تجربتهم الثمينة. لكن لماذا يظنّون أنّهم يملكون حقّ تجريد الناس من ذكرياتهم، وهويّاتهم، وعقولهم، لمجرّد أنّ هذا يناسبهم؟

بالطبع، أنا أعرف الجواب. فبالنسبة إليهم، يُعتبر أهل مدينتي مجرّد حاويات للمادة الوراثية، مجرّد معطوبين وراثياً، لا قيمة لهم سوى بالمورّثات المصحّحة التي ينقلونها إلى ذرّيتهم. أمّا العقول التي في رؤوسهم، أو القلوب التي تنبض في صدورهم، فلا تعنيهم قيد أنملة.

سأل أحد أعضاء المجلس: "متى؟"

أجاب ديفيد: "خلال الثماني والأربعين ساعة المقبلة".

هزّ الجميع رؤوسهم كأنّهم يوافقون على أمر منطقي.

تذكّرت ما قاله لي في مكتبه. إن كنّا نريد أن نكسب هذا الصراع ضدّ العطب الوراثي، سيكون علينا تقديم تضحيات. أنت تفهمين، أليس كذلك؟ كان ينبغي أن أعرف حينذاك أنّه على استعداد تام للتضحية

بذاكرة لا بل بحياة آلاف المعطوبين من أجل استمرار سيطرته على التجارب. وأنه سيضحي بهم من دون التفكير بالبدائل أو الإحساس أنّ عليه أن يتكبّد عناء إنقاذهم.

إنّهم معطوبون في النهاية.

الفصل الثامن والثلاثون

توبياس

رفعت حذائي على طرف سرير تريس وربطت الأشرطة. رأيت من خلال النوافذ الكبيرة أشعة شمس بعد الظهيرة تنعكس على الألواح الجانبية للطائرات المركونة في المهبط. كان عدد من الأنقياء الذين يرتدون الملابس الخضراء يتجوّلون بجانب الأجنحة، وينحنون تحت مقدّمة الطائرات، للتحقّق منها قبل الإقلاع.

سألتُ كارا، الجالسة على بعد سريرين: "ما أخبار مشروعك مع ماثيو؟" سمحت تريس لكارا، وكاليب، وماثيو باختبار مصل الحقيقة الجديد عليها هذا الصباح، لكنّني لم أرها منذ ذلك الحين.

راحت كارا تمرّر فرشاة عبر شعرها. نظرَت إلى أرجاء الغرفة للتأكّد من أنّها خالية قبل أن تجيب: "ليست جيّدة. فحتّى الآن، لا تزال تريس تقاوم الشكل الجديد الذي ابتكرناه من المصل؛ لم يكن له أيّ مفعول. من الغريب جدّاً أن تجعل المورّثات صاحبها مقاوِماً إلى هذا الحدّ لأيّ شكل من أشكال التحكّم بالعقل".

قلت وأنا أهزّ كتفيّ: "قد لا تكون مورّثاتها هي السبب". رفعت قدمي الثانية. "بل شكل خارق من أشكال العناد".

"آه، هل وصل الانفصال إلى مرحلة الإهانات؟ فقد تمرّنت على ذلك كثيراً بعد ما حدث مع ويل، ولديّ كثير من الأفكار عن أنفها".

ابتسمت قائلاً: "لم ننفصل، لكن يسعدني أن أعرف أنّك تملكين هذه المشاعر الدافئة تجاه حبيبتي".

مكتبة الرمحي أحمد

احمرّت وجنتا كارا وهي تجيب: "أعتذر، لا أدري لماذا قفزت إلى ذلك الاستنتاج. صحيح أنّ مشاعري تجاه حبيبتك متضاربة، لكنّني عموماً أحترمها كثيراً".

"أعرف، كنت أمزح وحسب. أحبّ أن أراك مربكة من وقت إلى آخر".

رمقتني كارا بحدّة.

تابعتُ قائلاً: "لكن بالمناسبة، ما خطب أنفها؟"

فُتح باب العنبر، ودخلت تريس بشعر مشعّث ونظرات محمومة. أشعر بالقلق عندما أراها قلقة على هذا النحو، كما لو أنّ الأرض التي أقف عليها لم تعد صلبة. نهضتُ، ثمّ مرّرت يدي على شعرها لتسويته. سألتها بينما انحدرت يدي لترتاح على كتفها: "ماذا جرى؟"

قالت: "كنت في اجتماع المجلس". وضعت يدها على يدي قليلاً، ثمّ جلست على أحد الأسرّة، وتدلّت يداها بين ساقيها.

قالت كارا: "لا أحبّ التكرار، لكن... ماذا جرى؟"

هزّت تريس رأسها كما لو كانت تحاول نفض الغبار عنه. "لدى المجلس خطط... خطط كبيرة".

أخبرتنا باستياء كبير عن الخطّة التي وضعها المجلس لمسح ذاكرة الناس في التجارب. بينما كانت تتحدّث، وضعت يديها تحت ساقيها، وضغطت جسدها إلى الأمام بحيث تحوّل لون معصميها إلى الأحمر.

عندما انتهت، اقتربت للجلوس بجانبها، وأحطت كتفيها بذراعي. نظرت من النافذة إلى الطائرات المصفوفة على المدرج، والتي تمّ تجهيزها للإقلاع. في أقلّ من يومين، ستقوم هذه الطائرات على الأرجح بإلقاء فيروس مصل الذاكرة فوق المدن الخاضعة للتجارب.

قالت كارا لتريس: "وما الذي تنوين فعله؟"

أجابت: "لا أدري. أشعر أنّني لم أعد أعرف ما هو الصواب".

كانت كارا وتريس متشابهتين، فتاتان صقلتهما الخسارة. الفرق هو أنّ ألم كارا جعلها واثقة من كلّ شيء. أمّا تريس فقد حافظت على شكّها وقامت بحمايته على الرغم من كلّ ما مرّت به. ما زالت تقارب كلّ شيء بسؤال وليس بإجابة. وهذه الصفة لديها تثير إعجابي على نحو متزايد.

خيّم علينا الصمت لبضع ثوانٍ، تبعت خلالها حبل أفكاري وهي تلتفّ حول بعضها.

قلت: "لا يمكنهم فعل ذلك. لا يمكنهم محو الجميع. ولا ينبغي أساساً أن يملكوا القدرة على فعل هذا الأمر. كلّ ما يخطر ببالي أنّ هذا الأمر سيكون أسهل بكثير لو كنّا نتعامل مع أناس مختلفين تماماً يمكنهم تمييز المنطق. عندها، لتمكنّا من إيجاد توازن بين حماية التجارب والانفتاح على احتمالات أخرى".

قالت كارا وهي تتنهّد: "ربّما يجدر بنا استيراد مجموعة جديدة من العلماء، والتخلّص من علمائنا القدامى".

تقلّص وجه تريس، ورفعت يدها إلى جبينها كأنّها تمسح عنه بعض الألم العابر. قالت: "كلاّ، نحن لسنا مضطرّين حتّى إلى فعل ذلك".

نظرت إليّ، وأسرتني عيناها المتألّقتين.

قالت: "بالنسبة إلى مصل الذاكرة، توصّل ألان وماثيو إلى طريقة لجعل الأمصال تسلك سلوك الفيروسات، فيتمكّنون من نشرها بين الأهالي جميعاً من دون الحاجة إلى حقن كلّ شخص على حدة. هكذا يخطّطون لعملية مسح الذاكرة. لكن بإمكاننا أن نقوم نحن بمسح ذاكرتهم". راحت تسرع وهي تتحدّث مع اتّخاذ الفكرة شكلاً في عقلها،

وكان حماسها معدياً. فقد أخذت الفكرة تتبلور بداخلي كأنّني أنا من أتيت بها. لكنّني لم أشعر أنّها تقترح حلاًّ لمشكلتنا، بل تقترح أن نتسبّب بمشكلة أخرى. "نمسح ذاكرة المكتب، ونعيد برمجتهم من دون الدعاية ومن دون الاحتقار الذي يكنّونه للمعطوبين وراثياً. عندها، لن يتعرّضوا لذاكرة الأهالي في التجارب، ويكون الخطر قد زال إلى الأبد".

رفعت كارا حاجبيها متسائلة: "لكن ألن يؤدّي ذلك إلى محو كلّ معرفتهم، بحيث يصبحون بلا فائدة؟"

أجابت تريس: "لا أدري. أظنّ أنّه ثمّة طريقة لاستهداف ذاكرة الإنسان بحسب مكان تخزين المعرفة في الدماغ، وإلاّ لما عرف أعضاء الجماعات الأوائل كيف يتكلّمون، أو كيف يربطون أحذيتهم، وما إلى ذلك". وقفت تريس متابعة: "علينا أن نسأل ماثيو، فهو على دربة أكبر بكيفية عمل هذا المصل".

نهضت أنا أيضاً، ووقفت في طريقها. غير أنّ أشعة الشمس التي انعكست على أجنحة الطائرات بهرت عينيّ ولم أستطع رؤية وجهها.

قلت: "تريس، مهلاً. هل تريدين حقّاً محو ذاكرة أعداد غفيرة من الناس ضدّ إرادتهم؟ هذا هو الشيء نفسه الذي يخطّطون لفعله بأصدقائنا وأسرنا".

رفعتُ يدي لأحجب أشعة الشمس عن عينيّ، فرأيت نظرتها الباردة. لقد رأيت تعبيرها في عقلي حتّى قبل أن أنظر إليها. بدت لي أكبر سنّاً ممّا كانت عليه يوماً، جادّة وقاسية ومنهكة. كنت أشعر أنا أيضاً بالشيء نفسه.

أجابت: "هؤلاء الناس لا يملكون أيّ اعتبار لحياة البشر. إنّهم على وشك أن يمسحوا ذاكرة كلّ أصدقائنا وجيراننا. وهم مسؤولون عن موت

أعداد كبيرة من أعضاء جماعتنا القديمة". خطت خطوة جانبية ثمّ توجّهت نحو الباب مضيفة: "أظنّ أنّهم محظوظون لأنّني لن أقتلهم".

الفصل التاسع والثلاثون

تريس

جمع ماثيو يديه خلف ظهره.

قال: "لا، لا. المصل لا يمحو كلّ معارف الشخص. هل تظنّين أنّنا نصمّم مصلاً يُنسي الناس كيفيّة النطق أو المشي؟" هزّ رأسه متابعاً: "إنّه يستهدف الذكريات الواضحة، كالاسم، والمكان الذي نشأتِ فيه، واسم أستاذك الأوّل، ويبقي الذكريات الضمنية على حالها، كاللغة، أو كيفيّة ربط الحذاء، أو ركوب الدرّاجة".

قالت كارا: "هذا مثير للاهتمام، وهل ينجح ذلك فعلاً؟"

تبادلنا نظرة أنا وتوبياس. لا شيء يشبه الاستماع إلى حديث بين أحد أبناء المعرفة وشخص مؤهّل ليكون من أبناء المعرفة. وقفت كارا وماثيو على مقربة من بعضهما، وكلّما طال حديثهما، ازدادت إشارات أيديهما.

قال ماثيو: "حتماً، ستزول بعض الذكريات الهامّة. لكن إن كان لدينا سجل عن اكتشافات الشخص العلمية أو تاريخه، يمكنه تعلّمها مجدّداً خلال الفترة الضبابية التي تتلو محو الذاكرة. إذ يكون الناس مطواعين جدّاً في تلك المرحلة".

استندت إلى الحائط.

قلت: "مهلاً، إن كان المكتب سيحمّل كلّ تلك الطائرات بفيروس مصل الذاكرة، هل سيتبقّى لدينا مصل كافٍ لاستخدامه ضدّ المجمّع؟"

أجاب ماثيو: "علينا الحصول عليه أوّلاً، في أقلّ من ثمان وأربعين ساعة".

لم تكن كارا تصغي لما أقوله. "بعد أن تقوموا بمحو ذاكرتهم، ألا يترتّب عليكم برمجتهم بذاكرة جديدة؟ كيف يحدث ذلك؟"

"سيكون علينا إعادة تعليمهم وحسب. فكما قلت، يعاني الناس من الإرباك لبضعة أيّام بعد مسح الذاكرة، وهذا الأمر يسهّل السيطرة عليهم". جلس ماثيو، ودار بكرسيه مرّة وهو يتابع: "يمكننا إعطاؤهم صفّ تاريخ جديد يعلّمهم الوقائع عوضاً عن الدعاية الكاذبة".

قلت: "ونعرض عليهم شرائح عن الضواحي لإعطائهم درس تاريخ أساسي. فهم يملكون صوراً عن حرب سبّبها الأنقياء".

هزّ ماثيو رأسه: "عظيم، لكن ثمّة مشكلة كبيرة. ففيروس مصل الذاكرة موجود في مختبر الأسلحة الذي حاولت نيتا اقتحامه وفشلت".

قال توبياس: "كان يفترض بنا أنا وكريستينا التحدّث مع ريجي، لكن في ظلّ هذه الخطّة الجديدة، أظنّ أنّه يجدر بنا التحدّث مع نيتا عوضاً عنه".

قلت: "أعتقد أنّك على حقّ. فلنذهب لنعرف أين أخطأَت".

* * *

عندما وصلت إلى هنا للمرّة الأولى، وجدت المجمّع ضخماً ومجهولاً. أمّا الآن، فلم أعد حتّى بحاجة إلى مراجعة اللافتات لأتذكّر كيف أصل إلى المستشفى، وكذلك الأمر بالنسبة إلى توبياس، الذي كان يجاريني في السرعة. من الغريب كيف أنّ الوقت يجعل المساحات تتقلّص، ويجعل غرابتها عادية.

لم نقل شيئاً لبعضنا، مع أنّني كنت أشعر أنّه ثمّة حديث يتحضّر بيننا. أخيراً قرّرت أن أسأل.

"ما الأمر؟ بالكاد قلتَ شيئاً خلال الاجتماع".

هزّ رأسه مجيباً: "في الواقع... لست واثقاً أنّ هذا ما يجب فعله. نقرّر أن نمحو ذاكرتهم لأنّهم أرادوا محو ذاكرة أصدقائنا؟"

التفتّ إليه ولمست كتفيه بخفّة. "توبياس، لدينا ثمان وأربعون ساعة لإيقافهم. إن كنت تستطيع التوصّل إلى فكرة أخرى، أيّ شيء ينقذ مدينتنا، أنا منفتحة عليها".

بدت عيناه الزرقاوان الداكنتان مهزومتين وحزينتين. "لا أستطيع. لكنّنا نتصرّف بدافع اليأس لإنقاذ شيء مهمّ بالنسبة إلينا، تماماً مثلما يفعل المكتب. فما الفرق بيننا وبينهم؟"

قلت بحزم: "الفرق هو الحقّ. أهل المدينة عموماً هم أبرياء، في حين أنّ العاملين في المكتب، الذين زوّدوا جانين بمحاكاة الهجوم، ليسوا كذلك".

زمّ شفتيه، وأحسست أنّه لم يقتنع تماماً.

تنهّدت وقلت: "هذا ليس هو الحلّ المثالي، لكن عندما يتحتّم عليك الاختيار بين أمرين أحلاهما مرّ، تختار الحلّ الذي سينقذ أحبّاءك والذي تعتقد بصحّته أكثر. ما من سبيل آخر".

أمسك بيدي، وكانت يده دافئة وقوية. "حسناً".

"تريس!" دفعت كريستينا أبواب المستشفى وأخذت تهرول نحونا. أتى بيتر على أعقابها وشعره الأسود مسرّح بعناية.

ظننت في البداية أنّها فرحة، وأحسست بشيء من الأمل. هل استيقظ يوريا؟

لكن كلّما اقتربَت، اتّضح لي أكثر أنّها ليست سعيدة، بل مذعورة. وقف بيتر خلفها كاتفاً ذراعيه.

قالت لاهثة: "لقد تحدّثت للتو مع أحد الأطبّاء، وقال لي إنّ يوريا لن يستيقظ. ذكر شيئاً عن... توقّف الموجات الدماغية".

أحسست بثقل على كاهلي. كنت أعرف بالطبع أنّ يوريا قد لا يستيقظ أبداً. لكنّ الأمل الذي أبعد عنّي الحزن حتّى الآن بدأ يتضاءل ويختفي مع كلّ كلمة تلفظها.

"كانوا ينوون نزع الأجهزة عنه، لكنّني توسّلت إليهم ألاّ يفعلوا". مسحت إحدى عينيها بقوّة بطرف يدها، وأزالت دمعة قبل أن تسقط. "أخيراً، قال الطبيب إنّه سيمنحني أربعة أيّام لكي أخبر عائلته".

عائلته.. زيك ما زال في المدينة، وكذلك أمّهما المنتمية إلى الشجاعة. لم يخطر لي أبداً من قبل أنّهما لا يعرفان ما حلّ به، ولم نتكبّد عناء إخبارهما، لأنّنا كنّا منهمكين تماماً-

قلت فجأة وأنا أمسك بذراع توبياس، الذي بدا مذهولاً: "سيمسحون ذاكرة أهل المدينة خلال ثمان وأربعين ساعة. إن لم نمنعهم، فإنّ زيك وأمّه سينسيانه".

سينسيانه قبل أن يحصلا على فرصة توديعه، كما لو أنّه لم يعش يوماً.

حملقت كريستينا عينيها متسائلة: "ماذا؟ أسرتي هناك. لا يمكنهم مسح ذاكرة كلّ الناس! كيف يُقدمون على أمر كهذا؟"

قال بيتر: "في الواقع، هذا سهل جدّاً". كنت قد نسيت أنّه معنا.

سألته: "ماذا تفعل هنا؟"

"ذهبت لأرى يوريا. هل من قانون يمنع ذلك؟"

"أنت لم تكترث له يوماً، لا يحق لك-"

هزّت كريستينا يدها قائلة: "تريس، ليس الآن، مفهوم؟"

فتح توبياس فمه متردّداً، كأنّ الكلام ينتظر على لسانه.

قال: "علينا الدخول إلى المدينة. فقد قال ماثيو إنّنا نستطيع تلقيح الناس ضدّ مصل الذاكرة، أليس كذلك؟ سندخل إذاً، ونلقّح أسرة يوريا تحسّباً، ثمّ نصطحبهم إلى المجمّع لتوديعه. لكن علينا القيام بذلك غداً، وإلاّ سيفوت الأوان". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "ويمكنك أن تلقّحي أسرتك أنت أيضاً، كريستينا. سأقوم أنا بإخبار زيك وهانا على أيّ حال".

هزّت كريستينا رأسها موافقة. وشددت على ذراعها في محاولة لطمأنتها.

قال بيتر: "أنا ذاهب أيضاً، وإلاّ سأخبر ديفيد بما تخطّطون له".

نظرنا إليه كلّنا باستغراب. لا أدري ماذا سيجني بيتر من رحلة إلى المدينة، لكن لا يمكن أن تكون نواياه سليمة. في الوقت نفسه، ليس في صالحنا أن يعرف ديفيد بما ننوي فعله، لا سيّما وأنّنا لا نملك الوقت الكافي.

قال توبياس: "حسناً. لكن إن تسبّبت بأيّ متاعب، أحتفظ بحقّ ضربك حتّى تفقد الوعي وحبسك في مبنى مهجور في مكان ما".

نظر بيتر إلى الأعلى بسأم.

سألت كريستينا: "كيف سنذهب إلى هناك؟ إذ لا يبدو أنّهم يسمحون للناس باستعارة السيّارات".

قلت: "أنا واثقة أنّنا نستطيع إقناع عمّار باصطحابكم. فقد أخبرني اليوم أنّه يتطوّع دائماً للذهاب في دوريات، ما يعني أنّه يعرف كلّ الأشخاص المناسبين. وأنا واثقة أنّه سيوافق على مساعدة يوريا وأسرته".

"سأذهب لأسأله حالاً. على أحدنا أيضاً أن يلازم يوريا... للتأكّد أنّ الطبيب لن يتراجع في كلامه. كريستينا، وليس بيتر". فرك توبياس مؤخّر عنقه وهو يضغط على وشم الشجاعة كأنّه يريد نزعه عن جسده. "بعد

ذلك، سيكون عليّ إيجاد طريقة لإخبار أسرة يوريا أنّه قُتل في الوقت الذي كان يفترض بي أن أعتني به".

قلت: "توبياس-" لكنّه رفع يده لإسكاتي.

بدأ يبتعد قائلاً: "لن يسمحوا لي بزيارة نيتا على أيّ حال".

في بعض الأحيان، من الصعب أن نعرف كيف نعتني بالناس. بينما كنت أراقب بيتر وتوبياس وهما يبتعدان، ويمشي كلّ منهما على مسافة من الآخر، فكّرت أنّه من الممكن أن يكون توبياس بحاجة إلى شخص يلحق به، لأنّ الناس كانوا يسمحون له بالابتعاد، ويتركونه ينعزل، طوال حياته. لكنّه على حقّ، عليه أن يفعل ذلك من أجل زيك، وعليّ أن أتحدّث مع نيتا.

قالت كريستينا: "هيّا بنا، ففترة الزيارة على وشك الانتهاء. عليّ العودة للجلوس مع يوريا".

* * *

قبل أن أذهب إلى غرفة نيتا، التي عرفتها من الحارس الجالس عند الباب، توقّفت عند غرفة يوريا مع كريستينا. جلسَت على الكرسي بجانبه، وتغضّن تحت ثقل ساقيها.

مرّ وقت طويل منذ أن تحدّثنا كصديقتين، ومنذ أن ضحكنا معاً. فقد غرقت في ضباب المكتب، ووعد الانتماء.

جلست بجانبها ونظرت إليه. لم يعد يبدو عليه أنّه مصاب، باستثناء بعض البقع الزرقاء، والشقوق، لكن لا شيء خطير بما فيه الكفاية للتسبّب بموته. أملت رأسي لرؤية وشم الأفعى الملتفّ حول أذنه. أعرف أنّه يوريا، لكن لا يبدو كذلك من دون ابتسامته العريضة وعينيه السوداوين المتألّقتين واليقظتين.

قالت: "لم نكن أنا وهو قريبين من بعضنا حقّاً، إلاّ... في النهاية. فقد خسر شخصاً يحبّه، وكذلك أنا..."

"أعرف، لقد ساعدتِه حقّاً".

جررت كرسياً لأجلس بجانبها. فأمسكَت بيد يوريا الممدوة فوق الأغطية بلا حراك.

قالت: "أشعر في بعض الأحيان أنّني خسرت كلّ أصدقائي".

"أنت لم تخسري كارا، ولا توبياس. كما أنّك لم تخسريني، ولن تفعلي أبداً".

استدارت نحوي، وفي غمرة حزننا، احتضنّا بعضنا، بإحساس اليأس نفسه الذي خيّم علينا عندما أخبرتني أنّها سامحتني على قتل ويل. لقد استمرّت صداقتنا في ظلّ ظروف غير مؤاتية إطلاقاً، على الرغم من إقدامي على قتل الشابّ الذي أحبّته، وعلى الرغم من خساراتنا العديدة. كان من الممكن لروابط أخرى أن تنحلّ بسهولة، لكنّ عرى صداقتنا لم تنفصم، لسبب ما.

بقينا على هذه الحال للحظات طويلة، إلى أن ذهب عنّا اليأس.

قالت: "شكراً لك. أنت أيضاً لن تخسريني".

ابتسمت مجيبة: "أنا واثقة أنّني لو كنت سأخسرك، لحدث هذا منذ وقت طويل. اسمعي، لديّ أخبار جديدة".

أخبرتها عن خطّتنا لمنع المكتب من إعادة ضبط التجارب. وبينما أنا أتحدّث، فكّرت بالأشخاص الذين قد تفقدهم، أي أبيها، وأمّها، وشقيقتها. كلّ تلك الروابط ستتبدّل أو تُمحى إلى الأبد باسم النقاء الوراثي.

قلت لها عندما انتهيت: "أنا آسفة. أنا أعرف أنّك ترغبين في مساعدتنا على الأرجح، لكن..."

حدّقَت إلى يوريا قائلة: "لا تأسفي، فأنا مسرورة لأنّني سأذهب إلى المدينة". هزّت رأسها بضع مرّات إلى الأسفل متابعة: "أنا واثقة أنّك ستنجحين في منعهم من مسح ذاكرة الناس".

تمنّيت أن تكون على حقّ.

* * *

لم يكن قد تبقّى لديّ سوى عشر دقائق قبل انتهاء فترة الزيارة عندما وصلت إلى غرفة نيتا. رفع الحارس نظره عن كتابه، وحدّق إليّ باستغراب.

"هل يمكنني الدخول؟"

"لا يفترض بي حقّاً السماح لأحد بالدخول".

"في الحقيقة أنا من أطلق عليها النار. هل يمكن لهذه المعلومة أن تغيّر شيئاً؟"

هزّ كتفيه قائلاً: "حسناً، شرط أن تعديني بعدم إطلاق النار عليها مجدّداً، والخروج خلال عشر دقائق".

"اتّفقنا".

طلب منّي أن أخلع سترتي للتأكّد من أنّني لا أحمل أيّ سلاح، ثمّ أدخلني. أُجفلت نيتا، وتأهّبت بحذر، بقدر ما أسعفها جسمها على كلّ حال. كان نصف جسدها مكسوّاً بالجصّ، وإحدى يداها مكبّلة إلى السرير، كما لو أنّها تستطيع الهرب حتّى لو أرادت ذلك. بدا شعرها مشعّثاً، لكنّها ما زالت جميلة بالطبع.

سألتني: "ماذا تفعلين هنا؟"

لم أجبها، بل تحقّقتُ من زوايا الغرفة بحثاً عن كاميرات، ووجدتُ واحدة أمامي موجّهة إلى سرير نيتا.

"لا يوجد مكبّرات للصوت، فهم لا يفعلون ذلك هنا".

"هذا جيّد". سحبتُ كرسياً وجلست بجانبها. "لقد أتيت لأنّني أحتاج إلى معلومات هامّة منك".

حدّقت إليّ مجيبة: "لقد سبق وأخبرتهم بكلّ ما أرغب في قوله، وليس لديّ المزيد، لا سيّما للشخص الذي أطلق عليّ النار".

"لو لم أطلق عليك النار، لما أصبحتُ الشخص المفضّل لدى ديفيد، ولما عرفتُ ما عرفت". نظرت إلى الباب، وانتابني خوف لا أساس له من إمكانية إصغاء شخص ما إلينا. "لقد وضعنا خطّة جديدة، أنا، وماثيو، وتوبياس. ونحن بحاجة إلى الدخول إلى مختبر الأسلحة".

"وتظنّون أنّني أستطيع مساعدتكم في هذا الأمر؟" هزّت رأسها متابعة: "هل نسيت أنّني لم أستطع الدخول في المرّة السابقة؟"

"أريد أن أعرف ما هي التدابير الأمنية المستخدمة هناك. هل ديفيد هو الشخص الوحيد الذي يعرف كلمة المرور؟"

"لا أظنّ... أنّه الشخص الوحيد. لكان هذا غباءً. لا شكّ أنّ رؤساءه يعرفونها، لكنّه الشخص الوحيد في المجمّع الذي يعرفها، أجل".

"حسناً، ما هو إذاً التدبير الأمني الاحتياطي؟ ذاك الذي يتمّ تفعيله عند تفجير الأبواب؟"

ضغطت على شفتيها بحيث اختفتا تقريباً، وحدّقت إلى الجصّ الذي يغطّي نصف جسدها. أجابت: "إنّه المصل القاتل، لكن بشكل رذاذ، ولا يمكن إيقافه عملياً. حتّى لو كنت ترتدين لباساً عازلاً أو أيّ شيء من هذا القبيل، فهو قادر على اختراقه، إلاّ أنّه يستغرق وقتاً أطول بقليل. هذا ما تقوله تقارير المختبر".

سألتها: "إذاً هم يقومون تلقائياً بقتل أيّ شخص يدخل تلك الغرفة من دون كلمة المرور؟"

"وهل يفاجئك ذلك؟"

"لا أظنّ". اتّكأت على ركبتيّ متابعة: "وما من طريقة أخرى للدخول إلاّ بالرمز الذي يملكه ديفيد".

"وكما اكتشفتِ بنفسك، ليس لديه أيّ استعداد على الإطلاق للبوح به".

"هل يملك الأنقياء وراثياً أيّ فرصة لمقاومة المصل القاتل؟"

"كلاّ، إطلاقاً".

"معظم الأنقياء لا يستطيعون مقاومة مصل الحقيقة أيضاً، لكن بمقدوري ذلك".

"إن كنت ترغبين في اللعب مع الموت، أهلا وسهلاً بك". اتّكأت على الوسائد قائلة: "هذا كلّ ما لديّ".

"سؤال واحد بعد. لنقل إنّني أريد اللعب مع الموت، أين أعثر على المتفجّرات لكي أخترق الأبواب؟"

"كأنّني سأخبرك".

"لا أظنّ أنّك تفهمين الوضع. إن نجحت هذه الخطّة، لن تبقين سجينة لبقية حياتك بعد اليوم. بل ستشفين، وتعودين حرّة. من مصلحتك إذاً مساعدتي".

حدّقت إليّ كأنّها تزن أقوالي وتقيسها. شدّت معصمها الموثوق، بحيث خلّفت الحلقات المعدنية خطّاً على بشرتها.

قالت: "ريجي يملك المتفجّرات، ويمكنه تعليمك كيفيّة استخدامها. لكنّه غير ماهر في التطبيق، لذلك حبّاً بالله، لا تصطحبيه معك إلاّ إن كنت راغبة في تأدية دور حاضنة أطفال".

"حسناً".

"أخبريه إنّ اختراق هذه الأبواب سيحتاج إلى طاقة تفجير مضاعَفة، لأنّها منيعة جدّاً".

أومأت برأسي موافقة. أطلقت ساعتي رنّة منخفضة عند اكتمال الساعة، مؤذنة بانتهاء وقت الزيارة. فوقفت وأعدت كرسيّي إلى مكانه.

قلت" شكراً على المساعدة".

سألتني: "ما هي الخطّة؟ إن كنت لا تمانعين بإخباري".

وقفت متردّدة.

قلت أخيراً: "لنقل إنّها ستمحو عبارة المعطوبين وراثياً من قاموس الجميع".

فتح الحارس الباب، بقصد توبيخي على الأرجح لبقائي في الغرفة أطول ممّا ينبغي، لكنّني كنت في طريقي إلى الخارج. التفتّ عند الباب، ورأيت ابتسامة صغيرة على شفتيّ نيتا.

الفصل الأربعون

توبياس

وافق عمّار على مساعدتنا على الدخول إلى المدينة من دون أن يحتاج إلى كثير من الإقناع، لا بل كان متلهّفاً للمغامرة تماماً مثلما توقّعت. وافقنا على الاجتماع به في ذلك المساء عند العشاء لمناقشة الخطّة مع كريستينا، وبيتر، وجورج، الذي سيساعدنا في تأمين سيّارة.

بعدما تحدّثت مع عمّار، ذهبت إلى العنبر، وخبّأت رأسي تحت وسادتي لمدّة طويلة. ثمّ رحت أفكّر بما سأقوله لزيك عندما أراه. أنا آسف، لقد فعلت ما ظننت أنّه الصواب، وكان الجميع يعتنون بيوريا، لكن لم يخطر ببالي...

دخل أشخاص آخرون إلى الغرفة وغادروها، وتمّ تشغيل التدفئة التي أرسلت هواءها الساخن، ثمّ أُطفئت مجدّداً، بينما كنت أفكّر طوال الوقت بهذا الحديث، وأحيك الأعذار، وأختار النبرة المناسبة، والحركات المناسبة. أخيراً، أحسست بالإحباط، فرفعت الوسادة عن وجهي ورميتها على الحائط المقابل. أُجفلت كارا، التي كانت تسوّي قميصاً نظيفاً ارتدته للتوّ.

قالت: "ظننتك نائماً".

"أنا آسف".

لمست شعرها للتأكّد أنّ جميع خصله مربوطة بإحكام. كانت حذرة جدّاً في حركاتها، ودقيقة جدّاً بحيث ذكّرتني بعزف أبناء الوئام على أوتار البانجو.

سألتها وأنا أجلس: "لديّ سؤال، وهو شخصي إلى حدّ ما".

"حسناً". جلست أمامي على سرير تريس. "تفضّل".

"كيف تمكّنت من مسامحة تريس بعد ما فعلته بأخيك؟ هذا إن كنت قد سامحتها فعلاً".

احتضنت كارا جسدها بذراعيها مفكّرة. "في بعض الأحيان أعتقد أنّني سامحتها. وفي أحيان أخرى لا أكون واثقة تماماً. لا أدري كيف أصف لك هذا الإحساس، فهو أشبه بالسؤال كيف تتابع حياتك بعد موت أحدهم. أنت تقوم بذلك وحسب، وفي اليوم التالي تقوم به مجدّداً".

"هل من... طريقة كانت تستطيع بها تسهيل هذا الأمر عليك؟ أو طريقة سهّلت بها عليك مسامحتها؟"

"لماذا تسأل؟" وضعت يدها على ركبتي. "هل بسبب يوريا؟"

أجبتها بحزم: "أجل". وحرّكت ركبتي قليلاً بحيث سقطت يدها عنها. فأنا لا أحتاج إلى التربيت أو المواساة، مثل طفل صغير. لا أحتاج إلى حاجبيها المرفوعين، أو صوتها الناعم لإخراج انفعال من داخلي أفضلّ احتواءه.

"حسناً". استقامت، وعندما تحدّثت مجدّداً، بدا صوتها عادياً، كالعادة. "أظنّ أنّ أهمّ شيء فعلَتْه - وبالطبع من دون أن تقصد ذلك - هو الاعتراف. فثمّة فرق بين الإقرار والاعتراف. فالإقرار يشتمل على استعطاف وإعطاء الأعذار على أمور لا يمكن أن نعذر عليها. أمّا الاعتراف فيسمّي الجريمة باسمها، مهما تكن خطورتها. وقد كنت بحاجة إلى هذا الشيء".

هززت برأسي موافقاً.

أضافت: "لكن فور، أنت لم تقتل يوريا. لم تكن أنت من زرع القنبلة التي أودت بحياته، ولا أنت من وضع الخطّة التي أدّت إلى ذلك الانفجار".

"لكنّني شاركت في الخطّة".

"آه، اسكت، وهل كنت لتفعل؟" قالت بلطف وهي تبتسم لي: "لقد وقعت تلك الحادثة، وكانت فظيعة. وأنت لست كاملاً، هذا كلّ شيء. لا تخلط بين الحزن والإحساس بالذنب".

وقفنا بصمت في الغرفة الخالية لبضع دقائق، وحاولتُ أن أترك كلامها يستقرّ في ذهني.

* * *

تناولت العشاء مع عمّار، وجورج، وكريستينا، وبيتر في الكافتيريا بين طاولة المشروبات وصفّ من سلال المهملات. برد الحساء قبل أن أتمكّن من إنهائه، وكانت رقائق القمح لا تزال تسبح في الحساء.

أخبرنا عمّار متى وأين نلتقي، ثمّ ذهبنا إلى الممرّ المجاور للمطابخ لكي لا يرانا أحد، وأخرج صندوقاً أسود صغيراً يحتوي على حقن. أعطى واحدة لي، ولكريستينا، وبيتر، مع مناديل مضادّة للباكتيريا مغلّفة كلّ حدة، وهو شيء أظنّ أنّ عمّار وحده يتكبّد عناء استخدامه.

قالت كريستينا: "ما هذا؟ لن أحقن نفسي به قبل أن أعرف ما هو".

طوى عمّار ذراعيه قائلاً: "حسناً. ثمّة احتمال أن نكون ما زلنا في المدينة عندما يتمّ نشر مصل الذاكرة. لذلك عليكم أن تلقّحوا أنفسكم ضدّه إن لم ترغبوا في نسيان كلّ ذكرياتكم. وهو المصل نفسه الذي ستحقنونه في أذرع أفراد أسرتكم، لذلك لا تقلقوا بشأنه".

مدّت كريستينا ذراعها، وتحسّست باطن مرفقها إلى أن عثرت على شريان. أمّا أنا، فغرزت الإبرة في جانب عنقي من باب العادة، مثلما كنت أفعل في كلّ مرّة أدخل فيها مشهد الخوف، وهو أمر كان يتكرّر عدّة مرّات في الأسبوع في إحدى المراحل. فعل عمّار الشيء نفسه.

بيد أنّني لاحظت أنّ بيتر تظاهر أنّه يحقن نفسه، إذ ضغط على الحقنة وسال محتواها على رقبته، قبل أن يمسحه بكمّه.

تساءلت ما هو إحساس المرء عندما يقرّر طوعاً نسيان كلّ شيء.

* * *

بعد العشاء، أتت إليّ كريستينا وقالت: "علينا التحدّث".

نزلنا السلّم الطويل المؤدّي إلى المكان المخصّص للمعطوبين تحت الأرض، في خطوات متزامنة، إلى أن وصلنا إلى الرواق الملوّن. أخيراً، كتفت ذراعيها، بينما تراقصت الأضواء البنفسجية فوق أنفها وفمها.

قالت: "ألا يعرف عمّار أنّنا ذاهبون لنحول دون مسح ذاكرة المدينة؟"

قلت: "كلاّ، فهو وفيّ للمكتب، ولا أريد توريطه".

"أنت تعرف أنّ المدينة ما زالت على شفير الثورة". تحوّلت الأضواء إلى اللون الأزرق. "والسبب الذي يدفع المكتب إلى مسح ذاكرة أصدقائنا وأقاربنا هو منعهم من قتل بعضهم البعض. إن حلنا دون ذلك، سيشنّ الأوفياء هجومهم على إيفلين، وستردّ إيفلين عبر إطلاق المصل القاتل الذي سيودي بحياة كثير من الناس. ربّما ما زلت مستاءة منك، لكن لا أظنّ أنّك توافق على موت هذا العدد من الناس في المدينة، لا سيّما والداك".

تنهّدت قائلاً: "بصراحة، أنا لا أكترث لهما حقاً".

قالت عابسة: "لا يمكن أن تكون جادّاً، فهما والداك".

"بل على العكس. أنا أريد إخبار زيك وأمّه بما فعلته بيوريا. وباستثناء ذلك، لا أكترث حقّاً لما يصيب إيفلين وماركوس".

"إن كنت لا تكترث لأمر أسرتك، لا بدّ أنّ مصير بقيّة الناس يهمّك!" أمسكت بذراعي بقبضة قوية وهزّتني لكي أنظر إليها. "فور، أختي الصغيرة هناك. إن تصادمت إيفلين مع الأوفياء، قد تتأذّى، ولن أكون هناك لحمايتها".

رأيت كريستينا مع أسرتها في يوم الزيارة، عندما كانت لا تزال ابنة النزاهة الثرثارة بالنسبة إليّ. راقبت أمّها وهي تسوّي قبّة قميص كريستينا بابتسامة فخورة. إن نُشر فيروس مصل الذاكرة، ستُمحى تلك الذكرى من ذهن أمّها. وإن لم يُنشر، ستعيش أسرتها صراعاً آخر يمزّق المدينة من أجل السلطة.

سألتها: "ما الذي تقترحينه إذاً؟"

أفلتتني قائلة: "لا بدّ من وجود طريقة لمنع انفجار العنف مجدّداً من دون أن يتضمّن ذلك محو ذاكرة الجميع".

استسلمت قائلاً: "ربّما". لم أكن قد فكّرت بذلك لأنّه لم يبد لي ضرورياً. لكنّه ضروري بالطبع. "هل كانت لديك فكرة عن كيفيّة إيقافهم؟"

قالت كريستينا: "تتلخّص المشكلة في الأساس في مواجهة بين والديك. أما من شيء يمكنك قوله لهما لمنعهما من قتل بعضهما البعض؟"

"شيء أقوله لهما؟ هل تمزحين؟ هما لا يصغيان لأيّ أحد، ولا يفعلان شيئاً لا يعود عليهما بفائدة مباشرة".

"إذاً لا يمكنك فعل شيء، بل ستترك المدينة تمزّق نفسها إرباً".

حدّقتُ إلى حذائي، ورحت أفكّر، مغموراً بالضوء الأخضر. لو كان والداي مختلفان، ومنطقيان، وأقلّ استسلاماً للألم والغضب والرغبة في

الانتقام، لكنت استطعت. لربّما أصغيا حينئذ لابنهما. لكن مع الأسف، والداي ليسا مختلفين.

لكن بمقدوري ذلك. بمقدوري تغييرهما إن كنت ما زلت أريدهما. مجرّد قطرة من مصل الذاكرة في قهوتهما الصباحية أو في كوب المياه قبل النوم، وسيصبحان شخصين جديدين، مثل لوحين أبيضين، لم يخلّف عليهما التاريخ أيّ أثر. سيكون عليهما أن يتعلّما أنّهما يملكان ابناً، وأن يتعلّما اسمي مجدّداً.

نفس الطريقة التي سنستخدمها لعلاج المجمّع يمكنني استخدامها لعلاجهما.

نظرتُ إلى كريستينا.

"أحضري لي بعضاً من مصل الذاكرة. بينما تقومين أنت، وعمّار، وبيتر بالبحث عن أفراد أسرتك وأسرة يوريا، سأتولّى ذلك. قد لا أملك الوقت الكافي للوصول إليهما هما الاثنين، لكن يكفي أن أصل إلى أحدهما".

"وكيف ستنفصل عنّا؟"

"عليّ... لا أدري، علينا أن نضيف تعقيداً ما، أمراً يتطلّب من أحدنا ترك المجموعة".

سألَت كريستينا: "ماذا لو فقدنا إحدى العجلات؟ نحن سنذهب ليلاً، أليس كذلك؟ يمكنني أن أطلب من عمّار التوقّف لكي أذهب إلى الحمّام أو شيء من هذا القبيل، ثمّ أشقّ أحد الإطارات، وعندئذ سيتعيّن علينا أن ننفصل لكي نعثر على شاحنة أخرى".

فكّرت بذلك للحظة. يمكنني إخبار عمّار بما جرى فعلاً، لكنّ هذا الأمر سيتطلّب حلّ عقدة الدعاية والأكاذيب التي حاكها المكتب في رأسه. وحتّى لو استطعت ذلك، فنحن لا نملك الوقت الكافي.

غير أنّنا نملك الوقت من أجل كذبة محبوكة بعناية. فعمّار يعرف أنّ أبي علّمني كيفيّة تشغيل سيّارة بواسطة الأسلاك عندما كنت أصغر سنّاً. ولن يستغرب تطوّعي للذهاب لإيجاد عربة أخرى.

قلت: "ستفي هذه الحجّة بالغرض".

"جيّد". أمالت رأسها مضيفة: "إذاً، هل ستقوم حقّاً بمحو ذاكرة أحد أبويك؟"

"وماذا تفعلين عندما يكون أبواك شرّيرين؟ تستبدلين أحدهما بإنسان جديد. فعندما يتخلّص أحدهما من كلّ الأحقاد التي يملكها، قد يتمكّنان معاً من التفاوض على اتّفاق سلام أو شيء من هذا القبيل".

نظرت إليّ عابسة لبضع ثوانٍ كأنّها تودّ قول شيء، غير أنّها اكتفت بهزّ رأسها موافقة.

الفصل الحادي والأربعون

تريس

لسعت رائحة المبيّض أنفي. وقفت بجانب ممسحة في غرفة الأرشيف في الطابق السفلي، أصغي إلى ردود الفعل على ما قلته للتوّ للجميع، وهو أنّ أيّ شخص يقتحم مختبر الأسلحة يُقدم على عمليّة انتحارية. فالمصل القاتل لا يمكن إيقافه.

قال ماثيو: "السؤال هو، هل هذا الأمر يستحقّ أن نضحّي بحياتنا من أجله؟"

هذه هي الغرفة التي كان ماثيو، وكاليب، وكارا يطوّرون فيها المصل الجديد قبل أن تتغيّر الخطّة. انتشرت القوارير، والأكواب، والدفاتر التي دُوّنت عليها الملاحظات على الطاولة أمام ماثيو. وكان الحبل المعلّق حول عنقه قد انتقل إلى فمه الآن، وراح يمضغه بشرود.

استند توبياس إلى الباب، كاتفاً ذراعيه. أذكر أنّه كان يقف بهذه الطريقة خلال التلقين، يشاهدنا ونحن نتبارز. بدا لي في ذلك الوقت طويل القامة وقوياً جدّاً بحيث لم أحلم أن يلقي عليّ أكثر من نظرة خاطفة.

قلت: "الأمر لا يتعلّق بالانتقام وحسب، ولا يتعلّق بما فعلوه بجماعة نكران الذات، بل بإيقافهم قبل أن يرتكبوا جريمة مماثلة بحقّ الأهالي في كلّ التجارب. هدفنا هو سلبهم سلطتهم التي يتحكّمون بها بآلاف الأرواح".

قالت كارا: "الأمر يستحقّ. هل هذا كثير أن نضحّي بحياة واحدة لإنقاذ آلاف الناس من مصير رهيب، وتجريد المجمّع من قوّته؟"

أعرف ما تفعله. إنّها تزن روحاً واحدة مقابل عديد من الأعمار والذكريات، لتتوصّل إلى استنتاج واضح. هذه هي الطريقة التي يعمل بها عقل المعرفة، وعقل نكران الذات، لكنّني لست واثقة أنّها العقول التي نحتاج إليها حاليّاً. الجواب سهل بالطبع عندما نفكّر في إنفاق حياة مقابل آلاف الذكريات، لكن هل يجب أن تكون حياة أحدنا؟ هل يجب أن نكون نحن الأشخاص الذين سيتّخذون تلك الخطوة؟

لكن بما أنّني أعرف جوابي على ذاك السؤال، تحوّل تفكيري إلى سؤال آخر. إن كان لا بدّ لنا التضحية بأحدنا، من ينبغي أن يكون؟

انتقل نظري من ماثيو وكارا، الواقفين خلف الطاولة إلى توبياس، وكريستينا التي أسندت ذراعها على قبضة مكنسة، ليحطّ أخيراً على كاليب.

هو.

بعد ثانية، أحسست بالاشمئزاز من نفسي.

نظر إليّ كاليب قائلاً: "آه، انطقوا بها، أنتم تريدونني أن أقوم بهذه المهمّة. جميعكم تودّون ذلك".

بصق ماثيو القلادة من فمه مجيباً: "لم يقل أحد ذلك".

قال كاليب: "لكنّ الجميع يحدّقون إليّ، لا تظنّوا أنّني لم أعرف. فأنا الشخص الذي اختار الفريق الخاطئ، والذي تعاون مع جانين ماثيوس. أنا الشخص الذي لا يأبه أحد به، لذلك يجب أن أكون الشخص الذي سيموت".

قلت له بصوت خرج بارداً وهادئاً، بينما داعبت رائحة المبيّض أنفي: "لماذا تظنّ أنّ توبياس عرض إخراجك من المدينة قبل إعدامك؟ ألأنّني لا أكترث ما إذا بقيتَ حياً أم لا؟ ألأنّني لا أهتمّ لأمرك بتاتاً؟"

فكّر جزء منّي، هو من يجب أن يموت.
واعترض جزء آخر، لا أريد أن أخسره.
لا أدري بأيّ جزء أثق، أو أيّهما أصدّق.
هزّ كاليب رأسه قائلاً: "تظنّين أنّني لا أعرف الكراهية عندما أراها؟ أنا أراها في كلّ مرّة تنظرين فيها إليّ، هذا إن فعلتِ".
ترقرقت عيناه بالدموع. كانت المرّة الأولى التي أراه فيها نادماً منذ حادثة إعدامي الوشيك، عوضاً عن كونه دفاعياً يفيض بالأعذار. قد تكون أيضاً المرّة الأولى منذ ذلك الحين التي نظرت فيها إليه على أنّه أخي، وليس الجبان الذي باعني إلى جانين ماثيوس. أحسست فجأة بصعوبة في ابتلاع ريقي".
قال: "إن فعلتُ ذلك..."
هززت رأسي رافضة، لكنّه رفع يده لمنعي من الكلام.
"اصمتي. بياتريس، إن فعلتُ ذلك... هل ستغفرين لي؟"
بالنسبة إليّ، عندما يخطئ شخص ما في حقّ إنسان آخر، فإنّهما يتقاسمان عبء ذلك العمل، لأنّ الألم يُثقل كاهل الاثنين. أمّا الغفران، فهو يعني أن يتحمّل أحدهما العبء كاملاً بمفرده. وخيانة كاليب لي هي فعلة حملنا وزرها نحن الاثنان. ومنذ أن أقدم عليها، لم أرغب سوى في أن يأخذ عنّي ذلك الحمل. أنا لست واثقة أنّني أستطيع أن أتحمّله بمفردي... لست واثقة أنّني قوية أو صالحة بما فيه الكفاية لهذه المهمّة.
غير أنّني أراه وهو يعدّ نفسه لهذا المصير، وأعرف أنّه عليّ أن أكون قوية وصالحة بما فيه الكفاية، إن كان سيضحّي بنفسه من أجلنا جميعاً.
هززت رأسي قائلة: "أجل". واختنقت بكلماتي. "لكنّ هذا ليس سبباً وجيهاً للقيام بذلك".

قال كاليب: "لديّ كثير من الأسباب. سأفعل ذلك، بالطبع سأفعل".

* * *

لا أدري ما الذي حدث بالضبط.

بقي ماثيو وكاليب في الغرفة لتجربة البدلة الواقية، التي ستُبقي كاليب حياً في مختبر الأسلحة لمدّة كافية لكي يقوم بإطلاق مصل الذاكرة. انتظرت رحيل الآخرين قبل أن أغادر أنا نفسي. فقد أردت أن أعود إلى العنبر برفقة أفكاري وحسب.

قبل بضعة أسابيع، كان من الممكن أن أتطوّع للذهاب في هذه المهمّة الانتحارية، لا بل فعلت. تطوّعت للذهاب إلى مقرّ المعرفة، وأنا أدرك أنّ الموت ينتظرني هناك. لكنّ دافعي لم يكن حبّ الغير أو الشجاعة. ما دفعني في ذلك الوقت هو إحساس الذنب، ولأنّ جزءاً منّي أراد أن يخسر كلّ شيء؛ كان جزءاً حزيناً ومريضاً، أراد أن يموت. هل هذا ما يحفز كاليب الآن؟ وهل يجب عليّ حقّاً أن أسمح له بالموت لكي يشعر أنّه سدّد دينه لي؟

مشيت في الممرّ الذي تتعاقب فيه ألوان قوس قزح، وصعدت السلالم. لا يمكنني حتّى التفكير ببديل، فهل أنا أكثر استعداداً لخسارة كريستينا، أو كارا، أو ماثيو؟ كلاّ. في الحقيقة، أنا أقلّ استعداداً لخسارتهم لأنّهم كانوا أصدقاء أوفياء بالنسبة إليّ، على عكس كاليب، الذي لم يكن كذلك لوقت طويل. فحتى قبل خيانتي، تركني من أجل الانضمام إلى جماعة المعرفة، ولم ينظر إلى الوراء. أنا من ذهبت لزيارته خلال فترة التلقين، وقد أمضى طوال الوقت وهو يتساءل لماذا أتيت.

كما أنّني لم أعد أرغب في الموت. أنا على أتمّ الاستعداد لمواجهة تحدّي تحمّل الذنب والحزن، ومواجهة المصاعب التي وضعتها الحياة في

طريقي. بعض الأيّام هي أصعب من غيرها، لكنّني جاهزة لأعيش كلّ يوم منها. لا أستطيع أن أضحّي بنفسي هذه المرّة.

في أجزائي الأكثر صدقاً، أنا قادرة على الاعتراف أنّني استرحت لسماع كاليب وهو يتطوّع.

فجأة، لم أعد قادرة على التفكير في هذا الأمر. وصلت إلى مدخل الفندق، وذهبت إلى العنبر، آملة أن أتمكّن من التهاوي على سريري والاستغراق في النوم، لكنّ توبياس كان ينتظرني في الردهة.

سألني: "هل أنت بخير؟"

"أجل، لكن لا ينبغي أن أكون كذلك". مرّرت يدي على جبيني في لمسة خاطفة. "أشعر أنّني كنت حزينة عليه أساساً، كأنّه مات في اللحظة التي رأيته فيها في مقرّ المعرفة عندما كنت هناك. أتعلم؟"

بعد قليل، اعترفت لتوبياس أنّني خسرت كلّ أسرتي. فطمأنني أنّه أسرتي الآن.

هذا ما أصبحت عليه علاقتنا، كأنّ كلّ شيء بيننا متشابك ببعضه، الصداقة والعائلة، بحيث لم أعد أميّز الفرق بين أيّ منها.

قال: "هل تعلمين أنّ جماعة نكران الذات تملك تعاليم عن ذلك؟ أعني متى تتركين الآخرين يضحّون بأنفسهم من أجلك، حتّى لو كان ذلك أنانياً. يقولون إنّه إن كانت التضحية هي الطريقة الوحيدة ليثبت لك ذلك الشخص أنّه يحبّك، عليك أن تسمحي له بتأديتها". أسند أحد كتفيه إلى الحائط. "وفي تلك الحالة، هذه أعظم هدية تقدّمينها له. تماماً كما حدث عندما مات أبواك من أجلك".

"لكنّني لست واثقة أنّ دافعه هو الحبّ". أغمضت عينيّ متابعة: "بل بالأحرى الإحساس بالذنب".

أقرّ توبياس قائلاً: "ربّما، لكن لماذا يشعر بالذنب على خيانتك إن لم يكن يحبّك؟"

هززت رأسي موافقة. أعرف أنّ كاليب يحبّني، وأنّه أحبّني دائماً، حتّى عندما كان يؤذيني. وأعرف أنّني أحبّه أنا أيضاً. لكنّ هذا يبدو خاطئاً على أيّ حال.

مع ذلك، أنا قادرة على أن أهدأ مؤقّتاً، وأنا أعرف أنّ هذا أمر قد يتفهّمه أبواي لو كانا على قيد الحياة الآن.

قال: "قد لا يكون الوقت مناسباً، لكنّني أريد أن أقول لك شيئاً".

توتّرت على الفور، خشية أن يذكر لي جريمة ارتكبتُها ولم أعترف بها، أو اعترافاً يعذّبه، أو شيئاً من هذا القبيل. لم يكن تعبيره واضحاً.

قال بصوت منخفض: "أودّ أن أشكرك وحسب. فقد أخبرَتكِ مجموعة من العلماء أنّ مورّثاتي معطوبة، وأنّني أعاني من خطب معيّن، وقدّموا لك نتائج اختبارات تُثبت ذلك. حتّى إنّني بدأت أصدّقهم".

لمس وجهي، ومرّر إبهامه على خدّي، بينما ركّز نظراته على عينيّ، بحدّة وإلحاح.

قال: "غير أنّك لم تصدّقي ذلك أبداً، ولا لثانية واحدة. بل كنتِ تصرّين دائماً أنّني... لا أدري، كامل".

وضعتُ يدي على يده. "في الواقع، أنت كذلك".

قال بحنان: "لم يخبرني أحد ذلك من قبل".

أجبته بحزم، وقد فاضت عيناي بالدموع: "هذا ما تستحقّ سماعه؛ أنّك كامل، وتستحقّ المحبّة، وأنّك أفضل شخص عرفته".

في اللحظة التي لفظت فيها آخر كلمة، عانقني...

دفعته في الرواق، عبر أحد الأبواب، إلى غرفة بجانب عنبر النوم، ثمّ أغلقت الباب بركلة من قدمي.

مثلما أصررت على قيمته، لطالما أصرّ على قوّتي، وعلى أنّ قدراتي تتجاوز اعتقادي. وأنا أعرف، من دون أن يخبرني أحد، أنّ هذا ما يفعله الحبّ، عندما يكون في محلّه. إنّه يجعلك تشعر أنّك أكثر ممّا كنت عليه، وأكثر ممّا تظنّ أنّك ستصبح يوماً.

هذا صحيح...

نسيت أنّه شخص آخر، وأحسست أنّه جزء آخر منّي، لا يقل أهمّية عن قلب، أو عين، أو ذراع...

قال: "أنت جميلة".

وصدّقته.

قلت: "أحبّك، هل تعرف ذلك؟"

أجاب: "أعرف".

* * *

لطالما خشيت أن نستمرّ بالتصادم مع بعضنا إن بقينا معاً، إلى أن أتحطّم في نهاية المطاف. لكنّني بتّ أعرف الآن أنّني مثل النصل وأنّه مثل المشحذ.

أنا قوية جدّاً لأنكسر بسهولة، وأصبح أفضل، وأكثر حدّة، كلّما لمسته.

الفصل الثاني والأربعون
توبياس

أوّل ما رأيته عندما استيقظت، وأنا ما زلت ممدّداً على الأريكة في غرفة الفندق، هي الطيور الموشومة أسفل رقبتها. كانت قميصها، التي ارتدتها في منتصف الليل بسبب البرد، مسدلة إلى الأسفل من الجانب الذي تستلقي عليه.

سبق أن نمنا بجانب بعضنا من قبل، لكنّ هذه المرّة مختلفة. عادة، يبقى أحدنا مع الآخر لنواسي بعضنا أو نحمي بعضنا. لكن هذه المرّة أردنا أن نكون معاً واستغرقنا في النوم قبل أن نتمكّن من العودة إلى العنبر.

مددت يدي ولمست الأوشام بأناملي، ففتحت عينيها.

استندت إلى مرفقها فقلت: "صباح الخير".

قالت: "اصمت، إن لم تعترف بحلول الصباح، قد يذهب".

احتضنتها، فهمست: "توبياس، أكره أن أقول ذلك، لكن... أعتقد أنّ بضعة أمور تنتظرنا اليوم".

"يمكنها الانتظار بعد".

أجابت: "كلاّ، غير ممكن!"

"بالمناسبة، كنت أفكّر أنّ أخيك قد يستفيد من بعض التدريب على الرماية، تحسّباً".

قالت بهدوء: "قد تكون فكرة جيّدة، فهو لم يستعمل مسدّساً إلاّ... مرّة أو مرّتين".

"يمكنني تعليمه. فإن كان ثمّة أمر أجيده، فهو الاستهداف. كما أنّه قد يشعر بالتحسّن إن فعل شيئاً".

"شكراً لك". جلست، وسرّحت شعرها بأصابعها. كان لونه أفتح في ضوء الصباح، مثل خيوط الذهب. "أعرف أنّك لا تحبّه، لكن..."

أمسكت بيدها قائلاً: "لكن إن كنتِ ستغضّين النظر عمّا فعله، بإمكاني أن أحذو حذوك".

ابتسمت وطبعت قبلة على خدّي.

* * *

مسحتُ مياه الاستحمام التي بقيت عالقة على مؤخّر عنقي. كنت أنا، وتريس، وكاليب، وكريستينا في غرفة التدريب في الطابق السفلي، وكانت الغرفة باردة وخفيفة الإضاءة، تعجّ بالمعدّات وبأسلحة التدريب والحُصر والخوذ والأهداف، أي كلّ ما يمكن أن نحتاج إليه. قمت باختيار السلاح المناسب للتمرين، وكان بحجم المسدّس، لكنّه أضخم، ثمّ قدّمته لكاليب.

شبكت تريس أصابعها بأصابعي. كان كلّ شيء يأتي بسهولة هذا الصباح، كلّ ابتسامة، وكلّ ضحكة، كلّ كلمة وكلّ حركة.

إن نجحنا في محاولتنا الليلة، ستكون شيكاغو آمنة غداً، وسيتغيّر المكتب إلى الأبد، كما سنتمكّن أنا وتريس من بناء حياة جديدة لأنفسنا في مكان ما. حتّى أنّه قد يكون مكاناً أستبدل فيه أسلحتي وخناجري بأدوات أكثر إنتاجية، كالمفكّات، والمسامير، والمعاول. أشعر هذا الصباح أنّني يمكن أن أكون محظوظاً جدّاً. يمكن أن أكون كذلك.

قلت: "هو لا يطلق رصاصات حقيقية، لكن يبدو أنّهم صمّموه ليكون شبيهاً قدر الإمكان بالأسلحة التي ستستخدمها. إنّه يبدو حقيقياً، على أيّ حال".

أمسك كاليب المسدّس برؤوس أصابعه، كأنّه يخشى أن يتحطّم بين يديه.

ضحكت قائلاً: "الدرس الأوّل: لا تخشاه. أمسكه جيّداً، فقد سبق أن حملتَه من قبل، هل تذكر؟ لقد أخرجتنا من مجمّع الوئام بتلك الطلقة".

قال كاليب وهو يقلّب المسدّس مراراً ليراه من كلّ الزوايا: "كان ذلك بسبب الحظّ وحسب". ضغط على خدّه بلسانه كأنّه يحلّ مشكلة. "وليس نتيجة المهارة".

قلت: "الحظّ هو أفضل من عدمه. يمكننا أن نعمل الآن على المهارة".

نظرتُ إلى تريس، فابتسمت لي، ثمّ مالت لتهمس شيئاً في أذن كريستينا.

قلت: "هل أنت هنا للمساعدة أم ماذا، أيّتها المتزمّتة؟" سمعتُ نفسي أتحدّث بصوت المدرّب، لكنّني استخدمته هذه المرّة من باب الدعابة. "يمكنك الاستفادة من بعض التمرين بذراعك اليمنى، إن لم تخنّي ذاكرتي. أنت أيضاً، كريستينا".

رسمت تريس تعابير ساخرة على وجهها، ثمّ قامت هي وكريستينا لاختيار سلاحين لهما.

قلت: "حسناً، والآن قف بمواجهة الهدف وانزع صمّام الأمان". كان في الغرفة هدف أكثر تطوّراً من الهدف الخشبي الذي كنّا نستخدمه في غرف التدريب في مقرّ الشجاعة. فهو مزوّد بثلاث حلقات من ثلاثة ألوان مختلفة، الأخضر، والأصفر، والأحمر، بحيث يسهل تحديد المكان الذي تصيبه الرصاصات. "دعني أرى كيف تطلق النار بشكل طبيعي".

رفع المسدّس بيد واحدة، ثمّ باعد بين قدميه وقوّس كتفيه كأنّه على وشك أن يحمل شيئاً ثقيلاً، قبل أن يضغط على الزناد. فارتدّ المسدّس إلى الخلف والأعلى، وحطّت الرصاصة بجانب السقف. غطّيت فمي بيدي لكي أخفي ابتسامتي.

قال كاليب بانزعاج: "لا داعي للضحك".

قالت كريستينا: "الكتب لا تعلّمك كلّ شيء، أليس كذلك؟ عليك أن تحمله بكلتا يديك. صحيح أنّك لن تبدو جذّاباً إلى هذا الحدّ، لكنّه يبقى أفضل من إصابة السقف".

"لم أكن أحاول أن أبدو جذّاباً!"

وقفت كريستينا، وباعدت بين ساقيها بعض الشيء، ثمّ رفعت كلتا ذراعيها. حدّقت إلى الهدف للحظة، ثمّ أطلقت النار. أصابت رصاصة التدريب الدائرة الخارجية للهدف قبل أن ترتدّ وتتدحرج على الأرض، مخلّفة دائرة مضيئة على الهدف، تشير إلى موضع الإصابة. أتمنّى لو كنّا نملك هذه التكنولوجيا في تدريب المبتدئين.

قلت: "آه، جيّد. لقد أصبتِ الهواء المحيط بجسد الهدف. كم هذا مفيد".

ابتسمت كريستينا، وأقرّت قائلة: "هذا بسبب قلّة الممارسة".

قلت لكاليب: "أعتقد أنّ أفضل طريقة لكي تتعلّم هي بتقليدي أنا". وقفت كما أقف دائماً، بسلاسة وطبيعية، ثمّ رفعت كلتا ذراعيّ، بحيث قبضت على المسدّس بإحدى يديّ، وثبّته بالأخرى.

حاول كاليب أن يحذو حذوي، فبدأ بقدميه وتبعتهما بقيّة أجزاء جسده. ومع أنّني أحبّ مضايقته بقدر كريستينا، إلاّ أنّ قدرته على التحليل هي التي تساعده على النجاح. فقد رأيته كيف يغيّر الزوايا

والمسافات، ويشدّ عضلاته ويرخيها، وهو يتأمّلني ويحاول تنفيذ كلّ شيء بدقّة.

قلت عندما انتهى: "جيّد، والآن ركّز على هدفك دوناً عن أيّ شيء آخر".

حدّقتُ إلى وسط الهدف، وحاولت أن أدعه يبتلعني. لا تزعجني المسافة، فالرصاصة تنتقل في خطّ مستقيم، تماماً كما لو كنت على مسافة أقرب. أخذت نفساً واستعددت، ثمّ زفرته وأطلقتُ النار. فأصابت الرصاصة بالضبط المكان الذي قصدت: الدائرة الحمراء، في وسط الهدف.

تراجعت لأراقب كاليب وهو يقوم بذلك. كان يقف بالطريقة الصحيحة، ويحمل المسدّس بشكل صحيح، لكنّه كان جامداً، مثل تمثال يحمل مسدّساً بيده. أخذ نفساً عميقاً وأمسكه وهو يطلق النار. هذه المرّة، لم يجفله انطلاق الرصاصة بالقدر نفسه، وأصاب أعلى الهدف.

قلت مجدّداً: "هذا جيّد. أظنّ أنّ أهمّ ما تحتاج إليه هو الإحساس بالارتياح وأنت تحمله. فأنت متوتّر جدّاً".

قال: "وهل تلومني؟" كان صوته يرتجف، لكن فقط في آخر كلّ كلمة. إذ بدا مثل شخص يحبس الرعب بداخله. لقد رأيت صفّين من المبتدئين يحملون ذلك التعبير، لكنّ أيّاً منهم لم يكن يواجه ما يواجهه كاليب الآن.

هززت رأسي نافياً وقلت بهدوء: "بالطبع لا ألومك. لكن عليك أن تدرك أنّك إن لم تتخلّص من توتّرك الليلة، قد لا تتمكّن من دخول مختبر الأسلحة، وهذا لن يفيد أحداً".

أجابني بتنهيدة.

قلت: "التقنية الجسدية مهمّة، لكنّ العمليّة بمعظمها تشكّل لعبة ذهنية، وهذا من حظّك، لأنّك تجيد هذا النوع من الألعاب. فأنت لا تمارس الرماية وحسب، بل التركيز أيضاً. وعندما تجد نفسك لاحقاً في وضع تقاتل فيه للنجاة بحياتك، تكون قد أجدتَ عمليّة التركيز بحيث أنّها تأتي بشكل طبيعي".

قال كاليب: "لم أكن أعرف أنّ الشجعان مهتمّين إلى هذا الحدّ بتدريب الدماغ. هل يمكنني أن أراكِ وأنتِ تطلقين النار، تريس؟ لا أظنّ أنّني رأيتك تفعلين ذلك من قبل إلاّ وأنت مصابة في كتفك".

ابتسمت تريس قليلاً، ثمّ وقفت أمام الهدف. عندما رأيتها للمرة الأولى وهي تطلق النار خلال التدريب في مجمّع الشجاعة، بدت خرقاء. لكنّ قامتها النحيلة والهشّة أصبحت رشيقة وعضلية في الوقت نفسه. وعندما حملت المسدّس، بدت مرتاحة. غمزت بإحدى عينيها قليلاً، ثمّ نقلت وزنها من ساق إلى أخرى، وضغطت على الزناد. ابتعدت الرصاصة قليلاً عن وسط الهدف، لكن لمسافة بضع إنشات وحسب. ومن الواضح أنّ كاليب أُعجب بمهارتها، لأنّه رفع حاجبيه استغراباً.

قالت تريس: "لا تستغرب إلى هذا الحدّ!"

قال: "أنا آسف. لكن... كنت في الماضي خرقاء جدّاً، هل تذكرين؟ لا أدري كيف فاتني هذا التحوّل".

هزّت تريس كتفيها، لكن عندما نظرت بعيداً، كان خدّاها أحمرين وبدت مسرورة. أطلقت كريستينا النار مجدّداً، وحطّت الرصاصة هذه المرّة على مسافة أقرب من وسط الهدف.

تراجعتُ لأفسح مجالاً لكاليب لكي يتمرّن، وشاهدتُ تريس وهي تطلق النار مجدّداً. راقبت خطوط جسدها المستقيمة وهي ترفع

المسدّس، وثباتها وهي تطلق النار. فلمستُ كتفها، وقلت على مقربة من أذنها: "هل تذكرين كيف أوشك المسدّس أن يرتطم بوجهك في فترة التدريب؟"

هزّت رأسها وهي تضحك.

"هل تذكرين خلال التدريب عندما فعلتُ هذا؟" مددت يدي حولها ووضعتها على بطنها. فأخذت نفساً.

تمتمَت قائلة: "لن أنسى ذلك قريباً".

استدارت وعانقتني. فسمعتُ كريستينا تقول شيئاً عن ذلك، لكن للمرّة الأولى لم آبه على الإطلاق.

* * *

لم يكن لدينا ما نفعله بعد التدرّب على الرماية سوى الانتظار. أحضرت تريس وكريستينا المتفجّرات من ريجي، وقامتا بتعليم كاليب كيفيّة استخدامها. ثمّ انكبّ ماثيو وكريستينا على خارطة، وأخذا يتفحّصان مختلف الطرق المؤدّية إلى مختبر الأسلحة. اجتمعت أنا وكريستينا بعمّار، وجورج، وبيتر لمراجعة الطريق التي سنسلكها للذهاب إلى المدينة في ذلك المساء. أمّا تريس، فتمّ استدعاؤها إلى اجتماع عاجل عقده المجلس. قام ماثيو بتلقيح أشخاص ضدّ مصل الذاكرة طوال النهار، وتحديداً كارا، وكاليب، وتريس، ونيتا، وريجي، وهو نفسه.

لم يكن لدينا الوقت الكافي للتفكير بمعنى ما ننوي فعله: إيقاف ثورة، إنقاذ التجارب، تغيير المكتب إلى الأبد.

في أثناء انشغال تريس، ذهبتُ إلى المستشفى لرؤية يوريا للمرّة الأخيرة قبل إحضار أسرته.

عندما ذهبت إليه، لم أستطع الدخول. من هنا، من خلال الزجاج، يمكنني الادّعاء أنّه نائم وحسب، وأنّني إن لمسته سيستيقظ، ويبتسم، ويمازحني. أمّا هناك، فسأرى أنّه أصبح بلا حياة، وأنّ الصدمة التي أصابت دماغه سلبته آخر ما بقي من يوريا الذي نعرفه.

شددت يديّ لأخفي ارتعاشهما.

اقترب ماثيو آتياً من آخر الممرّ، ويداه في جيبيّ بدلته الكحلية. بدا مسترخياً، وخطواته ثقيلة. "مرحباً".

"أهلاً".

"أعطيت نيتا اللقاح، ووجدتها بمزاج أفضل اليوم".

"هذا جيّد".

طرق ماثيو بيده على الزجاج قائلاً: "إذاً... ستذهب لإحضار أسرته اليوم؟ هذا ما أخبرتني به تريس".

هززت رأسي قائلاً: "سأجلب أخاه وأمّه".

سبق لي أن التقيت بوالدة زيك ويوريا من قبل. إنّها امرأة قصيرة القامة، لكنّها قوية، وواحدة من الشجعان القلائل الذين يقومون بالأعمال بهدوء ومن دون لفت الأنظار. أحسست تجاهها بالإعجاب والخوف في آن.

سأل ماثيو: "والأب؟"

"توفّي عندما كانا صغيرين. هذا ليس غريباً بين الشجعان".

"صحيح".

وقفنا بصمت لبعض الوقت، وأحسست بالامتنان لوجوده، لأنّه ألهاني عن الاستسلام للحزن. أعرف أنّ كارا كانت على حقّ عندما قالت

لي البارحة إنّني لم أقتل يوريا، ليس حقّاً، لكنّني أشعر كأنّني فعلت، وربّما لن يزول هذا الإحساس أبداً.

قلت بعد برهة: "كنت أنوي أن أسألك لماذا تساعدنا في هذا الأمر. فهي تبدو مجازفة كبيرة بالنسبة إلى شخص غير معنيّ شخصياً بالنتيجة".

"أنا معنيّ، لكنّها قصة طويلة".

كتف ذراعيه، ثمّ أخذ يشدّ بالخيط المعلّق في عنقه.

قال: "أعجبت يوماً بفتاة، لكنّها كانت معطوبة وراثياً، وهذا يعني أنّه لا يفترض بنا أن نواعد بعضنا، أليس كذلك؟ إذ يجب أن نحرص على إيجاد الشركاء الأمثل، لكي ننجب سلالة أفضل، أو شيء من هذا القبيل. غير أنّني تمرّدت على هذه القاعدة، وأحسست بالانجذاب إلى ما هو ممنوع، لذلك بدأنا نتواعد. لم تكن لديّ النيّة في أن يتّخذ الموضوع منحىً جدّياً، لكن..."

"لكنّه حدث".

هزّ رأسه موافقاً. "أجل، حدث. لقد أقنعتني، أكثر من أيّ شيء آخر، أنّ موقف المكتب حيال العطب الوراثي ليس صادقاً. كانت أفضل منّي، لا بل أفضل ممّا يمكن أن أصبح عليه يوماً. وفي أحد الأيّام، تعرّضَت لاعتداء، إذ قامت مجموعة من الأنقياء بضربها. كانت امرأة ذكية، لا ترضى أبداً بالبقاء في مكانها، وأظنّ أنّ لموتها علاقة بذلك. وربّما لم يكن هذا هو السبب، بل يقوم الناس بأمور كهذه بلا مبرّر، ومحاولة إيجاد سبب لذلك تتعب العقل".

نظرت عن كثب إلى الخيط الذي يلعب به. لطالما ظننت أنّه أسود، لكنّني لاحظت الآن أنّه زيتي، بلون بدلات موظّفي الدعم.

"على أيّ حال، تعرّضت لإصابة بالغة، غير أنّ أحد المعتدين كان ابن عضو في المجلس. فادّعى أنّ الاعتداء أتى نتيجة استفزاز، وكان ذلك هو العذر الذي استخدموه لإخراجه هو وبقيّة الأنقياء بعقوبة خدمة اجتماعية وحسب. لكنّني كنت أعرف الحقيقة". بدأ يهزّ رأسه وهو يتحدّث. "أعرف أنّهم أطلقوا سراحهم لاعتقادهم أنّها أقلّ منزلة منهم، كما لو أنّ الأنقياء ضربوا حيواناً".

أحسست برعشة بدأت في أعلى عمودي الفقري وسرت إلى أسفل ظهري. "ماذا..."

نظر إليّ متسائلاً: "ماذا حلّ بها؟ توفيت بعد عام خلال جراحة لإصلاح بعض الضرر، بسبب التهاب". خفض يديه متابعاً: "يوم وفاتها كان هو اليوم الذي بدأتُ فيه بمساعدة نيتا. غير أنّني لم أعتقد أنّ خطّتها الأخيرة كانت جيّدة، ولم أساعدها فيها. مع ذلك، لم أبذل جهداً كافياً لأمنعها".

راجعت في ذهني العبارات التي يفترض قولها في أوقات كهذه، عبارات الأسف والتعاطف، لكنّني لم أجد جملة واحدة تناسب الموقف. عوضاً عن ذلك، تركت الصمت يخيّم علينا. كان الجواب الوحيد المناسب لما قاله لي للتوّ، والشيء الوحيد الذي يفي تلك المأساة حقّها عوضاً عن ترقيعها بعَجَل والمضيّ قدُماً.

قال ماثيو: "أعلم أنّني لا أظهر ذلك، لكنّني أكرههم".

توتّرت عضلات فكّه. صحيح أنّني لم أجده يوماً شخصاً عاطفياً، إلاّ أنّه لم يبد لي بارداً أيضاً. وهذا ما هو عليه الآن، رجل مغلّف بالجليد، عيناه قاسيتان، وصوته أقرب إلى نفس جليدي.

"في الواقع، كنت على استعداد للتطوّع للموت عوضاً عن كاليب... لو لا أنّني أردت حقّاً رؤيتهم يعانون من النتائج. أريد أن أراهم وهم هائمون تحت تأثير مصل الذاكرة، وقد نسوا من كانوا، لأنّ هذا ما حدث لي عندما ماتت".

"يبدو لي ذلك عقاباً مناسباً".

"لا بل أنسب من قتلهم. ناهيك عن أنّني لست قاتلاً".

أحسست بعدم الارتياح. فمن النادر أن تواجه الشخص الحقيقي الكامن خلف قناع من الطيبة، وتكتشف أجزاءه المظلمة. من غير المريح أن تفعل ذلك.

قال ماثيو: "أنا آسف لما حدث مع يوريا. سأتركك معه".

أعاد يديه إلى جيوبه، وتابع طريقه عبر الممرّ وهو يصفر.

الفصل الثالث والأربعون

تريس

لم يطرأ أيّ جديد خلال الاجتماع العاجل للمجلس، بل مجرّد التأكيد على أنّ الفيروسات ستُلقى فوق المدن هذا المساء، فضلاً عن مناقشة الطائرات المستخدمة والمواعيد. تبادلنا أنا وديفيد عبارات ودودة بعد انتهاء الاجتماع، ثمّ تسلّلتُ خارجة بينما كان الباقون يرتشفون قهوتهم، وعدت إلى الفندق.

اصطحبني توبياس إلى الدهليز المجاور لعنبر النوم، وأمضينا بعض الوقت هناك ونحن نتحدّث ونتفرّج على النباتات الغريبة. يبدو أنّ هذا من الأشياء التي يقوم بها الناس العاديون في المواعيد، يتحدّثون عن أمور صغيرة، ويضحكون. لم نحظ بكثير من تلك اللحظات، بل أمضينا معظم وقتنا معاً ونحن نفرّ من خطر إلى آخر. لكنّني أرى في الأفق أوقاتاً لن نضطر فيها إلى ذلك بعد اليوم. سنمسح ذاكرة الناس في المجمّع، ونعمل على إعادة بناء هذا المكان معاً. ربّما سنكتشف عندها ما إذا كنّا نجيد العيش الهادئ مثلما نجيد العيش الصاخب.

كم أتوق إلى ذلك.

أخيراً، حان الوقت لرحيل توبياس. وقفت على إحدى درجات الدهليز، ووقف هو على درجة أكثر انخفاضاً بحيث أصبحنا بالمستوى نفسه.

قال: "لا أودّ أن أكون بعيداً عنك الليلة. لا يبدو لي صحيحاً أن أتركك تواجهين بمفردك أحداثاً بهذه الضخامة".

أجبته بشيء من الدفاعية: "ماذا، أنت لا تظنّ أنّني قادرة على التعامل مع الوضع؟"

"بالطبع، ليس هذا ما أظنّه". أحاط وجهي بيديه، وأسند جبينه إلى جبيني. "أنا لا أريدك أن تتحمّلي هذا الأمر بمفردك".

قلت له بصوت خافت: "وأنا لا أريدك أن تواجه أسرة يوريا بمفردك. لكن يبدو أنّه علينا القيام بهذه المهام بشكل منفصل. أنا مسرورة لأنّني سأكون مع كاليب قبل... أنت تعلم. وسيكون من الجيد ألاّ أضطرّ إلى القلق عليك في الوقت نفسه".

أغمض عينيه قائلاً: "نعم. لا أطيق الانتظار حتّى الغد، عندما أعود وتكونين قد نفّذت مهمّتك، لنقرّر ماذا سنفعل لاحقاً".

"أنا واثقة أنّ الكثير ينتظرنا". قلت ذلك، ثمّ عانقته.

عندما فتح عينيه، رأيتهما بكلّ تفاصيلهما، الخطّ الأزرق الفاتح في عينه اليسرى، ولونهما الكحلي الذي يجعلني أشعر بالأمان، كما لو كنت أحلم.

قلت: "أنا أحبّك".

"وأنا أحبّك أيضاً. إلى اللقاء قريباً".

عانقني مجدّداً، ثمّ رحل. فمكثت في تلك البقعة المشمسة إلى أن غابت الشمس.

حان الوقت لأنضمّ إلى أخي.

الفصل الرابع والأربعون

توبياس

تحقّقت من الشاشات قبل أن أذهب لملاقاة عمّار وجورج. كانت إيفلين في مقرّ المعرفة مع مؤيّديها المنبوذين، منحنية فوق خارطة للمدينة. أمّا ماركوس وجوانا فكانا في أحد المباني في جادة ميشيغان، شمال مبنى هانكوك، يعقدان اجتماعاً.

أتمنّى أن يلازموا أماكنهم إلى أقرّر ذاكرة أيّ من والديّ سأمسح. أعطانا عمّار أكثر من ساعة بقليل لإيجاد أسرة يوريا وتلقيحها، ومن ثمّ العودة إلى المجمّع خفية. بالتالي أنا لا أملك الوقت سوى لأحدهما.

* * *

تساقط الثلج على الرصيف في الخارج، وعصفت به الرياح. أعطاني جورج مسدّساً.

قال: "أصبح المكان هناك خطيراً، بسبب تمرّد الأوفياء".

أخذت المسدّس من دون حتّى أن أنظر إليه.

قال جورج: "هل الجميع يعرفون الخطّة؟ أنا سأراقبكم من هنا، من غرفة المراقبة الصغيرة. سنرى كم يمكنني أن أكون مجدياً مع كلّ هذه الثلوج التي تغطّي الكاميرات".

"وأين سيكون بقيّة موظّفي الأمن؟"

هزّ جورج كتفيه. "يستمتعون ربّما، فقد طلبت منهم أخذ إجازة الليلة. لن يلاحظ أحد أنّ الشاحنة ذهبت. سيكون كلّ شيء على ما يرام، أعدكم بذلك".

ابتسم عمّار. "حسناً، فلننطلق".

شدّ جورج على ذراع عمّار ولوّح لنا مودّعاً. لكن بينما لحق البقية بعمّار لركوب الشاحنة المركونة في الخارج، أمسكتُ بذراع جورج واستبقيته قليلاً. فنظر إليّ باستغراب.

قلت: "لا تطرح عليّ أيّ أسئلة لأنّني لن أجيب، لكن قم بتلقيح نفسك ضدّ مصل الذاكرة، مفهوم؟ بأسرع وقت ممكن. بإمكان ماثيو أن يساعدك".

نظر إليّ عابساً.

"افعل ذلك وحسب"، ثمّ انصرفت إلى الشاحنة.

علقت الثلوج على شعري، وتصاعد البخار من فمي مع كلّ نفس. اصطدمت بي كريستينا في طريقها إلى الشاحنة، ودسّت شيئاً في جيبي. كانت قارورة.

رأيت بيتر ينظر إلينا وأنا أجلس على المقعد المجاور للسائق. ما زلت غير واثق من سبب لهفته لمرافقتنا، لكن أعرف أنّه عليّ أن أحذر منه.

كانت الشاحنة دافئة من الداخل، وسرعان ما ذابت حبّات الثلج وتحوّلت إلى قطرات من المياه.

قال عمّار: "كم أنت محظوظ". وأعطاني شاشة زجاجية توهّجت عليها خطوط مضيئة مثل الشرايين. نظرت إليها عن كثب، وأدركت أنّها شوارع، وأنّ الخطّ الأكثر سطوعاً يحدّد مسارنا. "تولّى أنت أمر الخارطة".

نظرت إليه باستغراب متسائلاً: "وهل تحتاج إلى خارطة؟ ألم يخطر لك أن تكتفي... بالتوجّه نحو المباني الشاهقة؟"

نظر إليّ عمّار ساخراً. "نحن لا نذهب مباشرة إلى المدينة، بل نسلك طريقاً خفياً. لذلك اصمت، وتابع الخارطة".

رأيت نقطة زرقاء على الخارطة تحدّد موقعنا. قاد عمّار الشاحنة تحت الثلوج، التي تساقطت بسرعة بحيث عجزت عن الرؤية أمامنا لمسافة بعيدة.

بدت المباني التي نمرّ بها مثل أشكال سوداء تطلّ علينا من خلال كفن أبيض. قاد عمّار بسرعة، مدركاً أنّ ثقل الشاحنة سيُبقينا ثابتين. تراءت لي من بين الثلوج أضواء المدينة أمامنا. كنت قد نسيت كم هي قريبة لأنّ كلّ شيء مختلف خارج حدودها.

قال بيتر بهدوء، كما لو أنّه لا يتوقّع جواباً: "لا أصدّق أنّنا عائدون".

قلت: "ولا أنا"، وكان ذلك صحيحاً.

كانت المسافة التي وضعها المكتب بيننا وبين العالم عملاً خبيثاً بحدّ ذاته، بغضّ النظر عن الحرب التي ينوون شنّها ضدّ ذكرياتنا. صحيح أنّه خفيّ أكثر، لكنّه لا يقلّ عنها شرّاً. فقد كان بمقدورهم مساعدتنا، ونحن نتخبّط في جماعاتنا، لكنّهم تركونا ننهار. تركونا نموت، ويقتل أحدنا الآخر. الآن فقط قرّروا التدخّل، عندما أصبحنا على وشك إحداث دمار في المادّة الوراثية يتجاوز الحدّ المسموح به.

رحنا نهتزّ إلى الأمام والخلف في الشاحنة، بينما قادها عمّار فوق السكك الحديدية، بمحاذاة الجدار الإسمنتي العالي إلى يميننا.

نظرت إلى كريستينا من خلال المرآة الخلفية. كانت ركبتها تهتزّ بسرعة.

* * *

ما زلت أجهل ذاكرة من سأسلب، ماركوس أم إيفلين؟

عادة، أحاول التفكير في الخيار الأكثر غيرية، لكن في هذه الحالة، وجدته كلا الخياران أنانيين. فمحو ذاكرة ماركوس تعني محو الرجل الذي أكرهه عن وجه العالم وتحرّري من تأثيره.

أمّا محو ذاكرة إيفلين فتعني تحويلها إلى أمّ جديدة، أمّ لن تتخلّى عنّي أو تتّخذ قرارات انطلاقاً من رغبتها في الانتقام، أو السيطرة على الجميع لكي لا تضطرّ إلى الثقة بهم.

في الحالتين، سأكون أفضل حالاً، سواء خسرت أبي أم أمّي. لكن من منهما يساعد المدينة أكثر؟

لم أعد أعرف.

* * *

وضعت يديّ أمام شفرات الهواء الساخن لتدفئتهما، بينما تابع عمّار القيادة على السكك الحديدية، متجاوزاً مقطورة القطار المهجورة التي رأيناها في طريقنا إلى هنا، وانعكست أضواء الشاحنة على ألواح الهيكل الفضّية. وصلنا إلى النقطة التي ينتهي عندها العالم الخارجي وتبدأ التجارب، كما لو أنّ أحدهم رسم خطّاً على الأرض.

تجاوز عمّار ذلك الخطّ كأنّه غير موجود. أظنّ أنّ هذا الخطّ بالنسبة إليه تلاشى مع الزمن، بعدما اعتاد على عالمه الجديد. أمّا بالنسبة إليّ، فقد بدا أشبه بالانتقال من الحقيقة إلى الكذبة، ومن سنّ الرشد إلى الطفولة. راقبت الأرض المعمورة بالأرصفة والزجاج والمعادن تتحوّل إلى سهل أجرد. أصبح الثلج يتساقط بخفّة الآن، بحيث استطعت رؤية أفق المدينة أمامنا، وبدت لي الأبنية مجرّد ظلّ أكثر سواداً من السحب.

سأل عمّار: "إلى أين يجب أن نذهب للعثور على زيك؟"

أجبته: "لقد انضمّ زيك وأمّه إلى الثورة، لذلك أظنّ أنّهما موجودان حيث يجتمع أكبر عدد من الأوفياء".

قال عمّار: "وفقاً لموظّفي غرفة المراقبة، معظمهم يقطنون شمال النهر، على مقربة من مبنى هانكوك. هل تشعر بالرغبة في الانزلاق على السلك؟"

"حتماً لا".

ضحك عمّار.

استغرقنا ساعة أخرى قبل أن نقترب. عندما رأيت مبنى هانكوك في البعيد، بدأت أشعر بالتوتّر.

ارتفع صوت كريستينا: "عمّار؟ يؤسفني قول ذلك لكن علينا أن نتوقّف. فأنا أحتاج..."

قال عمّار: "الآن؟"

"أجل، حدث فجأة".

تنهّد، لكنّه أوقف الشاحنة جانباً.

ترجّلت كريستينا قائلة: "أنتم ابقوا هنا ولا تنظروا!"

رأيتها وهي تذهب خلف الشاحنة وانتظرتُ. لم أشعر عندما شقّت الإطارات سوى بهزّة خفيفة في الشاحنة، لكنّني واثق أنّني الوحيد الذي أحس بها لأنّني كنت أتوقّعها. عندما استقلّت كريستينا الشاحنة مجدّداً، كان على وجهها ابتسامة خفيفة.

في بعض الأحيان، كلّ ما يحتاجه الأمر لإنقاذ حياة الناس من مصير رهيب هو شخص واحد على استعداد لفعل شيء. حتّى لو كان ذلك الشيء هو استراحة مزيّفة لدخول الحمّام.

قاد عمار لبضع دقائق إضافية قبل أن يحدث شيء. فجأة، بدأت الشاحنة تهتزّ كأنّنا نقود فوق مطبّات.

قال عمّار وهو ينظر إلى مؤشّر السرعة عابساً: "تبّاً، لا أصدّق".

"أهو إطار؟"

"نعم". تنهّد وضغط على الفرامل لإيقاف الشاحنة إلى جانب الطريق.

قلت: "سأتحقّق منه". قفزت من مقعدي ومشيت نحو مؤخّر الشاحنة. كانت الإطارات الخلفية قد سوّيت بالأرض بواسطة السكّين التي أحضرتها كريستينا معها. نظرت من خلال النافذة الخلفية للتأكّد من عدم وجود أكثر من إطار احتياطي واحد، ثمّ عدت إلى بابي المفتوح لنقل الخبر.

"الإطاران الخلفيان مثقوبان ولا نملك سوى إطار احتياطي واحد. علينا أن نترك الشاحنة ونبحث عن واحدة أخرى".

ضرب عمّار على المقود وصاح: "تبّاً! لا نملك الوقت. علينا تلقيح زيك وأمّه وأسرة كريستينا قبل انتشار مصل الذاكرة، وإلاّ فإنّ رحلتنا تكون قد ذهبت سدى".

قلت له: "اهدأ، أعرف أين نجد شاحنة أخرى. لماذا لا تتابعون الطريق سيراً على الأقدام بينما أذهب للبحث عن سيارة؟"

أشرق وجه عمّار: "فكرة جيّدة".

قبل الابتعاد عن الشاحنة، تأكّدت من أنّ مسدّسي محشوّ، مع أنّني لست واثقاً أنّني سأحتاج إليه. نزل الجميع من الشاحنة، وراح عمّار يقفز على رؤوس أصابعه من شدّة البرد.

تحقّقت من الساعة. "في أيّ ساعة عليك إعطاؤهم اللقاح؟"

قال عمّار وهو يتحقّق من ساعته هو الآخر، للتأكّد: "بحسب جدول جورج، لدينا ساعة قبل أن يعاد ضبط المدينة. لكن إن أردتنا أن نجنّب زيك وأمّه الحزن ونتركهما يفقدان ذاكرتهما، فأنا لن ألومك. سأفعل إن أردتَ ذلك".

هززت رأسي مجيباً: "لا يمكنني فعل ذلك. صحيح أنّهما لن يتعذّبا، لكنّ هذا لن يكون حقيقياً".

قال عمّار مبتسماً: "كما قلتُ دائماً. المتزمّت يبقى متزمّتاً".

"هل يمكنك... عدم إخبارهما بما جرى، حتّى أصل؟ اكتفِ بتلقيحهما وحسب. أريد التحدّث معهما بنفسي".

انكمشت ابتسامة عمّار بعض الشيء. "بالطبع".

كان حذائي قد ابتلّ أساساً عندما نزلت للتحقّق من الإطارات، وأحسست بألم في قدميّ عندما لامست الأرض الباردة مجدّداً. كنت على وشك الابتعاد عن الشاحنة عندما تكلّم بيتر.

قال: "أنا آتٍ معك".

حدّقت إليه متسائلاً: "ماذا؟ وما السبب؟"

"قد تحتاج إلى المساعدة، فهذه مدينة كبيرة".

نظرت إلى عمّار، الذي هزّ كتفيه قائلاً: "الشابّ على حقّ". مال بيتر نحوي وتكلّم بصوت منخفض لكي لا يسمعه أحد غيري. "وإن لم ترغب أن أخبره بما تخطّطون له، لا تعترض".

تحوّلت عيناه إلى جيب سترتي الذي يحتوي على مصل الذاكرة.

تنهّدت قائلاً: "حسناً، لكن ستفعل ما أقوله".

راقبت عمّار وكريستينا وهما يبتعدان من دوننا، ويذهبان باتجاه مبنى هانكوك. ما إن ابتعدا بما فيه الكفاية حتّى تراجعت بضع خطوات، ودسست يدي في جيبي لحماية القارورة.

قلت: "أنا لست ذاهباً للبحث عن شاحنة، ها أنا أخبرك الآن. فهل ستساعدني في ما أنوي فعله، أم أقتلك؟"

"الأمر يعتمد على ما تنوي فعله".

من الصعب إعطاء جواب عندما يكون المرء غير واثق. إلى يميني، يوجد المنبوذون، وإيفلين، ومخزونها من المصل القاتل. وإلى يساري، يوجد الأوفياء، وماركوس، ومُخطّط الثورة.

أين أملك التأثير الأكبر؟ أين يمكنني أن أحدث فرقاً أكبر؟ تلك هي الأسئلة التي يجب أن أطرحها على نفسي. لكن عوضاً عن ذلك، كنت أسأل نفسي من الذي أتوق إلى تدميره.

قلت: "أنا ذاهب لإيقاف ثورة".

استدرت إلى اليمين، وتبعني بيتر.

الفصل الخامس والأربعون

تريس

وقف أخي خلف المجهر، وحدّق من خلاله. ألقى الضوء الصادر من داخل المجهر ظلالاً غريبة على وجهه، وجعله يبدو أكبر من سنّه بأعوام.

قال: "هذا هو حتماً، أعني مصل محاكاة الهجوم. لا شكّ في ذلك".

قال ماثيو: "من الجيّد دوماً أخذ رأي شخص آخر".

أنا أقف مع أخي في الساعات الأخيرة التي تسبق موته، بينما يقوم هو بتحليل الأمصال. كم هذا سخيف.

أعرف لماذا أراد كاليب المجيء إلى هنا: ليتأكّد أنّه يضحّي بحياته لسبب وجيه. لا ألومه على ذلك. فما من فرص ثانية بعد الموت، على حدّ علمي.

قال ماثيو: "أخبرني مجدّداً ما هو رمز التفعيل". يفعّل هذا الرمز سلاح مصل الذاكرة، ويقوم زرّ آخر بنشره فوراً. كان ماثيو يطلب من كاليب تكرارهما كلّ بضع دقائق منذ دخولنا إلى هنا.

قال كاليب: "أنا أحفظ تسلسل الأرقام بسهولة!"

"لا أشكّ في ذلك. غير أنّنا لا نعرف ما هي الحالة الذهنية التي ستكون فيها عندما يبدأ المصل القاتل مفعوله، لذلك يجب أن تترسّخ هذه الرموز جيّداً في ذهنك".

أجفل كاليب عند سماع عبارة "المصل القاتل". أمّا أنا فحدّقت إلى حذائي.

قال كاليب: "080712، ثمّ أضغطُ على الزرّ الأخضر".

في هذه اللحظة، كانت كارا تمضي بعض الوقت مع موظّفي غرفة المراقبة لكي تتمكّن من دسّ مصل السلام في مشروباتهم، وإطفاء

المصابيح في المجمّع في وقت يكونون فيه عاجزين عن الملاحظة، تماماً مثلما فعلت نيتا وتوبياس قبل بضعة أسابيع. حين يتمّ ذلك، سنتوجّه فوراً إلى مختبر الأسلحة، من دون أن تكشفنا الكاميرات في الظلام.

وُضعت أمامي على الطاولة المتفجّراتُ التي أعطانا إيّاها ريجي. بدت عادية جدّاً وهي داخل صندوق أسود مع مخالب معدنية على الأطراف وأداة تفجير عن بعد. ستُستخدم المخالب لتعليق الصندوق بالباب الثاني للمختبر، ذلك أنّ الباب لم يتمّ إصلاحه بعد منذ الهجوم.

قال ماثيو: "أظنّ أنّ هذا كلّ شيء. الآن ما علينا سوى الانتظار قليلاً بعد".

قلت: "ماثيو، هل يمكنك أن تتركنا بمفردنا قليلاً؟"

ابتسم مجيباً: "بالطبع. سأعود عندما يحين الوقت".

أغلق الباب خلفه. مرّر كاليب يديه على البدلة الواقية، والمتفجّرات، والحقيبة التي ستوضع فيها. رتّبها في خطّ مستقيم، وراح يسوّيها من هذه الزاوية ومن تلك.

قال: "لا أكفّ عن التفكير في الوقت الذي كنّا فيه صغاراً نلعب دور أبناء النزاهة. هل تذكرين كيف كنتُ أجلسك على كرسي في غرفة المعيشة وأطرح عليك الأسئلة؟"

استندت إلى الطاولة مجيبة: "أجل. كنت تتحسّس النبض في معصمي وتقول لي إني إن كذبت، ستعرف، لأنّ أبناء النزاهة يكتشفون الكذب دائماً. لم يكن ذلك لطيفاً جدّاً".

ضحك كاليب قائلاً: "في إحدى المرّات، اعترفتِ أنّك سرقت كتاباً من مكتبة المدرسة في اللحظة التي عادت فيها أمّنا إلى البيت".

ضحكتُ أنا أيضاً. "واضطررت إلى الذهاب للاعتذار من أمينة المكتبة! وكانت فظيعة. كانت تنادي الجميع أيّتها الشابّة أو أيّها الشابّ".

"لكنّها كانت تحبّني. هل تعرفين أنّه عندما تطوّعت للعمل في المكتبة، وكان يفترض بي ترتيب الكتب خلال استراحة الغداء، كنت في الواقع أقف في أروقة المكتب وأقرأ. قبضت عليّ عدّة مرّات وأنا أفعل ذلك، لكنّها لم تقل شيئاً".

"حقّاً؟" أحسست بطعنة في صدري. "لم أكن أعرف ذلك".

"كثيرة هي الأمور التي لم نعرفها عن بعضنا، على ما أظنّ". طرق بأصابعه على الطاولة مضيفاً: "أتمنّى لو أنّنا استطعنا أن نكون أكثر صدقاً مع بعضنا".

"وأنا أيضاً".

نظر إليّ مضيفاً: "لكن فات الأوان الآن، أليس كذلك؟"

"ليس على كلّ شيء". سحبت كرسياً من أمام الطاولة وجلست عليه. "فلنلعب لعبة النزاهة. سنتبادل طرح الأسئلة على بعضنا، ونجيب بصدق وصراحة".

بدا عليه شيء من الاستياء، لكنّه قبل بمجاراتي. "حسناً. ما الذي فعلتِه حقّاً عندما حطّمتِ تلك الأكواب في المطبخ وادّعيت أنّك كنت تريدين تلميعها؟"

نظرت إلى الأعلى بسأم. "أهذا سؤال تريد عليه جواباً صريحاً؟ لا تكن سخيفاً، كاليب".

"حسناً". تنحنح، وثبّت عينيه الخضراوين عليّ بجدّية. "هل سامحتني حقّاً أم تقولين ذلك فقط لأنّني على وشك الموت؟"

حدّقت إلى يديّ في حضني. كنت أتعامل معه بلطف لأنّني كلّما تذكّرت ما جرى في مقرّ المعرفة، أطرد تلك الفكرة على الفور. لكنّ هذا ليس غفراناً. فلو أنّني سامحته، لاستطعت التفكير بما جرى من دون تلك الكراهية التي أشعر بها في أحشائي، أليس كذلك؟

أم أنّ الغفران هو مجرّد الاستمرار بإزاحة الأفكار المرّة جانباً، إلى أن يداوي الزمن الجراح، ويُنسى الغضب، والخطيئة.

من أجل كاليب، اخترت أن أصدّق هذه الفكرة.

"أجل، لقد فعلت". صمت قليلاً ثمّ أضفت: "أو على الأقلّ، أنا أريد ذلك حقّاً، وأعتقد أنّه الشيء نفسه".

بدا عليه الارتياح. قمت ليأخذ مكاني على المقعد. أعرف ماذا أريد أن أسأله، وذلك منذ أن تطوّع للقيام بهذه التضحية.

"ما هو أهمّ سبب لما تفعله؟ أهمّ سبب".

"لا تسأليني ذلك، بياتريس".

"هذا ليس فخّاً. ولن يجعلني أتراجع عن غفراني لك. لكنّني أريد أن أعرف وحسب".

كانت تفصل بيننا البدلة الواقية، والمتفجّرات، وحقيبة الظهر التي رتّبها في خطّ مستقيم على السطح المعدني اللامع. إنّها أدوات ذهابه إلى غير رجعة.

"أظنّ أنّها برأيي الطريقة الوحيدة للهرب من إحساسي بالذنب إزاء كلّ ما فعلته. فأنا لم أرغب يوماً في شيء أكثر من التخلّص من هذا الإحساس".

آلمتني كلماته. كنت أخشى أن يقول ذلك. عرفت جوابه منذ البداية، وأتمنّى لو أنّني لم أسمعه.

تناهى إلينا صوت من خلال جهاز الاتصال الداخلي المثبّت في الزاوية. "انتباه إلى كافة المقيمين في المجمّع. ستبدأ عمليّة إقفال طارئ وتستمرّ حتّى الخامسة صباحاً. أكرّر، ستبدأ عمليّة إقفال طارئ وتستمرّ حتّى الخامسة صباحاً".

تبادلنا أنا وكاليب نظرات القلق. فجأة، دخل ماثيو من الباب.

قال: "تبّاً". ثمّ كرّرها بصوت أعلى: "تبّاً!"

سألته: "إقفال طارئ؟ أهو مثل التدريب على الهجوم؟"

قال ماثيو: "أجل. هذا يعني أنّنا علينا الذهاب الآن، بينما لا تزال الفوضى تعمّ الأروقة وقبل أن يضاعفوا التدابير الأمنية".

سأل كاليب: "ولماذا يفعلون ذلك؟"

أجاب ماثيو: "ربّما كانوا يرغبون في زيادة التدابير الأمنية قبل إطلاق الفيروسات، أو أدركوا أنّنا سنحاول فعل شيء. لكن لو عرفوا، لقاموا باعتقالنا على الأرجح".

نظرتُ إلى كاليب، وتساقطت الدقائق التي بقيت لي معه مثل أوراق الخريف التي تنتزعها الرياح عن الأغصان.

عبرت الغرفة، وأخرجت أسلحتنا من الخزانة. لكن عاد إلى ذهني كلام توبياس بالأمس، وهو أنّ أعضاء نكران الذات لا يسمحون لأحد بالتضحية بحياته من أجلهم إلاّ إن كانت تلك هي الطريقة الوحيدة ليُظهر أنّه يحبّهم.

وبالنسبة إلى كاليب، الأمر ليس كذلك.

الفصل السادس والأربعون
توبياس

انزلقت قدماي على الرصيف المكسوّ بالثلوج.

قلت لبيتر: "أنت لم تقم بتلقيح نفسك أمس".

أجاب: "كلاّ، لم أفعل".

"لماذا؟"

"ولماذا أخبرك؟"

مرّرت إبهامي على القارورة وقلت: "لقد أتيت معي لأنّك تعرف أنّني أملك مصل الذاكرة، أليس كذلك؟ إن كنت تريدني أن أعطيك إيّاه، يمكنك إخباري بالسبب".

نظر إلى جيبي مجدّداً كما فعل سابقاً. لا بدّ أنّه رأى كريستينا تعطيني إيّاه. قال: "أفضّل أن سلبك إيّاه وحسب".

"بربّك". نظرت إلى الأعلى، أراقب الثلج وهو يتساقط على أطراف المباني. كان الظلام مخيّماً، لكنّ القمر كان ينير لنا الطريق بما فيه الكفاية. "قد تظنّ أنّك ماهر في القتال، لكنّك لا تستطيع أن تغلبني، أعدك بذلك".

من دون سابق إنذار، دفعني بقوّة، فانزلقت على الثلوج وسقطت أرضاً. وقع مسدّسي على الأرض، ورأيته شبه مدفون تحت الثلج. هذا درس لي لأتعلّم عدم الغرور. وقفت متعثّراً، لكنّه أمسك بقبّة قميصي وشدّني إلى الأمام بحيث انزلقت مجدّداً. غير أنّني حافظت على توازني هذه المرّة، ولكمته بمرفقي في معدته. ركلني بقوّة على ساقي، وأحسست أنّها تخدّرت، ثمّ أمسك بسترتي ليشدّني نحوه.

راحت يده تبحث عن جيبي، حيث أحتفظ بالمصل. فحاولت أن أدفعه عنّي، لكنّ قدميه كانتا ثابتتين في حين أنّ ساقي لا تزال مخدّرة. أطلقت أنين إحباط وأنا أرفع ذراعي الحرّة إلى الأعلى وأضرب فمه بمرفقي. انتشر الألم في ذراعي، فمن المؤلّم جدّاً أن تضرب أحدهم على أسنانه، لكنّ الأمر يستحقّ. صاح ألماً وهو ينزل على الأرض، ويغطّي وجهه بكلتا يديه.

قلت له وأنا أنهض: "هل تعرف لماذا كنت تفوز في المبارزات خلال التلقين؟ لأنّك متوحّش، وتحبّ إيذاء الناس. تعتقد أنّك مميّز، وأنّ كلّ من حولك هم مجموعة من المخنّثين الذين لا يستطيعون اتّخاذ القرارات القاسية مثلك".

بدأ بالنهوض، فركلته جانباً بحيث انهار مجدّداً. بعد ذلك، ضغطت بقدمي على صدره، تحت عنقه تماماً، والتقت نظراتنا. كانت عيناه واسعتين وبريئتين لا تفضحان شيئاً من الشرّ الذي يعتمل بداخله.

قلت: "أنت لست مميّزاً. أنا أيضاً أحبّ إيذاء الناس، ويمكنني اتّخاذ الخيارات الأكثر وحشية. لكنّ الفرق هو أنّني لا أفعل أحياناً، في حين أنّك تفعل دائماً، وهذا ما يجعلك شرّيراً".

دست فوقه، واستأنفت طريقي نحو جادة ميشيغان. لكن بعد بضع خطوات، سمعت صوته.

قال بصوت مرتجف: "لهذا السبب أريده".

توقّفت، لكنّني لم أستدر. فأنا لا أرغب في رؤية وجهه في هذه اللحظة.

"أريد المصل لأنّني سئمت من هذه الحال. سئمت من قيامي بأفعال سيّئة، واستمتاعي بها، ومن ثمّ التساؤل على سبب كوني كذلك. أريد أن أتخلّص من هذا السلوك، وأبدأ مجدّداً".

قلت له من خلف كتفي: "ألا تظنّ أنّ هذه طريقة الجبناء؟"

"لا أعتقد أنّني آبه".

أحسست بالغضب الذي كان يتصاعد بداخلي يتبدّد فجأة وأنا أقلّب القارورة بين أصابعي داخل جيبي. سمعته وهو ينهض وينفض الثلوج عن ملابسه.

قلت: "إن لم تعبث معي مجدّداً، أعدك أن أدعك تمحو ذاكرتك بعد انتهاء مهمّتنا. ليس لديّ سبب يحول دون ذلك".

هزّ رأسه موافقاً، وتابعنا طريقنا فوق الثلوج نحو المبنى الذي رأيت فيه أمّي لآخر مرّة.

الفصل السابع والأربعون
تريس

خيّم على الرواق هدوء غريب، مع أنّ الناس انتشروا في كلّ مكان. اصطدمت بي امرأة بكتفها، ثمّ تمتمت معتذرة، بينما مشيت بجانب كاليب لكي لا أضيعه. في بعض الأحيان، كلّ ما أتمنّاه هو أن تكون قامتي أطول ببضع إنشات لكي لا يبدو لي العالم عبارة عن مجموعة كثيفة من الأجساد.

تقدّمنا بسرعة، لكن ليس كثيراً. وكلّما رأيت مزيداً من الحرّاس، ازداد توتّري. راحت حقيبة الظهر التي يحملها كاليب، والمحتوية على البدلة الواقية والمتفجّرات، تهتزّ فوق ظهره ونحن نمشي. كان الناس يتنقّلون في كلّ اتجاه. لكن قريباً، سنصل إلى ممرّ لا أحد يملك سبباً للتواجد فيه.

قال ماثيو: "أظنّ أنّ شيئاً ما حدث لكارا، فالمصابيح يجب أن تكون مطفأة الآن".

هززت رأسي موافقة. وأحسست بالمسدّس المدسوس في حزامي تحت قميصي الواسع. كنت آمل ألاّ أضطرّ إلى استخدامه، لكن لا مفرّ من ذلك على ما يبدو. وحتّى لو استخدمته، قد لا يكون كافياً لإيصالنا إلى مختبر الأسلحة.

لمست ذراع كاليب، وماثيو، وأوقفتهما في وسط الردهة.

قلت: "لديّ فكرة. فلننفصل. سنذهب أنا وكاليب إلى المختبر، بينما تقوم أنت ماثيو بفعل شيء ما لتشتيت الانتباه".

"تشتيت الانتباه؟"

قلت: "ألا تملك مسدّساً؟ أطلق النار في الهواء".

تردّد.

قلت له وأنا أشدّ على أسناني: "افعل".

أخرج ماثيو مسدّسه بينما أمسكت بذراع كاليب وقدته عبر الردهة. نظرت إلى الخلف، ورأيت ماثيو وهو يرفع مسدّسه فوق رأسه ويطلق النار إلى الأعلى، على أحد الألواح الزجاجية فوقه. عند انطلاق الرصاصة، اندفعت أركض، وجررت كاليب معي. علا الصياح، وتردّد صوت تحطّم الزجاج، بينما اندفع الحرّاس من أمامنا ولم يلاحظوا أنّنا نركض بالاتّجاه المعاكس لعنابر النوم، نحو مكان لا يجدر بنا التواجد فيه.

غريب هو إحساسي باستيقاظ ردود فعلي التلقائية وما تعلّمته في الشجاعة. أصبح تنفّسي أعمق وأكثر استواءً، وسلكنا الطريق التي حدّدناها هذا الصباح. أحسست أنّ ذهني أوضح وأكثر حدّة. نظرت إلى كاليب، وتوقّعت أن أرى الشيء نفسه يحدث له، لكنّه بدا شاحباً كالأموات، وكان يلهث. فواصلت الإمساك بذراعه بحزم للمحافظة على توازنه.

انعطفنا عند الزاوية، وأصدرت أحذيتنا صريراً على البلاط، بينما امتدّ أمامنا ممرّ خالٍ سقفه مكسوّ بالمرايا. أحسست بالانتصار لأنّني أعرف هذا المكان. لم نعد بعيدَين عن هدفنا، سننجح.

"توقّفا!" أتى الصوت من خلفي.

إنّهم الحرّاس. لقد وجدونا.

"توقّفا وإلاّ أطلقت النار!"

ارتعد كاليب ورفع يديه. رفعت يديّ أنا أيضاً ونظرت إليه.

أحسست أنّ كلّ شيء يتباطئ في داخلي، بما في ذلك أفكاري المتسارعة ونبض قلبي.

عندما نظرت إليه، لم أرى الشابّ الجبان الذي باعني لجانين ماثيوس، ولم أسمع الأعذار التي قدّمها في ما بعد.

عندما نظرت إليه، رأيت الصبيّ الذي أمسك بيدي في المستشفى عندما كسرت أمّنا معصمها، وقال لي إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. رأيت الأخ الذي طلب منّي أن أقوم بخياراتي الخاصّة، في الليلة التي سبقت حفل اختيار الجماعة. فكّرت بكلّ مزاياه؛ ذكاؤه، وحماسته، ودقّة ملاحظته، فكّرت بهدوئه، وجدّيته، ولطفه.

إنّه جزء منّي، وسيكون كذلك دائماً، كما أنّني جزء منه أيضاً. أنا لا أنتمي إلى نكران الذات، أو الشجاعة، أو حتّى إلى الجامحين. لا أنتمي إلى المكتب، ولا إلى التجربة، ولا إلى الضواحي. أنا أنتمي إلى الأشخاص الذين أحبّهم، وهم ينتمون إليّ. هم، والحبّ والولاء اللذين أقدّمهما إليهم يشكّلون هوّيتي، أكثر من أيّ كلمة أو أيّ مجموعة.

أنا أحبّ أخي. أحبّه، بينما هو يرتعد خوفاً أمام فكرة الموت. أحبّه وكلّ ما أفكّر فيه في هذه اللحظة وما يتردّد في عقلي هي الكلمات التي قلتها له قبل بضعة أيّام: لن أقدم أبداً على تسليمك للإعدام.

قلت: "كاليب، أعطني حقيبة الظهر".

"ماذا؟"

مددت يدي تحت قميصي، وأمسكت بالمسدّس، ثمّ وجّهته إليه. "أعطني الحقيبة".

هزّ رأسه رافضاً. "تريس، كلاّ، لن أدعك تفعلين ذلك".

صاح الحارس من آخر الممرّ: "ارمِ سلاحك. ارم سلاحك، وإلاّ أطلقت النار!"

قلت: "قد أتمكّن من مقاومة المصل القاتل، فقد قاومت كثيراً من الأمصال. ثمّة فرصة أن أعيش، على عكسك أنت. أعطني الحقيبة وإلاّ أطلقت النار على رجلك وأخذتها منك بالقوّة".

بعد ذلك، قلت بصوت عالٍ لأُسمع الحرّاس: "إنّه رهينتي! إن اقتربتم، سأقتله!"

ذكّرني في تلك اللحظة بأبينا. فقد كانت عيناه متعبتين وحزينتين، وبدا ظلّ لحية على ذقنه. ارتجفت يده وهو يُنزل الحقيبة عن ظهره ويعطيني إيّاها.

أخذتها وعلّقتها على كتفي. وأبقيت المسدّس موجّهاً إليه، ثمّ تحرّكت بحيث حجبني عن الجنود الواقفين في آخر الرواق.

قلت: "كاليب، أنا أحبّك".

لمعت عيناه بفعل الدموع وهو يجيب: "وأنا أحبّك أيضاً، بياتريس".

صحت ليسمعني الحرّاس: "انبطح أرضاً!"

ركع كاليب على ركبتيه.

قلت: "إن لم أخرج حيّة، أخبر توبياس أنّني لم أرغب في تركه".

تراجعت مصوّبة المسدّس من فوق كتف كاليب إلى أحد الحرّاس. أخذت نفساً وثبّتّ يدي، ثمّ زفرته وأطلقت النار. سمعت صرخة ألم قبل أن أجري في الاتجاه المعاكس، بينما تردّد صدى الطلقات في أذنيّ. ركضت في خطّ متعرّج لكي يصعب عليهم إصابتي، ثمّ انعطفت عند الزاوية. أصابت الرصاصة جداراً خلفي تماماً، وأحدثت فيه ثقباً.

بينما كنت أجري، أنزلت الحقيبة عن ظهري وفتحتها، ثمّ أخرجت منها المتفجّرات وأداة التفجير. سمعت صيحات وصدى خطوت خلفي، وعرفت أنّني لا أملك الوقت لإطلاق.

رحت أركض أسرع ممّا ظننت أنّني أستطيع. وارتجّ جسدي مع كلّ خطوة وأنا أنعطف عند الزاوية التالية. هناك، وقف حارسان عند الباب الذي اقتحمته نيتا مع أصحابها. ضممت المتفجّرات وأداة التفجير إلى صدري بإحدى يديّ، وأطلقت النار على الحارس الأوّل في ساقه وعلى الآخر في صدره.

ذاك الذي أصبته في ساقه مدّ يده إلى مسدّسه، فأطلقت النار مجدّداً، وأغمضت عينيّ بعد ذلك. لم يتحرّك مجدّداً.

مررت عبر الباب المحطّم، إلى الردهة الفاصلة بين البابين. وضعت المتفجّرات على العارضة المعدنية التي تجمع البابين، وعلّقت المخالب حول طرف العارضة لتثبيتها عليها. بعد ذلك، عدت إلى آخر الممرّ، وانعطفت عند الزاوية وانحنيت أرضاً، ثمّ أسندت ظهري إلى الباب، وضغطت على زرّ التفجير قبل أن أحمي أذنيّ بيديّ.

انفجرت القنبلة الصغيرة وتردّد صداها في عظامي، بينما دفعتني قوّة الانفجار جانباً وانزلق مسدّسي على الأرض. طارت شظايا الزجاج والمعدن في الهواء، وتساقطت على الأرض، في المكان الذي استلقيت فيه مذهولة. ومع أنّني حميت أذنيّ، إلاّ أنّني بقيت أسمع طنيناً فيهما، وبالكاد استطعت الوقوف على قدميّ.

في آخر الممرّ، كان الحرّاس قد لحقوا بي. أطلقوا النار، فأصابت رصاصة لحم ذراعي. صرخت، ثمّ وضعت يدي على الجرح، وزاغ بصري وأنا أندفع مجدّداً عند المنعطف، وأتعثّر باتجاه الأبواب المفتوحة.

كان خلفها دهليز صغير مزوّد بأبواب مغلقة من دون أقفال من الطرف الآخر. رأيت عبر نوافذ ذلك الباب مختبر الأسلحة، والصفوف المستوية للآلات والأجهزة السوداء وقوارير المصل، وكانت مضاءة من

الأسفل كأنّها في متحف. سمعت صوت رذاذ، وعرفت أنّ المصل القاتل يحوم في الهواء. لكنّ الحرّاس خلفي، ولا أملك الوقت لارتداء البدلة التي ستؤخّر مفعوله.

كما أنّني أعرف، أعرف وحسب، أنّني سأتغلّب عليه.

دخلت الدهليز.

الفصل الثامن والأربعون

توبياس

وصلت إلى مقرّ المنبوذين، إلاّ أنّ هذا المكان سيبقى دائماً بالنسبة إليّ مقرّ جماعة المعرفة، مهما حدث. كان يقبع بصمت تحت الثلج، ولا شيء يشير إلى وجود أناس في الداخل سوى النوافذ المضيئة. توقّفت أمام الأبواب، وصدر عنّي أنين استياء.

تساءل بيتر: "ما الأمر؟"

"أكره هذا المكان".

أبعد شعره الذي بلّلته الثلوج عن عينيه وقال: "إذاً، ماذا سنفعل، هل سنكسر نافذة؟ أم نبحث عن باب خلفي؟"

أجبت: "سأدخل من الباب بكلّ بساطة، فأنا ابنها".

"لكنّك خنتها أنت أيضاً وغادرتَ المدينة، مخالفاً أوامرها بعدم خروج أحد منها. كما أرسلَت أناساً خلفك لمنعك من ذلك، وكانوا مسلّحين".

"يمكنك البقاء هنا إن أردت".

"أنا أذهب إلى حيث يذهب المصل. لكن إن تعرّضتَ لإطلاق نار، سآخذه منك وأهرب".

"لا أتوقّع منك شيئاً آخر".

يا له من إنسان غريب الأطوار.

دخلت إلى الردهة، ولاحظت أنّ أحدهم قام بإعادة جمع لوحة جانين ماثيوس، لكنّه رسم إشارة X فوق كلّ عين من عينيها بالطلاء الأحمر، وكتب "حثالة الجماعات" في الأسفل.

اقترب منّا عدد من الأشخاص الذين يحملون شارات المنبوذين وشهروا أسلحتهم. كنت قد التقيت ببعضهم في مخيّمات المنبوذين، أو في الفترة التي قضيتها إلى جانب إيفلين كزعيم للشجاعة. أمّا الآخرون فكانوا غرباء تماماً، الأمر الذي ذكّرني أنّ أعداد المنبوذين أكبر ممّا توقّعنا بكثير.

رفعت يديّ إلى الأعلى قائلاً: "أنا هنا لرؤية إيفلين".

أجابني أحدهم: "بالطبع، لأنّنا نسمح لأيّ كان برؤيتها".

"أنا أحمل رسالة من خارج المدينة، وأنا واثق أنّها ترغب في سماعها".

قالت امرأة منبوذة: "توبياس؟" عرفتُها لكن ليس لأنّني التقيت بها عند المنبوذين، بل في قطاع نكران الذات. لقد كانت جارتنا، واسمها غريس.

قلت: "مرحباً، غريس. أودّ التحدّث مع أمّي".

عضّت على خدّها، ونظرت إليّ مفكّرة. ارتخت قبضتها على مسدّسها وقالت: "في الواقع، لا يفترض بنا أن نسمح لأحد بالدخول".

قال بيتر: "بربّكم، اذهبوا وأخبروها أنّنا هنا لتروا ماذا تقول! يمكننا الانتظار".

تراجعت غريس بين الحشد الذي اجتمع ونحن نتحدّث، ثمّ خفضت مسدّسها وهرولت عبر ممرّ مجاور.

طال وقوفنا إلى أن أحسست بالألم في كتفيّ. ثمّ عادت غريس وأشارت إلينا للدخول. خفضت يديّ بينما خفض الجميع أسلحتهم، ثمّ مررت في وسط الحشد مثل خيط يدخل في خرم إبرة. قادتنا غريس إلى أحد المصاعد.

سألتُها: "لماذا تحملين مسدّساً، غريس؟" لم يسبق لي أن رأيت أحداً من نكران الذات يحمل مسدّساً.

قالت: "لم يعد لتقاليد الجماعات أيّ وجود، وعليّ الدفاع عن نفسي والحفاظ على حياتي".

قلت: "هذا جيّد"، وعنيت ذلك. لم تكن جماعة نكران الذات أقلّ تفكّكاً من غيرها من الجماعات، لكنّ مشاكلها كانت أقلّ وضوحاً، مخبّأة تحت غطاء حبّ الغير. غير أنّ إجبار الناس على الاختفاء والتلاشي أينما ذهبوا ليس أفضل من تشجيعهم على ضرب بعضهم البعض.

صعدنا إلى الطابق الذي يقع فيه مكتب جانين الإداري، لكنّ غريس لم تصطحبنا إليه، بل قادتنا عوضاً عن ذلك إلى قاعة اجتماعات كبيرة تحتوي على طاولات، وأرائك، ومقاعد مرتّبة على شكل مربّعات. تسلّل ضوء القمر من خلال نوافذ كبيرة في الجدار الخلفي. جلست إيفلين إلى طاولة إلى اليمين، تحدّق عبر النوافذ.

قالت: "يمكنك الانصراف، غريس. هل تحمل رسالة إليّ، توبياس؟"

لم تنظر إليّ. كان شعرها الكثيف معقوداً في الخلف، وترتدي قميصاً رمادياً يحمل شارة المنبوذين. بدت مرهقة.

قلتُ لبيتر: "هل تمانع في انتظاري في الخارج؟" فوجئت لأنّه لم يناقشني، بل خرج وأغلق الباب خلفه.

أصبحنا بمفردنا أنا وأمّي.

قلت لها وأنا أقترب: "الناس في الخارج لا يرسلون إلينا رسائل. إنّهم يريدون محو ذاكرة كلّ من في هذه المدينة. فهم يعتقدون أنّنا لا نتمتّع بالمنطق، ولا بطبيعة تستحقّ أن يعملوا على تحسينها. لذلك وجدوا أنّه سيكون من الأسهل محو ذاكرتنا عوضاً عن التفاوض معنا".

قالت إيفلين: "ربّما كانوا على حقّ". التفتت إليّ أخيراً، وأسندت خدّها إلى يدها. كانت تملك دائرة خالية موشومة على أحد أصابعها، مثل خاتم الزواج. "ما الذي أتى بك إذاً؟"

وضعتُ يدي على القارورة في جيبي متردّداً. نظرت إليها، ورأيت كيف أبلاها الزمن، مثل قطعة ملابس قديمة، انحلّت خيوطها. استطعت أيضاً رؤية المرأة التي عرفتها في طفولتي، بفمها الباسم، وعينيها اللتين تنبضان بالفرح. لكن كلّما طال نظري إليها، ازدادت قناعتي أنّ تلك المرأة لم يكن لها وجود. تلك المرأة هي مجرّد نسخة شاحبة عن أمّي الحقيقية، التي رأيتها من خلال عيني طفل أنانيتين.

جلستُ أمامها إلى الطاولة، ووضعت قارورة مصل الذاكرة بيننا.

قلت لها: "لقد أتيت لأجعلك تشربين هذا".

نظرَت إلى القارورة، وأعتقد أنّني رأيت دموعاً في عينيها، لكن ربّما كان السبب هو الضوء وحسب.

قلت: "ظننت أنّها الطريقة الوحيدة لأمنع حلول دمار شامل. أعرف أنّ ماركوس وجوانا وأتباعهما سيشنّون هجوماً، وأعرف أنّك ستبذلين كلّ ما في وسعك لمنعهم، بما في ذلك استخدام المصل القاتل الذي تحتفظين به لذلك الغرض". أملت رأسي مضيفاً: "هل أنا مخطئ؟"

"كلاّ. نظام الجماعات سيّئ، ولا ينبغي إعادته. أفضّل أن نُدمَّر كلّنا عوضاً عن ذلك".

شدّت بيديها على طرف الطاولة حتّى ابيّضت عقد أصابعها.

قلت لها: "إنّ السبب الذي يجعل نظام الجماعات سيّئاً هو عدم وجود سبيل للخروج منها. فقد أوهمَنا أنّنا نملك الخيار من دون منحِنا إيّاه فعلاً. وهذا هو الشيء نفسه الذي تفعلينه هنا، وأنت تهدمين هذا

النظام. تقولين للناس أنتم أحرار في الاختيار، لكن لا تختاروا الجماعات وإلاّ دمّرتكم!"

قالت بصوت أعلى، متجنّبة النظر إلى عينيّ، متجنّبة إيّاي: "إن كان هذا ما تفكّر فيه، لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تخبرني عوضاً عن خيانتي؟"

"لأنّني أخاف منك!" خرجت الكلمات من فمي، ومع أنّني ندمت عليها إلاّ أنّني فرحت. فرحت لأنّني قبل أن أطلب منها التخلّي عن هويتها، استطعت على الأقلّ أن أكون صادقاً معها. "أنت... تذكّرينني به!"

"إيّاك". ضمّت يديها، وقالت كأنّها تبصق في وجهي: "إيّاك".

قلت وأنا أنهض واقفاً: "لا آبه إن كنت لا تريدين أن تسمعي ذلك. كان مستبّداً في بيتنا والآن أنت مستبدّة في هذه المدينة، ولا تلاحظين حتّى أنّك تفعلين مثله!"

أحاطت القارورة بأصابعها، وحملتها لتنظر إليها، ثمّ قالت: "ألذلك أحضرت هذه، لأنّك تظنّ أنّها الطريقة الوحيدة لإصلاح الأمور؟"

"أنا..." كنت على وشك أن أقول إنّها الطريقة الأسهل، والأفضل، وربّما الوحيدة التي أثق بها.

إن محوت ذكرياتها، يمكنني أن أصنع لنفسي أمّاً جديدة، لكن.

لكنّها ليست مجرّد أمّي. فهي شخص مستقلّ بذاته، ولا تنتمي إليّ.

لا يمكنني أن أختار من ستصبح، لمجرّد أنّني عاجز عن التعامل مع ما هي عليه الآن.

"كلاّ، كلاّ. بل أتيت لإعطائك الخيار".

أحسست فجأة بالرعب، وتخدّرت يداي، وأخذ نبضي يتسارع-

ابتلعت ريقي بصعوبة. "فكّرت في الذهاب لرؤية ماركوس الليلة، لكنّني بدّلت رأيي وأتيت لرؤيتك لأنّني... لأنّني أظنّ أنّه ثمّة أمل بالمصالحة بيننا. ليس الآن، وليس قريباً، لكن يوماً ما. أمّا معه، فلا أمل، ولا احتمال للمصالحة".

حدّقت إليّ، بعينين شرستين لكنّهما دامعتين.

قلت: "ليس من العدل أن أعطيك هذا الخيار، لكن لا بدّ من ذلك. يمكنك أن تتزعّمي المنبوذين، وتحاربي الأوفياء، لكن ستفعلين ذلك من دوني، وإلى الأبد. بالمقابل، يمكنك أيضاً التخلّي عن هذه الحملة، و... استعادة ابنك".

كان خياراً ضعيفاً، وقد عرفت ذلك، ولهذا شعرت بالخوف. خفت أن ترفض الاختيار، وأن تفضّل السلطة عليّ، وتقول إنّني طفل سخيف، وهذا ما أنا عليه. أنا طفل، لا يتجاوز طولي قدمين، أسأل أمّي كم تحبّني.

بحثت عينا إيفلين السوداوين مثل الأرض الرطبة عن عينيّ مطوّلاً.

فجأة، مدّت يديها عبر الطاولة، واحتضنتني بقوّة غريبة، مطوّقة إيّاي بذراعيها كالقفص.

قالت: "فليأخذوا المدينة بما فيها".

عجزت عن الحراك، وعن الكلام. لقد اختارتني، اختارتني أنا.

الفصل التاسع والأربعون

تريس

كانت رائحة المصل القاتل تشبه رائحة الدخان والتوابل، وقد رفضته رئتاي مع أوّل نفس أخذته. رحت أقحّ وأبصق، بينما ابتلعني الظلام.

تقدّمت على ركبتيّ، وأحسست كأنّ أحدهم استبدل دمائي بالدبس وعظامي بالرصاص. راح حبل غير مرئي يدفعني إلى النوم، لكنّني أريد أن أستيقظ. من المهمّ أن أرغب في الاستيقاظ. تخيّلت تلك الرغبة أنّها تشتعل في جسدي مثل النار.

شدّني الحبل أكثر، لكنّني أوقدت الشعلة بالأسماء. توبياس، كاليب، كريستينا، ماثيو، كارا، زيك، يوريا.

غير أنّني لم أستطع احتمال وزن المصل. سقطت جانباً، وضُغطت يدي الجريحة على الأرض الباردة. أحسست أنّني أغرق...

قال صوت في رأسي، سيكون من الجميل أن أحلّق بعيداً، لأرى أين سأذهب...

لكن النار، النار.

الرغبة في الحياة.

أنا لم أنته بعد.

أحسست كأنّني أبحث في ذهني. من الصعب أن أتذكّر لماذا أتيت إلى هنا ولماذا أريد أن أخلّص نفسي من هذا الثقل الجميل. أخيراً، عثرت على السبب. تذكّرت وجه أمّي، وجسدها المرميّ على الرصيف، والدماء التي تسيل من جسد أبي.

قال الصوت، لكنّهما ميتان، يمكنك اللحاق بهما.

أجبت، ماتا من أجلي. والآن عليّ أن أفعل شيئاً في المقابل. عليّ أن أمنع الناس من خسارة كلّ شيء، وأن أنقذ المدينة والأشخاص الذين أحبَّهم والداي.

إن لحقت بوالديّ، أريد أن أحمل معي سبباً جيّداً، وليس مجرّد السقوط بلا معنى على الأرض.

النار، النار. تأجّجت بداخلي، مثل نار مخيّم، لا بل جحيم، وكان جسدي هو وقودها. أحسست أنّها تتأجّج بداخلي، وتلتهم الثقل. ما من شيء يمكن أن يقتلني في هذه اللحظة. أنا قوية ولا أُقهر.

أحسست بالمصل يلتصق ببشرتي مثل الزيت، لكنّ الظلام تراجع. ضغطتُ يداً ثقيلة على الأرض ودفعتُ نفسي للوقوف.

مشيت منحنية، ودفعت الباب المزدوج بكتفي، فأصدر صريراً على الأرض عند تحطّم القفل. تنفّست الهواء النظيف ووقفت مستقيمة. لقد وصلت، وصلت.

لكنّني لم أكن بمفردي.

"لا تتحرّكي". رفع ديفيد مسدّسه قائلاً: "مرحباً تريس".

الفصل الخمسون

تريس

سألني: "كيف لقّحت نفسك ضدّ المصل القاتل؟" كان لا يزال جالساً على كرسيّه المتحرّك، لكنّ هذا لن يعيقه من إطلاق النار.

نظرت إليه، وأنا لا أزال ذاهلة.

"لم أفعل".

"لا تكوني سخيفة. لا يمكنك مقاومة مصل الموت من دون لقاح وأنا الوحيد الذي يملك تلك المادّة".

حدّقت إليه غير واثقة ممّا يقول. أنا لم ألقّح نفسي. كوني ما زلت على قيد الحياة هو أمر مستحيل، لكن هذا كلّ شيء.

قال: "لم يعد لذلك أيّ أهمّية، فنحن هنا الآن".

تمتمت: "ماذا تفعل هنا؟" أحسست أنّ شفتيّ كبيرتان على نحو غريب، وصعُب عليّ الكلام. ما زلت أشعر أنّ المصل يلتصق بجسدي بثقل مثل الزيت، كما لو أنّ الموت ما زال معلّقاً بي مع أنّني هزمته.

أدركت فجأة أنّني تركت مسدّسي في الردهة خلفي، اعتقاداً منّي أنّني لن أحتاج إليه بعدما قطعت هذه المسافة.

قال ديفيد: "عرفت أنّ شيئاً ما كان يجري، فقد كنتِ تتجوّلين مع المعطوبين طوال الأسبوع تريس، هل ظننت أنّني لن ألاحظ؟" هزّ رأسه متابعاً: "ثمّ قُبض على صديقتك كارا وهي تحاول التلاعب بالأضواء. غير أنّها فقدت وعيها قبل أن تخبرنا بشيء. فأتيت إلى هنا تحسّباً. ويؤسفني القول إنّني لم أفاجأ برؤيتك".

قلت: "أتيت بمفردك؟ هذا ليس عملاً حكيماً".

تغضّنت زوايا عينيه قليلاً وهو يجيب: "في الواقع، أنا أملك مقاومة للمصل القاتل وسلاحاً، ولا تملكين أيّ وسيلة لمقاومتي. لا يمكنك سرقة أربعة أجهزة فيروسية تحت تهديد السلاح. أخشى أنّك قطعتِ كلّ هذه المسافة عبثاً، لا بل على حساب حياتك. إن لم يقتلك المصل، ستموتين حتماً على يديّ. أنا واثق أنّك تفهمين، فنحن لا نسمح رسميّاً بتطبيق عقوبة الإعدام، لكنّني لن أتركك على قيد الحياة بعد فعلتك هذه".

يعتقد أنّني أتيت لسرقة أسلحة مسح الذاكرة، وليس لتشغيل أحدها، هذا بالطبع ما يظنّه.

حاولت ألاّ أدع تعابيري تفضح نواياي، مع أنّني واثقة أنّ عضلات وجهي ما زالت مرتخية. جال نظري في الغرفة بحثاً عن الأداة التي ستُطلق مصل الذاكرة. فقد كنت حاضرة عندما وصفها ماثيو لكاليب بالتفصيل المملّ: صندوق أسود مزوّد بلوحة مفاتيح فضّية، يميّزها شريط لاصق أزرق اللون كُتب عليه رقم الطراز. كان أحد الأشياء القليلة الموجودة على الطاولة أمام الحائط الأيسر، على بعد بضع خطوات منّي. لكن إن تحرّكت، سيقتلني.

عليّ أن أنتظر اللحظة المناسبة وأقوم بذلك بسرعة.

قلت: "أعرف ماذا فعلت". بدأتُ أتراجع إلى الخلف، آملة أن أشتّت انتباهه بالكلام. "أعرف أنّك أنت من خطّط لمحاكاة الهجوم، وأنّك المسؤول عن موت أهلي، عن موت أمّي. أنا أعرف".

انفجر ديفيد بصوت عالٍ ومفاجئ: "أنا لست مسؤولاً عن موتها! فقد أخبرتها بما سيحدث قبل بدء الهجوم، وكانت تملك الوقت الكافي لاصطحاب أحبّائها إلى مخبأ. لو أنّها أطاعت تعليماتي، لبقيَت على قيد

الحياة. لكنّها امرأة متهوّرة لم تفهم معنى التضحية من أجل صالح أكبر، وهذا ما قتلها!"

نظرت إليه عابسة. كان ثمّة شيء في ردّ فعله، في نظرة عينيه، شيء تمتم به عندما أعطته نيتا مصل الخوف، شيء يتعلّق بها.

قلت: "هل أحببتها؟ راسلتك كلّ هذه السنوات... ألهذا السبب لم ترغب أبداً في بقائها هناك... ألهذا السبب قلتَ لها إنّك لم تعد تستطيع قراءة رسائلها بعد زواجها من أبي..."

جلس ديفيد جامداً كالتمثال، كأنّه قُدّ من صخر.

قال: "أجل، لكنّ هذا الزمن مضى".

لا بدّ أنّ هذا ما دفعه إلى إدخالي في دائرة الثقة الخاصّة به، ومنحي فرصاً عديدة، لأنّني جزء منها، أملك شعرها، وأتكلّم بصوتها، ولأنّه أمضى حياته يحاول الإمساك بها ويعود صفر اليدين.

سمعت خطوات في الممرّ في الخارج. لا بدّ أنّ الجنود يقتربون. ممتاز، أنا أريدهم أن يفعلوا. أريدهم أن يتعرّضوا للفيروس الموجود في الهواء، وأن ينقلوه إلى بقيّة المجمّع. لكن أتمنّى أن ينتظروا حتّى يزول المصل القاتل من الهواء.

قلت: "أمّي لم تكن متهوّرة، بل فهمَت أمراً لم تفهمه أنت. فهمَت أنّ التضحية لا تكون كذلك عندما نضحّي بحياة شخص آخر، بل هي عمل شرّير".

تراجعت خطوة أخرى وقلت: "لقد علّمتني كلّ شيء عن التضحية الحقيقية. علّمتني أنّنا نقوم بها بدافع المحبّة، وليس الاشمئزاز من الصفات الوراثية لشخص آخر. علّمتني أنّنا نقوم بها بدافع الضرورة، وليس من دون استنفاد كلّ الخيارات الأخرى، وأنّنا نقدّمها للأشخاص

الذين يحتاجون إلى قوّتنا لأنّهم لا يملكون القوّة الكافية. لهذا السبب عليّ أن أمنعك من التضحية بكلّ أولئك الناس وذكرياتهم، لهذا السبب عليّ أن أخلّص العالم منكم إلى الأبد".

رحت أهزّ رأسي متابعة: "أنا لم آتِ إلى هنا لسرقة شيء، ديفيد".

استدرت وألقيت بنفسي باتّجاه الجهاز. انطلقت رصاصة واخترق الألم جسدي. حتّى أنّني لم أعرف أين أُصبت.

ما زلت أستطيع سماع صوت كاليب وهو يكرّر الرمز لماثيو. فطبعت الأرقام على لوحة المفاتيح بيد مرتجفة.

انطلق الرصاص مجدّداً.

أحسست هذه المرّة بمزيد من الألم، وزاغ بصري، لكنّني سمعت صوت كاليب من جديد. الزرّ الأخضر.

كان الألم مبرحاً.

لكن كيف، وجسدي كلّه مخدّر.

بدأت أسقط، وهبطت يدي على لوح المفاتيح وأنا أقع. فأضاء مصباح خلف الزرّ الأخضر.

سمعت صفيراً، وصوت قعقعة.

انزلقتُ على الأرض، وأحسست بشي دافئ على عنقي وتحت خدّي. ثمّ رأيت لوناً أحمر. للدم لون غريب، داكن.

رأيت من زاوية عيني ديفيد وهو ينهار فوق كرسيّه.

من خلفه، خرجت أمّي.

كانت ترتدي الملابس نفسها التي رأيتها فيها آخر مرّة، ملابس نكران الذات الرمادية، الملوّثة بدمائها، وكانت ذراعاها عاريتين بحيث ظهر وشمها. ما زالت الثقوب التي أحدثها الرصاص بادية على قميصها. رأيت

من خلالها بشرتها المصابة، وكانت حمراء، لكنّها لا تنزف، كما لو أنّها تجمّدت في الزمن. كان شعرها الأشقر مربوطاً إلى الخلف، في ما عدا بضع خصل أحاطت وجهها بلون ذهبي.

أعرف أنّها ليست حية، لكن لا أدري إن كنت أراها لأنّني أهذي بسبب الدم الذي خسرته أم بسبب المصل القاتل الذي شوّش أفكاري، أم أنّها هنا بطريقة أخرى أجهلها.

ركعت بجانبي، ووضعت يداً باردة على خدّي.

قالت مبتسمة: "مرحباً بياتريس".

سألتها: "هل أتممت واجبي؟" لست واثقة ما إذا كنت قد لفظت هذه الجملة فعلاً أم أنّني فكّرت بها وسمعَتها.

أجابت بعينين تفيضان بالدموع: "أجل يا طفلتي الحبيبة، لقد أتممتِ واجبك على أكمل وجه".

"وماذا عن الباقين؟" خنقتني غصّة عندما تراءت لي صورة توبياس، وتذكّرت كم كانت عيناه داكنتين وساكنتين، وكم كانت يده قوية ودافئة عندما وقفنا للمرّة الأولى وجهاً لوجه. "توبياس، وكاليب، وأصدقائي؟"

أجابت: "سيعتنون ببعضهم البعض، هكذا يفعل الناس".

ابتسمتُ، وأغمضت عينيّ.

أحسست بحبل يسحبني مجدّداً، لكن هذه المرّة عرفت أنّها ليست قوّة مشؤومة تجرّني نحو الموت.

أعرف هذه المرّة أنّها يد أمّي، تشدّني لتحتضنني بين ذراعيها.

فاستسلمت لها بكلّ سرور.

* * *

هل يمكن أن أنال المغفرة على كلّ ما فعلتُه للوصول إلى هنا؟

أريد أن أنالها.
بإمكاني ذلك.
أنا واثقة.

الفصل الحادي والخمسون

توبياس

مسحت إيفلين الدموع عن عينيها بإبهامها. وقفنا أمام النوافذ، بجانب بعضنا، نشاهد الثلوج وهي تدور في الهواء بفعل الرياح. تجمّع بعضها على حافة النافذة، وتراكم عند الزوايا.

عاد الإحساس إلى يديّ. بينما كنت أحدّق إلى العالم وهو يكتسي برداء أبيض، أحسست أنّ كلّ شيء يبدأ من جديد وأنّه سيكون أفضل هذه المرّة.

قالت إيفلين: "أظنّ أنّني أستطيع التواصل مع ماركوس عبر اللاسلكي للتفاوض على اتّفاق سلام. أعرف أنّه سيصغي إليّ، فمن الغباء ألاّ يفعل".

"قبل أن تفعلي ذلك، قطعتُ عهداً وعليّ أن أفي به". لمستُ كتف إيفلين، وتوقّعت أن تكون ابتسامتها مشوبة بالتوتّر، لكنّني كنت مخطئاً.

أحسست بشيء من الذنب. لم آت إلى هنا لأطلب منها تسليم سلاحها من أجلي والتخلّي عن كلّ ما ناضلت للحصول عليه مقابل استرجاعي. مع ذلك، أنا لم آت لإعطائها الخيار. أظنّ أنّ تريس كانت على حقّ. فعندما تُضطرّ للاختيار بين أمرين أحلاهما مرّ، تختار ذاك الذي ينقذ أحبّاءك. وبإعطاء إيفلين ذلك المصل، فإنّني لا أنقذها، بل أدمّرها.

كان بيتر جالساً وقد أسند ظهره إلى الجدار في الردهة. نظر إليّ عندما اقتربت منه، والتصق شعره الأسود بجبينه بفعل الثلج الذائب.

قال: "هل محوت ذاكرتها؟"

"كلاّ".

"لم أعتقد أنّك ستجد الشجاعة لذلك".

"الأمر لا يتعلّق بالشجاعة. على كلّ حال"، هززت رأسي وحملت قارورة مصل الذاكرة، "هل ما زلت تريد هذا؟"

هزّ رأسه إلى الأسفل.

"أنت تعلم أنّه بمقدورك بذل بعض الجهد. يمكنك اتخاذ قرارات أفضل، وعيش حياة أفضل".

"أجل، أعلم، لكنّني لن أفعل، كلانا يعرف ذلك".

أعرف ذلك فعلاً. أعرف أنّ التغيير صعب، يأتي ببطء، وأنّه ثمرة جهود أيّام عديدة مترابطة في خطّ طويل إلى أن يُنسى أوّلها. غير أنّ بيتر يخشى ألاّ يتمكّن من بذل ذلك الجهد، وأن يبدّد تلك الأيّام سدى، فينتهي به الحال أسوأ ممّا هو عليه الآن. وأنا أفهم ذلك الشعور، أفهم خوف المرء من نفسه.

هكذا أجلسته على أحد المقاعد، وسألته ماذا يريد منّي أن أخبره عن نفسه بعد أن تتبدّد ذكرياته كالدخان. فهزّ رأسه رافضاً. لا شيء، لا يريد الاحتفاظ بشيء.

حمل بيتر القارورة بيد مرتعشة، وفتح الغطاء. اهتزّ السائل بداخلها، وأوشك على الانسكاب. قرّبه بيتر من أنفه ليشتمّه.

سألني: "كم ينبغي أن أشرب؟" وأظنّ أنّني سمعت أسنانه وهي تصطكّ.

"لا أظنّ أنّ لذلك أهمّية".

"حسناً... أنا جاهز". رفع القارورة كأنّه يشرب نخباً.

عندما وضعها على شفتيه، قلت: "كن شجاعاً".

ابتلعها جرعة واحدة.

وشاهدتُ بيتر وهو يختفي.

* * *

كان الهواء في الخارج جليدياً.

هتفت: "بيتر!" وتحوّلت أنفاسي إلى بخار.

وقف بيتر عند باب مقرّ المعرفة، وبدا مربكاً. عندما سمع اسمه، الذي كرّرته له عشر مرّات على الأقلّ منذ أن شرب المصل، رفع حاجبيه استغراباً وأشار إلى صدره. كان ماثيو قد أخبرني أنّ الناس يعانون من الإرباك لبعض الوقت بعد تناولهم مصل الذاكرة، لكنّني لم أعرف أنّ "الإرباك" يعني "الغباء" حتّى الآن.

تنهّدت مجيباً: "أجل، أنت! للمرّة الحادية عشرة! هيّا بنا".

عندما نظرت إليه بعدما شرب المصل، ظننت أنّني سأرى المبتدئ الذي طعن عين إدوارد بسكّين الزبدة، والشابّ الذي حاول قتل حبيبتي، وكلّ الفظاعات الأخرى التي ارتكبها، منذ أن عرفته. لكنّني رأيت بسهولة أنّه لم يعد يملك أيّ فكرة عن نفسه. ما زالت عيناه الواسعتين تتمتّعان بتلك النظرات البريئة، لكنّني أصبحت أصدّقها الآن.

مشينا أنا وإيفلين جنباً إلى جنب، ولحق بنا بيتر. كان الثلج قد توقّف عن التساقط، لكنّه تجمّع بكميّات لا بأس بها على الأرض وأصدر صريراً تحت أقدامنا.

ذهبنا إلى حديقة ميلينيوم، وانعكس ضوء القمر على منحوتة حبّة الفاصولياء العملاقة، ثمّ نزلنا عدداً من السلالم. في أثناء ذلك، أمسكت إيفلين بمرفقي للحفاظ على توازنها، وتبادلنا نظرة. أتساءل ما إذا كانت تشعر بالتوتّر نفسه الذي أشعر به أمام فكرة مواجهة أبي مجدّداً. أتساءل ما إذا كان هذا التوتّر ينتابها في كلّ مرّة.

في الأسفل، كان ثمّة جناح يحتوي من طرفيه على كتلتين زجاجيتين، تبلغ كلّ منهما ثلاثة أضعاف طولي على الأقلّ. هنا اتفقنا على اللقاء نحن، وماركوس، وجوانا، ووافقنا على أن يكون الطرفان مسلّحَين، لنكون واقعيين لكن متساوين.

كانا هناك. لم تكن جوانا تحمل مسدّساً، على عكس ماركوس، الذي صوّبه على إيفلين. فصوّبتُ المسدّس الذي أعطتني إيّاه إيفلين عليه، تحسّباً. بدت فروة رأسه من خلال شعره الحليق، ومرّ نظري على الطريق المتعرّج الذي يرسمه أنفه المعقوف عبر وجهه.

قالت جوانا: "توبياس!" كانت ترتدي معطفاً بلون الوئام الأحمر، تناثرت عليه حبّات الثلج. "ماذا تفعل هنا؟"

"أحاول منعكم من قتل بعضكم البعض. أستغرب أن أراك تحملين مسدّساً".

أشرت برأسي إلى انتفاخ في جيب معطفها، يتّخذ شكل سلاح بوضوح.

قالت جوانا: "في بعض الأحيان لا بدّ من اتخاذ تدابير صعبة للحفاظ على السلام. أعتقد أنّك توافق على هذا المبدأ".

قال ماركوس وهو ينظر إلى إيفلين: "أنتما لم تأتيا إلى هنا للثرثرة، قلتِ إنّك تريدين التفاوض على معاهدة".

لا بدّ أنّ الأسابيع الماضية كانت قاسية عليه. بدا لي ذلك من زاويتي فمه المنخفضتين، والهالات البنفسجية المحيطة بعينيه. تراءت لي عيناي في جمجمته، وتذكّرت صورتي في مشهد الخوف، وكم أحسست بالرعب وأنا أشاهد جلده ينتشر فوق جسدي مثل الطفح. ما زلت أخشى أن أصبح مثله، حتّى في هذه اللحظة، وأنا أقف ضدّه، مع أمّي إلى جانبي، مثلما حلمت دوماً في طفولتي.

لكن لا أظنّ أنّني ما زلت خائفاً.

قالت إيفلين: "أجل، لديّ بعض الشروط لنتّفق عليها، وأظنّ أنّك ستجدها عادلة. إن قبلتَ بها، سأتنازل وأسلّم كلّ الأسلحة التي بحوزتي والتي لا يستخدمها شعبي للحماية الشخصية. بعد ذلك، سأرحل عن المدينة إلى غير رجعة".

ضحك ماركوس، ولم أعرف ما إذا كانت ضحكة سخرية أم عدم تصديق. فهو قادر على إظهار الاثنين، لكونه رجلاً مغروراً ومريباً جدّاً.

أخفت جوانا يديها تحت أكمامها اتّقاءً للبرد، وقالت: "دعها تكمل".

قالت إيفلين: "في المقابل، لن تهاجم أو تحاول الاستيلاء على السلطة في المدينة. ستسمح للناس الذين يرغبون في الرحيل عنها بالسعي لتأسيس حياة جديدة في مكان آخر. وستسمح لمن يختار البقاء بانتخاب قادة جدد ونظام اجتماعي جديد. والأهمّ من ذلك، أنت، ماركوس، لن تترشّح لمركز القيادة".

كان هذا هو الشرط الوحيد الأناني بامتياز لاتفاق السلام. فقد أخبرتني أنّها لا تحتمل فكرة قيام ماركوس بخداع مزيد من الناس لاتّباعه، ولم أناقشها في ذلك.

رفعت جوانا حاجبيها استغراباً. لاحظت أنّها أبعدت شعرها إلى الخلف من الجانبين بحيث كشفت ندبتها بالكامل. بدت أفضل على هذه الحال، وأقوى ممّا لو كانت تختبئ خلف ستار شعرها، وتخفي هويّتها.

قال ماركوس: "لا أوافق. أنا زعيم هؤلاء الناس".

قالت جوانا: "ماركوس".

غير أنّه تجاهلها. "لا يحقّ لكِ أن تقرّري ما إذا كنت سأتزعّمهم أم لا لأنّك تحقدين عليّ، إيفلين!"

صاحت جوانا: "اعذرني ماركوس. إنّ عرضها جيّد على نحو لا يصدّق، لأنّنا سنحصل على كلّ ما نريد من دون عنف! كيف لك أن ترفض؟"

قال ماركوس: "لأنّني أنا القائد الشرعي لهؤلاء الناس! أنا زعيم الأوفياء! أنا-"

قاطعته جوانا بهدوء: "كلاّ، لستَ كذلك. أنا زعيمة الأوفياء، وستوافق على هذه المعاهدة، وإلاّ أخبرتهم أنّك حصلتَ على فرصة إنهاء هذا النزاع من دون إراقة دماء لو ضحّيت بغرورك، لكنّك رفضت".

اختفى قناع ماركوس السلبي، وكشف وجهه الخبيث. لكنّه لم يكن قادراً على مجادلة جوانا، التي استطاعت السيطرة عليه بهدوئها التامّ وتهديدها له. فهزّ رأسه رافضاً، لكنّه لم يجادل مجدّداً.

قالت جوانا: "أنا موافقة على شروطك". ثمّ مدّت يدها، وأصدر الثلج صريراً تحت حذائها.

نزعت إيفلين قفّازاتها إصبعاً تلو الآخر، ثمّ مدّت يدها وصافحتها.

قالت جوانا: "سنجمع الناس غداً صباحاً ونخبرهم بالخطّة الجديدة. هل يمكنك ضمان اجتماع آمن؟"

قالت إيفلين: "سأبذل ما في وسعي".

تحقّقت من الوقت. فقد مرّت ساعة منذ أن انفصلنا عن عمّار وكريستينا بجانب مبنى هانكوك، ما يعني أنّه أصبح يعرف على الأرجح أنّ فيروس المصل لم ينتشر، أو ربّما لم يعرف بعد. في الحالتين عليّ الذهاب لكي أنجز ما أتيت لأجله، أي العثور على زيك وأمّه لإخبارهما بما حلّ بيوريا.

قلت لإيفلين: "عليّ الذهاب. تنتظرني مهمّة أخرى، لكنّني سأعود لإخراجك من المدينة عصر يوم غد".

قالت إيفلين: "هذا يبدو مناسباً"، وفركت ذراعي بخفّة بيدها المكسوّة بالقفّاز، مثلما اعتادت أن تفعل في طفولتي عندما كنت أرجع إلى البيت.

قالت جوانا: "أظنّ أنّك لن تعود. هل وجدتَ حياة لنفسك خارج المدينة؟"

أجبتها: "أجل. أتمنّى لكم التوفيق هنا. سيحاول الناس في الخارج إغلاق المدينة. كونوا مستعدّين لذلك".

ابتسمت جوانا قائلة: "أنا واثقة أنّنا نستطيع التفاوض معهم".

مدّت لي يدها، فصافحتها. أحسست بنظرات ماركوس عليّ، مثل ثقل خانق، تهدّد بسحقي. فأجبرت نفسي على النظر إليه.

قلت له: "وداعاً"، وعنيتُ ذلك.

* * *

تتمتّع هانا، والدة زيك، بقدمين صغيرتين لا تلامسان الأرض عندما تجلس على الأريكة في غرفة المعيشة في منزلهم. كانت ترتدي ثوب استحمام أسود وشبشباً، لكنّ مظهرها، بيديها المطويتين وحاجبيها المرفوعين، بدا مهيباً جدّاً بحيث أحسست أنّني أقف أمام زعيم من زعماء العالم. استرقت نظرة إلى زيك، الذي كان يفرك وجهه بيديه ليستيقظ.

لم يجدهما عمّار وكريستينا بين الثوريين بجانب مبنى هانكوك، بل في شقّة الأسرة في المبنى الزجاجي الذي يعلو مقرّ الشجعان. ولم أعثر عليهما إلاّ لأنّ كريستينا فكّرت بترك ملاحظة لي ولبيتر عن مكانهما في

الشاحنة المعطّلة. انتظرَنا بيتر في الفان الجديد الذي أعطتنا إيّاه إيفلين لنعود إلى المكتب.

قلت: "أنا آسف، لا أدري من أين أبدأ".

قالت هانا: "ابدأ بالخبر الأسوأ. ما الذي حلّ بابني بالضبط".

"لقد تعرّض لإصابة بالغة خلال اعتداء. فقد وقع انفجار، وكان على مقربة منه".

قال زيك: "يا إلهي"، وأخذ يتأرجح إلى الأمام والخلف كما لو أنّ جسده يريد أن يعود طفلاً من جديد، تسكّنه الهدهدة كما تفعل بالأطفال.

أمّا هانا فحنت رأسها، مخفية وجهها عنّي.

كانت تفوح في غرفة المعيشة رائحة الثوم والبصل، ربّما من أثر عشاء تلك الليلة. أسندت كتفي إلى الحائط الأبيض بجانب الباب. عُلّقت بجواري صورة للأسرة؛ زيك وهو طفل يحبو، ويوريا وهو طفل صغير جالس على حضن أمّه. كان وجه أبيهما مزيّناً بالثقوب في عدّة أماكن، أنفه، وأذنه، وشفته، لكنّ ابتسامته العريضة والمشرقة، وبشرته السمراء مألوفتان أكثر بالنسبة إليّ لأنّه ورّثهما لكلا ولديه.

قلت: "إنّه في غيبوبة منذ ذلك الحين، و..."

قالت هانا بصوت متوتّر: "ولن يستيقظ. هذا ما أتيت لإخبارنا به، أليس كذلك؟"

"أجل. أتيت لأخذكما لكي تتّخذا قراراً عنه".

قال زيك: "قرار؟ هل تعني فصله عن الأجهزة أو لا؟"

قالت هانا وهي تهزّ رأسها: "زيك". غرق مجدّداً في الأريكة، وبدا كأنّ الوسادات تلتفّ حوله".

قالت هانا: "بالطبع لا نريده إبقاءه حياً بتلك الطريقة، فأنا واثقة أنّه كان سيرغب بالمضيّ قُدماً. لكنّنا نريد الذهاب لرؤيته".

هززت رأسي موافقاً. "بالطبع، لكن ثمّة شيء أودّ قوله. كان الهجوم... عبارة عن تمرّد ضمّ عدداً من الأشخاص الذين يعيشون في المكان الذي أقمنا فيه. وقد شاركتُ فيه".

حدّقت إلى شقّ في الألواح الخشبية أمامي تماماً، إلى الغبار الذي تجمّع هناك مع الزمن، وانتظرت ردّ فعل، من أيّ نوع كان. لكنّهما التزما الصمت.

قلت لزيك: "لم أفعل ما طلبتَه منّي. لم أهتمّ به كما كان يجدر بي، أنا آسف".

جازفتُ بالنظر إليه، فوجدته جالساً بسكون، يحدّق إلى آنية خالية على الطاولة. كانت مزيّنة برسوم باهتة لأزهار وردية.

قالت هانا: "أظنّ أنّنا بحاجة إلى بعض الوقت". تنحنحَت، لكنّ الاضطراب ظلّ بادياً في صوتها.

قلت: "أتمنّى لو كان باستطاعتي منحكم إيّاه، لكنّنا عائدون إلى المجمّع قريباً، وعليكما مرافقتنا".

قالت هانا: "حسناً. هل يمكنك الانتظار في الخارج؟ سنأتي خلال خمس دقائق".

* * *

كانت رحلة العودة إلى المجمّع بطيئة ومظلمة. شاهدت القمر وهو يختفي ويظهر خلف السحب ونحن نتقدّم فوق الحفر والمطبّات. عندما وصلنا إلى حدود المدينة، بدأ الثلج يتساقط مجدّداً، بحبّات كبيرة وخفيفة، دارت في دوّامات أمام مصابيح الفان. تساءلت ما إذا كانت

تريس تشاهده في هذه اللحظة وهو يتساقط على الرصيف، ويتجمّع في كومات بجانب الطائرات. تساءلت ما إذا كانت تعيش في عالم أفضل من ذاك الذي تركناه، بين أناس لا يذكرون ما معنى امتلاك مورّثات نقية.

مالت كريستينا إلى الأمام، وهمست في أذني: "إذاً، هل فعلتها؟ هل نجحت الخطّة؟"

هززت رأسي إلى الأسفل. رأيتها في المرآة الخلفية وهي تلمس وجهها بيديها وتبتسم. أعرف ما تشعر به: الأمان. أصبحنا كلّنا بأمان.

سألتها: "هل أعطيت اللقاح لأسرتك؟"

"أجل. وجدناهم مع الأوفياء في مبنى هانكوك. لكنّ موعد مسح الذاكرة قد فات، ويبدو أنّ تريس وكاليب نفّذا المهمّة".

راح كلّ من هانا وزيك يتحدّثان بصوت منخفض، متعجّبان من غرابة العالم المظلم الذي نعبر فيه. شرح عمّار بعض المعلومات الأساسيّة في طريقنا، ونظر إلى الخلف، إليهما عوضاً عن النظر إلى الطريق أكثر ممّا ينبغي بحيث أثار أعصابي. حاولت أن أتجاهل خوفي وهو يوشك أن يصطدم بأعمدة النور أو بالحواجز، وركّزت تفكيري عوضاً عن ذلك على الثلج.

لطالما كرهت الفراغ الذي يجلبه الشتاء، بمناظره الطبيعية البيضاء والفرق الصارخ بين لون السماء ولون الأرض، والطريقة التي يحوّل فيها الأشجار إلى هياكل عظمية والمدينة إلى أطلال. ربّما أرى الشتاء هذا العام بشكل مختلف.

عبرنا الأسوار، وتوقّفنا أمام الباب الذي لم يعد يحرسه أحد. ترجّلنا من السيّارة، وأمسك زيك بيد أمّه، ليحافظ على توازنها وهي تمشي فوق

الثلوج. عندما دخلنا إلى المجمّع، أدركت أنّ كاليب نجح، لأنّني لم أرَ أحداً. هذا يعني أنّه العملية تمت، وأنّ ذاكرتهم تبدّلت إلى الأبد.

سألني عمّار: "أين الجميع؟"

عبرنا النقطة الأمنية المهجورة من دون أن نتوقّف. رأيت كارا عند الطرف الآخر. كان جانب وجهها يحمل كدمة قوية، ورأسها محاطاً بضمادة، لكن ليس هذا ما أقلقني. ما أثار خوفي هو نظراتها المضطربة.

سألتها: "ما الأمر؟"

هزّت كارا رأسها.

"أين تريس؟"

"أنا آسفة، توبياس".

قالت كريستينا بصوت خشن: "آسفة لماذا؟ أخبرينا ماذا جرى!"

قالت كارا: "تريس دخلت مختبر الأسلحة عوضاً عن كاليب. تمكّنت من مقاومة المصل القاتل، وأطلقت فيروس الذاكرة، لكنّها... تعرّضت لإطلاق نار، وفارقت الحياة. أنا آسفة".

بمقدوري في معظم الأحيان أن أتعرّف على الكذب، ولا بدّ أن تكون هذه كذبة، لأنّ تريس ما زالت حية. ما زالت عيناها تنبضان بالحيوية، وخدّاها يتورّدان دفئاً، وجسدها الصغير مليئاً بالقوّة، واقفة تحت شعاع من ضوء الشمس في الدهليز. ما زالت تريس حية، ولن تتركني هنا بمفردي. لن تذهب إلى مختبر الأسلحة عوضاً عن كاليب.

هزّت كريستينا رأسها قائلة: "كلاّ، مستحيل. لا شكّ أنّك مخطئة".

امتلأت عينا كارا بالدموع.

في تلك اللحظة أدركت الواقع: بالطبع ستذهب تريس إلى مختبر الأسلحة عوضاً عن كاليب.

ستفعل بالطبع.

صاحت كريستينا بشيء ما، لكنّ صوتها بدا لي مكتوماً، كأنّني غمرت رأسي بالماء. أصبح من الصعب عليّ أيضاً رؤية تفاصيل وجه كارا، وبدأ العالم يتلاشى من حولي.

اكتفيت بالوقوف ساكناً، وأحسست أنّني بهذه الطريقة أمنع ذلك الحدث من التحقّق، وأتظاهر أنّ كلّ شيء على ما يرام. انحنت كريستينا، غير قادرة على احتمال حزنها، فاحتضنتها كارا، أمّا أنا،

فاكتفيت بالوقوف ساكناً.

الفصل الثاني والخمسون

توبياس

عندما سقط جسدها للمرّة الأولى في الشبك، لم أر سوى ضباباً رمادياً. ساعدتها على النزول، وكانت يدها صغيرة لكنّها دافئة. وقفت أمامي، بقامتها القصيرة والنحيلة، وبدت عادية وغير ملفتة للنظر إطلاقاً، باستثناء أنّها كانت أوّل من تجرّأ على القفز. المتزمّتة كانت أوّل القافزين.

حتّى أنا لم أكن أوّل القافزين.

بدت عيناها مليئتان بالجدّية والتصميم.

كانت جميلة.

الفصل الثالث والخمسون

توبياس

لكنّها لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي رأيتها فيها. كنت قد رأيتها في أروقة المدرسة، وفي جنازة أمّي المزيّفة، وعلى أرصفة قطاع نكران الذات. رأيتها من دون أن أراها، ذلك أنّ أحداً لم يرها على حقيقتها إلى أن قفزَت.

أعتقد أنّ ناراً متّقدة على هذا النحو ليس مقدّراً لها أن تدوم.

الفصل الرابع والخمسون

توبياس

ذهبت لرؤية جثّتها... في وقت من الأوقات. فأنا لم أعرف كم مضى من الوقت بعدما أخبرتني كارا بما حدث. مشينا أنا وكريستينا جنباً إلى جنب، في أعقاب كارا. لا أذكر حقّاً مسيرتي من المدخل إلى المشرحة، بل مجرّد صور خاطفة وأصوات عابرة تمكّنت من سماعها من خلال الحاجز الذي ارتفع داخل رأسي.

كانت ممدّدة على طاولة، وللحظة فكّرت أنّها نائمة وحسب، وأنّها ستستيقظ عندما ألمسها. ستستيقظ، وتبتسم لي، وتعانقني. لكن عندما لمستها وجدتها باردة، جسدها متصلّب ويابس. راحت كريستينا تشهق. شددتُ على يد تريس، وتمنّيت، إن شددت بقوّة، أن أعيد الحياة إلى جسدها واللونَ إلى وجهها، لتستيقظ مجدّداً.

لا أدري كم مضى من الوقت قبل أن أدرك أنّ هذا لن يحدث، وأنّها رحلت. لكن عندما أحسست أنّ قواي خارت، سقطتُ على ركبتيّ بجانب الطاولة، وأظنّ أنّني بكيت، أو على الأقلّ أردت أن أبكي، وصرخ كلّ جزء من جسدي مطالباً بعناق أخير، وكلمة أخيرة، ونظرة أخيرة، مرّة واحدة بعد.

الفصل الخامس والخمسون

توبياس

في الأيّام التي تلت، كانت الحركة وليس السكون هي من ساعدني على إبقاء الحزن بعيداً عنّي، ورحت أسير في أروقة المجمّع عوضاً عن النوم. شاهدت الجميع وهم يتعافون من مصل الذاكرة الذي غيّرهم بشكل دائم، كأنّهم أتوا من مسافة بعيدة.

تمّ تقسيم الأشخاص الذين تاهوا في ضباب مصل الذاكرة إلى مجموعات، وإعطاؤهم الحقيقة: وهي أنّ الطبيعة البشرية معقّدة، وأنّ مورّثاتنا مختلفة، لكنّها ليست لا معطوبة ولا نقية. تمّ إعطاؤهم أيضاً كذبة: وهي أنّ ذكرياتهم امّحت بسبب حادث غريب، وأنّهم كانوا على وشك الضغط على الحكومة لمنح المساواة للمعطوبين وراثياً.

كنت أشعر بالاختناق من رفقة الآخرين، وترهقني الوحدة كلّما ابتعدت عنهم. أحسست بالخوف من دون أن أعرف السبب، لأنّني خسرت كلّ شيء أساساً. ارتجفت يداي وأنا أمرّ بغرفة المراقبة لمشاهدة المدينة على الشاشات. كانت جوانا ترتّب وسائل النقل للراغبين في مغادرة المدينة. سيأتون إلى هنا لمعرفة الحقيقة. لكن لا أدري ما الذي سيحدث لمن قرّروا البقاء في شيكاغو، ولست واثقاً أنّني أكترث.

دسست يديّ في جيوبي وراقبتهم لبضع دقائق، ثمّ انصرفت مجدّداً، محاولاً أن أزامن خطواتي مع دقّات قلبي، أو أن أتجنّب الشقوق بين البلاط. عندما خرجت، رأيت مجموعة صغيرة من الناس مجتمعة بجانب المنحوتة الحجرية، وكان بينهم امرأة على كرسي متحرّك؛ نيتا.

مررت بجانب الحاجز الأمني الذي لم يعد بذي جدوى، ووقفت على مسافة منهم، أراقبهم. وقف ريجي على اللوح الحجري، وفتح صمّاماً في

أسفل خزّان الماء. فتحوّلت القطرات إلى سيل من الماء، وسرعان ما تدفّقت من الخزّان، وانسكبت على اللوح، وبلّلت أسفل سروال ريجي.

"توبياس؟"

ارتجفت قليلاً، فقد كان صوت كاليب. التفتّ بعيداً عن الصوت، للبحث عن مهرب.

قال: "انتظر، أرجوك".

لم أكن أرغب في النظر إليه، وفي معرفة مدى حزنه عليها. ولا أريد التفكير كيف ماتت من أجل هذا الجبان البائس، وكم أنّه لا يستحقّ تضحيتها.

مع ذلك، نظرت إليه، متسائلاً ما إذا كنت أستطيع رؤية بعض منها في وجهه. فشوقي إليها لم ينطفئ حتّى الآن، مع أنّني أعرف أنّها رحلت.

كان شعره مشعّثاً، وعيناه الخضراوان بلون الدم، وفمه يرتعش.

لا يشبهها.

قال: "لا أريد إزعاجك، لكن لديّ ما أقوله لك. شيء... طلبَت منّي أن أقوله لك، قبل..."

قاطعته قائلاً: "قله وحسب".

"طلبَت منّي إن لم تخرج حيّة، أن أخبرك..." اختنق كاليب بعبراته، لكنّه تمالك نفسه، وقاوم الدموع متابعاً: "أنّها لم ترغب في تركك".

ألا يجدر بي أن أشعر بشيء وأنا أسمع كلماتها الأخيرة الموجّهة إليّ؟ لكنّني لم أشعر بشيء، بل أحسست أنّني أبعد ممّا كنت عليه.

قلت بصوت خشن: "حقّاً؟ لماذا تركتني إذاً؟ لماذا لم تدعك تموت بدلاً عنها؟"

قال كاليب: "أتظنّ أنّني لم أطرح على نفسي هذا السؤال؟ لقد أحبّتني. أحبّتني بما فيه الكفاية لتحمل مسدّساً وتصوّبه عليّ لكي تموت من أجلي. لا أملك فكرة عن السبب، لكن هذا ما حدث".

انصرف من دون أن يسمع الجواب، وربّما كان هذا أفضل، لأنّني لا أجد شيئاً أقوله يساوي غضبي. رففت عينيّ لأمنع دموعي من السقوط، وجلست على الأرض، في وسط الردهة تماماً.

أعرف لماذا أرادت أن تخبرني أنها لم ترغب في تركي. أرادتني أن أعرف أنّ هذا ليس مقرّ المعرفة، وليس كذبة روتها لي لكي أنام بينما تذهب إلى حتفها، ليس تضحية عبثية بالنفس. فركتُ عينيّ بيديّ كأنّني أعيد الدموع إلى رأسي، ثمّ وبّخت نفسي قائلاً لا تبكِ. إن سمحتُ بخروج قليل من الانفعال، سيتدفّق بأكمله ولن ينتهي أبداً.

بعد قليل، سمعت أصواتاً في الجوار؛ كارا وبيتر.

قالت له: "كانت هذه المنحوتة رمز التغير، التغيير التدريجي، لكنّهم يدمّرونها الآن".

سأل بيتر بصوت متحمّس: "آه، حقّاً؟ ولماذا؟"

"في الواقع... سأشرح لك لاحقاً إن لم يكن لديك مانع. هل تذكر طريق العودة إلى العنبر؟"

"أجل".

"إذاً، عد إلى هناك لبعض الوقت. ستجد فيه من يساعدك".

أتت كارا نحوي، وانكمشت على نفسي متوقّعاً أن تتكلّم. لكنّها اكتفت بالجلوس بجانبي على الأرض، بظهر مستقيم، ووضعت يديها على حضنها. راقبَت بتيقّظ واسترخاء على السواء المنحوتة حيث وقف ريجي تحت الماء المتدفّق.

قلت: "لستِ مضطرّة للبقاء هنا".
"ليس لديّ مكان أذهب إليه، والهدوء جميل".
هكذا جلسنا جنباً إلى جنب، نحدّق إلى الماء بصمت.

* * *

قالت كريستينا وهي تجري نحونا: "أنتما هنا؟" كان وجهها متورّماً وصوتها مبحوحاً، أقرب إلى تنهّد ثقيل. "هيّا لقد حان الوقت، سينزعون عنه الأجهزة".

ارتجفت لدى سماع تلك الكلمة، لكنّني دفعت نفسي للوقوف. لازمت هانا وزيك سرير يوريا منذ وصولنا، يمسكان بيديه، ويبحثان عن عينيه، لكنّ الحياة رحلت عنه، ولم يكن قلبه ينبض سوى بفعل الآلات.

لحقت بنا كريستينا في طريقنا إلى المستشفى. لم أكن قد نمت منذ أيّام، لكنّني لا أشعر بالتعب، ليس كما أفعل عادة، مع أنّ جسدي كان يؤلمني بأكمله وأنا أمشي. لم نتحدّث أنا وكريستينا، لكنّني أعرف أنّ أفكارنا متشابهة، تتركّز على يوريا، الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وصلنا إلى النافذة التي يمكننا من خلالها رؤية غرفة يوريا، وكانت إيفلين هناك، إذ ذهب عمّار لإحضارها عوضاً عنّي منذ بضعة أيّام. حاولت أن تلمس كتفي، لكنّني ابتعدت غير راغب في المواساة.

في الغرفة، وقف زيك وهانا من جانبي سرير يوريا. أمسكت هانا بإحدى يديه، وأمسك زيك بالأخرى، بينما وقف طبيب بجانب شاشة القلب يحمل حافظة ويمدّها، ليس لهانا أو زيك، بل لديفيد، الجالس في كرسيه المتحرّك. كان محدّب الظهر، ومشوّشاً، شأنه شأن كلّ من فقَدَ ذاكرته.

"ماذا يفعل هنا؟" أحسست أنّ كلّ عضلاتي، وعظامي، وأعصابي على وشك الانفجار.

قالت كارا من خلفي: "ما زال تقنياً قائد المكتب، حتّى يتمّ استبداله على الأقلّ. توبياس، لم يعد يذكر شيئاً. لم يعد للرجل الذي عرفته أيّ وجود، بل يمكن اعتباره ميتاً. ذاك الرجل لا يذكر أنّه قتل-"

قلت بحدّة: "اصمتي!" وقّع ديفيد على المستند، ثمّ استدار، ودفع نفسه نحو الباب. عندما فُتح، لم أستطع إمساك نفسي، بل ارتميت نحوه، ووحدها إيفلين هي التي منعتني من إطباق يديّ حول عنقه. نظر إليّ باستغراب، ثمّ تابع طريقه عبر الرواق، وأنا أقاوم ذراع إيفلين التي بدت مثل عارضة حديدية أمام كتفيّ.

قالت: "توبياس، اهدأ".

سألتهم وقد زاغ بصري بفعل الدموع: "لماذا لم يقم أحد بسجنه؟"

قالت كارا: "لأنّه ما زال يعمل لصالح الحكومة. إن كانوا قد اعتبروها حادثة مؤسفة، هذا لا يعني طرد الجميع. والحكومة لن تسجنه لمجرّد أنّه قتل متمرّدة تحت الضغط".

"متمرّدة؟ أهذا ما هي عليه الآن؟"

قالت كارا بلطف: "كانت. لا، بالطبع لا، لكن هكذا تراها الحكومة".

قبل أن أجيب، قاطعتني كريستينا: "كفّا عن الجدال، إنّهم يفصلون يوريا".

في غرفة يوريا، أمسك زيك وهانا بأيدي بعضهما من فوق جسد يوريا. رأيت شفتَي هانا تتحرّكان، لكنّني لم أعرف ماذا تقول، هل يملك الشجعان صلوات للمحتضرين؟ في الموت، يلتزم أعضاء نكران الذات بالصمت والعمل، وليس بالكلمات. أحسست أنّ غضبي يتلاشى، وضِعت

مجدّداً في الحزن الصامت، هذه المرّة ليس من أجل تريس فقط، بل من أجل يوريا، الذي حُفرت ابتسامته في ذاكرتي. شقيق صديقي، ومن ثمّ صديقي أيضاً، وإن لم يكن لوقت طويل بما فيه الكفاية، ليفعل مرحه فعله بي، ليس بما فيه الكفاية.

ضغط الطبيب على بعض الأزرار، حاملاً الحافظة على صدره، فتوقّفت الآلات عن التنفّس عن يوريا. اهتزّ كتفا زيك، وشدّت هانا على يده بقوّة، إلى أن ابيّضت عقد أصابعها.

بعد ذلك قالت شيئاً، وفتحت يديها، ثمّ ابتعدت عن جثّة يوريا، تاركة إيّاه يمضي.

ابتعدتُ عن النافذة، سيراً في البداية، ثمّ بدأت أجري عبر الأروقة على غير هدى، فيما غمرني إحساس غريب باللامبالاة والفراغ.

الفصل السادس والخمسون

توبياس

في اليوم التالي، أخذت شاحنة من المجمّع. كان الناس هناك ما زالوا يتعافون من فقدان ذاكرتهم، لذلك لم يحاول أحد منعي. قدت السيّارة فوق سكك الحديد باتجاه المدينة، وجال نظري على الأفق من دون أن أراه حقّاً.

عندما وصلت إلى الحقول التي تفصل المدينة عن العالم الخارجي، ضاعفت من السرعة. فسحقت الشاحنة الأعشاب والثلوج تحت إطاراتها وسرعان ما أصبحتُ على أرصفة نكران الذات، من دون أن أشعر بمرور الوقت. كانت الشوارع كلّها متشابهة، لكنّ يديّ وقدميّ تعرف طريقها، حتّى لو لم يتكبّد ذهني عناء توجيهها. توقّفت عند المنزل المجاور لإشارة الوقوف، بفسحته الأمامية المشقّقة.

منزلي.

دخلت من الباب وصعدت السلّم، لكنّ ذلك الإحساس المكتوم ما زال في أذني، كما لو أنّني أنجرف بعيداً عن العالم. لم أكن أعرف ما يعنيه الناس عندما يتحدّثون عن ألم الحزن. بالنسبة إليّ، الحزن هو خدر مدمّر، تتعطّل فيه كلّ الأحاسيس.

ضغطت بكفّي على اللوح الذي يغطّي المرآة في الأعلى، وأزحته جانباً. مع أنّ ضوء المغيب البرتقالي تسلّل على الأرض وأضاء وجهي من الأسفل، إلاّ أنّني لم أبد يوماً بهذا الشحوب، ولم تكن الهالات المحيطة بعينيّ أكثر بروزاً ممّا هي عليه الآن. فقد أمضيت الأيّام الفائتة في مكان ما بين النوم والاستيقاظ، غير قادر تماماً على بلوغ أيّ منهما.

وضعتُ آلة الحلاقة في المقبس بجانب المرآة. كانت جاهزة للاستعمال، وكلّ ما عليّ فعله هو تمريرها في شعري، وثني أذنيّ لحمايتهما من الشفرة، والالتفات للتحقّق من أنّني لم أفوّت أيّ خصل في الخلف. تساقط الشعر المقصوص على قدميّ وكتفيّ واحتكّ بالمناطق المكشوفة من بشرتي. مرّرت يدي على رأسي للتأكّد أنّ طول الشعر متساوٍ، لكنّني لا أحتاج حقّاً للتأكّد. فقد تعلّمت فعل ذلك بنفسي منذ الصغر.

أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أنفض الشعر عن كتفيّ وقدميّ، قبل أن أكنسه عن الأرض. عندما انتهيت، وقفت أمام المرآة ثانية، ونظرت إلى أطراف أوشامي، شعلة الشجاعة.

أخرجت قارورة مصل الذاكرة من جيبي. أعرف أنّ تلك القارورة ستمحو معظم حياتي، لكنّها ستستهدف الذكريات وحسب. سأبقى قادراً على الكتابة والكلام، ولن أنسى كيف أجمع جهاز كمبيوتر، لأنّ تلك المعلومات مخزّنة في أجزاء مختلفة من دماغي. لكنّني لن أتذكّر أيّ شيء آخر.

لقد تمّ إنهاء التجربة. فقد أجرت جوانا مفاوضات ناجحة مع الحكومة - أي رؤساء ديفيد - للسماح لأعضاء الجماعات السابقة بالبقاء في المدينة، شرط التمتّع بالاكتفاء الذاتي، والخضوع لسلطة الحكومة، والسماح للغرباء بالدخول إلى المدينة والانضمام إليهم، بحيث تصبح شيكاغو مدينة كبيرة أخرى، على غرار ميلووكي. والمكتب، الذي كان مسؤولاً عن التجربة، سيتولّى الآن حفظ النظام ضمن حدود مدينة شيكاغو.

ستكون أوّل مدينة كبيرة في البلاد يحكمها أشخاص لا يعتقدون بالعطب الوراثي. ستكون أشبه بجنّة على الأرض. أخبرني ماثيو أنّه يأمل

أن يتوافد إليها الناس من الضواحي لملء كلّ البيوت الخالية، وإيجاد حياة أفضل من تلك التي تركوها وراءهم.

كلّ ما أريده هو أن أصبح شخصاً جديداً. سأكون توبياس جونسون، ابن إيفلين جونسون. ربّما عاش توبياس جونسون حياة كئيبة وخالية، لكنّه على الأقلّ شخص كامل، وليس هذا الإنسان الممزّق الذي أنا عليه الآن، الذي أتلفه الألم ولم يعد يجدي نفعاً.

"أخبرني ماثيو أنّك سرقت بعضاً من مصل الذاكرة وشاحنة". ارتفع صوت كريستينا من آخر الردهة. "في الحقيقة، لم أصدّقه حقّاً".

لا بدّ أنّني لم أسمعها تدخل المنزل بسبب أذنيّ المشوّشتين. حتّى صوتها بدا كأنّه آتٍ من خلال الماء، واستغرقت بضع ثوانٍ لأفهم ما تقوله. عندما فعلت، نظرت إليها قائلاً: "لماذا أتيت إذاً ما دمت لم تصدّقيه؟"

أجابتني وهي تحدّق إليّ: "أتيت تحسّباً. كما أنّني أردت رؤية المدينة للمرّة الأخيرة قبل أن يتغيّر كلّ شيء. أعطني تلك القارورة، توبياس".

"كلاّ". أطبقتُ بأصابعي عليها لحمايتها. "هذا قراري أنا".

اتّسعت عيناها السوداوان، وأضاءت أشعّة الشمس وجهها، بحيث لوّنت كلّ خصلة من شعرها الكثيف الأسود باللون البرتقالي، كأنّه يحترق.

قالت: "هذا ليس قرارك، بل قرارُ جبان. وأنت لديك كثير من الصفات، فور، لكنّك لست جباناً، أبداً".

أجبتها باستسلام: "ربّما أصبحت كذلك الآن، فالوضع تغيّر. وأنا مرتاح هكذا".

"كلاّ، لستَ كذلك".

أحسست بالإنهاك، فاكتفيت بالنظر إلى الأعلى بسأم.

قالت كريستينا، بهدوء هذه المرّة: "لا يمكنك أن تصبح شخصاً كانت ستكرهه. ولو كانت على قيد الحياة، لكرهَت هذا".

تملّكني الغضب، مثل نار اضطرمت بداخلي، وزال الإحساس المكتوم عن أذنيّ، بحيث بدا حتّى هذا الشارع الهادئ من قطاع نكران الذات صاخباً، حتّى أنّ جسدي ارتجف من قوّته.

صرخت قائلاً: "اخرسي! اخرسي! أنت لا تعرفين ماذا تكره، أنت لم تعرفيها، أنت-"

أجابت بحدّة: "أنا أعرفها بما فيه الكفاية! أعرف أنّها ما كانت لترغب أن تمحوها من ذاكرتك كأنّها لم تعن لك شيئاً على الإطلاق!"

ارتميت عليها، وثبّتّ كتفيها على الجدار، ثمّ اقتربتُ منها قائلاً: "إن تجرّأتِ على قول ذلك مجدّداً، سوف-"

"سوف ماذا؟" دفعتني كريستينا إلى الخلف بقوّة. "ستؤذيني؟ أتعلم، ثمّة كلمة لوصف الرجال الأقوياء الذين يهاجمون النساء، إنّهم جبناء".

تذكّرت صراخ أبي يملأ البيت، ويده مطبقة على عنق أمّي، يدفعها على الجدران والأبواب. تذكّرت كيف كنت أراقبهما من خلف باب غرفتي، ويدي ملتفّة على قبضة الباب. تذكّرت أيضاً كيف كنت أسمعها تبكي من خلال باب غرفتها، وكيف كانت تقفله لكي لا أدخل.

تراجعتُ إلى الخلف، ثمّ تراخيتُ على الحائط، وتركت جسدي يستند إليه.

قلت: "أنا آسف".

أجابت: "أعرف".

وقفنا ساكنَين لبضع ثوانٍ، ننظر إلى بعضنا. أذكر أنّني كرهتها في أوّل مرّة رأيتها فيها لأنّها أتت من النزاهة، ولأنّ الكلمات كانت تنسكب من فمها بلا اكتراث. لكنّها مع الوقت، ظهرَت لي على حقيقتها، كصديقة متسامحة، مخلصة للحقيقة، وشُجاعة بما فيه الكفاية للمجازفة. لم أستطع أن أقاوم محبّتي لها في هذه اللحظة، ولا رؤيتها مثلما رأتها تريس.

قالت: "أعرف معنى الرغبة في نسيان كلّ شيء. أعرف أيضاً ما يكون عليه إحساس المرء عندما يُقتل الشخص الذي يحبّه بلا سبب، بحيث يرغب في مقايضة كلّ ذكرياته له بلحظة سلام".

لفّت أصابعها حول أصابعي الملتفّة حول القارورة.

قالت: "لم أعرف ويل لمدّة طويلة، لكنّه غيّر حياتي، غيّرني. وأعلم أنّ تريس غيّرتك أكثر".

تلاشى التعبير القاسي الذي كان على وجهها منذ لحظات، ولمست كتفيّ بخفّة.

قالت: "أصبحتَ معها شخصاً جديراً بالحياة. وإن شربتَ ذلك المصل، لن تتمكّن أبداً من استعادته".

عادت إليّ الدموع، كما حدث عندما رأيت جثّة تريس، وهذه المرّة كانت مصحوبة بالألم، ألم حاد وحارق في صدري. شددت قبضتي على القارورة، وأحسست بتوق يائس إلى الراحة التي تَعِدني بها، والحماية من ألم كلّ الذكريات التي تنهشني مثل حيوان جائع.

أحاطت كريستينا كتفيّ بذراعيها، فازداد الألم سوءاً، لأنّها ذكّرتني بكلّ مرّة أحاطتني فيها تريس بذراعيها النحيلتين، بتردّد في البداية، ومن

ثمّ بقوّة أكبر، وثقة أكبر بنفسها وبي. ذكّرتني أنّ أحداً لن يعانقني بهذه الطريقة مرّة أخرى، لأنّها لا تشبه أحداً، ولأنّها رحلت.

لقد رحلت، وبدا لي البكاء سخيفاً وغير مجدٍ، لكنّه ملجئي الوحيد. بكيت على كتف كريستينا مطوّلاً، من دون أن تقول شيئاً.

ابتعدتُ عنها أخيراً، لكنّ يديها بقيتا على كتفيّ، دافئتين وخشنتين بسبب الجلد القاسي. ربّما كان الإنسان مثل بشرة اليد، يزداد خشونة مع تعرّضه المتكرّر للألم. لكنّني لا أريد أن أصبح رجلاً قاسياً.

في هذا العالم أنواع أخرى من الناس. فيه أشخاص مثل تريس، التي استطاعت بعد المعاناة والخيانة أن تجد الحبّ الكافي للتضحية بحياتها عوضاً عن حياة أخيها، أو مثل كارا، التي استطاعت أن تسامح الفتاة التي قتلت أخيها، أو كريستينا، التي خسرت صديقاً تلو الآخر لكنّها صمّمت بالرغم من ذلك على البقاء منفتحة، وإيجاد أصدقاء جدد. بدا أمامي خيار آخر، أكثر إشراقاً وقوّة من تلك التي منحت نفسي إيّاها.

فتحت عينيّ، وأعطيتها القارورة، فأخذتها ودسّتها في جيبها.

قالت وهي تحيط كتفيّ بذراعها: "أعرف أنّ زيك ما زال على مسافة منك، لكن يمكنني أن أكون صديقتك في هذه الأثناء. حتّى أنّنا نستطيع تبادل الأساور إن شئت، كما كانت تفعل فتيات الوئام".

"لا أظنّ أنّ هذا ضروري".

نزلنا السلّم وخرجنا إلى الشارع معاً. كانت الشمس قد انخفضت خلف أبنية شيكاغو، وتناهى إليّ من بعيد صوت قطار يُسرع فوق سكك الحديد، لكنّنا كنّا ننتقل بعيداً عن هذا المكان وكلّ ما يعنيه لنا، ولا بأس في ذلك.

* * *

بإمكان المرء أن يثبت شجاعته بطرق عديدة في هذا العالم. ففي بعض الأحيان، تتمثّل الشجاعة في التضحية بالحياة من أجل شيء أكبر منك، أو من أجل شخص آخر. وتتمثّل في أحيان أخرى في التخلّي عن كلّ ما عرفتَه، أو كلّ من أحببتَه، في سبيل قضية أعظم.

لكنّها لا تكون كذلك في بعض الأحيان.

أحياناً، تقتصر الشجاعة على أن تطحن أسنانك وأنت تتألّم، وأن تعمل كلّ يوم، وأنت تتقدّم ببطء نحو حياة أفضل.

تلك هي الشجاعة التي يجب أن أتحلّى بها الآن.

خاتمة

بعد عامين ونصف

وقفت إيفلين في نقطة التقاء عالمَين. كانت الخطوط التي تحدّد مسارات السيّارات على الأرض قد تلاشت الآن، لكثرة ذهاب وإياب الناس المنتقلين من وإلى الضواحي، أو موظّفي المكتب سابقاً. وضعَت حقيبتها عند قدميها، ورفعت يدها لتحيّتي عندما اقتربت.

عندما استقلّت الشاحنة، طبعت قبلة على خدّي، وتركتها تفعل. أحسست بابتسامة تتسلّل إلى وجهي، ولم أمنعها.

قلت: "أهلاً بعودتك".

نصّ الاتّفاق الذي عرضته عليها قبل أكثر من عامين، والوعد الذي تعهّدَت به مجدّداً أمام جوانا بعد وقت قصير، على أن تغادر المدينة. لكنّ الكثير تغيّر الآن في شيكاغو ولم أعد أرى، لا أنا ولا هي، ضيراً من عودتها. مع أنّ عامين انقضيا، إلاّ أنّها تبدو أصغر سنّاً، بوجهها الأكثر امتلاءً وابتسامتها العريضة. لقد كان ابتعادها مفيداً لها.

سألتني: "كيف حالك؟"

"أنا... بخير. سنقوم بذرّ رمادها اليوم".

نظرتُ إلى الجرّة الموضوعة على المقعد الخلفي كأنّها راكب آخر. كنت قد تركت رماد تريس لمدّة طويلة في مشرحة المكتب، غير واثق من نوع الجنازة التي كانت سترغب فيها، ومن قدرتي على إجرائها. لكن يصادف اليوم موعد اختيار الجماعات، لو كان النظام القديم لا يزال قائماً، وقد حان الوقت لاتّخاذ خطوة إلى الأمام، حتّى لو كانت صغيرة.

وضعت إيفلين يدها على كتفي ونظرت إلى الحقول. كانت المزروعات التي اقتصرت في الماضي على الأراضي المحيطة بمقرّ الوئام قد

انتشرت وتواصل انتشارها عبر كلّ المساحات العشبية حول المدينة. في بعض الأحيان، أفتقد إلى الأرض الجرداء والمقفرة. لكنّني لم أمانع في هذه اللحظة من المرور بين صفوف لا تحصى من محاصيل الذرة أو القمح. رأيت أناساً بين النباتات، يتحقّقون من الأرض بواسطة أجهزة يحملونها بأيديهم صمّمها علماء المكتب سابقاً. كانوا يرتدون ملابس حمراء وزرقاء وخضراء وبنفسجية.

سألتني إيفلين: "كيف هي الحياة من دون جماعات؟"

قلت لها مبتسماً: "عادية جدّاً، ستحبّينها".

* * *

اصطحبت إيفلين إلى شقّتي شمال النهر تماماً. كانت تقع في أحد الطوابق السفلية، لكن يمكن رؤية المساحة العريضة من الأبنية من خلال نوافذها العديدة. كنت أحد أوّل المستوطنين في شيكاغو الجديدة، لذلك حصلت على فرصة اختيار المكان الذي أرغب في العيش فيه. أمّا زيك، وشونا، وكريستينا، وعمّار، وجورج فاختاروا العيش في الطوابق العليا من مبنى هانكوك، وانتقل كلّ من كاليب وكارا إلى الشقق المجاورة لحديقة ميلينيوم. أمّا أنا فاخترت هذا المكان لأنّه جميل ولأنّه بعيد عن منزلَيّ القديمَين.

قلت وأنا أبحث في جيوبي عن المفاتيح: "جاري خبير في التاريخ، أتى من الضواحي. يسمّي شيكاغو المدينة الرابعة، لأنّها دُمّرت في حريق منذ عصور، ومن ثمّ في حرب النقاء، والآن نحن نقوم بالمحاولة الرابعة للاستقرار هنا".

قالت إيفلين وأنا أفتح الباب: "المدينة الرابعة، يعجبني هذا الاسم".

لم تكن الشقّة تحتوي على كثير مفروشات، بل مجرّد أريكة، وطاولة، وبعض المقاعد، ومطبخ. انعكست أشعّة الشمس على نوافذ الأبنية المحيطة بالنهر. يحاول بعض علماء المكتب إعادة المجد القديم إلى النهر والبحيرة، لكنّ ذلك سيستغرق وقتاً. فالتغيير، شأنه شأن الشفاء، يحتاج إلى الوقت.

وضعت إيفلين حقيبتها على الأريكة. "شكراً لأنّك سمحت لي بالإقامة معك لمدّة قصيرة. أعدك أن أعثر قريباً على مكان آخر".

"لا مشكلة في ذلك". أحسست بالتوتّر من وجودها هنا، تنظر إلى مقتنياتي القليلة، وتتنقّل في أروقتي، لكن لا يمكننا البقاء بعيدَين عن بعضنا إلى الأبد. ليس بعدما وعدتها أن أحاول ردم الهوّة التي تفصل بيننا.

قالت إيفلين: "قال جورج إنّه يحتاج إلى بعض المساعدة في تدريب قوّة شرطة. ألم تعرض عليه التطوّع؟"

"كلاّ. كما أخبرتك، لقد اكتفيت من الأسلحة".

رسمت إيفلين تكشيرة على وجهها، وأجابت: "هذا صحيح، فأنت تستخدم الكلمات الآن. أنا لا أثق بالسياسيين، كما تعلم".

"ستثقين بي، لأنّني ابنك. على كلّ حال، أنا لست سياسياً. ليس بعد، بل مجرّد مساعد".

جلسَت إلى الطاولة، ونظرت حولها. بدت مضطربة ورشيقة، مثل هرّة.

"هل تعرف أين هو والدك؟"

رفعتُ كتفيّ مجيباً: "قيل لي إنّه رحل، لكن لم أسأل إلى أين".

أسندت ذقنها إلى يدها. "أليس لديك ما تقوله له؟ لا شيء على الإطلاق؟"

"كلاّ". أدرت المفاتيح حول إصبعي. "أردت وحسب أن أتركه خلفي، حيث ينتمي".

قبل عامين، عندما وقفتُ أمامه في الحديقة تحت الثلج المتساقط، أدركتُ أنّ الصراخ في وجهه أو إهانته لن يمحوا الألم الذي سبّبه لي، تماماً كما أنّ الاعتداء عليه أمام الشجعان في مركز عديمي الرحمة لم يفعل. والخيار الوحيد الذي تبقّى أمامي هو تركه وشأنه.

ألقت عليّ إيفلين نظرة غريبة وفاحصة، ثمّ قامت وذهبت لفتح الحقيبة التي وضعَتها على الأريكة. أخرجت منها شيئاً مصنوعاً من الزجاج الأزرق. بدا مثل شلاّل من المياه متوقّف في الزمن.

أذكر عندما أعطتني إيّاه. كنت صغيراً، لكنّني قادر على الإدراك أنّه شيء محظور في جماعة نكران الذات، لكونه بلا فائدة، وبالتالي نوع من الإسراف. سألتها عن الغرض منه، فقالت لي، ليس له غرض واضح، لكنّه قد يتمكّن من فعل شيء هنا. ثمّ وضعت يدها على قلبها مضيفة، الأشياء الجميلة تفعل ذلك أحياناً.

بقي التمثال لسنوات رمزاً للتحدّي الصامت، ولرفضي الصغير أن أكون طفل نكران ذات مطيعاً ومحترماً، ورمزاً لتحدّي أمّي أيضاً، مع أنّني اعتقدت أنّها ميتة. خبّأته تحت سريري، وفي اليوم الذي قرّرت فيه ترك جماعتي، وضعته على مكتبي لكي يراه أبي، ويرى قوّتي، وقوّتها.

قالت وهي تضمّ الزجاجة إلى صدرها: "عندما رحلت، ذكّرني هذا بك. ذكّرني كم كنتَ شجاعاً دائماً". ابتسمَت قليلاً وأضافت: "فكّرت أنّك قد ترغب في الاحتفاظ به هنا، فقد أهديتك إيّاه في الأساس".

لم أكن واثقاً أنّ صوتي لن يتهدّج إن تكلّمت، لذلك اكتفيت بالابتسام، وهززت رأسي موافقاً.

* * *

لفحني هواء الربيع البارد، لكنّني تركتُ النوافذ مفتوحة في الشاحنة، لأشعر به في صدري، وليلفح أناملي، ويذكّرني ببقايا الشتاء. توقّفتُ بجانب منصّة القطار قرب مركز عديمي الرحمة، وأخذت الجرّة عن المقعد الخلفي. كانت فضّية وبسيطة، من دون نقوش. لم أكن أنا من اختارها، بل كريستينا.

مشيت على المنصّة باتجاه المجموعة التي كانت بانتظاري. وقفت كريستينا مع زيك وشونا، التي جلست على كرسيّها النقّال وغطّت ساقيها ببطّانية. أصبحت تملك الآن كرسياً أفضل، من دون مقابض في الخلف، بحيث تحرّكه بسهولة أكبر. وقف ماثيو على المنصّة، ودفع أصابع قدميه إلى ما فوق الحافة.

وقفتُ بجانب شونا قائلاً: "مرحباً".

ابتسمت لي كريستينا، وربّت زيك على كتفي.

كان يوريا قد توفّي بعد أيّام من وفاة تريس، لكنّ زيك وهانا ودّعاه بعد أسابيع فقط، وألقوا رماده في النهر، في مقرّ الشجاعة، وسط صخب الأصدقاء والأسرة. هتفنا باسمه، وتردّدت أصداءه في القبو. مع ذلك، أعرف أنّ زيك يتذكّره اليوم، مثلنا جميعاً، حتّى لو كان هذا العمل الشجاع الأخير هو من أجل تريس.

قالت شونا: "أريد أن أريك شيئاً". ثمّ أبعدَت البطّانية جانباً، لتكشف دعامة معدنية معقّدة على ساقيها. كانت تمتدّ حتّى وركيها

وتلتفّ حول بطنها مثل القفص. ابتسمت لي، وصدر صوت تحرّك معدني وهي تُنزل قدمها على الأرض أمام الكرسي، وتقف بشيء من الصعوبة.

على الرغم من جدّية هذه المناسبة، ابتسمتُ.

قلت: "آه، ماذا أرى... لقد نسيت كم أنت طويلة القامة".

قالت: "صنعها لي كاليب وزملاؤه في المختبر. ما زلت أحاول الاعتياد عليها، لكنّهم قالوا إنّني قد أتمكّن من الجري يوماً ما".

"هذا جميل. أين هو بالمناسبة؟"

أجابت: "سيلاقينا هو وعمّار عند آخر السلك. ينبغي أن يتواجد أحد هنا لالتقاط أوّل من سينزلق عليه".

قال زيك: "ما زال طري العود، لكنّني ذاهب إليه".

لم أعلّق. في الحقيقة، تصالحت مع كاليب، لكنّني ما زلت عاجزاً عن التواجد بقربه مطوّلاً. فحركاته، ونغمة صوته، وسلوكه، تذكّرني بها، تجعله همسة منها. وهذا ليس كافياً، لكنّه أيضاً كثير.

كنت لأقول المزيد، لكنّ القطار وصل. اندفع نحونا على السكك المصقولة، ثمّ أصدر صريراً وهو يتباطأ ليتوقّف أمام المنصّة. أطلّ رأس من نافذة المقطورة الأولى، حيث توجد أجهزة التحكّم. كانت كارا، بشعرها المجدول بعناية.

قالت: "اصعدوا!"

جلست شونا على كرسيّها مجدّداً، ودفعت نفسها عبر الباب، ثمّ دخل ماثيو، وكريستينا، وزيك في أعقابها. كنت آخر الراكبين. أعطيت الجرّة لشونا لتحملها، ووقفت عند الباب، ممسكاً المقبض بيدي. انطلق القطار مجدّداً، وتضاعفت سرعته مع كلّ ثانية، إلى أن سمعته يقعقع ويصفر فوق السكّة، وأحسست بقوّته ترتفع في داخلي. لفح الهواء

وجهي وضغط الملابس على جسدي، بينما رحت أراقب المدينة وهي تمضي من أمامي، تضيء أبنيتها أشعة الشمس.

لم تعد الأمور مثلما كانت عليه، لكنّني اعتدت على ذلك منذ وقت طويل. وجدنا كلّنا أماكن جديدة. فكارا وكاليب يعملان في مختبرات المجمّع، التي أصبحت الآن جزءاً صغيراً من وزارة الزراعة التي تعمل على جعل الزراعة أكثر فاعلية، وقادرة على إطعام مزيد من الناس. أمّا ماثيو فيعمل في أبحاث علم النفس في مكان ما في المدينة. آخر مرّة سألته، قال إنّه يجري دراسة عن الذاكرة. تعمل كريستينا في مكتب ينقل الناس القاطنين في الضواحي الذين يريدون الاستقرار في المدينة. وبالنسبة إلى زيك وعمّار فقد أصبحا شرطيين، ويقوم جورج بتدريب رجال الشرطة؛ أسمّيها وظائف شجعان. أمّا أنا فأعمل مساعداً لأحد ممثّلي مدينتنا في الحكومة: جوانا ريس.

مددت ذراعي إلى الخارج للإمساك بالمقبض الثاني، وملت إلى خارج المقطورة بينما كانت تنعطف، بحيث تدلّيت تقريباً من فوق الشارع الممتدّ تحتي بطابقين. أحسست بالإثارة، الإثارة والرعب اللذين يعشقهما الشجعان.

وقفت كريستينا بجانبي وقالت: "كيف حال أمّك؟"

"بخير. سنرى، على ما أظنّ".

"هل ستنزلق على السلك؟"

شاهدت السكّة وهي تنخفض أمامنا لتصبح بمستوى الشارع.

"أجل. أظنّ أنّ تريس كانت ستودّ لو أخوض هذه التجربة مرّة على الأقلّ".

ما زال لفظ اسمها يشعرني ببعض الألم، بحيث أعرف أنّ ذكراها ما زالت عزيزة عليّ.

راقبَت كريستينا السكك أمامنا، ثمّ أسندت كتفها إلى كتفي لبضع ثوانٍ وقالت: "أظنّ أنّك على حقّ".

ذكرياتي عن تريس هي بعض من أقوى الذكريات التي أملكها، لكنّها بهتت مع الزمن، على عادة الذكريات، ولم تعد تلاحقني مثلما كانت تفعل. في بعض الأحيان، أستمتع باستعادتها في ذهني، لكنّني لا أفعل ذلك كثيراً. أحياناً أستعيدها مع كريستينا، فتصغي إليّ أفضل ممّا توقّعتُ من فتاة النزاهة الذكية تلك.

أوقفت كارا القطار، فقفزتُ على المنصّة. عند أعلى السلّم، نهضت شونا عن كرسيّها ونزلت الدرجات، واحدة تلو الأخرى، بواسطة الأقواس المعدنية. فحملنا أنا وماثيو كرسيّها الخالي خلفها، وكان مربكاً وثقيلاً، لكن لا يتعذّر حمله.

سألت ماثيو عندما وصلنا إلى أسفل السلّم: "هل من أخبار عن بيتر؟"

بعدما خرج بيتر من حالة الإرباك التي سبّبها مصل الذاكرة، استعاد بعض جوانب شخصيته الحادة والقاسية، لكن ليس جميعها. فقدتُ الاتصال معه بعد ذلك. ومع أنّني لم أعد أكرهه، إلاّ أنّني لست مضطرّاً لأحبّه.

أجاب ماثيو: "إنّه في ميلووكي، لكن لا أدري ماذا يفعل".

هتفت كارا من الأسفل: "إنّه يعمل في مكتب في مكان ما". كانت تحمل الجرّة بين ذراعيها بعدما أخذتها من شونا وهي تترجّل من القطار. "أعتقد أنّ العمل مفيد له".

قال زيك: "لطالما ظننت أنّه سينضمّ إلى المتمرّدين المعطوبين وراثياً في الضواحي".

قالت كارا وهي تهزّ كتفيها: "لقد أصبح مختلفاً الآن".

ما زالت الضواحي مأهولة بمتمرّدين معطوبين وراثياً يعتقدون أنّ الحرب هي الطريقة الوحيدة لإحداث التغيير الذي نسعى عليه. لكنّني أقف في صفّ الناس الذين يريدون العمل من أجل التغيير من دون اللجوء إلى العنف. لقد رأيت من العنف ما يكفيني طوال حياتي، وما زلت أحمله، ليس في ندوب على بشرتيـ بل في الذكريات التي تداهمني حتّى لو كان ذهني أبعد ما يكون عنها؛ أبي وهو يلكمني على وجهي، ومسدّسي المرفوع لإعدام إريك، وجثث أبناء نكران الذات المنتشرة في شوارع مدينتي القديمة.

عبرنا الشوارع باتجاه السلك. كانت الجماعات قد اختفت، لكنّ هذا الجزء من المدينة يضمّ شجعاناً أكثر من أيّ منطقة أخرى. وما زال يمكن التعرّف عليهم من خلال وجوههم المزيّنة بالأقراط، وبشرتهم الموشومة، لكن ليس بألوان ملابسهم، التي أصبحت صارخة أحياناً. تجوّل بعضهم على الأرصفة معنا، لكنّ معظمهم كانوا في العمل. إذ يترتّب على كلّ أبناء شيكاغو أن يعملوا عند المقدرة.

ارتفع أمامي مبنى هانكوك بقاعدته الأعرض من قمّته. كانت عوارضه السوداء تتلاحق حتّى السطح، متشابكة، ومتراصّة، ومتمدّدة. لم يسبق لي أن اقتربت منه إلى هذا الحدّ منذ زمن طويل.

دخلنا إلى الردهة، بأرضيتها اللمّاعة والمصقولة، وجدرانها المزيّنة بخربشات الشجعان الزاهية، والتي تركها سكّان المبنى على حالها كنوع من الآثار. إنّه مبنى للشجعان بامتياز، لأنّهم كانوا هم من اختاروه

بسبب ارتفاعه، وكذلك بسبب عزلته على ما أظنّ. فالشجعان يحبّون ملء الأماكن الخالية بصخبهم، وهو شيء أحبّه فيهم.

ضغط زيك على زرّ المصعد بسبّابته. فدخلنا، وضغطَت كارا الزرّ 99.

أغلقتُ عينيّ بينما كان المصعد يندفع إلى الأعلى. استطعت أن أرى تقريباً الفضاء وهو ينفتح تحت قدميّ، وبئراً من الظلام، ومجرّد قدم من الأرض الصلبة بيني وبين الغرق، والسقوط، والانهيار. اهتزّ المصعد وهو يتوقّف، فتمسّكت بالجدار لأثبّت نفسي بينما فُتح الباب.

وضع زيك يده على كتفي قائلاً: "لا تقلق يا صديقي، لطالما فعلنا ذلك، أتذكر؟"

هززت رأسي إلى الأسفل. هبّ الهواء من خلال الفتحة في السقف، وامتدّت السماء فوقي زرقاء صافية. توجّهت مع الآخرين نحو السلّم، بقدمين خدّرهما الخوف وأبطأ حركتهما.

وضعت أصابعي على السلّم وركّزت على كلّ درجة على حدة. فوقي، صعدت شونا السلّم على نحو أخرق مستخدمة قوّة ذراعيها في الغالب.

سألتُ توري مرّة وهي ترسم الأوشام على ظهري إن كانت تظنّ أنّنا آخر من بقي على وجه الأرض. ربّما، هكذا أجابت. لا أعتقد أنّها أرادت التفكير بالأمر. لكن هنا، على هذا السطح، يمكن الاعتقاد أنّنا آخر من تبقّى في هذا العالم.

حدّقتُ إلى المباني المتوزّعة على طول المستنقع، وتقلّص صدري، كأنّه على وشك أن ينكمش على بعضه.

ركض زيك على السطح نحو سلك البرق، وعلّق أحد الأحزمة على السلك الفولاذي. أقفله لكي لا ينزلق، ثمّ نظر إلى المجموعة بترقّب.

قال: "كريستينا، تفضّلي".
وقفت كريستينا قرب الحزام، ووضعت إصبعها على ذقنها محتارة.
"ما رأيك؟ هل أنزل إلى الأمام أم بشكل عكسي؟"
قال ماثيو: "بشكل عكسي. فأنا أريد أن أنزل إلى الأمام لكي لا أبلّل سروالي، ولا أريدك أن تقلّديني".
قالت كريستينا: "إنّ نزلت ووجهك إلى الأمام سيتضاعف احتمال حدوث ذلك. وإن حدث، سأبدأ بمناداتك مبلول".
أدخلت كريستينا جسدها في الحزام بقدميها أوّلاً، ووجّهت بطنها إلى الأسفل، بحيث تشاهد المبنى وهو ينكمش أثناء نزولها. سرت رعشة في جسدي.
لا يمكنني المشاهدة. أغمضت عينيّ بينما انزلقت كريستينا وابتعدَت. وأبقيتهما مغمضتين حتّى عندما فعل ماثيو ومن بعده شونا الشيء نفسه. تناهى إليّ هتافهم المرح مثل زقزقات العصافير في الرياح.
قال زيك: "حان دورك، فور".
هززت رأسي رافضاً.
قالت كارا: "هيّا، أليس من الأفضل أن تجتاز هذا الاختبار؟"
قلت: "كلاّ. انزلي أنت، من فضلك".
أعطتني الجرّة، ثمّ أخذت نفساً عميقاً. حملت الجرّة إلى صدري. كان المعدن دافئاً بعدما تعاقب عدّة أشخاص على حملها. دخلت كارا في الحزام بشكل غير متوازن، ثمّ قيّدها زيك. ضمّت ذراعيها إلى صدرها، ثمّ دفعها، فوق لايك شور درايف، وفوق المدينة. لم أسمع صوتاً منها، ولا حتّى شهقة.
أخيراً لم يتبقَّ سواي أنا وزيك، نحدّق إلى بعضنا.

قلت: "لا أظنّ أنّني قادر على ذلك". مع أنّ صوتي كان ثابتاً، إلاّ أنّ جسدي كان يرتجف.

"أنت قادر بالطبع، فأنت فور، أسطورة الشجاعة! بإمكانك مواجهة أيّ شيء".

ضممت ذراعيّ، واقتربت من طرف السطح. مع أنّني كنت على بعد أقدام، إلاّ أنّني أحسست بجسدي يميل من فوق الحافة، ورحت أهزّ رأسي مراراً وتكراراً.

وضع زيك يديه على كتفيّ قائلاً: "اسمع، الأمر لا يتعلّق بك أنت، أتذكر؟ بل بها. أنت تريد أن تقوم بعمل كانت ستحبّ فعله، وكانت ستفتخر بك إن رأتك تقوم به. صحيح؟"

هذا صحيح. لا يمكنني أن أتجنّب ذلك، ولا يمكنني التراجع الآن، ليس وأنا ما زلت أذكر ابتسامتها وهي تتسلّق عجلة فيريس معي، أو التصميم الذي بدا على وجهها وهي تواجه مخاوفها واحداً تلو الآخر في جلسات المحاكاة.

"كيف دخلَت الحزام؟"

"بوجهها في المقدّمة".

"حسناً". أعطيته الجرّة. "ضعها خلفي، وافتح الغطاء".

صعدتُ داخل الحزام، وكانت يداي ترتجفان بحيث استطعت بالكاد الإمساك بجانبيه. شدّ زيك الأحزمة حول ظهري وساقيّ، ثمّ أقحم الجرّة خلفي، ووجّهها نحو الأعلى، لكي يتطاير الرماد. حدّقت إلى بحيرة لايك شور درايف، وازردت ريقي المشوب بالمرارة، ثمّ بدأت أنزلق.

فجأة، أردت التراجع، لكن فات الأوان، فقد بدأت أغوص نحو الأرض. رحت أصرخ بصوت عالٍ جداً بحيث أردت أن أغطّي أذنيّ. أحسست أنّ الصرخة حية في داخلي، تملأ صدري، وحلقي، ورأسي.

لسعت الرياح عينيّ لكنّني أجبرت نفسي على فتحهما، وفي تلك اللحظة من الذعر الأعمى، فهمت لماذا قرّرَت الانزلاق على هذا النحو، بوجهها في المقدّمة. لقد جعلها ذلك تشعر أنّها تطير، مثل العصافير.

ما زلت أشعر بالفراغ تحتي، وكان شبيهاً بالفراغ الموجود في داخلي، مثل فم على وشك أن يبتلعني.

أدركت فجأة أنّني توقّفت. تطايرت آخر ذرّات الرماد في الهواء مثل حبّات ثلج رمادية، ثمّ اختفت.

كانت الأرض على بعد بضعة أقدام منّي، وقريبة بما فيه الكفاية لأقفز. اجتمع الآخرون هناك في دائرة، وتشابكت أذرعهم مشكّلة شبكة من العظام والعضلات لالتقاطي. ضغطت وجهي على الحزام وضحكتُ.

أعطيتهم الجرّة الخالية، ثمّ مددت ذراعيّ إلى الخلف لفكّ الحزام الذي يقيّدني، قبل أن أسقط بين أذرع أصدقائي مثل الصخرة. التقطوني، واحتضنَت أذرعهم ظهري وساقيّ، ثمّ أنزلوني إلى الأرض.

خيّم صمت غريب وأنا أحدّق إلى مبنى هانكوك بعجب، ولم يعرف أحد ماذا يقول. ابتسم لي كاليب، بحذر.

رفّت كريستينا عينيها الدامعتين قائلة: "آه! زيك في طريقه إلينا".

اندفع زيك نحونا بسرعة في حزام أسود. بدا أوّلاً كأنّه نقطة، ومن ثمّ كرة، قبل أن يصبح كائناً بشرياً متّشحاً بالسواد. أخذ يصيح من شدّة الإثارة وهو يتوقّف فوقنا. مددت يدي لأمسك بساعد عمّار، ومن الجهة

الأخرى أمسكت بذراع شاحبة كانت ذراع كارا. فابتسمت لي ابتسامة مشوبة بشيء من الحزن.

سقط زيك بقوّة فوق أذرعنا، وابتسم بخبث ونحن نحتضنه كأنّه طفل.

قال: "كان هذا رائعاً. هل تريد أن تعيد الكرّة، فور؟"

لم أتردّد وأنا أجيب: "قطعاً لا".

* * *

عدنا إلى القطار متفرّقين. مشت شونا بمساعدة الأقواس، بينما دفع زيك الكرسي الخالي وهو يتبادل أطراف الحديث مع عمّار. ومشى ماثيو، وكارا، وكاليب معاً، يتحدّثون عن شيء أثار حماستهم، بأرواحهم المتقاربة تلك. أمّا كريستينا فمشت بجانبي، ووضعت يدها على كتفي.

قالت: "كلّ يوم اختيار وأنت بخير. سأسألك كيف حالك حقّاً، وستجيبني بصراحة".

في بعض الأحيان نتحدّث على هذا النحو، ونملي الأوامر على بعضنا. فقد أصبحَت بشكل من الأشكال واحدة من أعزّ أصدقائي، على الرغم من مشاحناتنا.

قلت: "أنا بخير. إنّه صعب، وسيبقى كذلك دوماً".

قالت: "أعرف".

مشينا في آخر المجموعة، ومررنا من أمام الأبنية المهجورة بنوافذها المظلمة، على الجسر الممتدّ فوق المستنقع.

قالت: "أجل، في بعض الأحيان تكون الحياة مرّة. لكن أتعرف ما الذي يدفعني إلى التمسّك بها؟"

رفعت حاجبيّ استغراباً.

قلّدتني، رافعة حاجبيها هي الأخرى.

قالت: "اللحظات الحلوة، فالفكرة هي أن تعرفها عندما تعيشها".

ابتسمَت، وبادلتها الابتسام، ثمّ صعدنا الدرجات المؤدّية إلى منصّة القطار جنباً إلى جنب.

* * *

منذ صغري، أدركت أمراً: جميعنا معرّضون للألم في هذه الحياة، ولا يمكننا تجنّبه.

لكنّني أتعلّم الآن أمراً آخر: الشفاء ممكن، إذ يداوي بعضنا بعضاً.

انتهى